جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

الصوفية في إلهامهم

تأليف :

الأستاذ حسن كامل الملطاوي

الجزء الثاني



القاهرة
١٤١٩هـ - ١٩٩٩



جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

الصوفية في إلهامهم

تأليف الأستاذ

حسن كامل الملطاوى

الجزء الثانى

القاهرة
١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يسر المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ان يقدم للمكتبة الاسلامية الجزء الثانى من كتاب « الصوفية فى الهامهم » للأستاذ حسن كامل الملطاوى وكيل وزارة الخزانة السابق .

ويشمل هذا الجزء المقالات اللاحقة لما تم نشره بالجزء الاول فى سنة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩ م من سلسلة المقالات الشهرية التى تنشرها مجلة منبر الاسلام بعنوان الصوفية فى الهامهم » .

ويرجو المجلس ان ينتفع القارىء بهذا الجزء كما انتفع بالجزء الاول .

والله ولى التوفيق

١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م

رجال الله وأثرهم في التربية الروحية

(ان القلوب لها معان فى مناجاتها ، تتعارف بها الأرواح الخاصة ، وتتفهم دقائقها فى صفاتها ، اذ تنعكس أشعة الأرواح على بعضها ، فترى بنور الايحاء الرحمانى ما لا يراه غيرها ، اذ تتفاوت الأرواح بين الأحباب وأولى الألباب ، واللبيب من لبى أى أجاب مولاه فلباه ، وأعطاه قوة ادراك النفوس ، فيدرك من معانى القلوب ما تتناجى به ، سواء بين العبد وأخيه ، أو بين العبد وربه وهناك فى القلوب خبايا وخفايا وأسرار لا يعلمها الا الله ، ولو شاء لأطلع بعض الأخصاء على بعض القلوب لحكمة يعلمها ، وبالجملة فهو ستار غفار) .

جاءت هذه السطور فى رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعة مد الله فى عمره ، وفيها يتعرض سيدى الشيخ الى ارتباط الأرواح بعضها ببعض ، واتصالها من وراء حجب الغيب بخواص جعلها الله فى الأرواح ، والروح من أمر الله ، وسر من أسراره العليا ، وقد أودعها الله الأجساد فتحركت بالروح بعد سكون وفكرت بعد جمود ، وقامت بها الحياة حتى اذا استرد سبحانه الروح عند انتهاء الأجل ، كان الموت ، فعادت الروح الى عالم الملكوت الذى هبطت منه ودفن الجسد فى الأرض التى خلقه منها بقدرته تعالى .

وسبحان ربى ، الذى قضى وقدر ، وأخفى وأظهر ووفق كل كائن للغاية من فطرته ، فقد جعل سبحانه الأرواح متفاوتة فى أنوارها ومعارفها ، ورقائقها ودقائقها ومذاقاتها ومشاربها ، والله يؤتى فضله من يشاء . والعباد متفاوتون فى صلتهم بالله تعالى ، مؤمن وكافر ، والمؤمنون عوام وخواص ، وليست مفارقات العباد فى الأجساد ، انما افترقوا فى الأرواح ، أما الأجساد فخادمة للأرواح ومنقادة لها ، انقياد الأعمى للبصير .

واذا كانت النفوس كبارا
تعبت فى مرادها الأجسام

وينوه سيدى الشيخ بأثر طاعة الله فى الأرواح ويقول ان اللبيب من عباد الله من أجاب مولاه قلباه ، ولا يكون ذلك الا بنور فى بصيرته يريه الحق حقا فيتبعه ، والباطل باطلا فيجتنبه ويأتيه ذلك النور من سلوكه الى الله تعالى ، وفق ما رسمه شرع الله ويسترشد فى سلوكه بدليل من أئمة الهدى ، الذين يعالجون أمراض النفوس الخفية بسر الهى ، يودعه الله أرواحهم الصافية ليكونوا أئمة للمتقين ومنارة للسالكين (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

وهذا السر ، يكشفون به ما غاب عن غيرهم مما شاء الله أن يكشف لهم من العلم والمعرفة وذلك السر يعاونهم فيما أقامهم الله فيه من تربية المريدين تربية صحيحة فى جنب الله ، تخرجهم من الظلمات الى النور باذن ربهم . وقد كان سيدى العارف بالله الامام المرسى أبو العباس رضى الله عنه يقول تحدثا بنعمة الله عليه ، والله لو علم أهل العراق والمغرب والشام ومصر ما تحت هذه الشعيرات (ويشير الى لحيته) من العلوم والأسرار لأتوها ولو سعيا على الوجوه .

وكان شيخه ومربيه سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى ، رضى اللهعنه يتحدث بنعمة الله ويقول : ما بقى بحمد الله عند غيرنا من أهل عصرنا علم نستفيده ، وانما ننظر فى كلام غيرنا لنعرف ما من الله به علينا دونهم بما هو فوق مقامهم ، فنشكر الله على ذلك .

وكان شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه يقول فى الهامه المرتجل الذى نقلناه عنه :

نحن فى عالم اليقين رجال
قد غسلنا نفوسنا ثم غبنا

وشراب الرجال علم وحلم
انما نحن فوق ذاك شربنا

ويقول أيضا رضى الله عنه

محبة خالقى مشكاة قلبى
على أنوارها ألقى وصولى

وان الحــب أشـــــواق وصــبر
يعــز على المنــــافق والكســــول
وان الـــورد يذبــل بعـــــد وقــت
وورد الحـــــب كان بـــه ذبولى
أدارى الحـــب حتى لــو يـــرانى
أخــو وجـــد تشــكك فى نحــولى
وبى نــــار لـــو استقصى لظـــاها
لحقر وجــده وحــذا ســبيلى
ولــولا العــلم والايمــــان حظى
وعون الله يمنــع من ذهــــــولى
لقلت كــلام ذى جذب وشـــــطح
لمـا أدركــت من فضـــل جـزيل
ولى من مشرق الايمــــان عـــلم
ســموت به على كل الفحـــــول
علــومى فى الورى نفحـــات ربى
فما بلغـــوا مذاقى أو شـــمولى

وقد جرى أكابر العارفين على التحدث بنعمة الله عليهم ، وكان سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول كثيرا لاصحابه : اعلنوا بطاعاتكم اظهارا لعبوديتكم ، كما يتظاهر غيركم بالمعاصى ، وعليكم بالاعلام للناس بما منحكم الله تعالى من العلوم والمعارف •

ويحـكى ســيدى الامــام الشـــعرانى ، رضى الـلـه عنـــه أن شيخه ســيدى على الخــواص رضى اللـــه عنــه كان يقول : التحدث بنعمة الله تعالى من غير فتنة ولا أغراض نفسية خاص بالاكابر من الاولياء فى كل عصر ، بخلاف غير العارفين ، فربما دخل الرياء على أحدهم فى تحدثه بما أنعم الله به عليه •

أما ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام : وهناك فى القلوب خبايا وخفايا وأسرار لا يعلمها الا الله ، فيشهد بصدقه الخبر : (اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله تعالى) أى باليقين ، وقول الله تعالى (قد بينا الايات لقوم يوقنون) أى بيناها بنور اليقين •

وروى الامام أبو طالب المكى ، رضى الله عنه عن امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، قوله ان لله فى أرضه آنية وهى القلوب ، فأحبهـا اليه أرقها وأصفاها وأصلبها ثم فسره فقال : أصلبها فى الدين واصفاها فى اليقين وأرقها على الاخوان .

وروى كذلك عن سيدى أبى بن كعب ، رضى الله عنه ، انه كان يفسر قوله تعالى (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ..) انه مثل نور المؤمن . وقال : قلب المؤمن هو المشكاة فيها مصباح ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ويتقلب فى نور ثم قال فى قوله تعالى (أو كظلمات فى بحر لجى) قال قلب المنافق ، فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ويتقلب فى ظلمة .

وقد دعا سيدنا ومولانا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لسـيدنا عبد الله بن عباس ، رضى الله عنه ، فقال : (اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل) وقال امامنا على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ما عندنا شىء أسره الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى كتاب الله تعالى ، الا أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما فى كتابه . وقال تعالى (ففهمناها سليمان) فخصه بفهم منه سبحانه ، أظهره مع حكم أبيه سيدنا داود عليهما السلام فحكم أبوه بالعدل ، وحكم هو بالفضل .

وقد كتب سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أمراء الاجناد : احفظوا ما تسمعون من المتعظين ، فانهم ينجلى لهم أمور صادقة . وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) قيل نور تفرقون به بين الشبهات ويقين تحلون به المشكلات .

وقد جاء فى مناقب سيدنا حذيفة بن اليمان الصحابى ، رضى الله عنه ، انه خص بمعرفة المنافقين وبسرائر العلم ودقائق الفهم ، وخفايا اليقين من بين الصحابة ، فكان سادتنا عمر وعثمان وأكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم،يسألونه عن الفتن العامة،والفتن الخاصة ويرجعون اليه فى العلم الذى خص به ويسألونه عن المنافقين ، وكان سيدنا عمر يستكشفه عن نفسه ويقول له : هل تعلم فى شيئا من النفاق ، فبرأه منه وكان سيدنا عمر رضى الله عنه اذا دعى الى جنازة ليصلى عليها نظر ، فان حضر حذيفة ، صلى عليها وان لم ير حذيفة لم يصل عليها . وكان سادتنا الصحابة يسمون سيدنا حذيفة صاحب السر ، وكانوا اذا سئل أحدهم عن علم يقول : تسألوننى عن هذا وصاحب السر فيكم .

والإيحاء الرحمانى الذى يشير اليه سيدى الشيخ فى صدر عبارته يكون وحيا لسادتنا الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، ويكون الهاما للاولياء من أهل اليقين ، ومن هذا الاخير قول الله تعالى فى شأن أم موسى عليها السلام (وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليـــه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) فانظر ، رعاك الله ، كيف رسم الله لها طريق الأمن على ولدها الطفل فألقته فى اليم ، مطمئنة الى حفظ الله الذى يتولاه ، ثم كيف أخبرها برده اليها ، وكيف بشرها بأنه سيكون من المرسلين الكرام ، حين يبلغ أشده ، فألهمها رب العزة أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين فى آن واحد فما أكرم ربى وما أجله .

ولمـــا علمت أم موسى عليهما السلام ، أن وليدها وقع فى يد فرعون عدو الله ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، كادت بشريتها أن تغلبها بالخوف على وليدها فكادت أن تقول انه ابنى وكان ذلك خافيا على عدوه اللعين ، فثبت الله قلبها من اضطرابه وربط عليه بسر الهى ، لتكون من المؤمنين الموقنين ، ولتعلم بالمشاهدة ، ان وعد الله حق ، وذلك ما تحكيه الآية الكريمة (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) والآيتان الكريمتان « فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعـــد اللـــه حق ولكن أكثرهم لايعلمون . ولمـــا بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين » .

وبنور الله الذى يودعه قلوب أوليائه من المتقين يحسون ما تتنـــاجى به بعض القلوب ، سواء بين العبد وأخيه أو بين العبد وربه ، كما يقول سيدى الشيخ وذلك لحكمة يعلمها الله وقد شاهدنا ذلك بالتجربة العملية كثيرا فيما بين سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه ، وأحبابنا من المريدين ، ووقع لى شخصيا من ذلك معه شىء كثير ، وليس هنا مجال لسرده وعده ولكن من المؤسف حقا أن أكثر الناس الذين يلتقون بواحد من أهل اليقين ، يجعلون همهم أن يسمعوا منه فى أمور دنيوية تافهـــة فان لم يسمع أحدهم منه ما يريد من أمر دنياه ، انصرف عنه ، وأفلتت منه فرصة ذهبية سنحت له لتقوية يقينه وتهذيب مسلكه وتنوير قلبه ، وتزويد معارفه لو أراد بصحبته طريق الاخرة وهذا ما يعلل لنا قلة السالكين فى طريق الحق وندرة الساعين للاخرة سعيها ، فى حين يتزاحم الناس على

ابواب المنجمين والعرافين حتى كأنهم هم الذين أتوا علم الغيب ، وانما الغيب لله وحده ، ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما يشاء لاتقيائه وأصفيائه ، تأييدا لهم فى دعوة الحق .

على انى أود ان انبه القراء الأعزاء الى أنه مع التسليم بعلم القلوب الذى يؤتيه الله بعض أوليائه المتقين ، ليس حتما أن تظهر الكرامات الخارقة على يد الولى الصادق وليس حتما أن يخبر مريديه بشيء من الغيب ، بل من لوازمه صدق الهمة فى طلب الله تعالى ، وعلى منهج الشرع الشريف. وعلامة داعى الحق أن تنجذب قلوب المؤمنين اليه وتهفو لسماع كلامه ، وتأنس بالجلوس معه ، وتذكر الله بعد غفلة ، وتلين بعد قسوة ، وتلك علامات صدقه واخلاصه . وقد قال العارفون فى هذا المقام : مشى على الماء رجال ، ومات بالظمأ من هم خير منهم .

هذا وان لم يستطع المؤمن أن يستدل بنفسه على واحد من هؤلاء الصادقين المخلصين ، فليقلد فى اختياره مؤمنا من أهل الرشد ، ممن يوثق بدينه ، ويتبع معه امامه الذى سبقه فى الاخذ عنه والانتفاع به . ومن لوازم المريد السالك الى ربه أن يكون صادق النية صادق العزم فى طلب الله وفى الاسترشاد بالشيخ العارف ، كما أن من لوازمه طاعة الشيخ فيما أمر به الله أو نهى عنه ، ومادام الشيخ أداة اتصاله بالله ورسوله ، فقد صارت طاعته من طاعة الله ورسوله ورضاه من رضا الله ورسوله وسخطه من سخط الله ورسوله ، والشيخ عبد من العباد ولكنه من عباد الرحمن ، فمن والاه والاه الله ومن عصاه فقد عصى الله«ولله جنود السموات والأرض»«وما يعلم جنود ربك الا هو وما هى الا ذكرى للبشر» . وقد قالوا ان الياقوت حجر ولكنه ليس كالحجر وكذلك هم بشر ولكنهم ليسوا كالبشر بل فاقوهم بالمعرفة واليقين .

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه : علم سبحانه أن العباد يتشوقون الى ظهور سر العناية فقال (يختص برحمته من يشاء)وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل،اعتمادا على الأزل،فقال (ان رحمة الله قريب من المحسنين) والاحسان ، كما عرفه مولانا رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ هو أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك . ولمثل هذا يعمل العارفون .

ويشوقنا سيدى ابن عطاء ــ رضى الله عنه ــ الى كسب اليقين فيقول: « لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب اليك من أن ترحل اليها ، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها .

ويقول أيضا ــ رضى الله عنه ــ ان آداتى المعرفة بالله هما العقل والقلب . والمعرفة بالله قد تكون اثبات وجوده وتقديسه عما لا يليق به ، ووصفه على ما هو عليه ، وبما وصف به نفسه . وهذه معرفة عامة المكلفين ، وهى مفروضة عليهم ، وتسمى بالمعرفة العامة . وقد تكون حالا يحدث عن شهود ذوقى ، ويكون العارف هو من أشهده الله ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله ، وتسمى هذه بالمعرفة الخاصة ، وهى معرفة الصوفية التى تستند الى الذوق لا الى العقل .

ويستطرد ــ رضى الله عنه ــ قائلا : وسواء أكانت المعرفة بالله عقلا أم ذوقا ، فان موضوعها هو الذات الالهية من حيث صفاتها وأسمائها وأفعالها ، ولما كانت مداركنا البشرية ، سواء أكانت حسا أم عقلا أم قلبا ، مدارك محدودة مقيدة كانت المعرفة بالله أعسر المعارف .

ويرى سيدى ابن عطاء الله ــ رضى الله عنه ــ أن القلب كلما زهد فى الدنيا ، وانعدم منه الهوى والحرص والأمل ، وازداد ايمانه ثم توحيده .. امتلأ بالتوحيد فصار عرشيا وشرفت فى الملأ الأعلى صفاته وعلت فى الملا الأسفل معرفته .. واكتملت بنور اسم الذات بصيرته ، وتخلق باخلاق الله ، وصارت الأسماء الحسنى وصفه ونعته ، وصار محققا مستبصرا فانيا فى شهود المذكور عن ذكره ، وفى هذا القلب ، ورد الحديث القدسى: « لا يسعنى عرشى ولا كرسيى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى » .

ويفسر ذلك سيدى ابن عطاء ــ رضى الله عنه ــ فيقول فى ابداع :

« ان قلب الانسان لا يسع الله مساحة ولا حلولا ولا حسا ولا حكما وانما يسعه توحيدا ، وايمانا ، وعلما ومعرفة وايقانا ومحبة واخلاصا ، فضلا من الله وتخصيصا » .

ويقول الامام الشعرانى ــ رضى الله عنه ــ فى التدليل على ضرورة الاسترشاد بشيخ عارف فى السلوك الى الله تعالى : ان الامام الغزالى طلب لنفسه شيخا يدله على الطريق ، مع أنه كان حجة الاسلام ، وكذلك

طلب الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخا مع أنه كان يلقب بسلطان العلماء ، وكان شيخ الامام الغزالى الشيخ محمد الباذغانى ، وشيخ الشيخ عز الدين ، الشيخ أبو الحسن الشاذلى •

ويستطرد الامام الشعرانى قائلا : ولما اجتمع الامام الغزالى بشيخه المذكور قال : ضيعنا عمرنا فى البطالة ، يعنى بالنسبة لما ذاقه من أحوال أهل الطريق ، وكان الشيخ عز الدين — رضى الله عنه — يقول : ما عرفت الاسلام الكامل الا بعد اجتماعى على الشيخأبى الحسن الشاذلى — رضى الله عنه وأرضاه — •

وساق الامام الشعرانى — رضى الله عنه — حكاية طريفة جاء فيها أن ابن سريج الفقيه ينكر على الامام أبى القاسم الجنيد،فقال للجنيد طريقنا — يقصد الفقهاء — أقرب الى الله من طريقكم — يقصد الصوفية — فقال الجنيد : لابد أن تأتينا ببرهان ، فقال ابن سريج ، أئت أنت لنا ببرهان فقال الجنيد : يا فلان : خذ هذا الحجر فألقه فى حلقة الفقراء فألقاه فصاحوا كلهم الله ، الله ، الله •• ثم قال له ، القه بين هؤلاء الفقهاء ، فالقاه فصاحوا كلهم : حرام عليك ، أزعجتنا •• فقام ابن سريج وقبل رأس الجنيد واعترف بفضله ، فقال له الجنيد : انما الفضل لكم ، فان أساس طريقنا مما معكم من العلم ، فقال ابن سريج : بلى لكم الفضل ، فأنكم زدتم علينا بحسن معاملة الله تعالى •

ويقول أمامنا مالك بن أنس فى لزوم الشريعة والحقيقة للمؤمن :

من تصوف ولم يتشرع فقد تزندق ، ومن تشرع ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تشرع وتصوف فقد تحقق ، وقوله هذا قول فصل فى الموضوع ، فان أكثر أهل الطرق الصوفية فى زماننا لم يتقدموا فى التصوف لجهلهم بفقه الشريعة ، فتلبسوا بشبه ضارة ، ظن المعترضون علىالتصوف أنها حجة لهم على الصوفية وليس العيب عيب التصوف والصوفية ، انما هو عيب السالكين والمسلكين الذين ينسبون زورا ، بلا نسب صحيح ، للتصوف وأهله ، والتصوف ثمرة الدين ولبابه الخالص وأهله هم المؤمنون حقا •

ولبيان أهمية الفقه الشرعى لسالك طريق الآخرة نذكر أن ابليس اللعين حاول أن يفتن الامام الكبير ، سيدى عبد القادر الجيلانى — رضى الله

عنه ـ فظهر له على شكل نور ملأ عليه خلوته ، وناداه على أنه الاله ، حاشا وكلا ، يا عبد القادر لقد وصلت الى غاية رضاى ، فحططت عنك العبادات ، وأتحت لك الشهوات ، فافعل ما يحلو لك ، ولا حساب عليك ..

فأجابه سيدى عبد القادر ـ رضى الله عنه ـ اخسأ يا ملعون ، فقال بماذا عرفت أنى ابليس قال .. ان الله لا يأمر بالفحشاء ، فقال : يا عبد القادر لقد نجوت منى بعلمك ، وما أكثر من زلت أقدامهم من الجهلاء بفتنتى هذه .

لذلك يقول شيخى العارف بالله ، سيدى الشيخ على عقل فى الهاماته الفورية الملهمة التى نقلناها عنه :

وتوجت بالقرآن نفسى عقيدة
أصون به نفسى عن الزيغ والدس
وان شرب الناس الطلا وتصببوا
فسنة خير الخلق فى شربها كأسى
تعشقت نور الله وهو بصيرتى
وقد وضح البرهان من آية الكرسى
وان رفع المثرون عجبا رءوسهم
رفعت بذكر الله فوق الورى رأسى
وما اتخذت روحى سوى الله غاية
فتم الهدى للروح والقلب والحس

والطلا فى البيت الثانى ، أى الخمر ، لأن العرب كانت تسميها الطلاء.

ويقول أيضا رضى الله عنه فى احدى تضرعاته :

يا حبيبى زاد ذلى ... فادفع الأغيار عنى
خذ يدى انى ضعيف ... للتلاقى متمنى
رب فارحمنى فانى ... قد جعلت الشرع حصنى
وأهدنى وأرحم مشيبى ... لا تخيب فيك ظنى

وانى أباهى بشيوخى العارفين الأجلاء صوفية العصور الأولى ـ علما وعملا ـ فقد كان علم الشرع حليتهم ، وكان نور التصوف زينتهم ،

وقد تخرجت فى كلية التجارة مثقفا فى التجارة والمال والمحاسبة جاهلا بالعلوم الشرعية ، ككل خريجى الجامعات ، فلما أسعدتنى العناية الربانية بلقائهم ، وما ابركه من لقاء ، أخذت عنهم الشريعة والطريقة والحقيقة. والشريعة هى أن تعبد الله ، والطريقة هى أن تقصده وتجاهد نفسك فى سبيله ، والحقيقة هى أن تشهده ، فلا تغفل عنه لأنه ليس غافلا عنك .

وبفضل تثقيفهم اياى تشرفت بالمحاضرة مرات عديدة بالازهر المعمور وغيره ، ونفع الله بمحاضراتى كثيرا من الشبان المثقفين ثقافة مدنية أو دينية ، وارتاد بعضهم مجلسى ، راغبين فى فقه الدين ، فعلمتهم فقه العبادات على مذهب الامام مالك — رضى الله عنه — وهو الذى تلقيته عن شيخى العارف بالله الشيخ على عقل ، وكان اقبالهم على درس الفقه سببا فى تأليف كتاب فى الموضوع ، وهو الآن فى سبيل الطبع ، وسأوزعه هدية دون ثمن ، حسبة لوجه الله تعالى ، وراعيت أن يكون سهل العبارة، خاليا من التفريعات الجزئية ، وقد تفضل بمراجعته الاستاذ الجليل الشيخ صالح شرف ، عضو جماعة كبار العلماء ، وسكرتير عام الازهر سابقا ، وقدم للكتاب فأثنى عليه بحمد الله ، وهو كتاب مبسوط تزيد صفحاته عن الثلاثمائة صفحة ، نفع الله به ، وجعله خالصا لوجهه الكريم . ثم انى لقنتهم التصوف على طريقة سيدى الامام الجليل الحاج محمد أبى خليل، قدس الله سرة ، وهى طريقة الذكر الكثير والمدد الغزير .

ومن يمن طالعى انى صحبت شيوخى الصوفية الأجلاء ، فى شبابى الباكر ، فأتيح لى أن أعاشرهم طويلا ، فعاشرت شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى — طيب الله ثراه — خمسة عشر عاما ، وعاش بعده تلميذه الأنور سيدى الشيخ على عقل نحو أربعة أعوام ، فبلغت صحبتى له نحو تسعة عشر عاما ، وكنت أحرص أن ألتقى باحدهما وبكليهما يوميا ، والمنهل العذب كثير الورود .

ومن عجب أنهما تدرجا بى فى العلم والمعرفة بلطف وحسن مأخذ ، فقد استأذنت فى مبدأ صحبتى فى السفر الى قريتى ملاطية التابعة لمحافظة المنيا بصعيد مصر ، لأقضى أجازتى ، مع والدى وأهلى ، فبادرنى شيخى — الشيخ على عقل — رضى الله عنه — وقال لى : اقرأ بمسجد البلد درسا فى الحديث أيام الأجازة ، فقلت فى الحديث النبوى

الشريف ؟ قال نعم ، قلت وهل لمثلى ذلك الشرف ، ولا علم لى بالحديث الشريف ، قال : لا شأن لك ، فقلت ساعتبر هذا أمرا من شيخى أتلقاه بالسمع والطاعة دون جدل ، والأمر لله من قبل ومن بعد •

ولم يكن لدى حينئذ أى مرجع من مراجع الحديث الشريف ، فطلبت الى أحد تلاميذ شيخى من العلماء أن يوافينى ببعض الاحاديث فى رسالة يبعث بها الى بالبريد ، وسافرت ، وجاءتنى الرسالة متضمنة أربعين حديثا من الصحاح فحفظتها عن ظهر قلب ، وكانت هى باكورة البركات التى توالت على بعد ذلك • وجاءت الاجازة التالية فاذا بسيدى الشيخ على يأمرنى أن أعلم الناس بالمسجد فقه العبادات على مذهب الامام مالك ، واختار لى كتاب الشرح الصغير للامام الدردير — رضى الله عنه — فأدركت أن الشيخ يريد منى أن أتعلم وأتفقه قبل أن أعلم وأفقه غيرى ، واختار لى مذهب الامام مالك لأنه منتشر ببلاد الصعيد بوجه عام ، وأراد الشيخ أن أكون متعلما ومعلما فى آن واحد ، وهى من أعاجيب الشيخ •

وصدعت بأمر الشيخ ، وتفقهت وفقهت غيرى فى آن واحد ، وأرجأت المسائل الصعبة حتى أتيته وقلت له مازحا ما رأيت أحدا قبلك يعين مدرسا قبل دراسته ، فضحك • فقلت له : أما وقد أردت منى أن أخوض البحر الخضم ، فعلمنى كيف أعوم على أصول ، فأذن لى أن ألقاه كل عصر ، لأتلقى عنه الفقه والحديث والقراءة ، فكانت من أسعد أوقاتى ، جزاه الله عنى خيرا ، وكان يجول بى فى جميع المذاهب يبين لى سند الحكم عند كل امام ، وكان يغرف من فيض الهى •

وكان سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى — رضى الله عنه — مباركا أخذى عن سيدى الشيخ على — رضى الله عنه — وقد ذهبت لزيارته مرة، فبادرنى بعد السلام عليه وقال : اجلس واقرأ على بعض القرآن لانظر ماذا علمك الشيخ على ، فقلت مازحا : امتحان مفاجىء ، فقرأت بضعة أرباع من أول سورة البقرة ، ثم كان — رضى الله عنه — يأمرنى أن أتكلم فى بعض المناسبات ، كمولد النبى — صلى الله عليه وسلم — ثم كان يعيرنى أو يهدى الى بعض مؤلفات والده العارف بالله سيدى الشيخ أحمد الحلوانى — رضى الله عنه — وكانت كثيرة وفى كل فنون الشريعة وما يتصل بها ، وقد انتفعت بها ونفعت ولله الفضل والمنة •

وهكذا كان التدرج ، التلقين حتى وقفت على ساقى ، وشققت بنفسى طريق التوسع بالاطلاع والتوفيق ، وأرجو أن أكون على الدوام سالكا دربهم ، ملتزما طريق الهدى والصلاح والفلاح ، الذى رسمه شيخنا الأكبر قطب عصره ، ومجدد قرنه ، سيدى الحاج محمد أبو خليـــل ، مربى الرجال ، فى طريق الوصال .. وباعث الهمة فى أهل المحبة ، والذى سهر الليل فى نوره القلبى الوضاء ، ليكشف لتابعيه حجاب الغفلة فيجتنبوه ويبين طريق الحق فيســـلكوه ، بأنوار الشريعة وأسرار الحقيقـــة . ويالها من أنوار ويالها من أسرار عند هؤلاء الاقطاب الابرار ، الذين هم ودائع الله فى خليقته وصفوته فى بريته ، أمدنا الله بمددهم ، وألحقنـــا بزمرتهم يوم يحشر المتقين الى الرحمن وفدا حين يكون ما قال سبحانه « يوم ندعو كل أناس بامامهم » .

سـترقت الـذاكرين

« ان للذكر نورا يظهر من الباطن الى الظاهر ، وتـكون له بوادر وطوالع ، فيكون هناك اشراق على الوجه يجذب الأرواح ، فتتـلألأ الطوالع فى الذاكر ، وتكون دليل الذاكر فى أحواله وكلامه ومخاطباته ، وتكون باب الهداية للغير .

فاذا ترقى الذاكر اشتد الهامه ، ويترقى بعد الاحوال الى مقـامات القرب حتى يتحول من النظر للدنيا الى الاخرة ، فلا يكون بينه وبين الله حجاب وتصير روحه مع الله سبحانه وتعالى فلا يرى غيره ويتحول الاشراق من الظاهر الى الباطن ، حتى تناجى نفسك أين النور الذى كنت أراه ولا تدرى أنه مع الله ، زهد الخلق وتركهم وترك أحوالهم فلا يعلمه الا الله » .

جاءت هذه السطور فى رسالة بعث بها العارف بالله سيدى الشـيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصالح المبارك صديقى السيد سالم جمعة ، زاده الله فضلا وتوفيقا ، وهى ترينا أثر ذكر الله تعالى فى أرواح المؤمنين فى بداية سلوكهم وفى وسطه وفى نهايته .

أما فى البداية فان الذكر يخرج القلوب من غفلتها الى اليقظة فتكون أشبه بالنائم الذى استيقظ بعد نوم ثقيل وأخذ يستعيد نشاطه شيئا فشيئا ، حتى يتنبه لـما حوله ، تنبه اليقظ فيعى مـا يقول أو ما يقال له فاذا تيقظ القلب بذكر الله بعد تمام الغفلة داخلته الأنوار وواتته الاسرار على قدر درجته فى اليقظة وما قدره الله له من رزق القلوب .

فاذا كان مقدرا له أن يكون داعيا الى الله باذنه ، خرج كلام قلبه على لسانه وله حلاوة يذوقها السامع بوجدانه ويرجو منه المزيد ، وما خرج من القلب حل فى القلوب ، فكان سببا فى ارشادها وهدايتها .

واذا تكلم السادة الصوفية عن الذكر فانهم يقصدون به عموم ذكـر الله وخصوصه ، والمقصود بذكر الله فى عمومه ، تجنب الغفلة عن الله

تعالى : والمقصود بخصوصه فراغ القلب من كل شيء الا من الله سبحانه حتى أنهم يقولون فى معنى قوله تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم) أى سليم مما سوى الله •

فمن عموم الذكر ، جميع العبادات ، لانها فرضت ليذكر العباد ربهم فيها ، اما مناجاة وخضوعا كالصلاة واما شكرا على نعمائه كالزكاة ، أو مراقبة له فى اسرارهم كالصيام ، أو هجرة فى سبيله ونفقة فى مرضاته كالحج ، وهذا كله على أساس الشهادة بافراده وتوحيده ، والاعتراف برسالة رسوله الأمين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، نطقا باللسان ، وتصديقا بالقلب •

وما تستلزم هذه العبادات من فقه بأحكام الشرع فيها ، يدخل فى عموم الذكر ، كما يدخل فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وما حض عليه الاسلام أو أوجبه من اقامة الروابط بين المسلمين كبر الوالدين وصلة ذوى الأرحام وعيادة المرضى وتشييع الجنائز وجهاد الأعداء والاصلاح بين الناس وكذلك اجتناب المعاصى من الزنا وقتل النفس وشرب الخمر والقمار والتجسس والغيبة والنميمة ••• الخ الخ •

ذلك بأن المؤمن لا يقيم العبادات ولا يأتى الطاعات ولا يجتنب المنهيات الا تنفيذا لأوامر الله ونواهيه ، فهو فى كل ذلك ذاكر ربه ومراع حدوده • ولكن هذه الأمور وان تكاثرت لا تستغرق وقت المؤمن كله فالصلوات ذات أوقات وكذلك سائر العبادات والطاعات •

أما ذكر الخصوص عند السادة الصوفية فهو الذى يستولى على فراغ القلب بالكلية بالليل والنهار سرا وعلانية فلا يبقى معه حيز لغيره سبحانه، وفى ذلك هم يقولون :

العابدون متصفون بطاعة الله مقبلون على عبادة الله محترفون باستشعار الخلوص فى تقوى الله •

والزاهدون مقيمون على الاكتفاء بوعد الله ، معرضون عما يوجب التهمة فى ضمان الله •

والعارفون ان قاموا قاموا بالله ، وان سكتوا سكتوا بالله ، فكيف دارت أوقاتهم ، وتصرفت أحوالهم ، فالغالب على قلوبهم ذكر الله ،

لاح لأسرارهم منه علم فذهب عن احساسم كل وهم ، أذاقنا الله مما أذاقهم شمة ، فهو ولى كل نعمة •

وتلك الدرجة العليا دونها عقبات لا يصبر على اجتيازها الا نفر قليل من أهل المجاهدات ، الذين لا تعرف همتهم الملل ، ولا عزيمتهم الكلل وهم يقولون من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل • وانما يطلبون رضاء الله سبحانه ، ورضاؤه أعز مطلب ، وأعلى منال ولا ينال غاية رضاه من فى قلبه سواه •

وأول عقبة يجتازها أحدهم ، عقبة هم الرزق ، ذلك الهم الذى الهى أكثر الناس عن طلب الآخرة ، حتى كأنهم خلقوا للدنيا ولم يخلقوا للآخرة ، وفى ذلك يقول سيدى شقيق البلخى رضى الله عنه :

كان ابتداء توبتى أنى رأيت غلاما فى سنة قحط يمرح زهوا ، والناس تعلوهم الكآبة لمقاساة أثر القحط (قلة المحاصيل) فقلت له : يا هذا ، ما هذا المرح أما ترى ما فيه الناس من المحن فقال : ما يحق لى حزن ولسيدى قرية مملوكة يدخر منها ما أحتاج اليه •

فقلت فى نفسى ان هذا العبد مخلوق ولا يستوحش لأن لسيده قرية مملوكة ، فكيف يصح لى أن أستوحش وسيدى مالك الملوك فانتهيت وتبت •

ولثقتهم بالله فى تدبير معاشهم يقولون:ان الله خص الأغنياء بالأرزاق وخص الفقراء بشهود الرزاق ، ، وقد قيل لأحدهم من أين تأكل فقال من خزائن ملك لا تدخلها اللصوص ولا يأكلها السوس •

فاذا طرحوا عن قلوبهم هم الرزق ثقة بالله الذى كفل الأرزاق لعباده ومخلوقاته جاهدوا أنفسهم فى ترك المعاصى خوفا من سخط الله الذى نهاهم عنها وحذرهم منها ، ثم أقبلوا على الطاعات طمعا فى مرضاته سبحانه وهو الذى رسمها لهم ، وأمرهم بها • وفى ترك المعاصى مخالفة لهوى النفس وفى الاقبال على الطاعات ايثار لله تعالى على حظوظها ، ومخالفة هواها أهم عندهم من أعمال البر ، لأنهم يقولون : أعمال البر يعملها البار والفاجر ولا يجتنب المعاصى الا صديق •

ولأن النفس لا تستجيب لهم فى نبذ هواها بسهولة فانهم يدخلون معها فى معترك شديد ، لا يراه الناس وانما يراه الله سبحانه بعلمه الذى

لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، ولأنه سبحانه هو الحق ، فانه ينتصر للحق على الباطل فتكون الغلبة لهم فى نهاية الشوط على باطل نفوسهم ، فيثبتهم على الحق ، ويكشف لهم طريقه ويذيقهم بعد مرارة المجاهد حلاوة النصر ولذة التوفيق مصداقا لوعده الكريم (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) وبذلك الهدى الربانى يأمنون الزلل حتى يلقوا ربهم على خير فى ايمانهم •

ويقول السادة العارفون : ان أمان العبد على قسمين قسم مؤجل وقسم معجل ، فالمؤجل يكون يوم القيامة فى الجنة كما يقول سبحانه (أولئك لهم الأمن) والمعجل يكون فى الدنيا ويؤمنهم الله به من خواطر الشيطان التى تقدح فى الايمـــان ، بما يتيح لهم من واضـــح البرهان ، ويتيح لأسرارهم من لائح البيـــــان •

فاذا عارضتهم بوارح الشكوك ، أو ناظرهم من هو فى حكم المخالف للكتاب والسنة والجماعة ردوا بالحجج على أهل البدعة وغيروا وجـــه الشبهة ، قال تعالى (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فيكون المخالف فى أسر التهمة وامتداد الظلمة ، وهم فى روح اليقين ، والنور المبين لا يداخلهم شك ، ولا تنازعهم شبهة •

وهم يعنون عناية كبيرة بذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى ليذكرهم سبحانه كما يذكرونه (فاذكرونى أذكركم) ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى تعقيبه على قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) •

أراد به سبحانه التسميات ، ولذلك قال الحسنى وهى تأنيث الأحسن ، ففى الآية دليل على أن الاسم هو المسمى ، وهو سبحانه واحد والأسماء جمع فلابد من صرف اللفظ عن الظاهر الى المجاز فلهذا قلنا ان المراد به : ولـــله التســـميات •

ووصف أسمائه بالحسنى يرمى الى ما تتضمنه وتدل عليه من صفات العلو ونعوت العظمة والكبرياء أو الى ما يستحقه الذاكر والداعى له بتلك الأسماء من جزيل الثواب وحسن المـــآب •

واستطرد ، رضى الله عنه ، يقول بعد ذلك فى ابداع واضح :

ولأن تكون بأسماء ربك داعيا ، خير لك من أن تكون بأسماء نفسك مدعيا فانك اذا كنت بك كنت بمن لم يبق ، واذا كنت به كنت بمن لم يزل ، وشتان بين وصف ووصف •

وأهل الهمة هؤلاء يضعون نصب أعينهم الآية الكريمة (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) ويقولون فى تعقيبهـــم عليهـــا :

دلت الآية على وجوب الاستقامة ، فان الاصطبار نهـــاية الصبر ، ومن صبر ظفر ومن لازم وصل ، وقد قيل : من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له وأنشدوا :

انى رأيت وفى الأيـــام تجـــــربة
للصـــبر عاقبـــــة محمـــــودة الأثر
وقــل من جـــد فى شىء يطالبـــه
فاستصحب الصبر الا فاز بالظفر

وعندهم ان تعظيم العبد لربه انما يكون على حسب كماله ومعرفته ، ولذلك يقول الامام القشيرى رضى الله عنه : لو كنت تعرف قدره لمــا كنت تترك أمره • ويقول بعض العارفين : عجبت لمن يترك الحلال مخافة الداء ولا يترك الحرام مخافة النـــار •

وهم يشددون فى ترك المخالفات ويقولون لا يعرفه سبحانه عزيزا الا من أعز أمره وطاعته أما من استهان بأوامره فمن المحال أن يكون متحققا بعـــزة مـــولاه •

وفى المعنى المتقدم حكوا أن رجلا قال لبعض العارفين : كيف الطريق اليه فقال لو عرفته عرفت الطريق اليه فقال أترانى أعبد من لا أعرفه فقال المسئول : أو تعصى من تعرفه ؟

وهم يشجعون المريدين على التوبة من المعـــــاصى فى أول سلوكهم فيقولون انه تعالى قال (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) أخبر سبحانه عن الذى يأتى السيئات بالفعـــل ثم يستغفر الله بالقول فانه يجد الله غفورا رحيما فقد سهل الله عليك الأمر حين رضى منك أن تستغفره بالقول من عمل سوء عملته بالفعل ، ثم

انظر فى قوله تعالى (يجد الله ..) وأى نكتة لمن يعقلها ، طلبوا المغفرة فوجدوا الله رب المغفرة ، فالعجب من عاص طلب المغفرة فوجد الله تعالى .

ويقول فى ذلك أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه الهـاما لوقتـه :

لو كان كالطـود ذنبى فى ضخامته
وقلت يارب عنى الذنب قد مسـحا
الذنب يحـزنى والعفـو يفـرحنى
فاعجب لـكاسب ذنب ينتشى فرحـا

ويقول السادة الصوفية ان الله تعـالى يفتح للنفوس بركات التوفيق وللقلوب زوائد التحقيق ، فبتوفيقه تزين النفوس بالمجاهدات ، وبتحقيقه تتزين القلوب بالمشاهدات ويقولون أيضا أنه سـبحانه يرزق الأرواح والسرائر ، كما يرزق الأشباح والظواهر .

أما ما يقوله سيدى الشيخ رضى الله عنـه من أن الذاكر اذا ترقى اشتد الهامه ، فيرقى من الأحوال الى مقامات القرب حتى يتحول نظره من الدنيا الى الآخرة فلا يكون بينه وبين الله حجاب ، وتصير روحـه مع الله سبحانه وتعالى فلا يرى غيره ... الخ فيوضح ذلك لنا سيدى الامام القشيرى رضى الله عنه فيقول :

اعزاز الله لعبده يكون فى الدنيا والآخرة ، فأما فى الدنيا فيكون بالمـال والحال ، فالمـال لتجميل الظواهر والحـال لتزيين السرائر وبالمـال يستغنى العبد عن الاشكال والامثال (أى من الناس) وبالحال يحصـل له افتقار الى من لم يزل ولا يزال (سبحانه) فالاعزاز بالمـال فيما بين الخلق والاعزاز بالحال على باب الحق .

ثم يقول رضى الله عنه : واعلم أنه سبحانه يعز الزاهدين بعزوف نفوسهم عن الدنيا ، ويعز العابدين بسلامة نفوسهم عن الرغائب والمنى، ويعز أصحاب العبادات بسلامتهم عن اتباع الهوى ويعز العـارفين بتأهياهم لمقامات النجوى ويعز المحبين بالكشف والغنى عن كل ما هـو غير وسوى ويعز الموحدين بشهود جلال من له البقاء والبهـا .

وأما ما يقوله سيدى الشيخ فى ختام عبارته : زهد الخلق وتركهم وترك أحوالهم فلا يعلمه الا الله ، فيبينه لنا سيدى الامام القشيرى فى ابداع واضح فيقول :

وصفة الجمع ألا يكون العبد لنفسه بنفسه ، بل يكون لربه بربه ، واذا علم أن مولاه يسمع ما يقول ويرى ما يختلف به من الأحوال فانه يكتفى بسمع الله وبصره عن انتقامه لنفسه وانتصاره بنفسه ، فان نصرة الحق سبحانه أتم له من نصرته لنفسه .

ويستطرد رضى الله عنه قائلا : قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) ثم أنظر بماذا سلاه ، وكيف خفف عنه أثقال بلواهم بما شغله به عنهم فأمره به حيث قال تعالى : (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أى اتصف أنت بمدحنا وثنائنا اذا تأذيت بسماع السوء فيك،فاستروح بروح ثنائك علينا .

ويقول أبو على الدقاق رضى الله عنه : ان الله تعالى قال مخبرا عن ابراهيم عليه السلام (انى ذاهب الى ربى سيهدين) كان ذاهبا فى الله فلهذا صار ذاهبا الى الله : فذهابه فى الله أوجب ذهابه الى الله .

ويقول السادة العارفون انه تعالى لطيف بعباده ومن لطفه بهم أنه أعطاهم فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة قال سبحانه (واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) والأسباغ ما يفضل عن قدر الحاجة ، وقال تعالى فى صفة التكليف (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) وقال تعالى : (ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم) ــ والاصر الثقل والأغلال الشدائد ــ وقال صلى الله عليه وسلم (بعثت بالحنيفية السمحة السهلة) ــ الحنيفية أى الشريعة المائلة عن كل دين باطل ــ وقال صلى الله عليه وسلم (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا) .

ويقولون كذلك : ان الله تعالى حين أوجب على العبد فى اليوم والليلة خمس صلوات لم يكلفه أن يؤديها مرة واحدة ، بل جعلها عليه مجزأة ، فصلاة يومك لم يقبضها منك دفعة واحدة واعطاك من الرزق ما يكفيك لسنين كثيرة فلا تسخط ولا تتبرم .

ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى روعة بالغة :

ومن لطفه تعالى بالعباد حفظ التوحيد فى القلوب وصيانة العقائد عن الارتياب وسلامة القلوب عن الاضطراب ، قال تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وبقاء المعرفة بين وحشة الذنب أعجب من اخراج اللبن من بين فرث ودم — الفرث تفل الكرش — ولكن جرت سنته سبحانه لحفظ كل لطيفة بين كل كثيفة ، بل أجرى سنته باخفاء الودائع فى مواضع مجهولة ، فكما جعل الحجر الصلد معدن الذهب والفضة وكثير من الجواهر جعل كذلك القلوب معادن العقائد الصافية والمعادن الصحيحة .وكما جعل الغار للمصطفى والصديق مأوى والجب ليوسف مثوى والصدف للدر درجا والنحل للعسل مكانا والدود للحرير محلا كذلك جعل قلب العبد لمحبته ومعرفته مستقرا .

ويقول الامام كذلك :

ومن لطفه بالعباد أنه يوفقهم لذكره والرجوع اليه ومناجاته ورفع الحوائج بحضرته ودوام المناجاة معه متى شاءوا مع كثير ما يتعاطونه من مخالفة أمره ، فسبحانه ما أحلمه على العاصين ، وأكرمه للمؤمنين .

ويقول السادة الصوفية : ان الله تعالى يجازى العبد على اليسير من الطاعات بالكثير من الدرجات قال تعالى : (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) والله سبحانه أنعم على العباد بجميع ملاذ الدنيا وكرائمها ثم عد ذلك قليلا فقال تعالى : (قل متاع الدنيا قليل) ثم انه تعالى يقبل اليسير من طاعة العباد ويثنى عليهم بالكثير قال تعالى: (.. والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) فكم كان عمرهم حتى عد ذكرهم كثيرا .

ويعقب سيدى الامام ابن عجيبة الحسنى رضى الله عنه على قوله تعالى : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) فيقول : يخرجهم من ظلمة الكفر الى نور الايمان ومن ظلمة المعصية الى نور الطاعة ومن ظلمة الغفلة الى نور اليقظة ومن ظلمة الحس الى نور المعنى أو من ظلمة الكون الى نور المكون .

ويقول بعض الصوفية ليس فى الدنيا ما يشبه نعيم الجنة الا ما يجده الذاكرون فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة .

وهم يقولون ان الناس فى شهود الأنوار الباطنة على ثلاثة أقسام ، قسم يشهدونها على البعد وهم أهل مقام الاسلام وقسم يشهدونها على القرب وهم أهل المراقبة من مقام الايمان وقسم يشهدونها على الاتصال وهم أهل المعرفة من مقام الاحسان • فأهل مقام الاسلام أنوارهم ضعيفة كأنوار النجوم وأهل مقام الايمان أنوارهم متوسطة كنور القمر وأهـل مقام الاحسان أنوارهم ساطعة كأنوار الشمس •

بل قال بعضهم أن نور أولياءالله أعظم من نور الشمس والقمر • وعللوا ذلك بأن نور الشمس قد يعتريه الكسوف ونور القمر قد يعتريه الخسوف أما قلوب الأولياء فلا تكسف ولا تخسف وفى ذلك قيل :

هـــذه الشمس قابلتنـــا بنـــور
ولشمس اليقـين أبهــــر نـــورا
فرأينـــا بهـــذه النـــور لكن
بهـــاتيك قـــد رأينـــا المنيرا

ولهذا قال سيدى الشيخ زروق رضى الله عنه : شمس القلوب لا تغيب أبدا بل هى دائمة لا تنقطع وباقية لا تنصرم لبقاء مددها ، وهى معانى الأوصاف الربانية والمتعلق بها متعلق بحقيقة لا تنصرم ، ومن هذا الوجه كان غنى القوم بالله لا بالأسباب ، وتعلقهم به سبحانه لا بشىء دونه •

وفى ذلك يقول شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى الهامه الفـــورى الذى أخـــذناه عنـــه :

فتشت كل الخــــلق عن عـــلم فلم
أر لى ســـوى رب السما من وال
فتركت كل العـــالمين وجئتـــه
وجعلت ذكــــرى ذاته منـــوالى
يا نفس انى لا أمـــالىء غـــيره
قومى الى حوض الكريم تعـــالى
ان الذى فهـــم المحبـــة قلبــه
فى القـــدر من بين البرية عال

ويقول أيضا رضى الله عنه :

ان تكن نشـوة الضلوع بخمر
قد جعلنـا هـداه للروح خمرا
ان ذكرنا وقـد سـكرنا بروح
فسـكارى ولم نذق بعـد سـكرا

ويقول كذلك رفع الله فى أوليائه قدره : \

أمسى علـى أرق اشـتاق فى حـرق
بالدمع فى غرق قصـدى محيـاه
الحب يكسـبنى عـزى ويلبسـنى
ثوب الوقـار ويهـدينى للقيـاه
وان أراد الـهى بامـرىء شرفـا
يرى المحبـة مبنـاه ومعنـاه
طال المـدى وفؤداى لا يفـارقه
والحب ان دام تذكينـا حميـاه
لا أنثنى عن هـواه لحظـة أبـدا
وكيف أسـلو وقلبى بيت جـدواه
أرواحنـا قال فيها الحق من قدم
ها هم رجـالى وان المقصـد اللـه

والجـدوى هى العطية .

وينوه رضى الله عنه بأن ذكر الله تعالى كان بابه الى محبـة الله تعـالى فيقـول :

ولم أدر طعم الحب من بدء نشأتى
ولكنهم بالذكر قـد شـغفونى
وكنت خليـا لست أعرف ما الجوى
ولكنهم بالحـق قـد شـغلونى
خلا حبـه فهما ووجدا ورغبـة
لذلك كل الخـلق قـد رغبـونى
أطـوف بوجـدانى على كل عاشـق
فألقى احترامـا ان همو شـهدونى
والجـوى هـو الشـوق الشـديد

ألا رضى الله عن أسلافنا الصالحين وعن شيوخنا المباركين ، الذين رأينا فى مسلكهم لله تعالى مثلا من الأولين وقدوة للآخرين والحق واضح والطريق لائح والداعى قد أسمع التخلف بعد ذلك الا من قصور وتقصير. أما أهل العزم فمنهم الاقبال ولهم القبول وليس مع الهمة الا بلوغ القمة ولا ظفر الا بالصبر ولا حصاد الا بالزرع ، ولا حياة الا بالقوت ولقد أقام الله الأسباب ليفتح بها لعبـــاده الأبواب بابا بعــد باب فمن طرح الفتور وأزال القشور كشفت له الحقائق وظهرت له القائق ووقف بعد جهاده على الدقائق وبان له الفرق بين البداية والنهاية وبين العبد الآبق والمحب الذائق فالأول يضرب فى أرض التيه ولا يهتدى سبيلا والثانى يرد بحار الجمال فيغرف ويعرف ويشرب ويطرب ثم يصدر عن رى لا ظمأ بعده . وكيف يظمأ من سقاه ربه شرابا طهورا ولقـــــاه نضرة وسرورا (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الالباب).

محاسبة النفس وتقوى الله

« وأنا أبرأ الى الله مما قيل بغير حق ، فأوصيك بالتقوى ، واطلب من الله المزيد من الأعمال الصالحة ، فهو المعطى سبحانه وتعالى ، وجد واجتهد ولا تقل عملت كذا ، بل خذ ساعة من نهارك وليلك ، وحاسب نفسك بين يدى ربك ، وعلمها الأدب معه ، واستصغر نفسك أمام الله، فلا تعرف سواه ، فهو العليم الحكيم القادر المقتدر ، وارض بقضائه وقدره ، وكن مع القضاء حيث أراده الله لك ، واترك أمورك بين يديه: فانك لا تعلم الخير فى تعجيل المسائل أو تأجيلها » .

ذلك مما كتب سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى، رضى الله عنه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعه مد الله فى عمره وزاده من فضله ، وهى نصيحة غالية كما تراها ونحن أحوج ما نكون للانتصاح بها ، فهى تدعو الى تقوى الله تعالى والهمة فى طلب مرضاته ومحاسبة النفس فى سلوكها معه سبحانه ، واستقلال الكثير من عملها فى جنبه تعالى ، والركون اليه ، والاعتماد عليه ، والرضا بحكمة ، لأن أفعاله كلها حسنة وان خالفت ما نريده ، وهو تعالى يعلم مالا نعلم .

وانما أراد الشيخ لتلميذه أن يسلك فى ايمانه طريق الخواص من عباد الرحمن الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فاستقامت ظواهرهم وبواطنهم، وساروا الى الله على نور من ربهم ، وتأسوا بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله والفرق كبير بين هؤلاء وبين عوام المؤمنين الذين قال الله لهم (يا أيهـــا الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .. وعلى الرغم من أن عوام المؤمنين لم يصدقوا الله فيما عاهدوه عليه فانه سبحانه حذرهم من غضبه ، ولم يسلبهم وصف الايمان بل ترك لهم فرصـــة لتوبتهم واصلاح شأنهم حتى تتفق أفعـــالهم مع أقوالهم والله غفور يقبـــل توبة التائبين ويعفو عن كثير .

فأهل الايمان ليسوا سواء ، فمنهم ذاكرا وغافل ، اما الذاكرون فانهم يسعون فى تقوى الله ومرضاته وأما الغافلون فانهم مفرطون فى الطاعات ومقبلون على الشهوات فاذا دهمتهم الحوادث هرعوا الى الله يجأرون ودعوه أن يكشف الضر عنهم ، فلم يعرفوه سبحانه على الدوام فى العسر واليسر ، والبلاء والرخاء ، أما الذاكرون فافتقارهم الى الله قائم ودائم ففى الرخاء هم راضون شاكرون ، وفى البـــلاء هم صابرون مسلمون ومع ذلك هــم فى معترك مع أنفســهم يستنهضون همتها فى الطاعات والمجاهدات ، ويتهمونها على مر الأوقات بأنها مفرطة فى جنب الله ، الذى أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، وهم فى ذلك يقولون : كيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه ويوسف الصديق يقول (وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى) •

فلا تعجب بعد ذلك أن ينصح الشيخ تلميذه ، فيوصيه بالتقوى وطلب المزيد من الأعمال الصالحة من ربه المعطى الوهاب ، كما يوصيه ألا ينسب لنفسه عملا ويمن به على الله صاحب المنة والفضل العظيم (وما بكم من نعمة فمن الله) •

والتقوى كلمة قليلة فى مبناها ، كثيرة فى معناها ومما يدل على عظم معناها أن القرآن الكريم يدور كله حــول قوله تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله) فالتقــوى اذن تتضمن ــ فى أساسها ــ الايمان بالله تعــالى وكتبه ورسله واليــوم الآخر والقضاء خيره وشره وسائر الايمانات •

ثم تتضمن بالتبعية طاعة الله ورسوله وذلك بفعل المأمورات وترك المنهيات ، وهو ما يقتضى مجاهدات ظاهرة وباطنة ، لا يحرص عليهــا ويوفق اليها الا السابقون بالخيرات باذن الله •

وانك لا تستطيع أن تدرك من التقوى عظم شأنها الا بعد أن تتدبر طويلا فى قول الله عز وجل (انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهـــــولا) •

والمقصود بالأمانة فى الآية الكريمة التكاليف الشرعية التى حملنا الله اياها ، ولا يصل الانسان الى تقوى الله الا اذا أدى تلك التكاليف كما يحب الله ورسوله ، وهذا يفسر لنا ما نبهنا الله اليه من العناية بفهم كتاب

الله الكريم والاصغاء التام لأوامره ونواهيه فى مثل قوله تعالى (واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) والمؤمن مخاطب بالقرآن الكريم كلمة كلمة وحرفا حرفا ، وقد يسره الله للذكر ، فهل من مدكر ٠

وقد كان أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه يتغير لونه اذا جاء وقت الصلاة ، فكانوا يقولون له :

مالك يا أمير المؤمنين فيقول : جاء وقت أمانة عرضها الله تعـالى على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان فلا أدرى أحسن أداء ما احتملت أم لا ٠

والمتأمل فى قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) يرى ولا شك أن الله حاضر معنا ويرى ما يقع منا من خير وشر ٠ فيجب أن نعامله معاملة الحاضر لا معاملة الغائب ، فان اجترحنا السيئات التى نهانا سبحانه عنهـا كان فى اجتراحها الدليل القائم على غفلتنا عنه مع ما نبهنا اليه فى كتابه الخالد من أنه حاضر معنا ويرانا فى متقلبنا ومثوانا ويعلم سرنا وجهرنا ٠

ومما تقدم تعلم كيف تفاوتت رتب المؤمنين فى قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) فالأولون ظلموا أنفسهم أو ظلمتهم أنفسهم الأمارة بالسوء حين أطلقوا لها العنان فى الشهوات ، والأوسطون ذوو نفوس لوامة تغفل حينا وتتيقظ حينا ، واذا غفلت تابعت هواهـا واذا تيقظت ندمت على ما فرط منها وتابت الى الله فثابت الى رشدها بعـد الغى ، أما السابقون فهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وفهموا عن الله فساروا الى الله وأعرضوا عما سواه ، فأنسوا به واستوحشوا من غيره ، فهم أجسـام روحانيون وفى الارض سـماويون ٠

وهؤلاء السابقون بالخيرات هم أهل السعادة الحقة ، فان لهم فى الدنيا جنة المعرفة ، ولهم فى الاخرة جنة الزخرفة التى ورد فيها حديث البخارى فقد روى بسنده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عن الله تعـالى « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطر على قلب بشر ، واقرأوا ان شئتم « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعـين » ٠

وما أبدع ما يقوله سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فى الفرق بين عوام المؤمنين وخواصهم حين يقول فى حكمه : اهتدى الراحلون اليه بأنوار التوجه ، والواصلون لهم أنوار المواجهة فالأولون للانوار وهؤلاء الانوار لهم لانهم لله لا لشىء دونه (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) •

والتقوى تقتضى المبادرة بالاعمال الصالحة قبل أن يحول بين المؤمن وبينها بعض المعوقات أو الموت ، وقد وعظنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بالغة حين قال لنا صلوات الله وسلامه عليه (بادروا بالأعمال سبعا قبل طروء سبع ، هل تنتظرون الا فقرا منسيا ، أو غنى مطغيا أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة والساعة أدهى وأمر) وهو بهذا يشرح لنا قول الله تعالى (فاستبقوا الخيرات) •

ويقول الامام سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه : أول الانس من العبد أن تأنس النفس والجوارح بالعقل ، ويأنس العقل والنفس بعلم الشرع ، ويأنس العقل والنفس والجوارح بالعمل لله خالصا ، فيأنس العبد بالله أى يسكن اليه •

ويدلنا السادة الصوفية على الميزان الذى نعرف به منزلتنا فى سيرنا الى الله فيقولون : اذا أردت أن تعرف قدرك عند الله فاعرف قدر الله عندك ، وهو كما ترى ميزان قسط ، وقد نبه اليه أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه فى فتوحاته الشعرية الملهمة التى سجلناها سماعا منه فقال :

واذا أردت بأن توازن بينهم　　فزن الرجال بحب ربك واصطف

ثم استطرد فدلنا على علامة حبه سبحانه فقال رضى الله عنه •

واذا اقتديت فبالكتاب لك الهدى　　حافظ على آياته بتلهف
وانهض بروحك نهضة قدسية　　ولسنة المختار فى السير اقتف

وأرشدنا رضى الله عنه الى اخلاص النية والصبر فى العبادة وذكر الله تعالى فقال :

لا تذكر البارى بقصد ولاية　　أو أن تكون على السما لا تنطفى
بل فابغ وجه الله جل جلاله　　من رام غير جنابه لم يشرف
واصبر فان الصبر عنوان الوفا　　لا يدرك التقوى سوى القلب الوفى
ليس التصوف بالكلام وانما　　صدق الفعال قرارة المتصوف

ولا يبلغ المؤمن درجات المتقين الا بالورع ، وقد قال الامام ابن سيرين، رضى الله عنه ، ليس شىء أهون على من الورع ، اذا رابنى شىء تركته ، ولا شك أنه استضاء فيما يقوله بالحديث الشريف (الاثم ما حاك فى صدرك) ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لسيدنا وابصة الصحابى رضى الله عنه (استفت قلبك وان أفتاك المفتون) وقد يفتى أهل الفتوى بشىء لا يرتاح اليه القلب التقى فيترك المؤمن ما يريبه الى ما لا يريبه وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم) والفرقان نور فى القلب يفرق به بين الحق والباطل وقد زكى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ، ولذلك لقبه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاروق أى الذى فرق الله به بين الحق والباطل •

ويحرص السادة الصوفية على أكل الحلال حتى يقبل الله عبـــادتهم ويعرفون إلحلال فيقولون : الحلال هو الذى لا تعصى الله فيه ، والحلال الصافى هو الذى لا تنسى الله فيه • ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى دعائم العبادة : وجدت العبادة فى أربعة أشياء : أولها أداء فرائض الله تعالى ، والثانى اجتناب محارم الله تعالى ، والثالث الأمر بالمعروف ابتغاء ثواب الله تعالى ، والرابع النهى عن المنكر اتقـــاء غضب اللـــه تعـــالى •

وأما محاسبة النفس التى يدعو سيدى الشيخ اليها تلميذه ، فانها من نهج السلف الصـــالح ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزن عليكم • وقـــد شكا اليه جماعة من امام عينه عليهم وقالوا له انه يصلى بنا ثم يغنى فسأله أمير المؤمنين أحقا أنك تصلى ثم تغنى قال نعم يا أمير المؤمنين ، قال ماذا تغنى قال أغنى وأقول :

وفؤادى كلمـــــا عاتبتـــــه
عـــاد اللـــذات يبـــغى تعـــبى
لا أراه الدهــــر الا لاهيـــــا
فى تمـــاديه فقـــــد برح بى

يا قرين السوء ما هـذا الصبا
فـنى العمـر كـذا فى اللعب
وشـبـاب بـان منى فمضى
قبـل أن أقضى منـه أربى
نفس لا كنت ولا كان الهـوى
اتقى المـولى وخـاف وارهـبى

فنظر أمير المؤمنين للشاكين وقال لهم : من كان منكم مغنيـا فليغن هكذا ، لأنه رأى الامام يحاسب نفسه فيما يتغنى به • وقد كان الصحابى الجليل سيدنا أبو ذر رضى الله عنه يقول : ان قيامى بالحق لله تعـالى لم يدع لى صديقا ، وان خوفى من يوم الحساب ما ترك على بدنى لحما ، وأن يقينى بثواب الله تعالى ما ترك فى بيتى شيئا ، وقد كان سـيدى عبد الوهاب الشعرانى يقول : ومما من الله به تعالى على تفتيشى صباحا ومساء لكل جارحة من جوارحى الظاهرة والباطنة لانظر ما فعلتـه كل جارحة فى ذلك النهار أو فى تلك الليلة من الطاعات أو المعاصى لأشكر الله تعالى أو أستغفره •

وقد نصح سيدى الشيخ تلميذه أن يجد ويجتهد فى مرضاة ربه مراعيا فى نصيحته هذه قول الله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) وفى ذلك يقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل الهاما لوقته من كلام كثير :

واسـلك سـبيل الأقدميـ
ـن وخـل ذكـر اللـه وردك

يا قـلب انـك ان تـرد
بـاب الالـه فلـن يـردك

البس لبـاس تقـى وسر
تدرك بفضـل اللـه رفـدك

ودع الحيـاة اذا دعـت
وانظـر لمـا خلدت بعـدك

انا قـد خـلوت عـن الـورى
وجعـلت حـبى فيـك وحـدك

وأخـــــذت ذكــرك غـــايتى
وتبعت بالايمـــــان جنـــــدك

يـــا قـــلب مـــالك غـــيره
بعــــد المـــات يعيـــد ذكرك

ايـــاك أن تـــأوى الـــى
دنيـــا تضر ولن تمـــــدك

مهمــا أقمت بهـــــا فلـــن
تلقـــى عـــلى الأيـــام خـــلدك

ســـتزول عنـــك بصفوهـــا
وســـيضحك البـــاقون بعـــدك

وأما ما يوجه اليه سيدى الشيخ من الرضا والتسليم بقضاء الله فانه من كمال الايمان ، لأن مايجرى به القضاء هو من حكم الله الذى يجب أن يقابل بالصبر الجميل تنفيذا لقوله تعالى لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا) ويقول سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه : من وصل الى مقام التسليم فاز برياض النعيم • ويقول سيدى أحمد الحلوانى والد سيدى عبد السلام رضى الله عنهما :

أفعـــــاله محـــكمة — وقـــل من يفهمهـــا
يفعـــل مـــا يشـــاؤه — لحكمة يعلمهـــا

ويعلق على البيتين بقوله : ما فرحت بشىء من نظمى قط فرحى بهـذين البيتين ، وأرجو أن ينفعانى غدا ان شاء الله تعالى ، وانى أكررهما فى النازلة تنزل بى فينكشف عنى غمها •

ويقول القطب الكبير سيدى عبد القادر الجيلانى قدس الله سره :

لا الأمر أمـرى ولا التـــدبير تدبيرى
ولا الأمـــور التى تجـــرى بتقـــديرى

لى خالق رازق ما شـــاء يفعـــل بى
أحاط بى علمه من قبـــل تصـــويرى

ويقول السادة الصوفية : رضاء العوام بما قسم الله وأعطى ، ورضاه الخواص بما قدره وقضاه ، ورضاء خواص الخواص بالله تعالى عن كل ما سواه وهو كلام نفيس فاحرص عليه وانتفع به •

ولهذا كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى رضي الله عنهما يقول له : أما بعد فان الخير كله فى الرضاء ، فان استطعت أن ترضى والا فاصبر • كما أنه رضى الله عنه كان يصف رضاءه بالقضاء فيقول فى استواء البلاء والرخاء عنده : لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب •

ولا تعجب أن يقول أمير المؤمنين عمر ذلك فانه كان يقول فى فلسفته العالية التى يتحلى بها خواص الخواص : ما من بلاء يصيبنى الا وأرى لله على فيه أربع نعم : النعمة الأولى أن البلاء وقع فى دنياى ولم يقع فى دينى ، النعمة الثانية أنه لم يقع أكبر مما وقع ، النعمة الثالثة أن الله منحنى صبرا عليه فاحتملته ، النعمة الرابعة أن الله ادخر لى ثواب الصبر عليه •

أما مولانا الامام أبو عبد الله الحسين السبط رضى الله عنه فقد مات له ابن فلم ير الناس عليه الجزع الذى يرونه على الآباء حين يفقدون الأبناء فسألوه فى ذلك فقال شارحا رضاءه بقضاء الله تعالى : نحن أهل البيت نسأل الله فيعطينا فاذا أراد ما نكره فيما يحب رضينا • وبذلك دلنا رضى الله عنه على أننا يجب أن نشكره تعالى على العطاء وكما نشكره على العطاء يجب أن نصبر على البلاء لأنه سبحانه هو المقدر للعطاء والبلاء على السواء •

ويقول سيدى أبو بكر الشبلى رضى الله عنه : من عرف الله لا يكون له غم أبدا • وسئل فى معنى تلك الكلمة فقال معناها كلمة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أصبح سرورى فى مواقع القضاء والقدر ، ولذلك سمعوا سيدى الشبلى ينشد :

ذاب مما فى فؤادى بدنى
وفؤادى ذاب مما فى البدن
فاقطعوا حبلى وان شئتم صلوا
كل شىء منكمو عندى حسن

ويقول شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى فتوحاته الملهمة •

رضاء الفتى بالله يشرح صدره
فلن يتأذى بالحوادث والخطب

ونحن أولو عـــلم ولـــكن بوجـــــدنا
شربنـــا من الأنوار ما ليس بالشرب

كمـــا يقـــول رضى الله عنـــه :

حيـــــاة الورى حـــلو ومر وانمـــا
حلا المر بالتوحيـــــد من رقة الحس
وانك لو عظمت دينـــــك عالمـــــا
وعاملت بالحســــــنى وأدبت للنفس
وكنت على الأحـــداث بالله راضـــيا
ســـواء عليك الموت أو ساعة العرس
سعدت من الدنيـــــا بربك محســـنا
ونلت من الأخرى العطاء بلا بخس
اذا قيل لى أطلب قلت ربى مطلبى
وان قيل اشرب قلت أنواره كأسى

ولا يظن القارىء الكريم أن ما قاله سيدى الشيخ بعيد المنال ، فقـــد رأيت بنفسى منه صبر أولى العزم حين فقد أكبر أبنائه وكان فى نحـــو العشرين من عمره فصبر صبرا جميلا حتى كأنه لم يصب بشىء ، وقد أخبرت سيدى عبد السلام بعجبى من ثباته وصبره فى ذلك الحادث الأليم فقال لى رضى الله عنه ، أنا والشيخ على هكذا تأتينا المصائب فلا نتزحزح فقلت فى نفسى (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) •

ويفلسف سيدى الشيخ على عقل علة نزول البلاء فيقـــول فى روعة ظاهـــــرة :

لولا التـــــألم فى الحيـــاة لمـــا بدا
نور التـــأمل لامـــــرىء قـــــوام
لولا وقـــود النـــــار فيمـــا ينبغى
ما كان ينضـــج بعـــــد أى طعام

وقد يسأل البعض وكيف يتأتى للانسان أن يحمل هموم المسلمين اذا نزل بهم بلاء أخذا بالحديث الشريف : من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم ، مع تسليمه ورضائه بما يجرى به القضاء ؟ والجـــواب على ذلك السؤال أجاب به الامام سيدى عبد الوهاب الشـــعرانى رضى الله عنـــه فقال : ان تحمل هموم المسلمين لا ينافى التسليم لله تعـــالى ، فيســـلم العبد لله من حيث تقديره ويحمـــــل همهم من حيث اســـتحقاقهم ذلك بكســـبهم .

ومن بديع ما نصحنى به سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، حين كنت فى شرخ شبابى وانتفعت به ــ فى حياتى ــ قوله لى فى احدى رسائله .

« أما عن الدنيا وما فيها ومن فيها ، فدعها بما فيها لمن يدبرها فيوفيها، وفيها ما فيها : لأنك ان دبرت وصح التدبير وهو مطلوب شرعا ، فلا تدرى كيف قضى فيه ، فان صح القضاء بالرضا فهو القضاء ، وان حصل الجفاء ، سألناه اللطف فى القضاء ، مع الرضاء على أنه الرضاء » .

وأخيرا وليس آخرا أريد أن أنبه الى ما نهى الشرع عنه من الجدل فى القضاء والقدر : فقد حدث أبو هريرة رضى الله عنه فقال :

(خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى القـــدر فغضب حتى أحمر وجهه ، ثم قال :

(أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت اليكم ، انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا) .

وسأل رجل الامام على بن ابى طالب كرم الله وجهه عن القدر ، فقال طريق دقيق لا تمش فيه ، فقال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، فقال بحر عميق لا تخض فيه ، فقال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، فقال سر خفى لا تفشيه ، فقال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، فقال ان الله تعالى خلقك كما شاء أو شئت ، فقال : كما شاء ، فقال ان الله يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء ، قال : كما شاء ، قال ألك مشيئة مع

مشيئة الله ، أو فوق مشيئة الله أو دون مشيئة الله ؟ أما ان قلت مع مشيئته ادعيت الشركة معه ، وان قلت دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وان قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيئته •

وهذا الكلام منطقى ، كما ترى ، وهو درس قيم من امامنا على كرم الله وجهه • فمن تعلمه وحرص عليه تجنب السخط على المقدور ، وعاش فى راحة من الرضا ، لأن قضاء الله وقدره من سلطانه المطلق الذى لا دخل لنا فيه ، ولا حيلة لنا معه ، فانما نحن عبيد ، والله يفعل ما يريد • سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقـول له كن فيكون ، لا راد لقضـائه ، ولا معقب لحكمـه •

المسبّب والأسباب

« اتخذ الأسباب اتباعا للأمر ، وهو المعطى عملا ، قال صلى الله عليه وسلم (لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا) فالغدو سبب والعطاء من الله ، والطير يغدو ملهما من حيث لا يدرى ، والمؤمن اذا اتخذ الأسباب متوكلا على الله يكون كالطير الا يدرى ما يتم به القضاء ، فلا يتحدى نظام الطلب ، ولا يذهب نفسه على رزقه حسرات وهو شديد الحرص على طلبه » .

ذلك مما كتب شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه لتلميذه الصالح التقى الصديق السيد / سالم عمر جمعة مد الله فى عمره ، وفى نصيحة سيدى الشيخ توجيه الى اتخاذ الأسباب مع حسن التوكل على الله فى ثمراتها ، وهذه قاعدة من قواعد التصوف الحق ، الذى يقوم على هدى الكتاب والسنة ، ولذلك دعم الشيخ توجيهه بالحديث الشريف : لو توكلتم على الله حق التوكل ... ثم بين لتلميذه ان الطير يغدو فى طلب الرزق ولا يقعد فى عشه انتظارا لرزقه ، لان الله ألهمه السعى عليه فى الفضاء الواسع خارج العش حيث يجد فى الزروع المختلفة ثمرات كل شىء ، وما يسره الله له أكل منه ما قدر الله أن يأكل ، فيعود شبعان بعد أن كان غدا جائعا ، وسبحان من أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم « حق التوكل » يعلمنا ان نتوكل حقا و لانتواكل جهلا ، فقد يترك شخص السعى على رزقه ، ويظن ان فى ذلك القعود توكلا على الله الذى تكفل بأرزاق عباده ، فى حين أنه ينتظر ان يعطف عليه الناس ، فيرسلون اليه طعامه ، فيكون متوكلا على عطفهم من حيث يظن أنه متوكل على الله ، وقد قال أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب : الا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم أرزقنى وقد علم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

وقد قال رجل من هؤلاء الكسالى القاعدين للامام الجليل أحمد بن حنبل رضى الله عنه : انى أريد أن أحج ولا آخذ معى زادا لأنى سأخرج متوكلا على الله ، فسأله الامام : تخرج وحدك أو تخرج مع القافلة ، قال : لا بل مع القافلة ، فقال الامام : أنت لا تتكل على الله بل تتكل على أخراج الناس .

ويقول السادة الصوفية ان التوكل محله القلب ، والحركة بظاهر الاجساد لا تنافى التوكل بالقلب ، ما دام العبد متحققا من أن التقدير من الله تعالى ، فان تعسر شىء فبتقديره ، وأن تيسر فبتيسيره سبحانه وتعالى ، وهذا ما يفسر لنا كيف ربطت آيات القرآن الكريم بين التوكل والايمان فى مثل قوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقوله تعالى (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) وقوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

فالايمان بالله تعالى محله القلب ، وكذلك التوكل محله القلب ومقرون به ، والايمان بالله تعالى يستتبع الايمان بقضائه وقدره ، والايمان بالقضاء والقدر يستتبع الايمان بأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وقد أقام الله الأسباب بحكمته ، ولكن قد يتفق شخصان فى سبب من أسباب الرزق ، ويختلف رزق كل منهما مع اتحاد السبب ، ذلك تقدير العزيز العليم .

ومن هنا نفهم معنى ما يقوله سيدى ابن عطاء الله السكندرى : فلابد لك من الأسباب وجودا ، ولابد لك من الغيبة عنها شهودا ، فأثبتها من حيث أثبتها تعالى بحكمته ، ولا تستند اليها لعلمك بأحديته .

وقد روى انس رضي الله عنه فقال : جاء رجل على ناقة له فقال : يارسول الله أدعها وأتوكل ؟ (أى يتركها من غير قيد ويتوكل على الله فى حفظها) فقال صلى الله عليه وسلم : اعقلها وتوكل — فأمره ان يتخذ السبب ويتوكل على الله ، لان اتخاذ سبب الحفظ لا ينافى التوكل على الحافظ جل جلاله ، والعقال فيه حركة الظاهر ، والتوكل فيه اطمئنان القلب بالله تعالى .

ويقول الامام سهل بن عبد الله : التوكل حال الرسول صلى الله عليه وسلم والكسب سنته ، فمن بقى على حاله ، فلا يتركن سنته ،

ويقول أيضا رضى الله عنه : من طعن فى الحركة فقد طعن فى السنة ، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الايمان • ويقول الامام الدقاق رحمه الله : للمتوكل ثلاث درجات ، التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ، وقد شرحها رضى الله عنه فقال : التوكل صفة المؤمنين ، والتسـليم صفة الأولياء والتفويض صفة الموحدين ، فالتوكل صفة العوام ، والتسـليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خواص الخواص • وقد شرحها مرة أخرى فقـال رضى الله عنه : التوكل صفة الأنبيـاء ، والتسليم صفة ابراهيم عليه السلام ، والتفويض صفة نبينا محمد صلى الله عليـه وسـلم •

ومن أروع ما يقول السادة الصوفية قولهم : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا يأوى اليه الا ثدى أمه ، كذلك المتوكل لا يهتدى الا الى ربه • ولذلك هم يقولون : كن كما كنت فى بطن أمك ، مدبرا (بفتح الباء) غير مدبر (بكسر الباء) مرزوقا من حيث لا تحتسب •

وهذا التفويض الذى يذهب اليه السادة الصوفية يكون بالجـزم القلبى واليقين الروحى بأنه ليس مع تدبير الله تدبير ، ولا مع ارادته ارادة ، ولا ينافيه اتخاذ الأسباب ، فانه تعـالى يقول (فامشـوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) فنسب المشى الينا سببا ورد الرزق الى تقديره جلا وعلا ونسـبه اليه سبحانه ، ومع أنه عز وجل قال (وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم) فانه أمر باتخاذ أسباب النصر فقال تعالى مثلا (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ••) ومن نصائح السادة الصوفية :

تـوكل على الرحمـن فى الامـــر كلـه
ولا ترغبن بالعجـــز يومـا عـن الطلب
ألـم تـــر أن اللـــه قـــال لمـريم
وهــزى اليك الجـــذع يســاقط الرطب
ولو شـــاء أن تجنيــه من غير هزهــا
جنتـــه ولـــكن شىء لــــه ســـبب

وعلى قدر ايمان المؤمن ويقينه تكون درجة توكله ، وقد سئل أمامنا على بن أبى طالب عن رجل أغلق عليه (بضم الهمزة) باب الدار كيف

يأتيه رزقه فقال كرم الله وجهه : كما يأتيه أجله ، فهو لم يقعد عن طلب الرزق انما حيل بينه وبين طلبه باغلاق الباب عليه وحبسه ، فاتاه رزقه من حيث لا يحتسب ، لشدة يقينه بالله ، وقوة توكله عليه ، كما رزق الله مريم بغير سبب وهى فى محرابها ، حين قالت لكافلها سيدنا زكريا عليه السلام : هو من عند الله • وذلك استثناء من ضرورة طلب الرزق من أسبابه ، ولا يصرفنا الله به عن اتخاذ الأسباب انما أراد الله به سبحانه أن يقوى بقصصه علينا حسن ظننا فى الله تعالى وتثبيت توكلنا عليه ، ولا يجوز أن نفهم منه التخلى عن الأسباب ، فقد أمر سبحانه مريم عليها السلام باتخاذها فى قوله الكريم (وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) ، وهى بذاتها التى رزقها بغير سبب ، ومن ذلك نعلم ان الاستثناء لا يكون قاعدة متبعة فى العادة •

وكما أن اتخاذ الأسباب لازم فى أمر الرزق ، فهو كذلك لازم فى سائر الأمور الدنيوية والدينية ، فمثلا العلم يكون بالتعليم ، والتقوى تكون بالطاعات والكف عن الشهوات ، والحياة بالطعام والشراب وهكذا ومع يقين رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه ، وحسن توكله عليه، وتفويض أمره اليه ، بما لا مطمع لبشر فى مثله ، فانه قام الليل حتى تورمت قدماه ، وشد مئزره وأيقظ أهله ، وقال لهم : لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأحسابكم • ومن ذلك نعلم أن حسن الظن بالله تعالى والتوكل عليه ، يقتضيان ان يأخذ المؤمن دينه بقوة ، وأن يكون فى عبادته من أهل الفتوة ، فلا يوسوس له الشيطان ان العبرة بالخواتيم وليس حتما ان ترتبط الخاتمة بالاعمال ، فهذا قول حق من جهة ما قضاه الله ، وما قضاه وأراده بنا طواه عنا فى غيبه ، وما أراده منا أظهره لنا وطالبنا به ، ومن ثم لا يجوز أن نهمل ما أراده منا وقد علمناه إستنادا الى ما أراده بنا ولم نعلمه ، ولا سبيل الى علمه ، وانما الغيب لله ، وهذا هو مناط التكليف •

ومما تقدم نرى أن القاعد عن طلب رزقه الدنيوى أو الأخروى انما يتحدى الأوامر الالهية ، لأنه يتحدى نظام الطلب ولذلك نهى الشيخ تلميذه عنه ، لأنه طيب الله ثراه كان يربينا على الآداب الشرعية الصحيحة التى تربى هو عليها على يد شيخه وأمام وقته القطب الكبير سيدى الحاج محمد أبو خليل ساكن ضريحه الأنور بالزقازيق ، وكان

كل منهما يكسب عيشه بجهده ومن الأسباب المشروعة ، وأنفق كل منهما ماله على عياله وعلى الدعوة الى الله عز وجــل ، فجاءهما المـــال من حله ، وانفقاه فى مرضاة الله سبحانه ، وقد كان سيدى الامام ابراهيم ابن أدهم يقول : عليك بعمل الابطال ، الكسب من الحلال والنفقة على العيـــال •

ويقول السادة الصوفية انه اذا اشتغل الصوفى بالمكاسب ، فيجب ألا تلهيه عن أداء الفرائض فى أوقاتها ، كما يجب أن ينوى بها معاونة المسلمين ، فاذا فضل شيء من كسبه ونفقة عياله أنفقه على المحتاجين فلا يجمع ولا يمنع ، وهم فى ذلك يتأسون بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أعطى رجلا غنما تسد بين جبلين حتى قال الرجل أشهد أنه ما طابت بمثل هذا الا نفس نبى ، وحين كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، كان يعيش فى بيته عيشة الكفاف حتى قالت سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : كنا نرى الهلال والهلال والهلال ولانوقد نارا ، أى انهم لا يطبخون ، ولمـــا سئلت ماذا كانوا يأكلون ، قالت كنا نعيش على الأسودين التمر والمـــاء •

وفى حين رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيشة الكفاف لنفسه ولآل بيته كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وكان أجود ما يكون فى رمضان والبطون خاوية من أثر الصيام ، وفى حجة الوداع بلغ هديه الذى عقره للفقراء والمساكين فى منى مائة ناقة ، وقد عقر منـــه بيده الشريفة ٦٣ ناقة وعهد الى امامنا على بن ابى طالب بعقر الباقى ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم منك واليك ، أى ان المـــال من عطائك وانى أنفقـــه فى مرضـــاتك كمـــا كان صـــلى الله عليـــه وسلم يقول للفقراء : من شاء فليقتطع أى يأخذ حاجته من اللحم •

فلا تعجب بعد ذلك أن يهب امامنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه كل ما ملكت يداه لله ، وحين سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما الذى أبقيت لعيالك ، قال أبقيت لهم الله ورسوله ، وذلك الذى فعله لا يكون الا من أهل التمكين أى أهل الثبات واليقين • وقد وهب امامنا عمر بن الخطاب نصف ماله ، وقال : يا رسول الله هذا نصف مالى وأبقيت النصف لى ولعيالى • أما امامنا عثمان بن عفـــان فكان الخرج من ماله أحب اليه من الدخل ، وكان يقول : لولا أنى خشيت

أن يكون فى الاسلام ثلمة أسدها بهذا المـال ما جمعته ، ولذلك تراه مول جيش العسرة فى غزوة تبوك بسبعمائة بعير محملة بالزاد هى وماحملت وأعطى المقاتلين عشرة آلاف دينار من ذهب ، وجاء بألف دينار أخرى فصبها فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم فأخذ صلوات الله وسلامه عليه يقلبها بين يديه ويقول : اللهم أغفر لعثمان . أما امامنا على فقد أوقف أرضه التى كانت له فى ينبع فى سبيل الله وزهد فى الدنيا وما فيها ، وكان يقف على خزانة بيت المـال ويقول : يا صفراء ويا بيضاء غرى غيرى لقد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها ، وقد قنع بعيشة الكفاف .

هؤلاء هم الخلفاء الراشدون الذين ملكوا الدنيا ولم تملكهم ، وغلبوا الهوى ولم يغلبهم ، فكانت الدنيا فى أكفهم لا فى قلوبهم ، صبروا عليها حين فقدت ، وآثروا الله بأموالهم حين وجدت ، فتصرفوا فيها تصرف الخازن الامين ، لحسن فهمهم عن الله تعالى حين قال (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) .

أما ما يقـوله سيدى الشيخ : ولا يذهب نفسه على رزقه حسرات وهو شديد الحرص على طلبه ، فانما يوجه تليميذه فيه الى الرضا بما أعطى الله من الرزق وقسم ، فقد يجتهد المؤمن فى طلب الرزق ويتوقع الكثير فيأتيـه القليـل فيسخط على قلته ولو فى قرارة نفسـه فيكون معترضا على ما قضى الله وقدر ، وليس ذلك شـأن المؤمن التقى أو الصوفى النقى ، بل تلك شيمة الجهلاء .

والرضا ، كما يقول السادة الصوفية — باب الله الأعظم ، وجنـة الدنيا ، وقد عرفوا الرضا فقالوا هو أن يكون العبد ساكنا تحت حكم الله عز وجل ، وقال ابن عطاء رحمه الله : الرضا نظر القلب الى قديم اختيار الله تعالى للعبد ، بأن يعلم انه تعالى اختار له الافضل فيرضى به ويترك السخط . ولعـل هـذا الذى قالوه يقرب الينا فهم ما جاء فى الحديث الشريف « لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

والرضا أو السخط يتوقف على حال العبد ولا يتوقف على ماله ، فقد يكون كثير المـال ساخطا لانه يطلب الاكثر ، وقد يكون قليل المال راضيا لانه رد الامر فى قلة ماله الى حسن اختيار الله له ، وكذلك

ليس الزهد بقلة المـــال فى اليد أو بكثرته ، فقد يكون كثير المال زاهدا وقد يكون فقير المال غير زاهد •

ويحكى السادة الصوفية فى هذه المناسبة ان رجلا بالمغرب كان من الزاهدين فى الدنيا ومن أهل الجد والاجتهاد ، وكان عيشه مما يصيده من البحر ، وكان الذى يصيده يتصدق ببعضه ، ويتقوت ببعضه ، فأراد بعض أصحاب هذا الزاهد أن يسافر الى بلد من بلاد المغرب ، فقال له الزاهد : اذا دخلت الى بلد كذا فاذهب الى أخى فلان ، وأقرئه منى السلام ، واطلب الدعاء منه لى ، فانه ولى من أولياء الله تعالى ،

قال فسافرت حتى قدمت تلك البلدة وسألت عن ذلك الرجل ، فدلونى على دار لا تصلح الا للملوك ، قال فتعجبت من ذلك ، وطلبته فقيل لى هو عند السلطان ، فازداد تعجبى ، فبعد ساعة ، واذا هو آت فى أفخر ملبس ومركب ، وكأنما هو ملك فى موكبه ، قال فازداد تعجبى أكثر من الأول ، قال فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت لا يمكننى مخالفة الشيخ ، فاستأذنت فاذن لى ، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد والخدم ، والشارة الحسنة ، فقلت له « أخوك فلان يســـلم عليك » ، قال :

جئت من عنده ؟ قلت نعم ، قال : اذا رجعت اليه قل له : الى كم اشتغالك بالدنيا ، والى كم اقبالك عليها ، والى متى لا تنقطع رغبتك فيها ، فقلت : هذا والله أعجب من الاول ، فلما رجعت الى الشيخ قال : اجتمعت بأخى فلان ؟ قلت : نعم ، قال : فما الذى قال لك ؟ قلت لاشىء،قال لابد أن تقول لى ، فاعدت عليه ما قـــال ، فبكى طـــويلا وقال : صدق أخى فلان ، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها فى يده وعلى ظاهره ، وأنا أخذها من يدى وعندى اليها بقايا التطلع •

وشدة الحـــرص فى طلب الرزق ليست مجلبـــة للرزق ، لان رزق الانسان عن قدر من الله ، ورزقه لا يعطى لغيره ، كما أنه لا يعطى رزق غيره ، وقد جاء فى الحديث الشريف عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : « ان من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله ، وان تحمدهم على رزق الله ، وان تذمهم على ما لم يؤتك الله • ان رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كره كاره ، ان الله بحكمته وجلاله

جعل الروح (بفتح الراء) والفرج فى اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » .

والحديث يجرنا الى حسن الاعتقاد فى الله تعالى والاطمئنان الى عطائه ، ويحذرنا من أن ننظر الى الاسباب وننصرف بها عن المسبب ، ولا شىء عليك اذا شكرت من جرت نعمة الله لك على يديه ما دمت تعتقد ان العطاء عطاء الله ، وان الخلق أدوات يسخرها كيف يشاء لمن يشاء وقد قال تعالى (ان اشكر لى ولوالديك الى المصير) .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم « ولا يرده كره كاره » نهى عن أن يحسد بعضنا بعضا على نعم الله ، لان الحسد لا يرد الله عما قضاه ويبقى وزر الحسد فى صحيفة الحاسد ، ويأتى المحسود رزقه من الله على رغم الحاسد .

ويعلمنا الحديث الشريف ان القانع غنى وان جاع ، وان الحريص فقير وان ملك ، لان حرصه على الزيادة يورثه الشره فيملكه المـــال ، ويكون كل همه فيه ، وقد يجره الحرص على كسب المـــال من حرام فيهلك نفسه من حيث لا يدرى ، وعن انس رضى الله عنه : « من أخذ من الدنيا من الحلال حاسبه الله به ، ومن أخذ من الدنيا من الحرام عذبه الله به ، أف للدنيا وما فيها من البليات ، حلالها حساب ، وحرامها عقـــاب » .

ويقول سيدى شقيق البـــلخى رضى الله عنه : ميز بين ما تعطى (بكسر الطاء) وتعطى (بفتح الطاء) ، ان كان من يعطيك أحب اليك فانك محب للدنيا ، وان كان من تعطيه أحب اليك فانك محب للآخرة ويقول رضى الله عنه : عملت فى القرآن عشرين سنة حتى ميزت الدنيا من الآخرة فأصبته فى حرفين ، وهو قول الله تعالى : (فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى) . وقد سئل رضى الله عنه : بأى شىء يعرف أن العبد واثق بربه ؟ قال : يعرف بأنه اذ فاته شىء من الدنيا يحسبه غنيمة — واذا أبطأ عليه شىء من الدنيا يكون أحب اليه من أن يأتيه . ولذلك قال رضى الله عنه : اذا أردت أن تكون فى راحة فكل ما أصبت ، والبس ما وجدت ، وأرض بما قضى الله عليك .

ويقول من الهامه الارتجالى استاذى وسيدى الشيخ على عقل فى الرضا بمواقع المقدور وفى اتجاهه لله تعالى دون خلقه :

قلبـــى اصـــبر ألا تـــكن تشـــكو
ونفســـــــــــى لا تثـــــــــــنى

ان أقـــــــل يـــا رب أنجـــــــح
فرضـــــاه حســـــن ظنـــــى

ان ســـــأل النـــــاس أحـــــرم
ان ســـــألت اللـــــه يغنـــــى

ان ســـــألت النـــــاس أبعـــــد
ان ســـــألت اللـــــه يدنـــــى

ان آيـــــــــات التجـــــــــلى
بالمعـــــــــانى عـــــــرفتـــنى

آيـــــة الوجـــــــــدان روضى
وشـــــهود اللـــــه فنـــــى

ويقول رضى الله عنه مرة أخرى الهاما وارتجالا :

ولـــو ان الفتى فى النـــاس يبقـــى
عـــــزيزا لا يمـــد يـــد الضراعـــة

ويذكـــر فقـــره فيقـــول ربـــى
ويذكـــر يســـره فيقـــول طاعـــه

يتاجـــر فى الهـــدى بمقـــام صـــدق
ويجعـــل حبـــه البـــارى البضـــاعة

ويعـــلم أنمـــا الدنيـــا متـــاع
وليـــس تدوم فى الدنيـــا جمـــاعه

يظـــل مـــؤيدا باللـــه ربـــى
عـــزيزا يرفـــع الرحمـــن باعـــه

وكـــم من مظهـــر عليـــاء نفســـ
ويفســـد حبـــه الدنيـــا طبـــاعه

وكـــم من مـــدع فيهـــا اقتنــــاعا
ولكــــن فى شراهتــــه فظــــاعـه

فودع مــــا بأيــدى النــاس طـــرا
على خلـــق الـــكرامة والقنـــاعه

أمــا واللـــه مــا للخـــلق الا
رضــاهم فالرضــا كنــز المنـــاعة

الا رضى الله عن أسلافنا الصالحين ، الذين عملوا بما علمــوا ، فورثهم الله علم مالم يعلموا ، فنظروا الى باطن الدنيا حيث نظر الناس الى ظاهرها ، وأهمهم آجلها حيث أهم الناس عاجلها ، وزهدوا فى الدنيا وان أقبلت عليهم ، وتحلوا بالرضا وان أدبرت عنهم (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب) •

النور والظلام

« أما بعـــد فلك نظرتان ، نظرة فى الدنيا ، ونظرة فى الآخرة ، فنظرة الدنيا متابعة الحق ومسالمة الخلق وحفظ الأمانة وحب من أحب الله اذ يقول الله يوم القيامة (أين المتحابون فى) وأما الأخرى فمناجاة اللـــه وتوجيه قلبك اليه والى نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وعدم الركون الى أهل الظنون ، وعدم الركون الى ما لا يكون ، بل يسير عملك على مقتضى الهامك من باطن الأمر الى بصيرتك التى تضاء أمام عقلك فتوصلك من دهليز الشهوات الى دهليز الطاعات فترى بعقلك النور يزداد ضوءه أمام بصيرتك ، فتكون الرؤيا بالتدريج حتى لا تقع فى أمر مريج ، فتزج بروح من عنده الى عالم تتفرس فيه بنور الله فلا تكون عنه لاهيا ، بل تصير أواها ، فان شدت العزائم كنت الهـــائم فى الغنـــائم فغفلت عن الظلمات ونسيتها فى النورانيات » •

ذلك مما كتب شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه لتلميذه الصالح المبارك الصديق السيد ــ سالم جمعه ، حفظه الله ورعاه ، وهى نصيحة الشيخ العارف لتلميذه المطيع الذى حرص على وصايا شيخه كل الحرص وانتفع بها وسمح لنا بنشرها لينتفع بها كل من أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا ، فيكون لسيدى الشيخ فضل الارشاد ، ولتلميذه أجر المناولة •

أما متابعة الحق فتكون فى اتباع شرع الله ، فاذا تابع المؤمن شرع الله كفلت له متابعته الثمرات فسالم الخلق ، فلم يظلم أحدا منهم ، بل صان منهم حرمة الدم والمال والعرض كما علمه مولانا رسول الله صلى الله عليهم وســلم ، ثم خص الصــالحين منهــم بحب فى الله تعــالى ، لا تشـــوبه علة دنية ، أو فـــائدة دنيويـــة ، بل هـــو حب فى اللـــه وبالله ولله ، وقد أشـــــار الشيخ رحمـــه الله الى آثـــار ذلك الحب يوم القيامة فأشار الى الحديث الشريف الذى رواه مســلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله

تعالى يقول : يوم القيامة : اين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل الا ظلى كما قال صلى الله عليه وسلم : سبعة يظلمهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله ، ومنهم رجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، على ما رواه البخارى ومسلم •

وكذلك روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : جاء رجل رسول الله صلى عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف تقول فى رجل أحب قوما ولم يلحق بهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب • كما روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم — متى الساعة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعددت لها قال حب الله ورسوله قال أنت مع من أحببت • وفى رواية لهما قال أنس فما فرحنا بشىء فرحنا بقول النبى صلى الله عليه وسلم أنت مع من أحببت ، فأنا أحب النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبى اياهم •

وروى أيضا البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه والمقصود فى ذلك الحديث الشريف أخوك فى الايمان لأنه تعالى أقام الأخوة بين المؤمنين رحما روحيا لا ينفصم عراها ، بينما قطع سبحانه رحم الدم بالكفر فقال تعالى « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم» وقد حكى الله تعالى عن سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام أنه تبرأ من أبيه آزر قال تعالى « فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » وفى ذلك أقوى زجر عن مودتهم بسبب مخالفة الدين •

ويقول سيدى سهل بن عبد الله التسترى : من صحح ايمانه وأخلص توحيده فانه لا يأنس بمبتدع ولا يجالسه ويظهر له من نفسه العداوة ، ومن داهن مبتدعا سلبه الله حلاوة السنن ، ومن أجاب مبتدعا لطلب عز الدنيا أو غناها أذله الله بذلك العز وأفقره بذلك الغنى ، ومن ضحك الى مبتدع نزع الله نور ايمان من قلبه ومن لم يصدق فليجرب •

وقد روى الترمذى والحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما دعاء طويلا كان يدعو به النبى صلى الله عليه وسلم من جملته : « اللهم اجعلنا هداة

مهتدين ، غير ضالين ولا مضلين ، صلحا لأوليائك ، وحربا لأعدائك ، نحب بحبك من أحبك ، ونعادى بعداوتك من خالفك » وهذا ونحوه تعليم منه صلى الله عليه وسلم لأمته والا فهو فى ذاته صلى الله عليه وسلم كان متصفا بذلك اليقين .

وقد كان امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه يحض على مؤاخاة الصالحين فيقول : عليكم بالاخوان فانهم عدة فى الدنيا والآخرة ، ألا تسمعون الى قول أهل النار « فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » . وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقول : والله لو صمت النهار لا أفطر ، وقمت الليل لا أنامه ، وأنفقت مالى فى سبيل الله أموت يوم أموت وليس فى قلبى حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ، ما نفعنى ذلك شيئا . وكان يحيى بن معاذ رضى الله عنه يقول ولى الله ريحان فى الأرض فاذا شمه المريدون وصلت رائحته الىقلوبهم فاشتاقوا الى ربهم .

ومن نفائس ما أوصى به الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين ابن عربى ـ رضى الله عنه ـ فىكتاب الفتوحات المكية قوله فى احدى وصاياه :

« وعليك بمراعاة كل مسلم من حيث هو مسلم ، وساو بينهم كما سوى الاسلام بينهم فى أعبائهم . ولا تقل هذا ذو سلطان وجاه ومال كبير ، وهذا صغير وفقير وحقير ، ولا تحقر صغيرا ولا كبيرا فى ذمته .

« واجعل الاسلام كله كالشخص الواحد والمسلمين كالأعضاء لذلك الشخص ، وكذلك هو الأمر ، فان الاسلام ماله وجود الا بالمسلمين ، كما أن الانسان ما له وجود الا بالاعضاء وجميع قواه الظاهرة والباطنة .

« وهذا الذى ذكرناه هو الذى راعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ثبت عنه من قوله فى ذلك : المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم آدناهم وهم يد واحدة على من سواهم . وقال صلى الله عليه وسلم : المسلمون كرجل واحد ان اشتكى عينه اشتكى كله ، وان اشتكى رأسه اشتكى كله .

« ومع هذا التمثيل فأنزل كل واحد منزلته كما أنك تعامل كل عضو فيك بما يليق به وما خلق له ، فتغض بصرك على أمر لا يعطيه السمع ، وتفتح

سمعك لشيء يعطيــه البصر ، وتصرف يدك فى أمر لا يكون لرجلك ، وهكذا جميع قواك فتنزل كل عضو منك ما خلق له •

« فان اشترك المسلمون فى الاسلام وساويت بينهم ، فأعط العـــالم حقه من التعظيم والاصغاء الى ما يأتى به ، واعط الجاهل حقه من تذكيرك أياه وتنبيهه الى طلب العلم والسعادة وأعط الغافل حقه بأن توقظه من نوم غفلته بالتذكير لمـــا غفل عنه مما هو عالم به غير مستعمل علمه فيه •

« واعط الكبير حقه من الشرف والتوقير ، فان من السنة رحمة الصغير وتوقير الكبير ومعرفة شرفه ، فقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا ، وفى حديث ويوقر كبـــيرنا •

« وعليك برحمة الخلق أجمع ومراعاتهم كانوا ما كانوا فانهم عبيد الله وخلق الله وان عصوا وفضل بعضهم بعضا فانك اذا فعلت ذلك أجرت •

« وافعل الخير ، ولا تبال بمن تفعله تكن أنت أهلا له ، ولتأت كل صفة محمودة من حيث ما هى مكارم الأخلاق تتحلى بها وكن محلا لشرفها عند الله وثناء الحق عليها ، فاطلب الفضائل لأعيانها ، واجتنب الرذائل لأعيانهـــــا » •

وأما ما يوصى به سيدى الشيخ عبد السلام من مناجاة الله تعـــالى وتوجيه القلب اليه ولنبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وعدم الركون الى أهل الظنون ، وعدم الركون الى ما لا يكون فقد بين فيما تلا ذلك من كلامه أن ذلك انما يتم بترك الشهوات والتزام الطاعات حتى تستنير البصيرة ويسير المؤمن بالهامه على نور من ربه •

والسادة الصوفية حين يتكلمون على ترك الشهوات لا يقصدون بهـــا شهوات الجسد الحيوانية فحسب ، بل يقصدون الى جانبها أمراض القلوب الخفية من الحقد والحسد وحب الرياسة ، وحب الثناء الخ ولذلك يقول سيدى القطب الكبير ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه :

« من شأن المريد ألا يكون عنده حسد ولا غيبة ولا بغى ولا مخادعة ولا مكاذبة ولا كبر ولا شطح ولا سوء ظن •

« لا تقنعوا ببوس اليد والرياسة ، ولا تغتروا باجازة واعملوا بما فيها من النصائح ، واعلم أن اجازتك حسن سيرتك واخلاص سريرتك وشرط المجاز أن يكون أبعد الناس عن الآثام ، محافظا على الصيام والقيام ، مواظبا على ذكر الله والعبد كلما خدم قدمه سيده ، وهذه هى الاجازة ، ومن قام بالاسحار ، ولزم فيها الاستغفار ، كشف الله له عن الأسرار والأنوار .

« كيف يدعى أحدكم أنه ابن طريق وهو ينام وقت الغنائم وفتوح الخزائن وتجلى الحق القيوم ، والله لو هاجر الناس مهاجرة صحيحة ودخلوا تحت الأوامر لاستغنوا عن الأشياخ ، ولكن جاءوا الى الطريق بعلل وأمراض فاحتاجوا الى حكيم والشيخ حكيم المريد ، فاذا لم يعمل المريض بقول الطبيب لا يحصل له الشفاء .

فصحح عزمات عزمك ، ولج بحر الحقائق ، وسلم الأمر لله ، واقتف أوامر شيخك ، والق عصاك ولا تطلب خير نفسك من غيرك ، بل اعمل حتى تتكشف حقائقك .

« من أشغل قلبه بحب شيخ رقاه الله ، لأنه أحبه لذات الله ولولا أن الشيخ سلم لترقية المريد لمقت الله كل قلب وجد فيه محبة لسواه .

« أطلب العلم ، ولا تقف ولا تسأم ، فان الله يقول لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم (وقل رب زدنى علما) وطلب الزيادة من العلم انما هو طلب زيادة الأدب .

« ومن أراد أن يكون ابنى فليحبس نفسه فى قمقم الشريعة ، وليختم عليها بخاتم الحقيقة ، وليقتلها بسيف المجاهدة ، وليتجرع مرارات الصبر فى كل شىء امتثالا وأدبا » .

وأنت ترى مما تقدم أن المريد يتقدم فى سلوكه على قدر جهاده وطاعة شيخه ، فتستنير بصيرته ، ويواتيه الهام قلبى صادق ، يفرق به بين الحق والباطل ، فيتبع الحق ، ويترك الباطل ، ويرث من وراء ذلك الورع وتجنب الشبهات ، فتقوى صلته بالله عز وجل ، فلا يكون عنه لاهيا ، بل يشتد وجده ويزداد فى الله هيامه كما يشير سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه .

والسادة الصوفية يعنون بتربية القلوب ، ويرون أن فقه المؤمن لا يكون بحفظ الأحكام الشرعية ودراستها فحسب ، بل يكون بتطبيقها وجنى ثمارها ، ويؤيدون حجتهم بقوله تعالى فى أهل الكفر (لهم قلوب لا يفقهون بها) ، كما أنهم يقولون ·

« لا يوصل الى رعاية الحقوق الا بحراسة القلوب ، ومن لم يكن له سر فهو مصر ، والمصر لا تصفوا له حسنة • كما أن السادة الصوفية يرون أن الحجب التى بين العبد وربه لا ترفع الا اذا تخلق المريد بالأخلاق المحمدية • وهذا التخلق لا يتم الا بالمتابعة بهمة وعزم مؤكد وقد قال تعالى ان طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيل الاهتداء (وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين) •

وهم كذلك يقولون : « أصولنا سبعة أشياء ، التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة وأداء الحقوق • كما يقولون: « صفاء العبادات لاينال الا بصفاء معرفة أربعة : فأول ذلك معرفة الله تعالى ، والثانى معرفة النفس ، والثالث معرفة الموت، والرابع معرفة ما بعد الموت من وعد الله ووعيده ، فمن عرف الله تعالى قام بحقه ، ومن عرف النفس استعد لمخالفتها ومجاهدتها ، ومن عرف الموت استعد لوروده ، ومن شهد وعيد الله تعالى ينزجر عن نهيه ويخضع لأمره •

والسادة الصوفية يعيشون فى صلتهم بالله تعالى بين الخوف والرجاء، وعندهم أن الخوف والرجاء بمثابة الجناحين الطائر ، لا يطير الا بهما معا، ويفسر لنا سبب ذلك سيدى أبى سعيد بن الأعرابى فيما كتبه فى صدر رسالة بعث بها لأحد أصحابه •

« كلأكم الله كلاءة الوليد ، وألحقنا واياكم بصالح العبيد ، الذين كشف عن قناع قلوبهم ، فشاهدوا الوعد والوعيد ، فمن كان منهم خائفا فالرجاء منهم غير بعيد ، ومن كان منهم راجيا فالخوف فى قلبه عتيد •

« فهم بمحبته صائلون ، ولهيبته خاضعون ، بسطتهم المحبة والرجاء أن يكونوا قانطين ، وقبضهم الخوف أن يكونوا مخدوعين أو آمنين ، فهم بين الخوف والرجاء واقفون ، فقد أقلقهم الشوق ، وأزعجهم الذوق،

فحسن الظن قائدهم ، وخوف القوت سائقهم ، والتوفيـــق رائدهم . والحب مطيتهم ، طالبين مطلوبين ، منورة لهم أعلام الطريق ، معمورة لهم المناهل تلوح لهم بالعوائد ، منقلبين بالطرف والفوائد » .

كذلك نرى السادة الصوفية فى دعواتهم بين الخوف والرجاء فهــذا سيدى يوسف بن الحسين رضى الله عنه يدعو فيقول :

« اللهم انا نبات نعمك ، فلا تجعلنا حصائد نقمك ، اللهم اعطنا ماتريده منا ، يا من أعطانا الايمان به من غير سؤال ، لا تمنعنا عفوك مع السؤال، فانا اليك آيبون ومن الاصرار على معصيتك تائبون ، فانا اليك ذاعنون تائبـــون .

« اللهم تقبل ما مننت به علينا من الاسلام والايمان الذىبههديتنا، واعف عنا ، الهى نعمك محيطة بنا ، وأنت المذخور لشكرهـــا ، وعزتك ا شكرك أحد الا بك » .

ومن دعاء سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه .

« اللهم ان نجيتنى نجيتنى بعفــوك ، وان عذبتنى عذبتنى بعدلك . رضيت ما بى لأنك ربى وأنا عبدك ، الهى أنت تعلم انى لا أقوى على النار ، وأنا أعلم انى لا أصلح للجنة ، فما الحيلة الا عفوك » .

كما كان رضى الله عنه يدعو ويقول :

« الهى وسيدى ومولاى ، ومن جميع الأشياء مغناى ، ضيعت نفسى بالذنوب فردها على بالتوبة ، أنت تعلم ان الكريم من عبادك يعفو عمن ظلمه ، وقد ظلمت نفسى وأنت أكرم الأكرمين فاعف عنى » .

« الهى انك تعلم أن ابليس عدو لك ولى ، وليس شىء انكى لكمده وأقطع لكيده من غفرانك لى ، فاغفر لى يا أرحم الراحمين .

وكان شيخى وسيدى العارف بالله الشيخ على عقل يقول فى فتوحاته الملهمة التى نقلناها استماعا منه :

يـــارب أنت علمــــــتنى ‏ لـــم تخف منى خافيـــة
ســـقمى يـــزيد وانمـــــا ‏ آيـــا تعقـــوك شـــافية

وكان رضى الله عنه يتعلق بمحبة الله ، ويراها وقاية للعبد من عقاب الله تعالى فيقول :

اذا رابنـــى ذنبى دعتنـــى محبتـــى اليــه
ومــا تثنى الذنــوب عن الحــب
حيـــاتى حيـــا ة المذنبين ومهجتى
لهـــا أدب فى الحب جل عن الذنب
أضـــاء الهـــدى قلبى ونقى سريرتى
فلســـت كبعض النـــاس أنسب للتــرب
فيـــارب ان زادت ذنـــوبى فاننى
وثقت بأن الفضـــل أوسع من عيبى
فان كان ذنبى مبعدى عنك لحظـــة
فانك غفـــــار الذنوب بلا ريب
وان كان لى ممـــا فعلت جريمـــة
فحوضك لى طهرى وفضلك لى طبى
وما لذتى الا التجــــائى لوجهكم
فوجهكمو دون العـــوالم لى قطبى

ويبين من أبياته المتقدمة أن محبة الله كانت معراجه الى اللهفان كان بحكم بشريته قد هفا وأذنب ، فانه بفضل محبته تمسك بمغفرة ربه ، فى قوة يقين ، وسعة رجاء ، ويؤكد ذلك بقوله :

أمـــــلى عفـــوك الـــذى منــه أرجـــو متـــابتى
ان روحـــى بحبـــــه قـــــد ترقـــت ورقـــت
وتـــــواصت بحقـــــه واستقـــــامت وقـــامت
بالهـــدى صـــاننى وقـــد بعـــــت نفسى بـــــرغبتى
بـــين عـــــز وحكمـــــه أكمـــــل اللــــه نعـــــمتى

وما دام شيخنا قد تمسك بمحبة ربه ، فهو لا يعبأ بملامة اللائمين من الجاهلين الذين لم يذوقوا طعم المحبة ، لذلك يقول رضى الله عنه :

من يطلب الرحمن جـــل جـــلاله لم يخش بعد ملامة من شـــان
ان حدثوا عنى فانى مغـــــرم متمســـــك بالواحـــــد الديان
أســـموا بروحى فى حماه وأنتمى فالعشق تاجى واليقين عيـــانى

وهو يتشرف بمقام المحبة وان رآه الجاهلون مخطئا فى محبته العارمة فيقـــول :

ان كان حب الله ذنبى عنـــدهم هذا لعمرك فى المقـام كفـــانى

ولست أنسى حلاوة انشاده الفورى ، رحمه الله ، حين سأله سائل

فى حفل كبير ان يأتى له بأبيات على وزن البيت التالى وقافيته :

ياليـل الصـب متى غـــده أقيـــام الســـاعة موعـده

فقال فورا فى ابداع ظاهر :

ياليـــل الصـب متى غـده لمـــريض ملت عـــــوده
مـا كان هـــواى لغانيـــة أ و كان لظبى أعهـــــده
بل لاســم اللـــه وفى اسـم اللـــه وباســم اللـــه أوحــده
فيرينى العفـــو فأعبــده ويرينى الفضــل فأحمــده
ان عــز النـــاس بما لهمــو عـــزى ديــن أتعهـــده
أنـــا فــان منى عنى بــل بك باق يســلم ســؤدده
ولديك هـــداى ومنـــك منـــاى ومنك عطائى أشهده
فمتى ألقــاك وبى شـــغف أقيـــام الســـاعة موعـده

ولا تعجب أيها القارىء الكريم أن يكون وجد شيخنا كما وصف فهو الذى يقول مرة أخرى :

سألت فوفانى رجوت فزادنى وان كريم الكف ما خاب سائله
أحن على ذل وأهوى على هدى وأسرى على علم بقلبى أواصــله
وهل يدرك الآيات الا رجالهـــا وهل يعرف الوجـــدان الا مزاوله
وذو الوجد لا يغفو عن الحب لحظة به عاش حتى لو أصيبت مقاتله
شهدنا وشاهدنا وطابت نفوسنـــا فهامت به أرواحنـــا اذ نســـائله
أسامر ليلى خاليـــا بشـــهوده وقلبى بنور الحق فاضت مناهله

ويقول السادة الصوفية ان أول الوجد رفع الحجاب ، ومشـــاهدة الرقيب وحضور الفهم ، وملاحظة الغيب ومحـــادثة السر ، ولذلك قال سيدى الشبلى رضى الله عنه :

فلما أرانى الوجـــد أنك حاضرى شـــهدتك موجـــودا بكل مكان
فخـــاطبت معلومـــا بغـــير تكلم ولاحظت موجودا بغير عيـــان

وقال سيدى أبو سعيد الأعرابى رضى الله عنه :

« الذى يحجب العبد عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلائق والأسباب ، لأن النفس محجوبة بأسبابها ، فاذا انقطعت الأسباب ، وخلص الذكر ، وصحا القلب ورق وصفا ، نجعت فيه الموعظة والذكر ، وحل من المناجاة فى محل غريب ، وخوطب وسمع الخطاب بأذن واعيـة وقلب شاهد وسر طاهر ، فشاهد ما كان منه خاليا ، فذلك هو الوجد ، لأنه وجد ما كان عنده عدما معدوما .

أقول وسل فؤادك عن قوم قال فيهم جل جلاله «يحبهم ويحبونه »وقد اصطفاهم على غيرهم من البشر ، فعاشوا بأبدانهم بين الناس فى الأرض وبأرواحهم بين المـلائكة فى عالم الملكوت ، وهو ما يعبر عنـه سيدى الشيخ على عقل فى قوله :

نعم نحن من أبناء آدم عنصرا	ولكننـا فوق السـموات نكرم
اذا كانت الأجساد تروى من الثرى	فانا بنور اللـه نـروى وننعم
أتحسبنى أنسّاه فى العمر لحظـة	وكيف وقـلبى باسـمه يترنم
أفاض على الحق من بحـر نوره	فقلبى بغـير الحـق لا يتـكلم
ولولا حجاب الغفلة اليوم فوقنـا	تفانى على نور المشـاهد مغرم

وقد رأينا له همة خارقة فى المجاهدات ، فسهر ليله قرابة أربعين عاما حتى قبضه الله راضيا مرضيا ، ولا يتم ذلك الا عن وجد لازمه وعاش به لله تعالى ، وقد قال العارفون بحق : حب الواجد افراد الواحد ، وقد كانت كلماته تنفذ الى قلوبنا فتحركها من سكونها ، وتشوقها الى العـالم الأسنى ، جزاه الله عنا خيرا كثيرا .

وقد ذكر عن أبى الحسين النورى ، رحمه الله ، أنه اجتمع مع جماعة من المشايخ فى دعوة فجرى بينهم مسألة فى العلم وهو ساكت ، قال فرفع رأسه فأنشدهم هذه الأبيات :

رب ورقاء هتوف فى الضحى ذات شجو صدحت فى فنن
فبكائى ربما أرقها وبكاها ربما أرقنى
هى ان تشكو فلا أفهمها واذا أشكو فلا تفهمنى
غير انى بالجوى أعرفها وهى أيضا بالجوى تعرفنى

قالوا فما بقى فى القوم أحد الا قام وتواجد لما أنشد النورى تلك الأبيات .

اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك ، واسلك بنا سبيل أصفيائك وخاصتك الذين جعلتهم حزبك وقلت فيهم « أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون » .

التــــوكّل

« توكلت وسلمته ، وأنا لا أملك التوكيل والتسليم الا بأمره،فلا نعبده ولا نستعين به الا بحوله وقوته ، فمنه واليه أمرى ، فهو الرب المجيد القادر ، توكلت عليه فى أمورى كلها : فى رزقى ، وقيامى ، وقعودى ، وعبادتى ، وسعيى ، فان شاء وفقنى وجعلنى من المؤمنين الموفقين ، وان شاء حولنى الى ما يريد » ..

جاءت السطور المتقدمة فى رسالة بعث بها شيخى العــارف بالله سيدى عبد الســلام الحلوانى . طيب الله ثراه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعه ، مد الله فى عمره ، وزاده فضلا ونعمة ، وفى تلك السطور ، وهى أحرف من نور ، توجيه الى التوكل على الله تعالى فى الأمور كلها ، وكفى بالله وكيلا .

والتوكل عند السادة الصوفية مقام شريف ، ومعناه عندهم اعتماد القلب على الله تعالى ، ثقة بوعده (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ففى هذه الاية الكريمة رد سبحانه المتوكلين اليه ولم يردهم الى غيره ، وقد أمر عز وجل بالتوكل أحب أحبائه وأصفى أصفيائه ، سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت) كما قال تعالى (وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم) وقال أيضا (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) .

والسادة الصوفية حين يدعون الى التوكل لا يعنون به ترك الاسباب. بل هم يأخذون فى الاسباب معتمدين على فضــل الله فى ثمراتهــا ، وراضين بالنتائج مهما كانت ، رادين الأمــر له سبحانه ، فان أعطوا شكروا ، وان لم يعطوا صبروا ، لأن التوكل عندهم يقتضى الرضــا والتسليم ، ومن ثم يتركون اختيار نفوسهم اكتفاء باختيار الله لهم ، فهم مع القضاء كالهباء فى الهواء يحركه كيف شاء .

ويساعدهم على التوكل قوة يقينهم بالله تعالى ، واليقين نور فى القلوب يشاهدون به أنه لا فاعل الا الله تعالى ، والاسباب أدواته فى العطاء

وليست هي الرازقة ، بل انه سبحانه هو الرازق ذو القوة المتين،ولذلك نرى سيدنا الخليل ابراهيم عليه الصلاة والسلام يرد أمـره كله فى الدنيا والآخرة الى الله تعالى الذى قال حاكيا ماكان منه فى سـورة الشعراء (الذى خلقنى فهو يهدين • والذى هو يطعمنى ويسقين • واذا مرضت فهو يشفين • والذى يميتنى ثم يحيين • والذى أطمـع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين • رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين • واجعلنى من ورثة جنة النعيم • واغفر لأبىّ انه كان من الضالين • ولا تخـزنى يوم يبعثون • يوم لا ينفع مال ولا بنون • الا من أتى الله بقلب سليم) •

فأنت ترى من ذلك أن سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام رد آمره كله فى الدنيا والاخرة الى ربه جل وعلا ، وسأله سؤال المحتاج اليه فى الدارين ، ولا تعجب أن يكون هذا شأنه فقد ألقاه أعداؤه فى النار : فجاءه جبريل عليه السلام فقال له : ألك حاجة يا ابراهيم ؟ فقال : أما اليك فلا ، وأما لربى فحالى يغنى عن سؤالى • فكان سبحانه عنـد يقينه به وثقته فيه فقال جل وعلا (يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم) فنجاه الله من حر النار ببرد اليقين والتوكل على الله رب العالمين ، وقد قال العلماء لو لم يقيد الله بردها بالسلام لقتل من شدة بردها •

وهذا ما يفسر لنا قول سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه : فمنه واليه أمرى ، فهو الرب المجيد القادر،وقد كتب الامام أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه الى بعض اخوانه :

« من أشار الى الله ، وسكن الى غيره ابتلاه الله تعالى ، وحجب ذكره عن قلبه وأجراه على لسانه ، فان انتبه وانقطع ممن سكن اليه ، كشف الله ما به من المحن والبلوى ، وان دام على سكونه لغير الله ، نزع الله تعالى من قلوب الخلق الرحمة عليه ، وألبس (بضم الهمزة) لباس الطمع ، فتزداد مطالبته منهم ، مع فقدان الرحمة من قلوبهم • فتصير حياته عجزا ، وموته كمدا ، ومعاده أسفا ، ونحن نعوذ بالله من السكون الى غير الله » •

ونحن نحمد الله أن قيض لنا شيوخا صالحين ، رأينا فيهم ومنهم مشرب السابقين الأولين من عباد الله المتقين ، فى التـوكل على الله

وحسن الظن به ، والاعتماد على الله ، والاتجاه فى السر والعلن اليه ، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم • وصدق الامام سهل التسترى فى قوله : لا معين الا الله ، ولا دليل الا رسـول الله، ولا زاد الا التقوى ، ولا عمل الا بالصبر • وفى قوله : مـامن قلب ولا نفس الا والله مطلع عليها فى ساعات الليل والنهار ، فأيما قلب رأى فيه حاجة الى سواه سلط الله عليه ابليس • وفى قوله : البلوى من الله على وجهين : بلوى رحمة وبلوى عقوبة ، فبلوى الرحمة تبعث صاحبها على اظهار فقره الى الله وترك التـدبير ، وبلـوى العقوبة تبعث صاحبها على اختياره وتدبيره •

وعند السادة الصوفية أن من فاته الايمان بربه فقد فاته كل شىء ، وهم يقولون بحق : الفوت أشد من الموت ، لان الفوت انقطـاع عن الحق ، والموت انقطاع عن الخلق • وقد قيل ليحيى بن معاذ : اخبرنا عن الله ، ما هو ؟ قال اله واحد • قيل : كيف هو ؟ قال : ملك قادر • قيل أين هو ؟ قال بالمرصاد • قيل : ليس عن هذا نسأل ، قال يحيى فذاك صفة المخلوق ، فأما صفة الخالق فما أخبرتكم به • فعلمهم بذلك أنه تعالى لا يحصره مكان ، وكيف يحصره المكان وقـد سبق وجـوده المكان والزمان ؟

ويحكى أحد تلاميذ ابى حفص النيسابورى فيقول : كنت أخـاف الفقر مع ماكنت أملك من المال ، فقال لى يومـا أبو حفص : ان قضى الله عليك الفقر لا يقدر أحد أن يغنيك ، فذهب خوف الفقر من قلبى رأسا • وكان أبو حفص يقول : الكرم طرح الدنيا لمن يحتاج اليهـا والاقبال على الله لاحتياجك اليه • كما كان يقول : من رأى فضل الله عليه فى كل حال أرجو الا يهلك • وسئل رضى الله عنه : من الرجال ؟ فقال : القائمون مع الله تعالى بوفاء العهود ، قال تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) • وكان رضى الله عنه يقول : ما أعز الفقر الى الله وأذل الفقر الى الأشكال (أى الناس) •

ويذكرنا الله سبحانه بافتقارنا اليه فيقول عز وجل (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد ، ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز) ويقول سيدى منصور بن عمار:

سبحانه من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكل ، وقلوب الفقراء أوعية القناعة وقلوب المتوكلين أوعية الرضا .

والزهد عند السادة الصوفية هو الا تفرح بموجـود فى الدنيـا ولا تحزن على مفقود فيها عملا بقوله (لكيلا تأسوا على ما فاتـكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) وهم يقولون ان المؤمن قد يملك الدنيا ويزهد فيها ، فاذا سألتهم عن الامثلة قالوا لك انظر الى الخلفاء الراشدين أو الى عمر بن عبد العزيز ، فهؤلاء ملكوا المشارق والمغارب ولكنهم لم يفتنوا بملك الدنيا ، ونظروا الى الاخرة وعملوا لها ماوسعهم الجهد البشرى فحكموا نفوسهم ، ولم تحكمهم نفوسهم ، وقد جاء فى حكمهم : نفسك كالدابة ان ركبتها حملتك وان ركبتك قتلتك .

ويقول شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى الهامه المرتجل محذرا من هوى النفس ، وكان أحد الحاضرين قد سأله أن يرتجل على وزن البيت الاتى وقافيته :

عجبـا لهـا تهـوى الذى تهـوى بـه
دون الـذى تعـلو بـه فى ذاتهـا

فأجاب رضى الله عنه فورا بمـا يبهر العقول فى وصف النفس ، وبما يؤكد للسامعين أن الهامه من عطاء الله تعالى لاوليائه :

(عجبا لهـا تهـوى الـذى تهـوى بـه)
كـم عـالـم قـد زل مـن نزعاتهـا
تنـأى عـن الاصـلاح طـول حيـاتهـا
وتواصـل الاقبـال فى شهواتهـا
وقفت على الدينـار حسـن بلائهـا
فأمالهـا عـن هديهـا وهـداتها
قـد رحبت بالسـيئات مريضـة
وتضـج ان دعيت الـى حسناتهـا
والنفس أعـدى صـاحب تبلى بـه
قـد أدخلتنـا النـار من رغباتهـا

ان أنت تنصــــحها تضـــــل طريقهـــا
واذا تركت غــرقت فى حسراتهــــــــا

ومضى يتـــدفق رحمه الله الى أن قال :

تـــرضى تسفلهـــــا لــــكل نقيصــــــة
(دون الذى تعلو به فى ذاتهـــــا)

ويقول رضى الله عنه فى خضوع الناس جميعا لحكم القضاء ، ويدلل على ذلك بأن رزق الذكى قد يضيق وأن رزق الغبى قد يتسع ، فيقول :

كل خــلق العبــاد عنـــدى ســـواء
يفعـــل اللـــه فيهمو مــا يشـــاء
كم ذكى قـــد عـــاش وهـــو فقــير
وغبـــى يضغـــــو عليـــه الثــراء

وينصح سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنـــه كل مؤمن فيقول لـــه :

والذى يوجب لك رفع الهمة عما سوى الله علمك بأنه لم يخرجك الى مملكته الا وقد كفاك ومنحك وأعطاك ، فلم يبق لك حاجة عند غيره ، كما يقول رضى الله عنه :

متى أعطاك أشهدك بره ، ومتى منعك أشهدك قهره ، فهو فى كل ذلك متعرف اليك ، ومقبل بوجود لطفه عليك •

ويقول كذلك رضى الله عنه :

كفى بك جهلا أن تحسد أهل الدنيا على ماأعطوا (بضم الهمــزة) وتشغل قلبك بما عندهم ، فتكون أجهل منهم ، لأنهم اشتغلوا بما اعطوا واشتغلت أنت بما لم تعط •

ويقول أيضا :

للزاهد فى الدنيا علامتان ، علامة فى فقدها ، وعلامة فى وجودها ، فالعلامة التى فى وجودها الايثار منها ، والعلامة التى فى فقدها وجـــود الراحة منها ، فالايثار شكر لنعمة الوجدان ، ووجود الراحة منها شكر لنعمة الفقدان •

ومن الحوار الطريف الذى اطلعت عليه ، حوار جرى بين رجل وبين الصوفى الكبير حاتم الاصم فقد قال ذلك الرجل لحاتم . من أين تأكل؟ فقال : من خزائنه ، فقال الرجل : يلقى عليك الرزق من السماء ؟ فقال لو لم تكن الأرض له لكان يلقى على الرزق من السماء ، فقال الرجل أنتم تقولون الكلام ، فقال حاتم : انه لم ينزل من السماء الا الكلام فقال الرجل : انا لا أقوى على مجادلتك ، قال حاتم لان الباطل لا يقوم مع الحق •

ويقول السادة الصوفية ان من علامات المعرفة أنك لا تسأل حوائجك قلت أو كثرت الا من الله تعـــالى ، ألست ترى أن موسى عليه السلام احتاج الى رغيف فقال (رب انى لمـــا أنزلت الى من خير فقير) واشتاق لرؤية ربه جل وعلا فقال (رب أرنى أنظر اليك) فلجأ الى الله تعالى فى الحالتين •

ويقولون أيضا ان الله تعالى يعز عبده فى الدنيا والاخرة ، اما فى الدنيا ، فيعزه بالمال والحال ، والمال يكون لتزيين الظواهر ، والحال يكون لتزيين السرائر ، وبالمال يستغنى المؤمن عن أمثاله من الخلق ؛ وبالحال يحصل له الافتقار الى من لم يزل ولا يزال سبحانه ، فالاعزاز بالمال يكون فيما بين الخلق ، والاعزاز بالحال يكون على باب الحق •

ومن رحمته تعالى بعباده أنه وكل بهم ملائكة يحفظونهم من البلاء والافات ، فقد قال تعالى (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) فهو الذى يحفظ مالك ودينك وحالك وقوتك وعيالك ، فلو رفع عنـــا رعايته فى ذلك كله لهلكنا ، ولكن أكثر الناس لا يفطنون لهذا الفضل الـــكبير •

وعند كلامهم على حسن التوكل يضرب لنا السادة الصوفية المثل بما وقع من أم موسى فى حسن توكلها على الله ، حيث ألهمها الله أن تلقى به فى اليم متوكلة على ربها فى حفظه ، ويقولـــون فى تعقيبهم على تلك القصة : انظر كيف ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين ، وكيف حفظ لها طفلها ، وكيف رده اليها •

ويعلمنا السادة الصوفية ان التوكل ينتهى بنا الى الرضا ، والرضا هو أعلى مقامات اليقين ، وقد جاء فى الحديث الشريف : ذاق طعم

الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا ، وهم يقولون ان الشكوى الى الله تعالى مما يصيب المؤمن لا تنافى الرضا ، لأن الرضا معناه الا تعترض على حكم القضاء ، ويستدلون على ذلك بأن سيدنا أيوب عليه السلام شكا الى الله مما أصابه فقال (انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) ولكنه مع ذلك كان صابرا على البلاء وراضيا بالقضاء وشهد الله له بذلك فقال تعالى (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) فشكواه الى الله لم تنف عنه الصبر أو الرضا ، والله المطلع على سريرته الذى أثنى عليه ومدحه .

وقضاء الله تعالى نافذ لامحالة ، رضى العبد أو كره ، اذ أنه لا معقب على حكم الله تعالى ، ويقول سيدى الامام عبد القادر الجيلانى : ان شرط الرضا أن يكون بعد وقوع القضاء ، أما قبل وقوع القضاء فانه يكون من باب العزم على الرضا .

وقد فرقوا بين العبادة والعبودية فقالوا ان العبادة هى الائتمار بأوامر الله تعالى والانتهاء بنواهيه سبحانه ، أما العبودية فهى الرضا بما يجرى به قضاؤه ، وقد قالوا : الرضا بمواقع المقدور نعم الوسيلة الى درجات المعرفة ، كما قالوا : رضاء العوام بما قسم الله وأعطى ، ورضاء الخواص بما قدره وقضاه ، ورضاء خواص الخواص بالله تعالى عن كل ما سواه .

وقد حكى لنا سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه مثلا مما وقع له فى توكله فقال انه احتاج للمال يوما ولم يرد أن يسأل الناس شيئا فأمسك بورقة وكتب فيها : من كان رزقه على الله فلا يحزن ، قال ثم طويت الورقة ووضعتها فى جيبى ، وبعد وقت قصير جاءه زائر على غير ميعاد وقدم له مبلغا من المال معتذرا له فى تأخر أدائه ، وكان ذلك الزائر قد اقترض المال من سيدى الشيخ ولم يتيسر له أداؤه الا فى ذلك اليوم وكان سيدى الشيخ يعلمنا كثيرا بالامثلة العملية التجريبية فذلك أوقع فى تربية النفوس ، وأبلغ أثرا فى التوجيه لمكارم الاخلاق .

والسادة الصوفية حين يقولون باسقاط التدبير ، لا يقصدون به ترك اتخاذ الاسباب ، بل يقصدون به الراحة النفسية التى تؤدى الى ان يتفرغ المؤمن عن الشواغل فيتمكن من الاقبال على الله تعالى حتى

يصل الى الله بأن يعرف الا فاعل الا الله فينسب ... الفضل الى الله فيما يوفق اليه من الأعمال الصالحة مع الرضا بحكمه سبحانه فان تم له ما يريد فمن فضل الله ، وان لم يتم فذلك من قدر الله لحكمة يعلمها سبحانه ويجهلها العبد .

وعند السادة الصوفية لا يجوز أن ييأس مذنب من رحمة ربه ، بل يجب أن يحسن المذنب ظنه بربه ، ويحسن التوكل عليه فى غفران ذنبه، فهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى فى ذلك :

لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى ، فان من عرف ربه ، استصغر فى جنب كرمه ذنبه .

كما يقول رضى الله عنه :

اذا وقع منك ذنب ، فلا يكن سببا ليأسك من حصول الاستقامة مع ربك ، فقد يكون ذلك آخر ذنب قدر عليك .

وجاء فى الحكم العطائية :

عنايته فيك لا لشىء منك ، وأين كنت حين واجهتك عنايته ، وقابلتك رعايته ، لم يكن فى ازله اخلاص أعمال ، ولا وجود أحوال ، بل لم يكن هناك إلا محض الافضال ، وعظيم النوال .

والسادة الصوفية فى حسن توكلهم على الله سبحانه ورضاهم بما يجرى به قضاؤه ، انما يتأسون فى ذلك بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى انس رضى الله عنه فقال خدمته صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط ولا لشىء فعلته لم فعلته ولا لشىء تركته لم تركته ، بل كان يقول لى ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وعلى مثل هذا الرضا جرى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان كل من عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما يقول : لان الحس جمرة ، أحرقت ما أحرقت ، وأبقت ما أبقت ، احب الى من ان أقول لشىء كان ، ليته لم يكن ، أو لشىء لم يكن ليته كان .

واذا أصاب أحد السادة الصوفية هم أو غم لجأ الى الله تعالى فى كشف همه وغمه ، وقد أخذوا أدبهم هذا من الحديث الشريف :

« من أصابه هم أو غم فليقل : الله الله ، لا أشرك به شيئا ، فان الله يذهب همه وغمه » وهم يقولون ان سبب القبض انما يأتى للعبد من الغفلة عن الله والنظر الى ماسواه •

وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر فقال :

« ماقال أحد : اللهم انى عبـــدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمتك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى ، الا أذهب الله همه وغمه ، وأبدل مكان همه فرحا وسرورا » •

وأخيرا أذكر انى دخلت يوما على سيدى الشيخ عبـــد الســــــلام الحلوانى رضى الله عنه فى مرضه الاخير ، فوجدته صابرا على مرض شديد ، كاد أن يعجزه عن الكلام ، فتألمت لألم سيدى الشيخ،وسكت فى الم بالغ ، فقال لى فى صوت خافت ، تكلم ، فقلت ، ماذا أتكلم يا سيدى ، قال أى كلام ، وكأنما أراد أن يخفف عنى ألمى ويصرفنى بكلامى عن الالم ، فقلت سأتكلم ان شاء الله عندما تأتى مناسبة الكلام، فقال رضى الله عنه معلما ومرشدا ومسليا ومواسيا :

« له الملك وله الحمد ، عطف سبحانه الحمد على الملك ، والملك يشمل الخير والشر ، اشارة منه سبحانه الى أنه يجب أن يحمد فى الخير والشر على السواء » •

فحمدت الله تعالى أن رزقنى شيخا مثل شيخى الكامل ، أرى فيـــه بالتجربة والعيان كيف يختص الله برحمته من يشاء ، وكيف يـــكون الاولياء على قدم سيد الانبياء وكيف ينوبون عنه صلى الله عليه وسلم (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) •

الإخلاص عند الصوفية

« والصدقة من حيث هى صدقة ، يثيب الله عليها ، لا سواه ، فهى له (ولايأتل أولو الفضل منكم) فلا تمنع صدقة كنيت تدفعها ، ويدفعك عنها ما تراه من المتصدق عليه من أمور أنت تكرهها ، مادمت تراه فى حاجة ، فالبر بالفقراء مجلبة النعمة « حســـــبك الله ومن اتبعك من المؤمنين »•

ذلك مما كتب سيدى واستاذى الشيخ عبد السلام الحلوانى لتلميذه الصالح المبارك الصديق السيد/ سالم جمعة مد الله فى عمــره وهى كلمات صوفية منيرة يرفع بها همته من الخلق الى الخالق كما ترى • لان السادة الصوفية يعاملون الله فى عباده ليقينهم بأن ما عند الله تعالى يبقى وان جحده الناس ، ومادامت وجهتهم فى الصدقة خالصة لله ، فلا عليهم من العباد ان احسنوا أو أساؤا ، وهذا ما يكشف لنا عن اخلاص القوم لله تعالى •

وعن حذيفة رضى الله عنه قال سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن الاخلاص ما هو « قال سألت جبريل عليه السلام عن الاخلاص ما هو ؟ قال ســـألت رب العزة عن الاخـــلاص ما هو ؟ قال : سر من سرى استودعته قلب من أحببته من عبادى » •

وقد فرق الامام الدقاق بين الاخلاص والصدق ، فقال رضى الله عنه : الاخلاص التـــوقى عن ملاحظة الخلق ، والصـــدق التوقى من مطالعة النفس ، فالمخلص لا رياء له ، والصادق لا اعجاب له •

وقال سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه : الاخلاص لا يتم الا بالصدق فيه والصبر عليه ، والصدق لا يتم الا بالأخلاص فيـــه والمداومة عليه ، وقال أيضا : ثلاث من علامات الاخلاص اســـتواء المدح والذم من العامة ، ونسيان رؤية الاعمال فى الاعمال ، ونسيان اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة •

والسادة الصوفية يتحلون بالاخلاص فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم مدفوعين اليه بقوله تعالى (ألا لله الدين الخالص) وبقوله تعالى فى السادة الصحابة عليهم رضوان الله (تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) وبقوله تعالى فى أهل الصفة رضى الله عنهم (يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) .

ويقول الامام سهل التسترى رضى الله عنه : أهل لا اله الا الله كثير والمخلصون منهم قليل ، وقد قال له رجل ذات يوم : ان لصا دخل دارى وأخذ متاعى ، فقال : اشكر الله تعالى ، لو دخل اللص قلبك وهو الشيطان وأفسد التوحيد ، ماذا كنت تصنع ؟

وسيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه يشد تلميذه الى التدبر فى قوله تعالى فى سورة النور (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) .

وقد نزلت تلك الآية الكريمة فى شأن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه حيث كان ينفق على مسطح ابن خالته ولما خاض مسطح فى حديث الافك فى حق أم المؤمنين سيدتنا عائشة ابنة الصديق رضى الله عنهما ، حلف سيدنا أبو بكر أن يقطع النفقة عن مسطح الذى تنكر لفضله عليه واحسانه اليه ، فأمر الله الصديق رضى الله عنه أن يوالى الانفاق على مسطح فكفر عن يمينه واعاد النفقة ، وعندما قرأ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية على مسمع الصديق رضى الله عنه وسمع فيها (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) قال رضى الله عنه بلى أحب أن يغفر الله لى .

والآية الكريمة شهدت بالفضل لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه ووجهته الى الانفاق على مسطح وكان من فقراء المهاجرين ، كما كان من أهل بدر الذين غفر الله لهم ورفع أقدارهم بين السادة الصحابة الكرام البررة رضى الله عنهم أجمعين ، وقد عذرت الآية الصديق رضى الله عنه ، وطلبت اليه العفو والصفح عن مسطح ، وبينت أن صفح المؤمن عن المسىء اليه مدعاة الى صفح الله عن المؤمن ، فهى تقول اصفح عن أخيك كما تحب أن يصفح الله عنك ، وما أجلها من تربية ربانية ، يرفع بها العليم الحكيم عبده الى الافق الأعلى من الأخلاق ، ويسمو بنـه

من جانب الخلق الى جنب الخالق بالاحسان الى من أساء اليه طلبا لمرضاة الله تعالى وغفرانه •

ولا تعجب أن يكون سيدنا أبو بكر محل هذه العناية الربانية ، فهو أبو بكر الصديق السابق الى التصديق المؤيد من الله بالتوفيق ، والملقب بالعتيق ، صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم فى السفر والحضر ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار ، وثانى اثنين فى القيام على المسلمين ، وثانى اثنين فى روضة الانوار ، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) •

وقد ملك رضى الله عنه المال وزهد فيه ، فسخره فى مرضاة ربه ، وخرج عن كل ما ملكت يداه فى سبيله تعالى ، وهاهو ذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يشيد بفضل الصديق فى البذل والايثار فيقول :

أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ووافق ذلك مالى عندى ، فقلت اليوم أسبق أبا بكر ان سبقته يوما ، قال فجئت بنصف مالى ، قال فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لاهلك ؟ • » قال : فقلت مثله ، وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أبقيت لاهلك ؟ » قال ابقيت لهم الله ورسوله ، قلت لا أسابقك الى شىء أبدا •

وقد كنا نتذاكر مرة فى سيرة الصديق العاطرة ، فاسترعى نظرى أخ لى فى الله ، انتقل الى رحمة الله ، وهو المرحوم السيد/ على السيد طيب الله ثراه الى أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه ذكره الله تعالى خمس مرات فى قوله تعالى (ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) فقلت له وكيف فقال : ثانى اثنين أحدهما أبو بكر ، اذ يقول لصاحبه هو أبو بكر ، لا تحزن أى أنت والضمير المستتر يشير الى أبى بكر ، ان الله معنا ، دخل أبو بكر فى المعية مع مولانا رسول الله ، وهذه هى المرة الخامسة ، فعجبت يومها من ذلك التخريج الطريف الذى لم يكن خطر ببالى قبل ذلك •

وإذا أردنا أن نرى كيف كان في الصحبة صافيا وفي المؤاخاة وافيا فلننظر الى ما كان منه حين وصل مع مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى باب الغار ليلة الهجرة ، فقد قال رضى الله عنه : يا رسول الله ، دعنى فلأدخل قبلك فان كانت حية أوشىء كانت لى قبلك ، قال : ادخل ، فدخل سيدنا أبو بكر فجعل يلتمس بيديه فكلما رأى جحرا جاء بثوبه فشقه ثم القمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع ، قال فبقى جحر فوضع عقبه عليه ، ثم أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فلما أصبح ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم : « فأين ثوبك يا أبا بكر ؟ » فاخبره بالذى صنع ، فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يده فقال ، « اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى يوم القيامة » فأوحى الله تعالى اليه : « ان الله قد استجاب لك » .

وقد نصح الصديق رضى الله عنه رعيته فكان فيما قاله لهم : يوصيكم الله لفقركم وفاقتكم أن تتقوه ، وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تستغفروه انه كان غفارا ، واعلموا أنكم ما أخلصتم لله عز وجل فربكم أطعتم ، وحقكم حفظتم ، فاعطوا ضرائبكم فى أيام سلفكم ، واجعلوها نوافل بين أيديكم تستوفوا سلفكم حين فقركم وحاجتكم ، ثم تفكروا عباد الله فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس ، وأين هم اليوم ، أين الملوك الذين كانوا أثاروا الارض وعمروها ، وقد نسوا ونسى ذكرهم ، فهم اليوم كلا شىء (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) وهم فى ظلمات القبور (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) وأين من تعرفون من أصحابكم واخوانكم ؟ قد وردوا على ما قدموا ، فحلوا الشقوة أو السعادة ، ان الله تعالى ليس بينه وبين احد من خلقه نسب يعطيه به خيرا أو يصرف عنه سوءا الا بطاعته واتباع أمره ، وانه لا خير بخير بعده النار ، والا شر بشر بعده الجنة ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

أما قول سيدى الشيخ عبد السلام فالبر بالفقراء مجلبة النعمة ، فيشير الى التدبر فى قوله تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد) لان انفاق المؤمن المال فى مرضاة الله تعالى شكر عملى لنعمة الله الذى آتاه المال وجعل يده به العليا التى تعطى ولا تأخذ، واليد العليا خير من اليد السفلى .

وبذلك الفهم جد السادة الصحابة الكرام فى التوسعة على الفقراء حين درت عليهم التجارة الأموال الوفيرة ، حتى لو نظرت فيما بذلوا لظننت أنهم أسرفوا فى البذل والعطاء اذا قست الامور بمعاييرنا فى هذا الزمان ، ولكنهم يرون أن الاسراف لا يكون الا حين ينفق المال فى سخط الله ولو كان قليلا ، أما انفاقه فى مرضاته تعالى فهو شكر لله مهما كان كثيرا ، وقد استمدوا فهمهم هذا من قوله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) فحرصوا على سعة العطاء فى سبيله سبحانه ليبقى لهم عندهم ما قدموه لأنفسهم من خير ، ولا يفوتنا أنهم تأسوا بفعل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وقد أعطى رجلا غنما تسد بين الجبلين فقال الرجل مبهورا : أشهد أنه ما طابت بمثل هذا الا نفس نبى .

ويقول أبو هريرة رضى الله عنه ان عثمان بن عفان رضى الله عنه اشترى الجنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين ، حين حفر بئر رومة ، وحين جهز جيش العسرة ، وبئر رومة حفرها سيدنا عثمان واوقفها لله تعالى يستقى منها المؤمنون بلا مقابل ، وجيش العسرة هو جيش غزوة تبوك ، وقد دعا له مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : اللهم لا تنس لعثمان ، ما على عثمان ما عمل بعد هذا ، وقد أثر عن سيدنا عثمان كذلك أنه كان يطعم الناس طعام الامارة ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت .

وعن عمار بن ياسر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا على ان الله تعالى قد زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب الى الله تعالى منها ، هى زينة الابرار عند الاله عز وجل ، الزهد فى الدنيا فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئا ولا ترزأ الدنيا منك شيئا ، ووهب لك حب المساكين : فجعلك ترضى بهم أتباعا ويرضون بك اماما » . ولذلك جاء فى حكم الامام كرم الله وجهه : من اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد فى الدنيا تهاون بالمصيبات ، ومن ارتقب الموت سارع الى الخيرات ، وقال كرم الله وجهه أيضا : كونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فان اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل . كما قال كرم الله وجهه : هلك خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة .

وتحدث السيدة سعدى بنت عوف امرأة سيدنا طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه فتقول : لقد تصدق طلحة يوما بمـــائة ألف درهم ، ثم حبسه عن الرواح الى المسجد أن جمعت له بين طرف ثوبه • وحدثوا عنه كذلك أنه رضى الله عنه باع أرضا بسبعمائة ألف ، فبات ذلك المـــال عنده ليلة فبات أرقا من مخافة المـــال ، حتى أصبح ففرقه •

وحدثوا عن سيدنا الزبير بن العوام رضى الله عنه فقالوا انه كان له ألف مملوك يؤدون اليه الخراج ، كان يقسمه كل ليلة ثم يقوم الى منزله وليس معه شىء • وحدثوا عنه أيضا انه مع وفرة ماله استشهد وفى ذمته دين كبير : ولم تكن ديونه عن اقتراض ، بل كان يأتيه الرجل بماله فيستودعه اياه ، فيقول الزبير لا ولكنه سلف ، فانى أخشى عليه الضيعة •

ويحدث عنه ابنه عبد الله بن الزبير فيقول : لمـــا كان يوم الجمل جعل الزبير يوصى بدينه ويقول : يا بنى ان عجزت عن شىء فاستعن عليه بمولاى ، قال فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت : يا أبت من مولاك ؟ فقال : الله • قال عبد الله ما وقعت فى كربة من دينه الا قلت يا مولى الزبير اقض دينه فيقضيه ، فحسبت ما عليه فوجدته ألفى ألف فقضيته •

أما سيدنا سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فقد مرض فعاده مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن له يومئذ الا ابنة واحدة فقال : يا رسول الله أوصى بمالى كله ؟ قال : « لا ، الثلث والثلث كثير » •

وأما سيدنا عبد الرحمن بن عوف فقد حدث عنه أبو نعيم بسنده أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « يا ابن عوف انك من الاغنياء ، ولن تدخل الجنة الا زحفا ، فاقرض الله عز وجل يطلق لك قدميك » قال ابن عوف : وما الذى أقرض الله قال : « تتبرأ مما أمسيت فيه » قال : من كله أجمع يا رسول الله ؟ قال : « نعم » فخرج ابن عوف وهو يهم بذلك ، فاتاه جبريل فقال : مر ابن عوف فليضف الضيف ، وليطعم المسكين ، وليعط السائل ، فاذا فعل ذلك كانت كفارة لمـــا هو فيه •

وحدث أبو نعيم بسنده عن سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه

كان لا يعجبه شيء من ماله الا خرج منه لله عز وجل : وكان ربما تصدق فى المجلس الواحد بثلاثين ألفا ، وقد أعطى فى مولاه نافع عشرة آلاف دينار — قال فهلا ما هو خير من ذلك ؟ هو لوجه الله تعالى .
وقد جاءه يوما عشرة آلاف درهم فجاء الى السوق يريد علفا لراحلته بدرهم نسيئة ، فقال من عرف أنه فرق عشرة الآلاف حتى لم يبق معه ما يشترى به علف راحلته : يا معشر التجار ما تصنعون بالدنيا وابن عمر أتته البارحة عشرة آلاف درهم ، فأصبح اليوم يطلب لراحلته علفا بدرهم نسيئة .

ويحدث عنه مولاه نافع رضى الله عنه فيقول : ان ابن عمر اشتهى عنبا وهو مريض ، فاشتريت له عنقودا بدرهم ، فجئت به فوضعته فى يده : فجاءه سائل فقام على الباب فسأل ، فقال ابن عمر : ادفعه اليه ، فوضعته فى يده ، فعاد السائل ، فقال ابن عمر : ادفعه اليه ، قلت : ذقه : كل منه ، قال لا ، ادفعه اليه : فدفعته : فما زال يعود السائل ويأمر بدفعه اليه حتى قلت للسائل فى الثالثة أو الرابعة — ويحك أما تستحى : فاشتريته منه بدرهم : فجئت به اليه فأكله .

أما قول سيدى الشيخ عبد السلام : وحسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ، فانه يقوى به ثقة تلميذه بربه سبحانه ، بالركون اليه والاعتماد عليه فى أموره كلها ، أما المؤمنون المؤازرون فهم أسباب الله : يشد بهم الازر : ويعين بهم عبده فى البر والتقوى : لأن المرء ضعيف بنفسه قوى باخوانه ، ويد الله مع الجماعة .

وحين ألقوا سيدنا ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بالمنجنيق فى النار قال معتمدا على حفظ ربه ورعايته : حسبى الله ، فجاءه جبريل عليه السلام ، فقال : يا ابراهيم ألك حاجة ، قال : اما اليك فلا ، وأما لربى فحالى يغنى عن سؤالى ، وعندئذ أمر الله تعالى النار فقال عز وجل (يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم) ولولم يقيد اللهبردها

بالسلام لقتلت ابراهيم ببردها ، وقال العلماء كذلك ان الخليل عليه الصلاة والسلام حين قال لجبريل عليه السلام : أما اليك فلا ، انما قالها وفاء لاعتماده على ربه وحـده حين قال : حسبى الله ، وهـذا هو ما يفسر به قوله تعالى (وابراهيم الذى وفى) فقد وفى بفعله فصدق بفعله ما قاله بلسانه حين قال : حسبى الله •

وقد كان نقش الخاتم الذى يلبسه الامام مالك رضى الله عنه : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فسألوه فى سبب اختياره ذلك القول ، فأجابهم : لان بعدها فى كتاب الله تعالى (فانقلبوا بنعمـة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم)•

الـذاكرون والمحبون

« ذكر الله بهاء ، والتوحيد صفاء ، والحب رضاء ، والقبول مكفول بحب الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أمدنا الله بمدده ، وهو سبحانه المعطى ، وقد أعطى القسمة للنبى صلى الله عليه وسلم » .

جاءت هذه الكلمات فى رسالة بعث بها شيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى ، نور الله ضريحه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعه زاده الله فضلا وبركة ، وقد بدأ الشيخ بتوجيه تلميذه الى ذكر الله ووصفه بأنه بهاء ، وذكر الله فى عمومه معناه أداء حقه سبحانه فيما أمر به أو نهى عنه ، وفى خصوصه معناه عدم الغفلة عنه ، فى ليل أو نهار ، لا فى السر ولا فى الجهر .

وذاكر الله مؤمن تقى لا يغفل عنه ولا ينساه ، والغافل عن الله كافر أو فاسق ينكره ولا يذكره ، ونفهم ذلك من المقابلة التى وردت فى قوله تعالى فى سورة الحشر : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون ● ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ● لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون» وكذلك من قوله تعالى فى سورة السجدة « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ● أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون ● وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون » .

والسادة الصوفية حين يتكلمون عن الذكر فانما يقصدون به ذكر الخواص المراعين أنفاسهم مع الله ، والذى يتدرج فيه المريد السالك فيذكر الله باللسان ثم يذكره بالقلب ثم يذكره بالروح ثم يذكره بالسر وهم يقولون ان ذكر الله باللسان انما هو ذكر حسنات ، وأما ذكر الله بالقلب فهو ذكر درجات ، وذكر الله بالروح فهو امتلاء القلب بمحبة الله ، ولا يحصر ثوابه ، أما ذكر السر فهو الذى لا يطلع عليه ملك

فيكتبه ولا شيطان فيفسده وهو ذكر السابقين المقربين ، والخواص المتحققين .

وذكر الله عندهم يكون باسمائه الحسنى ، فيردد المريد على لسانه الاسم الذى يأمره به شيخه ، فينطقه بلسانه ، ويراعى معناه فى قلبه مستحضرا عظمة الله سبحانه ، مستمدا منه العون ، وكأنه فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه باب العباد الى الله تعالى ؛ وكأن شيخه مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، لانه نائب عنه فى الارشاد الى طاعة الله تعالى ، وكأن الملائكة تحف به وتثبته فى جهاد نفسه وكسب انسه ، والله تعالى مع الجميع يرعاهم ويشدهم ويمدهم بعونه وفيضه ، وذلك الاستحضار يعين الذاكر على تركيز فكره وقلبه فى المذكور سبحانه .

والسادة الصوفية يقولون ان من خصائص ذكر الله بأسمائه الحسنى ، أنه غير موقوت بوقت معين ، فما من وقت من ليل أو نهار الا والمؤمن مأمور بذكر ربه فيه . والصلاة مع انها فرض وهى أشرف العبادات فقد لا تجوز فى بعض الاوقات ، وهم يؤولون قوله تعالى « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » فيقولون فى ذوقهم العالى ومشربهم الصافى أى قياما بحق الذكر ، وقعودا عن الدعوى فيه ، ومن ذلك ترى انهم نظروا فى تأويلهم الى بواطن الالفاظ ولم يقفوا عند ظواهرها وفهموا من خفايا الخطاب القدسى بنور قلوبهم مالم يفهمه غيرهم ، ولا عجب فى ذلك فقد سماهم الحق جل وعلا (أولى الالباب) حين قال سبحانه (ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ● الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) .

وهم يحاسبون السالكين على صدقهم فى ذكر الله تعالى ، فيقولون للسالكين : ان الله تعالى يقول فى الحديث القدسى : أنا جليس من ذكرنى ، فما الذى استفدتم من مجالسة الحق سبحانه ، وهم انما يقصدون بهذه المحاسبة أن يدربوا السالكين على مراعاة الحضور فى الذكر ، حتى لا يذكر السالك ربه فى غفلة وهو شارد اللب ، متفرق الاهواء فى أودية الدنيا ، فيحجبه شروده عن تلقى أنوار الذكر التى يحيا بها القلب ، وتستنير بها الروح .

وهم كذلك يقولون ، حياة الروح بالذكر ، وحيــاة الذكر بالذاكر ، وحياة الذاكر بالمذكــور ، ويضيفون الى ما تقدم قولهــم : ان من خصائص الذكر ان الله جعل فى مقابلته ذكر الله للذاكر ، وأى شرف هذا للذاكر ، فأين ذكر العبد لربه من ذكر الله له ، ويستندون فى ذلك الى قوله تعالى فى سورة البقــرة : (فاذكرونى أذكركم) واذا كان المرء يفرح اذا علم ان شخصا عظيما ذكره بالخير ، فكيف يكون فرحه اذا علم ان ربه الأعلى سبحانه ذكره فى خواصه وافاض عليه من جوده واحسانه فأخرجه من ظلمة الغفلة الى نور الذكر ومن قسوة القلب الى رقة الشعور .

وذكر اللسان يوصل الى ذكر القلب ، لانه تعالى أقام بحكمته رابطة بين الجوارح والقلب ، فتنتفع الجوارح من فعل القلب ، وينتفع القلب من فعل الجوارح ، ولذلك يعلق السادة الصوفية أهمية على ذكر اللسان لانه مدخل الى ذكر القلب ، وقد قال بعض السالكين لشيخهم : نحن نذكر الله تعالى ولا نجد فى قلوبنا حلاوة فقال لهم : احمدوا الله تعالى على أن زين جارحة من جوارحكم بطاعته .

ويصبو السادة الصوفية الى أن يصلوا فى نهاية الشوط الى ذكر الله تعالى على الحقيقة وهم يشيدون بذكر الله على الحقيقة فيقولون من ذكر الله تعالى على الحقيقة نسى فى جنب ذكره كل شىء ، وحفظ الله تعالى عليه كل شىء ، وكان له عوضا من كل شىء .

أقول والقرآن الكريم يشهد لهذا الذى ذهبوا اليه فى مثل قوله تعالى فى سورة آل عمران (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانــا وقالوا حسبنــا الله ونعم الوكيــل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضــل عظيم . انمــا ذلكم الشيطان يخــوف أوليــــــاءه فلا تخافوهم وخافــون ان كنتم مــؤمنين) فــدلت الآيــة على أن اليقين بالله تعالى يثبت القلوب فى مواطن الشدة ، ولا يتأتى مثل هذا اليقين الا للذاكرين الله على الحقيقة ، ويشهد لذلك قوله تعالى فى سورة الرعد (الذين آمنوا وتطمئن قلــوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

واطمئنان القلوب الذاكرة انمــا هو أثر من آثار المشــاهدة التى

يتميزون بها عن سواهم : لأن ذاكر الله يخرج بموالاة ذكره سبحانه من ميدان الغفلة الى فضاء المشاهدة ، فيشهد ربه بعين يقينه ، واذا شهد ربه بعين يقينه أيقن أنه لا فاعل الا الله ، فاذا كان فى شدة ، علم أنه سبحانه هو القادر وحده على كشفها ، واذا كان فى حرب مع الاعداء علم ان النصر من عند الله ، واذا كان فى نعمة علم أن الله تعالى ولى كل نعمة ، فيجب أن يشكر ربه فيها باستعمالها فيما يرضيه تعالى ، فيطمئن الى دوامها ، بل الى زيادتها ، وهكذا يكون مطمئنا بربه فى عسره ويسره ، وفى بلائه ورخائه (قل كل من عند الله) .

ومن هنا قال السادة الصوفية : ذكر الله بالقلب سيف المريدين ، به يقاتلون أعداءهم ، وبه يدفعون الآفات التى تقصدهم ، وان البلاء اذا أظل العبد ، فاذا فزع بقلبه الى الله تعالى يحيد عنه فى الحال كل ما يكرهه . وقد حدث عند فتح تستر ان أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« كم من ذى طمرين لا يؤبه له لو اقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك رضى الله عنه » فقال البراء : اللهم فانى أقسم عليك لما رزقتنى الشهادة ورزقت أصحابى الفتح ، قالوا فاستجاب الله دعاءه ، فاستشهد البراء وفتح الله على المسلمين .

ويعلمنا سيدنا أبو بكر الصديق درسا قيما فى اليقين بالله تعالى فيقول رضى الله عنه :

ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل اشتغلت بها عما سواها احداها قوله تعالى (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله) فعملت أنه ان أرادنى بخير لم يقدر أحد أن يمنعه عنى غيره ، وان أرادنى بشر لم يقدر أحد أن يصرفه عنى غيره والثانية قوله تعالى (فاذكرونى أذكركم) فاشتغلت بذكره تعالى عن كل مذكور سوى الله ، والثالثة قوله تعالى (وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها) فوالله ما أهمنى رزقى منذ قرأت هذه الآية ، بمعنى أنه لم يقلق على رزقه بل اطمأن عليه بالله الذى كفله له ، فأخذ فى أسباب التكسب مع حسن التوكل على الله الذى تكفل بالأرزاق .

وقد مدح الله تعالى أهل الصفة رضوان الله عليهم ، وأوصى بهم سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم فقال تعالى فى سورة الكهف

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) وفى الآية نهى عن طاعة أهل الغفلة ممن غلبهم هوى نفوسهم ، لأن بصيرتهم مطموسة لا ترى الحق حقا ولا الباطل باطلا ، لان هــوى النفــوس يعمى عن الحق ويصم والعياذ بالله .

ويقول السادة الصوفية : ان الله تعالى يرزق حلاوة ذكره سبحانه فان فرح المؤمن بها وشكر الله تعالى آنسه ربه بقربه ، وان قصر فى شكر الله أجرى الله الذكر على لسانه وسلبه حلاوته . وهم كذلك يقولون : الغافلون يعيشون فى حلم الله ؛ والذاكرون يعيشون فى رحمة الله ، والعارفون يعيشون فى لطف الله ، والصادقون يعيشون فى قرب الله ، والقرب هنا ليس قرب مسافة بل هو قرب معرفة ومشاهدة ويقين واستئناس بالمذكور جل جلاله ، فقد قالوا ان الذكر طعام العارفين فلا تستغنى أرواحهم عنه ، ولا تحيا الا به وله .

وقد رأى الناس سبحة فى يد الامام الجنيد ؛ وكان سيد الصوفية وامامهم فى القرن الثالث الهجرى ؛ فقالوا له : انت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة ، فقال : طريق به وصلت الى ربى لا أفارقه . ويعتبر السادة الصوفية ان الغفلة عن ذكر الله نوم ثقيل ، ويرون أن ثقــل الغفلة يوقع الغافل فى الشهوة ، ومن حكمهم فى هذا الشأن قولهم : لا نوم أثقل من الغفلة ، ولا رق أملك من الشهوة ، ولولا ثقل الغفلة عليك لــا ظفرت بك الشهوة ، وقد قال سيدنا يوسف الصديق عليه السلام حين دعته امرأة العزيز الى الفاحشة : (رب السجن أحب الى ممــا يدعوننى اليه والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم) وما ذلك الا من قوة مشاهدته لربه ودوامه على ذكره ، وقد استجاب الله له وصرف عنه كيد النساء وجعل له من محنة السجن منحة ، فخرج من السجن حاكما بعد أن كان محكوما ، وآمرا بعد أن كان مأمورا ، ولم تكن له أمنية عند ربه الا ان يقبضه على ملة الاسلام ويلحقه بالصالحين من الأنبياء والمرسلين فقد قال عليه السلام (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السمــوات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين) .

وهم يتدرجون بالسالكين فى مدارج الذكر حتى يمتلىء القلب من محبة الله تعالى ، فيتجنب السالك المعصية ، وتكون أوقاته فى طاعة ربه فى سره أو جهره ، وفى ليله أو نهاره ، وعند ذلك يقطع المفاوز الى الآخرة ، ومن حكمهم فى هذا المقام قولهم : مفاوز الدنيا تقطع بالاقدام ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب ، ومن ذلك ترى ان المعول عندهم على ذكر القلب فى التقرب الى الله وكسب رضاه ويحكى لنا سيدى الامام سهل بن عبد الله التسترى كيف تدرج به فى ذكر الله تعالى خاله الصالح سيدى محمد بن سوار فيقول :

قال لى خالى يوما : ألا تذكر الله الذى خلقك ؟

فقلت : كيف أذكره ؟

قال لى : قل بقلبك عند تقلبك فى ثيابك (أى عند النوم) ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك : الله معى ، الله ناظر الى ، الله شاهد على •

فقلت ذلك ثلاثة أيام ، ثم أعلمته به ، فقال لى :

قل فى كل ليلة سبع مرات ، فقلت ذلك ثم أعلمته ، فقال : قل فى كل ليلة احدى عشرة مرة ، فقلت ذلك ، فوقع فى قلبى له حلاوة •

فلما كان بعد سنة قال لى خالى : احفظ ما علمتك ودم عليه الى أن تدخل القبر ، فانه ينفعك فى الدنيا والآخرة •

فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت لها حلاوة فى سرى •

ثم قال لى خالى يوما : يا سهل ، من كان الله معه ، وهو ناظر اليه وشاهده ، أيعصيه ؟ اياك والمعصية •

ولعل السادة القراء فهموا مما تقدم لماذا قال سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى لتلميذه : ذكر الله بهاء ، فليس أبهى من مؤمن ذكر الله فذكره الله وجاد عليه برضاه ••

وأما قول سيدى الشيخ : والتوحيد صفاء ، فانه أراد أن ينبهتلميذه الى أن السادة الصوفية بنوا قواعد أمـرهم على أصول صحيحـة فى التوحيد ، فكان توحيدهم صافيا ، افردوا فيه القلب والقالب لله تعالى وحده ، وها هو ذا الامام القشيرى رضى الله عنه يتكلم عنهم فى رسالته القيمة فيقول فى هذا المقام :

اعلموا ، رحمكم الله ، ان شيوخ هذه الطائفة قد بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة فى التوحيد ، صانوا بها عقائدهم عن البدع ، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل ، وعرفوا ما هو حق القدم ، وتحققوا بما هو نعت الموجود من العدم (أى الحادث الذى أوجده الله بعد ان لم يكن) ، ولذلك قال سيد هذه الطائفة الجنيد رحمه الله : التوحيد افراد القدم من الحدث ، كما قال :

ان أول ما يحتاج اليه العبد من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه والمحدث كيف كان احداثه ، فيعرف صفة الخالق من المخلوق ، وصفة القديم من المحدث ويذل لدعوته ، ويعترف بوجوب طاعته ، فان من لم يعرف مالكه لم يعترف بالملك لمن استوجبه .

ويقول السادة الصوفية ان صفاء العبادات لا ينال الا بصفاءالتوحيد ويقول الامام الجنيد : التوحيد علمك واقرارك بأن الله فرد فى أزليته لا ثانى معه ، ولا شىء يفعل فعله ، وأنه الواحد الـذى لم يلد ولم يولد ، بنفى الاضداد والانداد والأشـباه ، بلا تشـبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) .

ويقول الامام عمرو بن عثمان المكى رضى الله عنه :

كل ما توهمه قلبك ، أو سنح فى مجارى فكرك ، أو خطر فى معارضات قلبك من حسن أو بهاء أو أنس أو جمال أو ضياء أو شبح أو نور أو شخص أو خيال فالله تعالى بعيد من ذلك ، ألا تسمع الى قول الله تعالى (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) وقوله (لم يلد ولـم يولد ولم يكن له كفوا أحد) .

وقد رأى الامام سيدى جعفر الصادق جده رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه فسأله عن حقيقة التوحيد ، فعلمه قاعدة رائعة مختصرة ، فقال له صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه :

« كل ما خطر ببالك فهو هالك والله بخلاف ذلك » .

وما أعظمه صلى الله عليه وسلم من معلم ، فليحرص كل قارىء على هذه القاعدة الثابتة ويعلمها لغيره .

ويعلمنا سيدى الامام جعفر الصادق كذلك أن نكف عن الكلام فى قضاء الله وقدره ، فيقول فى روعة من بيانه رضى الله عنه ان الله تعالى أراد منا شيئا وبينه لنا ، واراد بنا شيئا وطواه عنا ، أراد منا الطاعة والكف عن المعصية ، واراد بنا ما قضاه علينا وقدره ، فلا يجوز ان نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا .

وقد نهى الشرع الحنيف عن الجدل فى القضاء والقدر ، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه فقال :

خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى القدر، فغضب حتى احمر وجهه ثم قال :

« أبهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت اليكم ، انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا » .

وقد سأل رجل الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن القدر ، فقال الامام للرجل : طريق دقيق لا تمش فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين، أخبرنى عن القدر ، فقال : بحر عميق لا تخض فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرنى عن القدر ، فقال : سر خفى لا نفشيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرنى عن القدر ، فقال ، ان الله تعالى خلقك كما شاء أو كما شئت ؟ فقال : كما شاء ، فقال : ان الله تعالى يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء ؟ قال : كما شاء ، قال : الك مشيئة مع مشيئة الله ، أو فوق مشيئة الله ، أو دون مشيئته ؟ أما ان قلت مع مشيئته ادعيت الشركة معه ، وان قلت دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وان قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيئته .

أما ما يقوله سيدى الشيخ لتلميذه من ان القبول مكفول بحب الرسول ، فانه يبين له اثر محبة المؤمن لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهى باب القبول عند الله عز وجل ، ذلك بأن محبته صلى الله عليه وسلم علامة على محبة الله تعالى لأنه صلى الله عليه وسلم

هو الذى دعانا الى الله باذنه ، فاهتدينا على يديـــه الى الله سبحانه، كما أنه صلى الله عليه وسلم بلغنـــا ما أنزل اليه من ربه ، وفصـــل لنا ما أجمله كتاب الله عـــز وجل ، وبين لنـــا حلاله وحـــرامه ، وكان امام الامة بأقواله وأفعـــاله وأحواله ، وألزمنا الله طـــاعته فى ذلك كله فقال جل شأنه (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وبين لنا سبحانه ان طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم انما هى طاعة لله ، فقال عز وجل (من يطع الرسول فقد أطاع الله) كما بين أن طاعته صلى الله عليه وسلم هى سبيل الاهتداء (وان تطيعوه تهتدوا) وحذرنا سبحانه من مخالفته تحـــذيرا شـــديدا فقال تعالى (فليحـــذر الذين يخالفون عن أمـــره أن تصـــيبهم فتنـــــة أو يصـــيبهم عــــــذاب أليم) كما أنه تعالى علمنا طريق الفوز العظيم فقال جل جلاله (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) •

ويقول السادة الصوفية ان أصـــول الدين هى اثبـــات صدق الافتقار الى الله تعالى ، وحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قالوا ان فروع الدين أربعة : الوفاء بالعهود ، وحفظ الحـــدود ، والرضا بالموجود ، والصبر على المفقود •

ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم هى علامة محبته لان المحبة تدعو المحب الى التقليد والتأسى اعتزازا من المحب بحبيبه واعجابـــا به وتقديرا لفضله ، لا بل ان متابعته صلى الله عليه وسلم دليل على محبة المؤمن لربه سبحانه ، لانه تعالى يقول (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لـــكم ذنوبكم والله غفور رحيم) فمتابعته صلى الله عليه وسلم تؤدى الى أن يحب الله عبده ويغفر له ذنبـــه ويقبله فى جنبه ، ومن ذلك يتبين قول سيدى الشيخ : والقبول مكفول بحب الرسول صلى الله عليه وسلم •

وقد روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : متى الساعة ؟ فقال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : ما أعددت لها ؟ قال : حب اللهورسوله ، قال : أنت مع من أحببت : وفى رواية للبخارى ومسلمقال أنس : فما فرحنا بشىء فرحنا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت ،

فأنا أحب النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبى اياهم •

وأخيرا يسأل سيدى الشيخ ربه ان يمده بمدد النبى صلى الله عليه وسلم ، ويرشد تلميذه الى أن العطاء انما هو من الله سبحانه ويأتينا على يد حبيبه ومصطفاه ، الذى أرسله رحمة للعالمين ، وجعله قاسما لعطاء الله بين العباد ، بما شاء سبحانه ان يكون ، كما جعله هاديا الى الايمان لمن شاء الله لهم الايمان ، دالا بذلك على ان عطاءه سبحانه يجرى بأسبابه وفق ما قضى وقدر ، والاسباب خلقه ، والقضاء سلطانه ، ولا معطى لما منع ، ولا مانع لما اعطى ، وما مكن فيه رسوله لا اعتراض عليه الا من جهول خلط فغلط ، واتبع هواه بغير علم من الله ، فان تكلمنا فى مدد الرسول فانما نتكلم فى معرض الاسباب التى اقامها سبحانه وتعالى بحكمته ، وشهدنا ان العطاء من الله يأتينا على يد رسوله ، الذى أقامه فينا وجعله حجة لنا أو علينا ؛ فسمعنا كلام الله منه واخذناه عنه ، فكان صلى الله عليه وسلم الواسطة لله ، ولولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط ، فصلوات الله وسلامه عليه ما نعمنا بشرعه الحنيف ، وما والانا الله بمدده الشريف ، وما غمرتنا أنواره وهو السراج المنير ، وما أكرمنا الله ببركته صلى الله عليه وسلم ورأفته ، وما رحمنا بعطفه صلى الله عليه وسلم ورحمته، فهو القائل سبحانه فى وصف رأفته ورحمته بنا صلى الله عليه وسلم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم • فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) •

ولقد دخل الامام أبو بكر الشبلى على رجل صالح فقبله ذلك الصالح بين عينيه وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام يقبله ، فقلت له يا رسول الله بماذا استحق الشبلى منك ذلك ، فقال انه يقرأ عقب كل صلاة الآيتين الاخيرتين من سورة التوبة (وهما الايتان الواردتان فى الفقرة السابقة) ثم يصلى على ثلاث مرات •

ويخاطب العارف العالم سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى (والد شيخى وسيدى عبد السلام) مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول فى احدى قصائده :

بالله صــل حبــل الرجاء تفضلا
أنا ضـــيف جــودك يا امــام أولى الكرم
جــد للضــعيف بمبتغــاه فانــه
ما للضعيف سوى رحــابك ملتزم
جــد لى فان خــزائن الرحمن فى
يــدك اليمين وأنت أكــرم من قسم

اللهم اجعلنا أهلا لشرف الانتساب اليه ، واجعلنا يوم القيــامة من المحمولين عليه ، يوم تفزع الخلائق بين يديه طالبين شفاعته العظمى ، فيقول فى ثقة بربه ، وتوكلا عليه : أنا لها ان شاء الله ، ثم يسجد لله تعالى ، ويثنى على ربه بما يفتح الله ، فيناديه ربه : يا محمد ارفع رأسك واشفع تشفع ، وسل تعط ، وقل يسمع لك ، فيرفع رأسه ويشفع لاهل الموقف فى الانصراف ، فيقول : يارب مر بعبادك الى الحساب ، فقد اشتد الكرب ، فيجاب الى ذلك ، وهذا هو المقام المحمود الوارد فى قوله تعالى (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمــودا) .

آل البيت ووراثة الاخلاق النبوية

« وأنت موصوف كما وصف النبى صلى الله عليه وسلم بأنه صافى الروح ، صافى النور ، صافى القبضة ، صافى القلب ، صافى الذات ، صافى التوحيد ، صافى العمل ، صافى الوقت ، لاستغراقه فى جمال ربه ونعمه ، فهو مبعوث دائما بالصفاء وصفاء الصفاء والوفاء » .

« اذا تشبهت بالنبى صلى الله عليه وسلم فأنت جدير بذلك الصفاء لأنك بعنصرك وأرومتك تنتمى الى بنى الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن تشبه بأصله فما ظلم » .

ذلك مما كتب سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصديق الصالح المبارك السيد/سالم جمعة حفظه الله ورعاه ، وهى ترينا كيف يتحلى المؤمن بمكارم الأخلاق حين يتأسى فى أقواله وأفعاله وأحواله بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى بلغ الغاية فى المكارم بشهادة الله الذى يعلم السر وأخفى ، فقد وصفه سبحانه أخلد وصف فى قوله الكريم (وانك لعلى خلق عظيم) وهذا فى الاجمال ، أما فى التفصيل فيتعرض القرآن الكريم لنواحى الخلق العظيم فى مواضع شتى ، فمثلا يصف رب العزة رسوله الأمين فى رأفته ورحمته بالمؤمنين فيقول جل جلاله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) ويصفه فى لين الجانب والسماحة فيقول (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) ويصفه سبحانه مرة أخرى فى تمنى الخير للناس حرصا على اسعادهم بالايمان وأسفه الشديد على كفرهم بالقرآن المجيد فيقول سبحانه (فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) وهكذا نرى صورة الأخلاق النبوية المثلى فى جانب صلته بالناس عامة وبالمؤمنين خاصة .

أما فى جانب صلته بالله تعالى فقد قام الليل صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه ، فقال له جبريل أبق على نفسك فان لها عليك حقا ، وأنزل الله عليه قوله تعالى (طـه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) وفى توجهه صلى الله عليه وسلم لربه وركونه اليه فيما يريد ، يقول الحق جلا وعلا

(قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) وكان صلى الله عليه وسلم يود لو يحوله الله الى المسجد الحرام بدلا من الصلاة الى بيت المقدس ، وكن يتطلع الى ربه ويحسن ظنه به فى تحقيق تلك الرغبة التى قصد بها تأليف قلوب العرب للاسلام ، باعتبار المسجد الحرام أقدم القبلتين ، كما أنه قبلة أبيهم ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، فضلا عن مخالفة اليهود الذين دلتهم التوراةعلى صحة الرسالة المحمدية ، ولكنهم تجاهلوا واستحبوا العمى علىالهدى « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضـــل سبيلا » •

وكان صلوات الله وسلامه عليه اذا حزبه أمر قام الى الصلاة يفرج بها عن نفسه ، وكيف لا يفعل وقد دله الله تعالى على ذلك فى قوله الكريم (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون • فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين • واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) والصلاة تجمع بين التسبيح والسجود وهما العلاج الذى وصفه الله تعالى لضيق الصدر •

وسيدى الشيخ يشير الى صفاء الفطرة الذى ورثه تلميذه من أجداده الاشراف الكرام البررة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، فكانوا أئمة الهدى على مر الأجيال ، ذرية بعضها من بعض ، وقد دلت التجارب العملية فى الانسان والحيوان والنبات على قيام وراثة الصفات بين الفرع وأصله وكما تورث الصفات المـــادية تورث كذلك الصفات الخلقية والمعنوية ، وسبحان من ربط بين الأسباب وثمراتها وفرق مـــع اتحاد الجنس بين الخبيث والطيب والفاضل والمفضول (وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقـــوم يعقلون) •

وقد رأينا أن أقل الطاعات تبدو أنوارها على السادة الأشراف لصفاء فطرتهم وصدق يقينهم وحسن ظنهم بالله تعالى ، كما أنهم يندمون أشد الندم على أية صغيرة تقع منهم ، وهم قريبو البكاء لرقة قلوبهم ودقة شـــــــــعورهم •

كما رأينا أن أهل الهمة فيهم لا يشق لهم غبار ، أما فى الليل فصافون أقدامهم « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا » ، وأما

فى النهار ، فمأمون شرهم مأمول خيرهم ، يأمرون بالمعروف ويفعلونه، وينهون عن المنكر ويبطلونه وأما فى الصدقات فيؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ويقول امامنا على كرم الله وجهه : أشد الأعمـــال ثلاثة ، اعطاء الحق من نفسك ، وذكر الله على كل حال ، ومواســـــاة الأخ فى المـــال •

وقد روى الامام أبو نعيم فى الحلية بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سره أن يحيـــــا حياتى ، ويموت مماتى ، ويسكن جنة عدن غرسها ربى فليوال عليـــــا من بعدى وليوال وليه ، وليقتد بالأئمة من بعدى ، فانهم عترتى خلقوا من طينتى ، ورزقوا فهما وعلمـــا ، وويل للمكذبين بفضـــلهم من أمتى ، القاطعين فيهم صلتى ، لا أنالهم الله شفاعتى) •

وانك لتعجب من الوصف الذى وصف به ضرار الكنانى امامنا عليا كرم الله وجهه فى مجلس معاوية ، فقد دخل ضرار على معاوية يوما فقال له: صف لى عليا يا ضرار ، فقال له : أو تعفيننى ، قال لا أعفيك،فقال ضرار: أما اذ لابد من وصفه ، فانه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى،يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبـــــه ، وتنطق الحكمة من نواحيـــــه •

يستوحش من الدنيا وزهرتها : ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن •

كان والله كأحدنا يدنينا اذا أتيناه ، ويجيبنا اذا سألناه ، وكان مع تقربه الينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له •

فان تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظـــم أهـــل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القـــوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأشهد بالله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، يميل فى محرابه قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم (أى الملدوغ) ويبكى بكاء الحزين ، فكأنى أسمعه الآن وهو يقول : ياربنا ياربنا ــ يتضرع اليهـــثم يقول للدنيا،الى تقربت،الى تشوقت،غرى غيرى،

قد طلقتك ثلاثا ، فعمرك قصير،ومجلسك حقير ، وعطرك يسير ، آه آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق •

قالوا فسالت دموع معاوية على لحيته ما يملكها ، وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء ، وقال معاوية : هكذا كان أبو الحسن رحمه الله، فكيف كان حزنك عليه ياضرار ؟ قال حزن من ذبح واحدها فى حجرها ، لا ترقأ دمعتها ، ولا يسكن حزنها ، ثم قام ضرار فخرج •

ولنأخذ من بكاء معاوية العبرة والاعتبار ، فان فضل الأئمة العدول من سادتنا آل البيت لا يموت وان ماتت أجسادهم ، ولا يستطيع أن ينكر فضلهم الثابت خصم عنيد أو عدو حسود الا كما ينكر ضوء الشمس مكفوف البصر ، ويقول السادة الصوفية بحق : وما ذنب البستان اذا قصرت فى جنى ثماره ، وما ذنب النهار اذا أغمضت العين عن شهود أنواره ؟

وأمامنا على كرم الله وجهه عظيم من عظماء الاسلام الشوامخ ، فهو كما يقول الامام أبو نعيم فى حلية الأولياء : قدوة المتقين ، وزينة العارفين، المنبىء عن حقائق التوحيد ، المشير الى لوامع علم التفريد ، صاحب القلب العقول ، واللسان السؤول ، والأذن الواعى ، والعهد الوافى ، محب المشهود ، ومحبوب المعبود •

ومن روائع حكم امامنا على كرم الله وجهه •

احفظوا عنى خمسا ، فلو ركبتم الابل فى طلبهن لأفنيتموهن قبل أن تدركوهن : لا يرجو عبد الا ربه ، ولا يخاف الا ذنبه ، ولا يستحى جاهل أن يسأل عما لا يعلم ، ولا يستحى عالم اذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم ، والصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا ايمان لمن لا صبر له •

وكذلك يقول كرم الله وجهه •

أن أخوف ما اخاف اتباع الهوى وطول الأمل ، فاما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ، ألا وان الدنيا قد ترحلت مدبرة ، ألا وان الآخرة قد ترحلت مقبلة ، ولكل واحد منهما

بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فان اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل •

وقد أخذ السادة الصوفية الكثير من علم امامنا على واشاراته،ويرون بحق أن علمه علم لدنى مما يؤتيه الله لخاصته وأوليائه ، حتى قال الامام الجنيد رضى الله عنه مشيرا الى فضله : لو لم تشغله الحروب لأفادنا فى علمنا هذا معانى كثيرة ، ذاك امرؤ أعطى علما لدنيا ، ولذلك كان الامام كرم الله وجهه يقول متحدثا بنعمة ربه : لو شئت أو قرت سبعين جملا فى تفسير سورة الفاتحة ، كما كان يقول وهو يشير الى صدره : ان ها هنا لعلما جما لو أجد له حملة •

ويرشدنا الصوفى الكبير سيدى السرى السقطى رضى الله عنه ، وهو أستاذ الامام الجنيد رضى الله عنه ، فيقول ناصحا لنا : الأمور ثلاثة : أمر بان لك رشده فاتبعه ، وأمر بان لك غيه فاجتنبه ، وأمر أشكل عليك فقف عنده ، وكله الى الله عز وجل ، وليكن الله دليلك ، واجعل مفرك اليه تستغن به عمن سواه •

كما أنه رضى الله عنه يرشدنا الى أن نفعل ما نقول ونقهر هوى نفوسنا ومن حكمه : ما أكثر من يصف الصفة وأقل من يوافق فعله صفته،وقوله: أقوى القوة غلبتك نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز ، ومن أطاع من فوقه أطاعه من دونه وقوله : أحسن الأشياء خمسة •• البكاء على الذنوب ، واصلاح العيوب ، وطاعة علام الغيوب ، وجلاء الرين من القلوب ، وألا تكون لكل ما تهوى الركوب •

وفى كل جيل من أجيال هذه الأمة يأخذ الناس تربيتهم عن أئمة الهدى من سادتى آل البيت الكرام ، فهم نجوم يقتدى بهم السالكون ويسترشد بهم الحائرون ، والاضطهاد الذى وقع عليهم كان سببا لانتشارهم فى المشارق والمغارب ، فعم نورهم الآفاق ، وسبحان من اذا شاء قلب المحن منحا ، (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) وهم فى كل زمان رضى الله عنهم دعاة أمن وايمان ، وحريصون على نفع الأمة ما وسعهم الجهد ، ويحدثنا أبو حمزة الثمالى فيما رواه أبو نعيم فى الحلية بسنده عن امام من أجل الأئمة الاشراف ، هو سيدى الامام على زين العابدين ابن الامام الحسين السبط رضى الله عنهم أجمعين فيقول :

أتيت باب على بن الحسين فكرهت أن أضرب ، فقعدت حتى خرج فسلمت عليه ، ودعوت له ، فرد على السلام ودعا لى ، ثم انتهى الى حائط له ، قال يا أبا جمزة : ترى هذا الحائط ، قلت بلى يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فانى اتكأت عليه يوما وأنا حزين،فاذا رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ينظر فى تجاه وجهى ثم قال : يا على ابن الحسين ، مالى أراك كئيبا حزينا ، أعلى الدنيا ، فهى رزق حاضر،يأكل منها البر والفاجر ، فقلت ما عليها أحزن لأنها كما تقول ، فقال ، أعلى الآخرة ، فهى وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر ، قلت ما على هذا أحزن لأنها كما تقول ، فقال ، وما حزنك يا على بن الحسين ؟ قلت ، ما أتخوف من فتنة ابن الزبير ،فقال : يا على ، هل رأيت أحدا سأل الله فلم يعطه؟ قلت ، لا ، ثم قال ، فخاف الله فلم يكفه ؟ قلت لا ، ثم غاب عنى ، فقيل لى يا على ، هذا الخضر عليه السلام ناجاك •

والسادة آل البيت الكرام يتمسكون على الدوام بالحق ، ولا يحيدون عنه يمنة أو يسرة ، ولا يحبــون أن يجاملوا على حســاب الحــق ، وها هو ذا سيدى على زين العابدين رضى الله عنه يحدثنا بما وقع بينــه وبين المتطرفين من غلاة الشيعة فيقول :

أتانى نفر من أهل العراق ، فقالوا فى أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم (أى قولا غير لائق) ، فلما فرغوا ، قلت لهم : ألا تخبروننى ، أنتم المهاجرون الأولون « الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغــون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » قالوا : لا ، قلت ، فأنتم الذين « تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» قالوا : لا ، قلت : أما أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحــد هــذين الفريقين ، ثم قلت : أشهد أنكم لستم من الذين قال فيهم الله عز وجل (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) أخرجوا فعل الله بكم •

وكان رضى الله عنه ينصح الناس لله وللرسول ، فكان يقول :

يا معشر أهل العراق ، يا معشر أهل الكوفة ، أحبونا حب الاسلام ولا ترفعونا فوق حقنا • ومن خصاله الشريفة رضى الله عنه أنه كان

اذا تصدق على سائل بصدقة قبل (بتشديد الباء) السائل قبل أن يعطيه الصدقة • وكان رضى الله عنه على علمه وفضله يجلس الى زيد بن أسلم ويسمع من علمه ، وقد قالوا له : مثلك يا امام يجلس الى هذا المولى ؟ فقال رضى الله عنه : انما يجلس الرجل الى من ينفعه فى دينه • فانظر رعاك الله كيف كان يتواضع للعلم والعلماء وهو امام وقته غير منازع •

ويعلمنا سيدى الامام زين العابدين رضى الله عنه فيقول : اذا كان يوم القيامة نادى مناد : ليقم أهل الفضل ، فيقوم ناس من الناس ، فيقال ، انطلقوا الى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون : الى أين ؟ فيقولون : الى الجنة ، قالوا : قبل الحساب ؟ قالوا نعم ، قالوا : من أنتم : قالوا : أهل الفضل قالوا : وما كان فضلكم ؟ قالوا ، كنا اذا جهل علينا حلمنا ، واذا ظلمنا صبرنا ، واذا أسى علينا غفرنا ، قالوا : ادخلوا الجنة ، فنعم أجر العاملين •

ثم ينادى مناد ، ليقم جيران الله فى داره ، فيقوم ناس من الناس وهم قليل ، فيقال لهم ، انطلقوا الى الجنة فتتلقاهم الملائكة ، فيقال لهم مثل ذلك ، قالوا وبم جاورتم الله فى داره ؟ قالوا : كنا نتزاور فى الله عز وجل ، ونتجالس فى الله ، ونتبادل فى الله ، قالوا : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين •

واذا أردت أن تشرب غرفة سائغة هنيئة من بحر علمه الغزير ، فاستمع الى الامام ابن شهاب الزهرى اذ يحدثنا عنه فيقول :

دخلنا على الامام على بن الحسين بن على فقال : يا زهرى فيم كنتم؛ قلت تذاكرنا الصوم فأجمع رأيى ورأى أصحابى على أنه ليس من الصوم شىء واجب الا شهر رمضان •

فقال : يا زهرى ليس كما قلت •

الصوم على أربعين وجها ، عشرة منها واجبة كوجوب شهر رمضان ، وعشرة منها حرام ، وأربع عشرة خصلة صاحبها بالخيار ، ان شاء صام وان شاء أفطر ، وصوم النذر واجب ، وصوم الاعتكاف واجب •

قال ، قلت فسرهن يا ابن رسول الله •

قال : أما الواجب فصوم شهر رمضان ، وصيام شهرين متتابعين ، يعنى فى قتل الخطأ ان لم يجد العتق — قال تعالى (ومن قتل مؤمنا خطأ) الآية وصيام ثلاثة أيام فى كفارة اليمين ان لم يجد الاطعام ، قال عز وجل (ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم) وصيام حلق الرأس ، قال الله تعالى (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه) الآية ، صاحبه بالخيار ان شاء صام ثلاثا : وصوم دم المتعة لمن لم يجد الهدى ، قال تعالى (فمن تمتع بالعمرة الى الحج) الآية ، وصوم جزاء الصيد ، قال الله عز وجل (ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم) الآية ، وانما يقوم ذلك الصيد قيمة ثم يقص ذلك الثمن على الحنطة •

وأما الذى صاحبه بالخيار ، فصوم يوم الاثنين وخميس ، وصوم ستة أيام من شوال بعد رمضان ، ويوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، كل ذلك صاحبه بالخيار ، ان شاء صام وان شاء أفطر •

وأما صوم الاذن ، فالمرأة لا تصوم تطوعا الا باذن زوجها ، وكذلك العبد والأمة •

وأما صوم الحرام ، فصوم يوم الفطر ويوم الأضحى ، وأيام التشريق ، ويوم الشك نهينا أن نصومه كرمضان ، وصوم الوصال حرام ، وصوم الصمت حرام ، وصوم نذر المعصية حرام ، وصوم الدهر حرام ، والضيف لا يصوم تطوعا الا باذن صاحبه ، قال صلى الله عليه وسلم « من نزل على قوم فلا يصومن تطوعا الا باذنهم » ويؤمر الصبى بالصوم اذا لم يراهق تأنيسا وليس بفرض ، وكذلك من أفطر لعلة من أول النهار ثم وجد قوة فى بدنه أمر بالامساك ، وذلك تأديب الله عز وجل وليس بفرض ، وكذلك المسافر اذا أكل من أول النهار ثم قدم أمر بالامساك •

وأما صوم الاباحة فمن أكل أو شرب ناسيا من غير عمد فقد أبيح له ذلك وأجزأه عن صومه ، وأما صوم المريض وصوم المسافر ، فان العامة اختلفت فيه ، فقال بعضهم يصوم ، وقال قوم لا يصوم ، وقال قوم ان شاء الله صام وان شاء أفطر ، وأما نحن فنقول يفطر فى

الحالين جميعا ، فان صام فى السفر والمرض فعليه القضـــاء ، قال الله عز وجل (فعدة من أيام أخر) •

هذا وكما كان سيدى الامام زين العابدين ينهى عن الغلو فى التشيع كان ابنه سيدى الامام محمد الباقر ينهى كذلك عنه ، فقد سئل رضى الله عنه عن حلية السيوف فقال : لا بأس به قد حلى أبو بكر الصديق رضى الله عنه سيفه ، فقال له قائل ، وتقول الصديق ، قال فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال نعم الصديق ، فمن لم يقل له الصديق فلا صدق الله له قولا فى الدنيا والآخرة •

ومرة أخرى قال سيدى الامام الباقر رضى الله عنه:من لم يعرف فضل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فقد جهل السنة •

ولعل القارىء الكريم رأى مما تقدم كيف تحلى سادتنـــا آل البيت الكرام بالصفاء والوفاء والطهر والعفاف تأسيا بجدهم سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عجب فى ذلك فانه تعالى يقول فى شأنهم (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)•

رحمـــة الشـــيوخ
الأوليـاء بتـلاميذهم

« الفاضل المحترم الذى خلقه الله سالمـــا من الشرور ، بل جعله على سنة الابرار فى الليل والنهار ، زائد الانوار من النبى المختار ، فهـــو سالم باسمه ، سالم بوصفه ، سالم مع الله ، سالم مع الناس ، سليم الطوية ، خالص النية ، لا يوصف الا بالكمال من صفوة الرجال ، فهو ابن عمر جمعه ، جمعه الله على خـــيرة من خلقه الله ، وعرفه بالله آمـــــين » .

جاءت السطور المتقدمة فى صدر رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، الى تلميذه الصـــالح التقى الصديق السيد / سالم عمر جمعه زاده الله فضلا وتوفيقا ، وهى ترينا كمال سيدى الشيخ فى مخاطبة تلاميذه ، وتكشف عن الرحمة المودعة فى قلبه الكبير لهم ، وتبين لنا كيف كان ينزلهم منازلهم ، فاذا صورهم الشيخ بكماله فى صورة من الكمال أسرهم حسن ظنه بهم ، فحرصوا بكل وسيلة أن يكونوا على الدوام عند هذا الظن الجميل ، واذا أراهم كيف يعامل الرجال ، احتذوا حذوه فى معـــــاملة غيرهم فاحترموهم وكرموهم بما حباهم الله من فضله ، على ان وصف الشيخ لتلاميذه فى صورة الكمال الذى يراه لهم فى نفسه انما يوجههم به أيضا الى بلوغه بكل جهد مستطاع ، والشيخ معوان لهـــم فى سلوكهم ، يمحضهم النصائح ويكون لهم قدوة حسنة فى أقواله وأفعاله وأحواله التى ترسم فيها خطوات مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار نائبا عنه فى دعوة الخلق الى الحق .

ويقول سيدى شاه الكرمانى رضى الله عنه فى حكمه : (علامة الحكمة معرفة أقدار الناس) وكلامه هذا له شاهد من الكتاب والسنة ، فقد مدح الله عباده الصالحين فى كتابه الكريم ، وجعل وصفهم جاريا على السنة التالين والمصلين ، ومدح مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بما حباهم الله من فضله .

فقال تعالى مثلا فى فضل سادتنا المهاجرين والانصـــار رضى الله عنهم (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم) وقد قال مولانا رسول الله صلى الله عيه وسلم لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه : انت « الصديق » ، وقال لسيدنا عمر رضى الله عنه : « انت الفاروق » وقال فى حق سيدنا عثمان رضى الله عنه : « عثمان أحيا أمتى وأكرمها » وقال فى حق سيدنا على كرم الله وجهه : « لاعطين هذه الراية رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » وغير ذلك كثير وانما سقنا ما تقدم على سبيل المثال •

وقد اثبت الله تعالى لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأفته ورحمته بالمؤمنين فقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) كما قال تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر) •

والداعى الى الله تعالى يجب ان تتوافر له هذه الرأفة وتلك الرحمة، تأليفا للقلوب ، وتهذيبا للنفوس ، خاصة وان تلاميذه الذين يلتفون حوله ، انما يأتون اليه باختيارهم ليعاونهم فى طاعة الله ، ولا يجمعهم سلطان قاهر ، أو رهبة مخيفة •

واذا كان لين الجانب لازما للشيخ فى الازمان السابقة فهو فى زماننا الزم حيث فترت الهمم فى السعى الى امور الاخـــرة ، ووقفت همم الناس أو كادت عند أمور الدنيا حتى كأنهم خلقوا لها وسيخلدون فيها، وطريق التصوف طريق جد لا هزل فيه ، لان المتصوف يطلب السعادة الحقة التى لا سعادة بعدها ، فهو يطلب عزيزا نادرا ، يغلو ثمنه ، ويرخص فى طلبه كل جهاد بالنفس والمال ، فهو يطلب رضاء ربه ، ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل •

وانما سمى الأولياء أولياء ، لموالاتهم جانب الله ، ومجافاة ما سواه، وليستمع القارىء الكريم الى بعض ما وصف به ســـيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه هؤلاء الاولياء فقد قال فيهم :

هم قوم ذكروا الله عز وجل بقلوبهم تعظيما لربهم عز وجل لمعرفتهم بجلاله ، فهم حجج الله تعالى على خلقه ، ألبسهم النور الساطع من محبته ، ورفع لهم أعلام الهداية الى مواصلته وأقامهم مقام الابطال لارادته ، وافرغ عليهم الصبر عن مخالفته وطهر ابدانهم بمراقبته ، وطيبهم بطيب أهل مجاملته ، وكساهم حللا من نسج مودته ، ووضع على رؤوسهم تيجان مسرته ، فهمومهم اليه ثائرة ، واعينهم اليه بالغيب ناظرة ، اجلسهم على كراسى أطباء أهل معرفته ثم قال :

ان أتاكم مريض من فراقى فعالجوه ، أو خائف منى فأمنوه أو آمن منى فحذروه ، أو راغب فى مواصلتى فهنئوه ، أو راحل نحوى فزودوه ، أو جبان فى متاجرتى فشجعوه ، أو آيس من فضلى فعدوه ، أو راج لاحسانى فبشروه ، أو حسن الظن بى فباسطوه ، أو محب لى فواظبوه ، أو معظم لقدرى فعظموه ، أو مستوصفكم نحوى فأرشدوه ، أو مسىء بعد احسان فعاتبوه ومن واصلكم فواصلوه ومن غاب عنكم فافتقدوه •

يا أوليائى ، اياكم رغبت ، ومنكم الوفاء طلبت ، ولكم اصطفيت وانتخبت ، ولكم استخدمت واختصصت ، لانى الا أحب استخدام الجبارين : ولا مواصلة المتكبرين ، ولا معافاة المخلطين ولا مجاوبة المخادعين ، ولا قرب المعجبين ، ولا مجالسة البطالين ، ولا موالاة الشرهين •

يا أوليائى ، جزائى لكم أفضل الجزاء ، وعطائى لكم أجزل العطاء ، وبذلى لكم أفضل البذل ، وفضلى عليكم أكثر الفضل ومعاملتى لكم أوفى المعاملة ومطالبتى لكم أشد المطالبة أنا مجتنى القلوب ، وأنا علام الغيوب وأنا مراقب الحركات ، وأنا ملاحظ اللحظات ، أنا المشرف على الخواطر ، انا العالم بمجال الفكر ، فكونوا دعاة الى ، فمن عاداكم عاديته ، ومن والاكم واليته ، ومن آذاكم أهلكته ، ومن أحسن اليكم جازيته ومن هجركم قليته •

ووصف سيدى ذو النون الاولياء مرة أخرى فقال :

عنهم تقصر الصفات ، وبهم تدفع النقمات ، وعليهم تنزل البركات ، فهم أحلى الناس منطقا ومذاقا ، وأوفى الناس عهدا ، وميثاقا ، سراج العباد ، ومنار البلاد ، مصابيح الدجى ، ومعادن الرحمة ، ومنابع

الحكمة ، وقوام الامة ، تجافت جنوبهم عن المضاجع ، فهم اقبل الناس للمعذرة ، وأصفحهم للمغفرة ، واسمحهم بالعطية .

نظروا الى ثواب الله عز وجل بأنفس تائقة ، وعيون رامقة ، وأعمال موافقة ، فحلوا عن الدنيا مطى رحالهم ، وقطعوا عنها حبال آمالهم ، لم يدع لهم خوف ربهم عز وجل من أموالهم تليدا ولا عتيدا ، فتراهم لم يشتهوا من الأموال كنوزها ، ولا من المطايا عزيزها ، ولا من القصور مشيدها .

ضموا ابدانهم عن المحارم ، وهربوا بأنفسهم عن المآثم ، فسلكوا من السبيل رشاده ، ومهدوا للرشاد مهاده ، هابوا الموت وسكراته وكرباته وفجعاته ، والقبر وضيقه ، وابتدار منكر ونكير وسؤالهما ، والمقام بين يدى الله عز ذكره وتقدست اسماؤه .

وقد روت أم المؤمنين سيدتنا عائشة حديثا عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم تتركز فيه الاوصاف المتقدمة وهو :

« ان موسى عليه السلام قال : يا رب اخبرنى بأكرم خلقك عليك؛ قال : الذى يسرع الى هواى اسراع النسر الى هواه ، والذى يكلف بعبادى الصالحين كما يكلف الصبى بالناس ، والذى يغضب اذا انتهكت محارمى غضب النمر لنفسه ، فان النمر اذا غضب لم يبال أقل الناس أم كثروا » .

والسيد / سالم عمر جمعة ، مد الله عمره ، صحب سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى مدة طويلة ، وانتفع من صحبته ، وجد فى طريق الآخرة بصدق واخلاص وهمة قوية ، ومع سمو ثقافته الغربية ، وبسطه عيشته الرضية ، لم تلهه دنيا فانية عن آخرة باقية ، وعاش فى الدنيا فى أحسن صورة يعيشها أهل الدنيا ، ولكنه تحرى طيبات الحياة ، وتجنب الخبيثات ، واذا نظرت اليه عابدا رأيت فيه مثل السابقين بالخيرات باذن الله .

لم أرد أن أمدح أخا لى فى الله فى تلك الصفحات ، فهو غنى عن مدحى بما أفاء الله عليه من فضل جزيل فى امر الدنيا والدين ، انما أردت ان أقدم للسادة القراء صورة لمؤمن نعرفه حق المعرفة ، أعطاه الله فشكر،

ولم يقف بماله عند المناعم الفانية ، بل قدم صالحا لنفسه ، فعطف على الفقير ، وتواضع للصغير ، واستقل فى صدقاته الكثير ، وتحلى بمكارم الاخلاق وأسهر ليله فى ذكر الله وطاعته ، وتردد مرارا على الحجاز حاجا ومعتمرا ، يعمر وقته هناك بما يحب الله ويرضى ، وما دخلت الروضة النبوية المباركة مبكرا الا وجدته قد سبقنى اليها متهجدا فى ليله ، تاليا القرآن فى نهاره ، منافسا أهل السبق فى همتهم ، شأن السادة الاشراف ، الذين اختصهم الله برحمته واصطفاهم لساحته ، وجعلهم مصابيح الهدى فى ظلمات الحياة يهتدى بهم من أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا •

ولقد حدثنى صديقى السيد/ سالم حفظه الله عن اتصاله بشيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى ، طيب الله مثواه ، فقال ان صديقه الصالح المبارك المرحوم الشيخ أحمد غلبون عفا الله عنه ، كان يصحب سيدى عبد السلام فى الطريقة الخليلية المباركة لصاحبها الغوث سيدى الحاج محمد ابى خليل مربى الرجال ، بالحال والمقال ، وساكن ضريحه المشرف بالزقازيق ، وكان يمدح له الشيخ عبد السلام بما حباه الله من صفات الاولياء الاصفياء،ويشيد برشده وخلقه فى الدعوة والارشاد وأشار عليه بلقائه والاخذ عنه •

فوافق السيد / سالم على الالتقاء بسيدى عبد السلام ، واجتمع به فعلا لكنه أرجأ الاخذ عنه حتى تبين بنفسه أمره فى اجتماعات أخرى لاحقة ، لانه مع ثقته فى صديقه الشيخ غلبون رحمه الله كان يريد ان يطمئن بنفسه فى اختيار رائده ومربيه فى طريق الله ، فقبل صديقه وجهة نظره وتركه الاختيار نفسه •

قال السيد / سالم ولما ترددت على مجالس سيدى عبد السلام وبان لى فضله وكماله وخلقه ، اقدمت على الأخذ عنه فى اطمئنان ، وصحبته فما غاب عنى مثاله ، ولاخفيت عنى خلاله ، بل زادت صلتى به على الايام استحكاما ، وازددت به اعجابا وغراما ، وأضاف السيد/ سالم أنه سعد بصحبته فى احدى رحلاته الى الحجاز ، فحظى فى الرحلة به وبسيدى العارف الملهم الشيخ على عقل رضى الله عنه حظوة كبيرة لا ينسى ذكراها ، وحدثنى بكرامة جميلة كانت لسيدى الشيخ عبد السلام معه ، وذلك بان الشيخ فاجأه وهم فى الطريق الى المدينة

المنورة وقال له : ياسيد / سالم : واقع فى روعى ان اسمك الاصلى محمد ، فهل هذا صحيح ، قال الصديق الكريم : فعجبت من ذلك كل العجب لان اسمه الاصلى محمد ولا يعرف هذا أحد حتى من خواص أهله الاقربين .

وكم كان لسيدى الشيخ عبد السلام معنا من الكرامات الشىءالكثير، ولو شاء الله لاطلع بعض خواصه على بعض غيبه (ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء) فلا تعجب أيها القارىء العزيز للكرامة : ولكن اعجب لدوام الاستقامة والاشتغال بالله فى الليل والنهار ، والسفر والحضر ، والبر والبحر ، والسر والجهر ، حتى ترى الولى مغـــايرا للناس فى احوالهم يبكى وهم يضحكون ، ويسهر وهم نائمون ، ويحذر الآخرة وهم آمنون ، ويحب الناس فى الله ، ويواليهم فى الله ، وهم يتحابون فى عرض الدنيا ، ويتباغضون فيه ، فالولى من البشر جنسا، ويمتاز عنهم نفسا ، فهو يماثلهم فى الشكل ، ويخالفهم فى القول والفعل والحـــــال .

وقد كان سيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه طرازا ممتازا فى الاولياء الذين تخرجوا فىالولاية على يد شيخنا الاكبر وامامنا الأجل سيدى القطب الكبير الشيخ محمـــد ابى خليل رفع الله فى الشـــيوخ المربين قدره،وقد كان يعامل تلاميذه باللطف والرحمة والشفقةوالكياسة، والعطف ، والنصح الامين ، فى حنان ولين ، وسر وتمكين ، وربما قص حكاية على سمع الجميع ليتعظ باشارته التلميذ المقصود بذاته ، ويسلك السبيل القويم ، وانما استرشد سيدى الشيخ فى ذلك بسنة مولانـــا الرسول الكريم ، صاحب الخلق العظيم ، صلى الله عليه وآله وسلم. وعن سيدى الشيخ ابى خليل اخذ خلفاؤه ذلك النهج فى التربيةالصوفية العالية ، وورثوه لتلاميذهم حسبة لوجه الله الكريم ولم يسألوهم على ذلك أجرا ، وأجرهم مدخر لهم عند الله تعالى يلقونه يوم الدين .

وما أحسن ما يقول سيدى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما :

« من كان مستنا فليستن بمن قد مات ، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا خير هذه الامة ، ابرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ،

ونقل دينه ، فتشبهوا باخلاقهم وطرائقهم فهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا على الهدى المستقيم والله رب الكعبة .

يا ابن آدم صاحب الدنيا ببدنك ، وفارقها بقلبك وهمك ، فـانك موقوف على عملك ، فخذ مما فى يديك لما بين يديك عند الموت ، يأتك الخـير » .

ويقول كذلك سيدى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما :

« لا يكون الرجل من العلم بمكان حتى لا يحسد من فوقـه ، ولا يحقر من دونه ، ولا يبتغى بالعلم ثمنا » .

وكان سيدى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما شديد العناية بتتبع آثاره صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد روى عن موسى بن عقبة عن نافع قال : لو نظرت الى ابن عمر رضى الله عنهما اذا اتبع أثر النبى صلى الله عليه وسلم لقلت : هذا مجنون . وحدثوا عنه أيضا أنه كان فى طريق مكة يأخذ برأس راحلته يثنيها (أى عن الاسراع) ويقول : لعل خفا يقع على خف — يعنى خف ناقة رسول الله صلى الله عليه وسـلم .

فانظر رعاك الله كيف حرص الصحابة الكرام على اقتفاء آثاره صلى الله عليه وسلم فافلحوا فى محبة الله ورسوله وذلك هو الفوز العظيم، وقد اعتنقوا الاسلام فاعتزوا به ، وعاشوا له ، وحرصوا عليه ، وطبقوا أحكامه نصا وروحا حتى لقوا الله بيض الوجوه ، راضيين مرضيين .

وعن نافع أن ابن عمر رضى الله عنهما كان يدعو على الصفا ويقول فى دعائه :

« اللهم اعصمنى بدينك وطواعيتك وطواعية رسولك ، اللهم جنبنى حدودك ، اللهم اجعلنى ممن يحبك ويحب ملائكتك ويحب رسلك ويحب عبادك الصالحين ، اللهم حببنى اليك والى ملائكتك والى رسلك والى عبادك الصالحين ، اللهم يسرنى لليسرى ، وجنبنى العسرى ، واغفر لى فى الاخرة والاولـى ، واجعلنى من ائمة المتقـين ، اللهم انك قلت : (ادعونى استجب لكم) وانك لاتخلف الميعاد ، اللهم اذ هديتنى للاسلام فلا تنزعنى منه ولا تنزعه منى حتى تقبضنى وانا عليه » .

وانى ادعو لى ولكل مسلم بدعاء سيدى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، واضيف اليه : اللهم واجز عنا شيوخنا الاماجد خير ما تجزى به ائمة عن اتباعهم ، فقد شوقونا اليك ورغبونا فيك ، وكانوا اسوة حسنة لنا فى أقوالهم وافعالهم واحوالهم ، ورأينا فيهم صورا مثلى لاسلافنا الصالحين ، فقربوا لنا البعيد ، وبسروا لنا العسير ، فطابت بهم أوقاتنا على بساط محبتك ، وسعدت باسرارهم أرواحنا فى مناجاتك ، فانسنا بك واستوحشنا مما سواك ، فهمنا بك ، ووثقنا فيك ، واعتمدنا عليك ، والفضل فى ذلك كله منك واليك ، لامانع لما اعطيت ، ولا معطى لما منعت ، فان اطعناك فبتيسيرك ، وان شكرناك فبتوفيقك ، زمامنا فى يديك ، قدرت أمورنا قبل ان نكون ، وأحسنت الينا حين لم يكن منا عمل ، وقبل ان يبدأ الاجل ، فعاملنا باحسانك عند انتهائه ، فمنك فضل البداية وعلينا الثناء ما وسع جهدنا المحدود ، سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما اثنيت على نفسك وقد قلت وقولك الحق (والله الغنى وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) .

الاشتغال بالله تعالى

« وقد كان ما كان ، واستدار الزمان ، وظهر ما ءان ، ولم يتغير الزمان ، فان فطنت الى الامر رجوت ربك ، له الشأن ، وكل يوم هو فى شأن ، فمالك والناس ، عليك برب الناس ، يبعد عنك الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس ، فلا يعتريك فى سيرك بأس ولا يأس ، ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل الناس بغير علم ، فلا تعبأ بهم ، وكن مقبلا على الله حيثما كنت »

« السر كل السر فى معاملة الله الذى يوجه القلوب الى الخير ، واذا سرت فى هذا المبدأ فلا تغيره ، فان التغيير يضيع بل يهدم ما بنيته ، فاذا اعدت اليه تحتاج الى وقت طويل لاعادة البناء بعد التشويش على الروح لاختلاف المشارب » .

جاءت تلك العظات النافعة فى رسالة بعث بها شيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه لتلميذه المبارك الصديق العزيز السيد/ سالم جمعة حفظه الله ورعاه ، وهى ترشدنا الى بذل المجهود فى طلب الله المعبود ، والتعلق بالخالق ، وترك الاشتغال بالخلائق ، لأن السر كل السر فى معاملة الله الذى يوجه القلوب الى الخير ، اذا أنست به سبحانه واستوحشت مما سواه ، وذلك هو أساس التربية الصوفية الحقة .

ولذلك المبدأ شواهد من الكتاب والسنة ، فقد مدح الله تعالى أهل الصفة من الصحابة الكرام فقال تعالى فى الوصاية بهم (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) وفى الصحيح عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وان يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

ويقول الامام الصوفى الكبير سيدى محمد بن على الترمذى فى ضرورة التعلق بالله تعالى : اجعل مراقبتك لمن لا يغيب عن نظره اليك ، واجعل شكرك لمن الا تتقطع نعمه عنك ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وتسلطانه •

ويفصل ذلك رضى الله عنه فيقول : « بذكر الله يرطب القلب ويلين، وبذكر الشهوات واللذات يقسو القلب وييبس ، فاذا شــغل القلب عن ذكر الله بذكر الشهوات كان بمنزلة شجرة ، انما رطوبتهاولينها من الماء، فاذا منعت الماء يبست عروقها وذبلت أغصانها ، واذا منعت الســـقى وأصابها حر القيظ يبست الأغصان ، فاذا مددت غصنا منها انكسر ، فلا يصلح الا للقطع فيصير وقود النار ، فكذلك القلب اذا ييس وخلا من ذكر الله فأصابته حرارة النفس ونار الشهوة ، وامتنعت الاركان من الطاعة فاذا مددتها انكسرت فلا تصلح الا أن تكون حطبا للنار ، وانما يرطب القلب بالرحمة ، وما من نور فى القلب الا ومعه رحمة من الله بقدر ذلك فهذا هو الأصل •

فالعبد ما دام فى الذكر فالرحمة دائمة عليه كالمطر ، فاذا قحط فالصدر فى ذلك الوقت كالسنة الجدباء اليابسة •

ويقول كذلك رضى الله عنه فى فضل الصلاة : « دعا الله الموحدين الى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم ، وهيأ لهم فيها أنواع العبادة لينال العبد من كل قول وفعل شيئا من عطاياه والأفعال كالأطعمـــة ، والأقوال كالأشربة ، فهى غرس الموحدين ، هيأها رب العالمين لأهل رحمته فى كل يوم خمس مرات ، حتى لا يبقى عليهم دنس ولا غبار » •

ويقول سيدى أبو يزيد البسطامى : « الحب لله على أربعة فنون ، فن منه وهو منته ، وفن منك وهو ودك ، وفن له وهو ذكرك له ، وفن بينكما وهو العشق » •

ولا يظن ظان أن السادة الصوفية حين ينهون عن الاشتغال بالناس يقصدون بذلك اعتزال الناس كلهم ، وعدم الاجتمــاع بهم وانما هم يقصدون به اجتناب أهل الغفلة الذين يصدون عن ذكر الله وعن الطاعات،

كما يقصدون به التحذير من اغتياب الخلق ، والوقوع فى أعراضهم ،فذلك مما نهى الله عنه وحذر منه ، أما الاجتماع بأهل الصلاح ، فمحمود عندهم لأن أهل الصلاح يذكرون بالله ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فيزداد الذاكر بهم خيرا كثيرا ، لأنهم أولياء الله فمن أحبهم فقد أحب الله ، وقد سأل رجل سيدى ذا النون المصرى : من أجالس ؟ فقال . « جالس من الناس من تقهرك هيبته وتخوفك فى السر والعلانية رؤيته ، ويخبرك عن نفسك بالذى هو أعلم به منك » .

ويقول سيدى ابراهيم الخواص رضى الله عنه : « دواء القلب فى خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين » .

ويقول رضى الله عنه : « على قدر اعزاز المؤمن لأمر الله ، يلبسه الله من عزه ، ويقيم له العز فى قلوب المؤمنين ، وذلك قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) » .

ويقول سيدى بلال بن سعد رضى الله عنه : أخ لك كلما لقيك ذكرك بحظك من الله خير لك من أخ كلما لقيك وضع فى كفك دينارا ، ويقول رضى الله عنه فى روعة من الوعظ : أربع خصال جاريات عليكم من الرحمن مع ظلمكم أنفسكم وخطاياكم ، أما رزقه فدار عليكم ، وأما رحمته فغير محجوبة عنكم ، وأما ستره فسابغ عليكم ، وأما عقابه فلم يعجل لكم ، ثم أنتم على ذلك لاهون تجترئون على الهكم ، أنتم تتكلمون ويوشك الله تعالى أن يتكلم وتسكتون ، ثم يثور من أعمالكم دخان تسود منه الوجوه (واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) عباد الرحمن ، لو غفرت لكم خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون شغل ، ولو عملتم بما تعلمون لكنتم عباد الله حقا .

ويرى السادة الصوفية أن هوى النفس هو الذى يحجب العبد عن ربه ، ويقول سيدى أبو محمد الجريرى فى ذلك : من استولت عليه النفس صار أسيرا فى حكم الشهوات ، محصورا فى سجن الهوى ، وحرم الله على قلبه الفوائد فلا يستلذ كلام الله ، ولا يستحليه وان كثر ترداده على لسانه لأنه تعالى يقول (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) أى حتى لا يفهمونه ولا يجدون له لذة ، لأنهم تكبروا بأحوال

النفس والخلق والدنيا ، فصرف الله عن قلوبهم فهم مخاطباته ، وأغلق عليهم سبيل فهم كتابه ، وسلبهم الانتفاع بالمواعظ ، وحبسهم فى عقولهم وآرائهم ، فلا يعرفون طريق الحق ، ولا يسلكون سبيله .

أقول وقد جعل الله تعالى التأثر بكلام الله دليلا على خشيته تعالى فقال سبحانه (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد) .

ويعجب السادة الصوفية من عبد لا يجاهد نفسه فى مرضاة ربه حتى يكتفى به عما سواه ، ويقول سيدى محمد بن الفضل البلخى فى ذلك : العجب ممن يقطع الأودية والقفار والمفاوز حتى يصل الى بيته وحرمه لأن فيه آثار أنبيائه ، كيف لا يقطع نفسه وهواه حتى يصل الى قلبه فان فيه آثار مولاه ؟

وقد سئل شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه أن يأتى بأبيات من الهامه الفورى فى وصف النفس على وزن البيت التالى وقافيته :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به
دون الذى تعلو بها فى ذاتها

فكان مما قال ونقلناه عنه :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به
كم عالم قد زل من نزغاتها
تنأى عن الاصلاح طول حياتها
وتواصل الاقبال فى شهواتها
وقفت على الدينار حسن بلائها
فأمالها عن هديها وهداتها
قد رحبت بالسيئات مريضة
وتضج أن دعيت الى حسناتها
والنفس أعدى صاحب تبلى به
قد أدخلتنا النار من رغباتها

ان أنت تنصحها تضل طريقها
وإذا تركت غرقت فى حسراتها

جهلت طريق الخير وادعت الهدى
كم تكثر الدعوى على قرباتها

ضحكت على جهالها فتوهموا
أن العلا والفوز فى نزواتها

فانصح لنفسك فى الأمور لعلها
قد ترزق الأنوار فى سبحاتها

ترضى تسفلها لكل نقيصة
دون الذى تعلو به فى ذاتها

ويقول السادة الصوفية : نفسك كالدابة ان ركبتها حملتك وان ركبتك قتلتك ، كما يقولون : من ملك نفسه عز ومن ملكته نفسه ذل ، ويقولون : لولا ميادين النفوس ما تفاضل المؤمنون ، ويقولون : الموفق من لا يخاف غير الله ، ولا يرجو غيره ، فيؤثر رضاه على هوى نفسه ، ويقولون : من علت همته على الأكوان وصل الى مكونها ، ويقولون : من صبر على مخالفة نفسه أوصله الله الى مقام أنسه ٠

ويقوم التصوف فى أساسه على مخالفة هوى النفس ، وقد قال رجل للامام المرتعش : ان فلانا يمشى على الماء فقال : عندى أن من مكنه الله من مخالفة هواه ، فهو أعظم من المشى على الماء وفى الهواء ٠

ومع اجتهاد السادة الصوفية فى فعل المأمورات وترك المنهيات بجهاد لا يعرف الملل نراهم يعتمدون على فضل الله تعالى ولا يركنون الى أعمالهم ومجاهداتهم ، وفى هذا المقام يقول الامام المرتعش رضى الله عنه : من ظن أن أفعاله تنجيه من النار أو تبلغه الرضوان فقد جعل لنفسه ولفعله خطرا ، ومن اعتمد على فضل الله بلغه الله الى أقصى منازل الرضوان ، قال الله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ويعلل رضى الله عنه ذلك فيقول : السكون الى الأسباب يقطع القلوب عن الاعتماد على المسبب ، وقد سأله رجل : أى الأعمال أفضل فقال : رؤية فضل الله وأنشأ يقول :

ان المقـــادير اذا ســـــــاعدت
ألحقت العـــــاجز بالحـــــازم

وحين قال له رجل : أوصنى قال : اذهب الى من هو خير لك منى ، ودعنى الى من هو خير لى منك .

وقد وضح لنا الامام المرتعش فى أقواله المتقدمة معنى ما قاله سيدى الشيخ عبد السلام : فمالك والناس وعليك برب الناس ، لأن الخـــالق سبحانه أقرب اليك من خلقه ، أما الوسواس الخناس الذى أشـــار اليه الشيخ فى نصيحته فوسواس يحول بينك وبين ربك فيثبط همتك فى طاعته تعالى أو يجعلك ساخطا على مقدوره أو يائسا من رحمته ومغفرته،وعلاج ذلك الوسواس انما يكون بكثرة ذكر الله تعالى ومجالسة الصـــالحين من أهل اليقين ، لأن مجالستهم تكسب المؤمن الثقة بالله وحسن التوكل عليه والركون اليه فلا يعترى الانسان فى سيره يأس ولا بأس كما قال سيدى الشيخ عبد السلام ، طيب الله ثراه .

لذلك نرى شيخى وسيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه راكفا الى ربه ، طامعا فى عفوه فيقول فى الهامه المشرق مخاطبا مولاه جل وعلا :

اذا رابنى ذنبى دعـــتنى محـــبتى
اليـــه ومـــا تثنى الذنوب عن الحـــب
فيــــــارب ان زادت عيــــــوبى فاننى
وثقت بأن الفضـــــــل أوســـع من عيبى
أضـــــاء الهـــــدى قلبى ونقى سريرتى
فلست كبعض النـــــــاس أنسب للترب
تركت الـــورى دونى وجئتـــــك مفـــــردا
فلم يك غـــير اللـــــه فى الســـمع والقلب
وطهرت فى نجــــــواك سر جــــوانحى
فخلصــتها من عـــالم البعـــــد والحجب
رضـــــاء الفتى باللـــه يشرح صـــــــدره
فلن يتـــأذى بالحـــــــوادث والخطب
وما لذتى الا التجـــــــائى لوجهـــــكم
فوجهـــــكمو دون العـــوالم لــى قطبى

ويقول سيدى سمنون رضى الله عنه فى حبه لله وتعلقه به سبحانه :

وكان فؤادى خاليا قبل حبكم
وكان بذكر الخلق يلهو ويمزح
فلما دعا قلبى هواك أجابه
فلست أراه عن فنائك يبرح
رميت ببين منك ان كنت كاذبا
وان كنت فى الدنيا بغيرك أفرح
فان شئت واصلنى وان شئت لا تصل
فلست أرى قلبى لغيرك يصلح

وقد كتب الامام الجنيد رضى الله عنه الى بعض أحبابه يقول : من أشار الى الله وسكن الى غيره ابتلاه الله تعالى وحجب ذكره عن قلبه ، وأجراه على لسانه ، فان انتبه وانقطع ممن سكن اليه كشف الله ما به من المحن والبلوى ، وان دام على سكونه نزع الله من قلوب الخلق الرحمة عليه وألبس لباس الطمع فتزداد مطالبته منهم مع فقدان الرحمة من قلوبهم، فتصير حياته عجزا ، وموته كمدا ، ومعاده أسفا ، ونحن نعوذ بالله من السكون الى غير الله .

أقول وقد جعل الله سبحانه التوكل على الله من علامات الايمان به تعالى فقال عز وجل (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) ويعبر السادة الصوفية عن شدة ثقتهم فى الله تعالى وتدبير أرزاقهم فيقولون : لو أن العبد سأل الله ألا يرزقه لم يستجب له ولقال له : يا جاهل أنا خالقك ولابد من أن أرزقك أبدا .

وقد سئل الامام سهل بن عبد الله عن القوت فقال : هو الحى الذى لا يموت ، فقالوا : انما سألناك عن القوام ، فقال : القوام هو العلم ؛ قيل : سألناك عن الغذاء ، فقال ، الغذاء هو الذكر قيل سألناك عن طعمة الجسد فقال : مالك وللجسد : دع من تولاه أولا يتولاه آخرا .. اذا دخل عليه علة فردها الى صانعه أما رأيت الصنعة اذا عابت ردوها الى صانعها حتى يصلحها ؟

وكان سيدى معروف الكرخى رضى الله عنه يقول : انما أنا ضيف فى دار مولاى : ان أطعمنى أكلت متى اطعمنى وان أجاعنى صبرت حتى

يطعمني ، ويقول سيدى بشر بن الحارث رضى الله عنه : ان العبد ليقرأ (اياك نعبد واياك نستعين) فيقول الله تعالى : كذبت ما اياى تعبد . لو كنت تعبد اياى لم تؤثر هواك على رضاى ، ولو كنت بى تستعين لم تسكن الى حولك ولا قوتك ولا الى مالك ونفسك .

وينصح سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه تلميذه باستمرار الطاعة ودوام معاملة الله الذى يوجه القلوب الى الخير ويحذره من تغيير هذا المبدأ ويبين له أن التغيير يهدم ما بناه ، واعادة البناء تحتاج الى وقت طويل لاختلاف المشارب ، وسيدى الشيخ يريد ألا نتردد على كثير من المرشدين خشية أن تختلف مناهج الارشاد فتتردد الروح بين هذا المشرب وذاك وتشتغل بالمفاضلة بين الشيوخ فيعوقها ذلك عن السير قدما فى طريق الحق دون التواء عن الصراط المستقيم .

ويقول الامام السهروردى فى ذلك المقام : قد ينفسد المريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما ينفسد بأهل الفساد ، ووجه ذلك أن أهل الفساد يعلم فسادهم ويأخذ حذره منهم ، وأهل الصلاح يغره صلاحهم فيميل اليهم بجنسية الصلاحية ، ثم يحصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية تحول بين المريد وبين حقيقة الصحبة لله تعالى ، ويكسب من طريقهم الفتور فى الطلب والتخلف عن بلوغ الارب فليتنبه المريد الصادق .

وانى أذكر فى هذه المناسبة أن سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه زار مرة مريدا له فى مرضه فوقع فى قلبه أنه يذكر اسما لم يلقنه له فسأله الشيخ عن الاسم الذى يذكره فصرح له به فقال : من لقنك هذا الاسم قال فلان ، ، فقال له عد الى الأسماء التى لقنتك اياها ولا تأخذ عن غير مرشدك لأنه أدرى الناس بحالك واستعدادك فلما أطاع الشيخ برىء من مرضه ، وتعلم من تلك التجربة ألا يأخذ الا بمشرب شيخه وارشاده .

وقد لاحظت من خلال مشاهداتى الكثيرة أن المترددين بين الشيوخ العديدين والطرق المختلفة لايتقدمون فى التربية الصوفية وذلك أمر طبيعى لأن مؤدى التردد أن ينظر لكل واحد من شيوخه نظرة النقص فلا يلتزمه وحده ولا يراه كافيا للأخذ عنه ، ومن هنا يقل بل ينعدم انتفاعه به ، وحسبك دليلا واضحا أن أبا جهل لم ينتفع من صحبة مولانا رسول الله

صلى الله عليه وسلم حين نظر اليه على أنه يتيم أبى طالب ولم ير فيه أكرم الرسل على الله تعالى ، صلى الله عليه وسلم ، بينما أسعدت العناية الربانية سيدنا سلمان الفارسى بصحبته صلى الله عليه وسلم حتى ألحقه بآل بيته مع أنه فارسى وأبو جهل قرشى ، مما يفيد أن صلة القلوب أكبر أثرا فى التربية الروحية من قرابة اللحم والدم •

ولقد أضلت الظواهر ابليس فلم ير من جوهر آدم الا الماء والطين ولم ير فيه المخلوق الذى أراد الله تكريمه فأمر الملائكة أن تسجد له، فوقع ابليس فى المعصية عن اصرار وعناد وقال (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) فحقت عليه لعنة الله الى يوم الدين ، ونعوذ بالله منه •

ولولا أن للشيخ مدخلا فى تربية المريد فى جنب الله ما جوزوا أن يتخذه المريد رفيقا فى طريق الله ، لأن من مبادىء الصوفية قولهم : ان استطعت ألا يسبقك أحد الى مولاك فافعل ، ولا تؤثر على مولاك شيئا ، والشيخ يد الله وعونه للمريد الصادق ، لذلك يقول عز وجل (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) كما يقول سبحانه (وتعاونوا على البر والتقوى) والشيخ انما يعطى مريده ثمرة تجاربه الطويلة الشاقة حسبة لوجه الله لايسأله عليها أجرا ولذلك قالوا ان المريد يبدأ حيث انتهى شيخه ، وحسبه هذه الغنيمة •

ولهذا يجب أن يعتنى المريد باختيار الشيخ الذى يأخذ عنه ، لأنه يسلم للشيخ روحه وهى أعز ما يملك ، واذا كان المرء يدقق فى اختيار أطباء جسده ويسأل عنهم قبل أن يأتيهم للتداوى فأولى به أن يدقق فى اختيار طبيب الروح ويسأل الله العون فى الاستدلال عليه ، ويسترشد فى اختياره بأهل الرشد والصلاح والتجربة الذين يرجى منهم حسن اختيار شيوخهم، ومن أقوى الأدلة على الشيخ المربى : ظهور الصلاح والبركة فى اتباعه، كما يجب أن يتوافر فيه علم صحيح وذوق صريح وهمة عالية وحالة مرضية وبصيرة نافذة •

ويقول سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه : وشيخك هو الذى أمات نفسك قبل أن تموت وجال بك فى عالم الملكوت ، وشيخك هو الذى أخذ منك وكشف عنك ، وشيخك هو الذى حمل عنك المشقات ، وأنزلك منازل القربات ، وشيخك هو الذى دلك على حالك لا من أخذ من مالك •

وقد قص الله علينا القصة الرائعة التى كانت بين سيدنا موسى عليه السلام وبين سيدنا الخضر عليه السـلام فى سورة الكهف فأرانا كيف حرص كليم الله وصاحب التوراة على أن يصحب عبدا من عباد الله آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علمًا وقال له فى أدب رفيع (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا • قال انك لن تستطيع معى صبرا • وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا •قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولاأعصى لك آمرا • قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى آحدث لك منه ذكرا) وقد بينت القصة بعد ذلك أمورا خفيت حكمتها الشرعية على سيدنا موسى عليه السلام فاعترض عليها ثم بين له سيدنا الخضر عليه السلام الوجـه الشرعى فى كل أمر منها ، فأيقن عيانا أن الخضر عليه السلام على علم من علم الله لا يعلمه موسى عليه السلام وسبحان من يختص برحمته من يشاء بما شاء وكما شاء •

وكفانا عظة ما كان من سيدنا موسى عليه السلام فى بحثه عن العلماء الربانيين الصادقين ، فقد سافر فى طلبهم والانتفاع بعلمهم سفرا طويلا لقى منه نصبا وذلك من عزم الأمور ، فجزى الله عنا مشايخنا خيرا كثيرا لقاء توجيههم وارشادهم (ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم) •

التفويض لله تعالى

« لك الله ولأهل بيتك ، وحفظنا وإياكم جميعا من ماديات هذا الزمان وفى ظنى أن ينتظر الانسان حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا وعندما يتبين الامر ، فيسير الانسان على قدر الله حيثما يوحيه فى صدور النـــاس •

أفعـــاله محـــكمة وقـــل من يفهمهـــا
يفعـــل ما يشـــاؤه لحـــكمة يعلمهـــا

جاءت النصيحة المتقدمة فى رسالة بعث بها شيخى العارف باللـــه سيدى عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح المبارك الحسيب الصديق السيد / سالم جمعه حفظه الله ورعاه ، وهو يرشده فيها الى التأنى والصبر وانتظار الفرج ، واستلهـــام الله سبحانـــه ، والعمل بما يقذفه الله فى قلبه فى أوانه ، مع الوثوق فى حكمة الحـــكيم العليم فى كل ما يجرى به قضاؤه ، وان خفيت الحكمة على أكثر الناس، أو دقت على أفهامهم •

وتلك النصيحة الغالية تعلمنا الركون الى الله تعالى فى الشدة والرخاء فالقضاء قضاؤه ، والحكم حكمه ، ولا يقع فى ملكه الا ما شاء ، لانه وحده (فعال لمـــا يريد) ، ويقول ســـيدى ابن عطاء الله الســـكندرى رضى الله عنه :

متى اعطاك اشهدك بره : ومتى منعك اشهدك قهره ، فهو فى كل ذلك متعرف اليك ، ومقبل بوجود لطفه عليك •

كذلك يقول رضى الله عنه فى شكر نعمة الله :

من لم يشكر النعم تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها ويضيف رضى الله عنه فى شرحه فيقول :

وقد ضمن الله المزيد للشاكرين وما استثنى فقال عز من قائل (لئن شكرتم لأزيدنكم) فاذا كان ضمن لهم الزيادة على ما اعطاهم فكيف

لا يديم عليهم ماكان منحهم أولا، الا ان من أحب بقاء شيء قيده بعقاله خيفة زواله ، فقيدوا نعم الله فيكم بوجود الشكر .

ويقول السادة الصوفية ان شكر النعمة انما يكون باستعمالها فيما خلقه الله له ، فان عصى العبد ربه بنعمة أنعمها عليه فقد بدل نعمة الله كفرا ، وشتان بين شاكر للنعمة وكافر بها ، ويقول سيدى ابن عطاء الله فى حكمه : لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك ، فان ذلك مما يحط من وجود تدرك .

وكما ينصحنا السادة الصوفية بالشكر فى الرخاء فانهم كذلك ينصحوننا بالصبر عند البلاء كما أمرنا كتاب الله ، وكما أرشدتنا سنة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرينا سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه كيف يصبر السادة الصوفية على البلاء الصبر الجميل وهو الذى لاشكوى فيه فيقول :

« انما يعينهم على حمل الاقدار ورود الانوار ، وان شئت قلت وانما يعينهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره ، وان شئت قلت وانما يعينهم على حمل الاحكام فتح باب الافهام ، وان شئت قلت وانما يصبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه ، وان شئت قلت وانما يصبرهم على ما جرى علمهم بأنه يرى ، وان شئت قلت وانما يصبرهم على القضا علمهم بأن الصبر يورث الرضا ، وان شئت قلت انما يصبرهم على الاقدار كشف الحجب والاستار ، وان شئت قلت وانما يقويهم على أثقال التكليف ورود أسرار التصريف ، وان شئت قلت انما يصبرهم على أقداره علمهم بما أودع فيها من لطفه وابراره » .

« فهذه عشرة أسباب توجب صبر العبد ، وثبوته لاحكام سيده وقوته عند ورودها ، وهو سبحانه المعطى لكل ذلك بفضله ، والمان بذلك على ذوى العناية من أهله » .

ولعل ما قاله سيدى ابن عطاء الله تعالى فيه الشرح الكافى لما أجمله سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى ، والدشيخى وسيدى

عبد السلام الحلوانى ، فى البيتين الواردين فى صدر المقال ، فانهما له رضى الله عنه وقد علق عليهما فى ديوان شعره فقال أوسع الله له فى رضوانه :

ما فرحت بشىء من نظمى قط فرحى بهذين البيتين ، وأرجو أن ينفعانى غدا ان شاء الله تعالى ، وانى أكررهما فى النازلة تنزل بى فينكشف عنى غمها •

ويقول القطب الكبير سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه فى التفويض لله تعالى والرضا بما يجرى به قضاؤه :

لا الأمـــر أمـــرى ولا التـدبير تدبـيرى
ولا الأمــــور التى تجـــرى بتقـــديرى
لـــى خـــالق رازق مـــا شـــاء يفعـــل بـــى
أحـــاط بـــى علمـــه من قبـــل تصـــويرى

ويقول سيدى حاتم الاصم رضى الله عنه : عجبت ممن يعمل ويقول انى أعملها ابتغاء مرضاة الله ، ثم تراه أبدا ساخطا على الله ، رادا لحكمه أتريد أن ترضيه ولست براض عنه ، كيف يرضى عنك وأنت لم ترض عنه •

ويحذرنا رضى الله عنه من دسائس الشيطان التى تضيق الصدور وتبعث الهموم فيقول : ما من صباح الا والشيطان يقول لى : ما تأكل؟ ما تلبس ؟ أين تسكن ؟ فاقول : آكل الموت ، وألبس الكفن ، وأسكن القبر • وهو بذلك يرشدنا الى أن الدنيا أهون من أن تكون موضع الاهتمام ، فان رزق الانسان دبره الله بقدرته واحسانه قبل أن يخرج الانسان الى هذا الوجود ، ولذلك يقول السادة الصوفية فى وثوقهم فى رزق الله « كن كما كنت فى بطن أمك مدبرا (بفتح الباء المشددة) غير مدبر (بكسر الباء المشددة) مرزوقا من حيث لا تحتسب » •

أما السعى على الرزق فواجب عند السادة الصوفية لان التكسب من سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وقد كان لاصحابه الاعلام الكرام وهم الصفوة فى هذه الأمة ، زراعة وتجارة لكنهم لم تشغلهم دنياهم عن أخراهم بل سعوا للآخرة سعيها ، فتمت رجولتهم فى الدنيا

والدين ولذلك نزل فيهم قوله الخالد الكريم (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار • ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) •

ويقول سيدى ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه : عليك بعمل الأبطال : الكسب من الحلال والنفقة على العيال •

ويفرق السادة الصوفية بين المؤمن والمنافق فى التصرف فى الاموال فيقولون : المنافق يأخذ من الدنيا بالحرص ، ويمنع بالشك ، وينفق بالرياء ، والمؤمن يأخذ بالخوف ، ويمسك بالسنة ، وينفق لله خالصا فى الطاعة •

وهم كذلك يقولون : الواثق من رزقه من لا يفـــرح بالغنى ، ولا يهتم بالفقر : ولا يبالى أصبح فى عسر أو يسر ، كما يقولون : من اصبح وهو مستقيم فى أربعة اشياء ، فهو يتقلب فى رضا الله : الثقة بالله ، ثم التوكل ، ثم الاخلاص ، ثم المعرفة ، والاشياء كلها تتم بالمعرفة •

والسادة الصوفية مع سعيهم فى كسب العيش ينكرون ان تكون الدنيا محط قلوبهم ومنتهى آمالهم ، وهم يكسبون العيش تعففا فان وسع الله عليهم الارزاق بذلوا الاموال طيبة بها نفوسهم فى مرضاته سبحانه ، ولا يقفون عند الزكاة المفروضة كما يفعل عوام المؤمنين ، بل يتجاوزون الزكاة كثيرا ، فربما أعطوا فى الزكاة المئات وأنفقوا فى صدقات النفل الآلاف ، لعلمهم ان تلك النفقة تبقى لهم عند الله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) •

وحين يسعون فى كسب عيشهم يتحرون فى اكتسابه طرق الحلال ، ليقينهم أن الرزق مقدور ومقسوم ، وأن ما كان من رزق العبد يأتيه على ضعفه ، وما ليس له فلن يدركه بقوتـــه ، وقد روى أبو نعيم فى الحلية عن أبى أمامة الحديث الشريف « ان روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها ، فاجملوا فى الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطـــاء شىء من الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فان الله تعالى لا ينال ما عنده الا بطاعته » •

والزهد عند السادة الصوفية ليس هو فقر اجيب بل هو خروج حب الدنيا من القلب ، فقد يكون الفقير مشغولا بحب الدنيا مع فقره وقد يكون الغنى طارحا الدنيا من قلبه وهى فى يده ، كما فعل الخلفاء الراشدون ، ومن حكم السادة الصوفية : من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاه ، وهم كذلك يقولون : اذا حدثتك نفسك بترك الدنيا عند ادبارها فهو خدعة ، واذا حدثتك بتركها عند اقبالها فذاك .

ويحكى السادة الصوفية فى تهوين شأن الدنيا عندهم أن سيدى احمد بن خضرويه استقرض من رجل مائة ألف درهم ، فقال له الرجل أليس أنتم الزهاد فى الدنيا ؟ ما تصنع بهذه الدراهم قال : أشترى بها لقمة فاضعها فى فم مؤمن ولا أجترىء أن أسأل ثوابا من الله تعالى قال : ولم قال : لان الدنيا كلها لا تزن عند الله جنـــاح بعوضة ، وما مائة ألف درهم فى الدنيا من جناح بعوضة ، لو أخذتها فطلبت بها شيئا ما الذى تعطى بها ؟ والدنيا كلها لها هذا القدر ؟

ولذلك ترى السادة الصوفية يولون الآخرة كل اهتمامهم فينظرون الى آجل الدنيا حيث ينظر الناس الى عاجلها (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) ولذلك ينصحون المؤمن فيقولون له : لا تغتم الا من شىء يضرك غدا ، ولا تفرح الا بشىء يسرك غدا .

أما ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام : فسير الانسان على قدر الله حيثما يوحيه فى صدور الناس ، فانه يقصد بالوحى هنا الالهام الذى يقذفه الله فى قلوب المخلصين الصادقين من عباده حين يفوضون أمورهم اليه ويسألونه ان يرضيهم بما يختاره لهم وفق ما قضى وقدر والله تعالى يعلم انبياءه الكرام وحيا ويعلم أولياءه الهاما .

والقرآن الكريم أرانا صورا من صور ذلك التفـــويض ليكون لنـــا منها العبرة والاعتبار ، فقص علينا مثـــلا ما كان من أم موسى حين توكلت على ربها فى حفظ رضيعها من عدوه فرعون ، فألهمها سبحانه أن تجعله فى التابوت وتقذف به فى اليم وتطمئن عليه وبشرها الهاما أنه سيرده اليها ، كما بشرها أنه سيجعله من المرسلين ، فنفذت ما ألهمها الله به ، وألقته فى اليم مطمئنة الى فضل الله تعالى وصدق وعده ،

وربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين ، فرده تعالى اليها كى تقر عينها ولتعلم ان وعد الله حق وألقى الله عليه محبة منه وجعله من المرسلين أولى العزم فتمت نعمته عليه وعلى أمه ، ولما هام عليه السلام فى محبة ربه سأله أن يتجلى عليه لينظر اليه ، فمنعه الله رؤياه ، لا بخلا ولكن رحمة به ، وكان من صعقته حين اندك الجبل ما كان ، كما حكاه الله تعالى فى سورة الاعراف (فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين . قال يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) .

وهو درس قيم يعلمنا الله به القناعة بما قسم الله تعالى وأعطى وفى الحديث الشريف : « القناعة كنز لا يفنى » ، وقال كثير من أهل التفسير فى معنى قوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) الحياة الطيبة فى الدنيا هى القناعة .

ويعرف السادة الصوفية القناعة بانها الاكتفاء بالموجود وزوال الطمع فيما ليس بحاصل ، وهم يقولون : من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة ، بمعنى أخذ ما قسمه الله تعالى من الرزق بنفس راضية قانعة غير متبرمة أو ساخطة ، كما يقولون : القانع غنى وان كان جائعا .

ولذلك ترى السادة الصوفية يفسرون قوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) فيقولون ان الرجس هو البخل والطمع ، والتطهير هو السخاء والايثار وذلك غير ما يقول به المفسرون من أن الآية استعارت الرجس للمعاصى واستعارت الطهارة للطاعات ، والتوفيق بين التفسيرين ممكن فان البخل والطمع من المعاصى ، والسخاء والايثار من الطاعات .

ويحكى السادة الصوفية ان رجلا جاء الى الامام الجنيد رضى الله عنه ووضع بين يديه خمسمائة دينار وقال للامام فرقها على هؤلاء (يشير الى تلاميذه الفقراء) فقال له الامام : ألك غيرها ، قال نعم لى دنانير كثيرة ، فقال : أتريد غير ما تملك ، قال : نعم ، فقال له الجنيد : خذها فانك أحوج اليها منا فردها اليه الامام ولم يقبلها منه .

أما ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام : وفى ظنى ان ينتظر الانسان حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ، فانه رضى الله عنه يعلمنا به التأنى والروية وعدم الاندفاع فى تصرفاتنا ، انتظارا لما يشرح الله له الصدر ، فيتصرف حيثما يوجهه الالهام القلبى فان قلوب الاتقياء الاصفياء المتوكلين على الله : والمفوضين أمورهم اليه ، تصدق فى الفتوى وتبين الرشد من الغى ، ولا غرابة فى هذا التوجيه ، فقد قال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا وابصة الصحابى : « استفت قلبك » كما قال له : « البر ما اطمأنت اليه النفس » .

وحين خطب سيدنا أبو بكر الى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته الطاهرة الزهراء قال له صلى الله عليه وسلم انى انتظر بها القضاء ، وخطبها من بعده سيدنا عمر فقال انها صغيرة ، ثم جاء صلى الله عليه وسلم الوحى بأن يزوجها من امامنا على فتم ذلك وأخرج الله منهما ومن ذريتهما الكثير الطيب المبارك بدعوته صلى الله عليه وسلم .

والاتقياء يرضون بحكم القضاء ، وعلى أى صورة ، فان جرى بالرخاء شكروا ، وان كانت الأخرى صبروا ، وما أروع ما يقول السادة الصوفية فى حكمهم : الشاكر مع المزيد لانه فى شهود النعمة (لئن شكرتم لازيدنكم) والصابر مع الله تعالى لانه بشهود المبتلى (ان الله مع الصابرين) .

ويقول بعض حكماء الصوفية :

اذا أعطى فقد أرضى ولكن
اذا سلب الذى أعطى أثابا
فأى النعمتين أحق شكرا
وأحمد عند منقلب ايابا
لنعمته التى أهدت ثناء
أم الاخرى التى أهدت ثوابا

وسادتنا آل البيت شاكرون صابرون كما رأيناهم فى الناحيتين فى تاريخهم الحافل بالمفاخر ، ومع ذلك فانهم من كمالهم يتهمون أنفسهم بأنهم لم يبلغوا ما أملوا من الشكر لانعم الله والصبر على بلائه ، حتى

لقد التزم الامام الحسين السبط رضى الله عنه الحجر الاسود وقال وهو يناجى ربه : الهى نعمتنى فلم تجدنى شاكرا وابتليتنى فلم تجدنى صابرا ، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ، ولا أنت أدمت الشدة بترك الصبر ، الهى ما يكون من الكريم الا الكرم •

أقول ومثل هذه المناجاة لا تكون من غير سادتى آل البيت الامجاد : فان فصاحتهم تغرف من البحر وتفلق الصخر ، ولاغرابه فى ذلك فمن بينهم خرج العلم وعنهم يأخذ الناس الورع ، وكيف لا وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله •

وهم أئمة الصابرين على البلاء فكم حملوا من صنوف البلاء ما تأباه الجبال الشم ، وقد ابتلوا فى هذه الدنيا على قدر دينهم ويقينهم فما ضجروا وما قنطوا من رحمة الله ، ويقول امامنا الاكبر على بن أبى طالب رضى الله عنه : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، كما يقول كرم الله وجهه : الصبر مطية لا تكبو •

ويقول السادة الصوفية : فاز الصابرون بعز الدارين ، لانهم نالوا من الله معيته وقالوا فى معنى قوله تعالى (اصبروا وصابروا ورابطوا) الصبر دون المصابرة ، والمصـــابرة دون المرابطة ، وقالـــوا اصـــبروا بنفوسكم على طاعة الله تعالى ، وصابروا بقلوبكم على البلوى فى الله ورابطوا بأسراركم على الشوق الى الله ، وقالوا : اصبروا فى الله ، وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله ، وقالوا : الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر فى الله بلاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفـــــاء •

ويقول السادة الصوفية ان اظهار البلاء على غير وجه الشـــكوى لا ينافى الصبر ، قال تعالى فى قصة أيوب عليه السلام (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) مع ما أخبر عنه تعـــالى أنه قال (أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) •

وأخيرا اختم بما بدأ به سيدى الشيخ عبارته فاقول حفظنا الله من ماديات هذا الزمان ، وجعلنا من أهل التقوى الذين رأوا الغنى الحق فى اليقين به سبحانه ، فوثقوا فيه ، واطمـــأنوا به وفوضوا أمورهم

اليه ، واستحسنوا أفعاله وان خالفت هوى النفوس ، فهانت عليهم المصائب ، وقدروا للمنعم فضله فى نعمه الظاهرة والباطنة ، فشكروها ولم يكفروها ، فجمعوا بين الصبر الجميل والشكر الجزيل ، ومن جمع بين الصبر والشكر فقد جمع بين أجر الصابرين وسعادة الشاكرين ، وفوض الله فيما قضى وقدر ، وأخفى وأظهر ، وصار بهذا كله على قدم مولانا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم الذى كان يقول عند النـــــوم :

« اللهم انى أسلمت نفسى اليك والجـــأت ظهرى اليك ، وفوضت أمرى اليك ، رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى ، فاغفر لى انه لا يغفـــر الذنوب الا أنت » .

اللهم اجز عنا نبينا خير ما تجزى به نبيا عن أمته ورسولا عن قومه وآته الوسيلة والفضيلة وابعثه اللهم مقاما محمودا الذى وعدته انك لا تخلف الميعاد .

الركون إلى الله تعالى

« روحى سبحت فى معرفة الحق،فنظرت ماذا فى السموات والأرض، فذكرت فضله ، وشكرته على هدايته ، فوقفت على الحدود ، وعلمت أنه هو القاضى وهو المدبر ، فركنت اليه وقلت : قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هـو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون »

جاءت تلك الكلمات النافعة فى رسـالة بعث بهـا سـيدى الشـيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصـالح المبـارك الصديق السيد / سالم جمعه مد الله فى عمره وبارك له فى حياته وهى تدلنا على فضل التفكر فى خلق السموات والارض الذى يكشف لنـا عن آيات الله الدالة على وجوده وقدرته ووحدانيته ، فيقف المؤمن منه موقف المخلوق من خالقـه ، والمربوب من ربه ، والمرزوق من رازقه ، والفقير من الغنى عنه ، والمملوك من المالك ، والعابد من المعبـود ، والحادث من القديم ، والميت من الحى الذى لا يموت •

ويقول سيدى أحمد الانطاكى رضى الله عنه : أنفع العقل ما عرفك نعم الله تعالى عليك ، وأعانك على شكرها ، وقام بخلاف الهوى ، وقد جعل الله سبحانه وتعالى التفكر فى خلق السموات والارض من خصائص العقلاء فقال تعالى (ان فى خلق السموات والارض واختـلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب • الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار • ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ومـا للظالمين من انصار • ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنـوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار • ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد) فكان ذكر الله تعالى مدخلهم الى الفكر ،والفكر مدخلهم الى قوة اليقين بالله ، وقـوة اليقين مدخلهم الى الوقوف على حـدوده سبحانه أملا فى عفوه وغفرانه وخوفا من بطشـه وسلطانه ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا •

وقد وصل الانسان فى زماننا بتقدمه العلمى الى القمر ووطئت أقدام البشر فعلا سطح القمر لكن هل ازداد الانسان بتجربته هذه ايمانا بالله وثقة فيه واعتمادا عليه وتوحيدا له : لا أظن ذلك وانما ازداد اعتدادا وغرورا بعلم الانسان وقدرته وسيطرته على الكون وبسبق دولته وتفوقها على غيرها من الدول ، ولا نعجب نحن المسلمين من ذلك الغرور لانه سبحانه وتعالى نبهنا اليه فى كتابه المبين فقال تعالى : (انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذ أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الايات لقوم يتفكرون) •

وصدق السادة الصوفية حين يقولون ان مفاوز الدنيا تقطع بالاقدام ولكن مفاوز الاخرة تقطع بالقلوب ، فقد وصلوا الى القمر باقدامهم ولكن قلوبهم لم تتجه الى الآخرة اتجاه المتفكرين من اولى الالباب فى خلق السموات والارض ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ، ولئن باهى أهل الدنيا بالوصول الى القمر فان اهل الاخرة يباهون بالوصول الى خالقه سبحانه ، والوصول الى المكون اعظم أثرا وأبقى من الوصول للأكوان ، وأين وصول يفنى بفناء الانسان من وصول يبقى ببقاء الله : اللهم أدم علينا نعمة توحيدك والايمان بك فانك تغنى عن غيرك ، وغيرك لا يغنى عنك شيئا •

واذا آمن الانسان بربه ايمانا يباشر قلبه علم يقينا انه لا حركة ولا سكون الا بقضائه وقدره فسكن للاقدار ارضاء لمقدرها ، ورضى بالقضاء اطمئنانا الى عدالة القاضى ، فشكر فى الرخاء ، وصبر فى البلاء. وقال ما ردده سيدى الشيخ من كلام الله تعالى الذى يوجهنا الى الرضا والتسليم (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وذلك شأن الصادقين من عباد الرحمن •

ويقول السادة الصوفية فى أهمية الصدق مع الله : لا يستغنى حال من الأحوال عن الصدق ، والصدق مستغن عن الأحوال كلها ، ولو صدق العبد فيما بينه وبين الله حقيقة الصدق لاطلع على خزائن من خزائن الغيب ولكان آمنا فى السموات والارض •

ومن روائع السادة الصوفية انهم يقولون ان اللهتعالىدعا الصابرين من المؤمنين على المعارضة فقال تعالى (انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) بينما دعا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصبر مع المراقبة فقال تعالى : (واصبر ومـا صبرك الا بالله) لانه صلى الله عليه وسلم أجل عند ربه من ان يطالبه بمعاملة تقتضى عليها معاوضة كما قال له (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا) أى انما هو حكم الله الذى جرى عليك لا حـكم غيره وانت محاط على الدوام بعنايته سبحانه ، وكذلك أدبه فى الحرب فقال تعالى (وما رميت اذ رميت ولـكن الله رمى) فلما أدبه بذلك قال صلى الله عليه وسلم : اللهم بك أصول وبك أجول ، وبك أقاتل ، وبك أحاول •

ولهذا يوجه السادة الصوفية تلاميذهم الى الاعتمـاد على الله فى جميع أحوالهم ، والى شكره سبحانه والرضا بقضائه ، حتى تتحقق عبودية المريد لربه ومما كتبه سيدى أبو سعيد بن الاعرابى الى أحـد المريدين قوله :

كلأك الله كلاءة الوليد المرحوم، وحفظك حفظ الولى المعصوم، ووهبلك معرفة ما أنعم به عليك ، واستخرج منك ما جبلك عليه ، وحجبك عن نفسك القاطعة دونه ، وكفاك عوائقها وبوائقها ورؤية عملك ، واثـر سعيك ، وتزكية نفسك ، واعتقك من رقها ، وكفاك عوارض تحيرها ، وفضول تكلفها ، واستخلصك لنفسه منها ، ليحقق فيك العبـودية ، فيزكو عملك وان خف ، وينمو سعيك وان قل ، وتطيب حيـاتك وان مت ، حتى يوصلك بالحياة التى لا موت فيها ، والبقاء الذى لا فناء بعده ، وتولى أمرك بالحسنى فى عواقبها ، كما كفاك التحير فى أوائلها ، انه ولى التمام لما ابتدأه •

ويقول السادة الصوفية ان مولانا رسـول الله صلى الله عليـه وسلم قال متحدثا بنعمة ربه عليه : « انا سيد ولد آدم ولا فخر » ويفسرون قوله صلى الله عليه وسلم : « ولا فخر » فيقولون انما قصد صلى الله عيه وسلم ان يقول : « ان هذا عطاء الله وانا لا افتخـر بالعطاء لان فخرى بالمعطى جل جلاله لا بالعطاء » •

ويقول أمامنا على بن أبى طالب رضى الله عنه : الخير كله مجموع فى أربعة : الصمت والنطق والنظر والحركة ، فكل نطق لا يكون فى ذكر الله تعالى فهو لغو ، وكل صمت لا يكون فى فكر فهو سهو ، وكل نظر لا يكون فى عبرة فهو غفلة ، وكل حركة لا تكون فى تعبد فهى فترة ، فرحم الله عبدا جعل نطقه ذكرا ، وصمته فكرا ، ونظره عبرة ، وحركته تعبدا ، ويسلم الناس من لسانه ويده •

ويقول امامنا عثمان بن عفان رضى الله عنه : وجدت الخير مجموعا فى أربعة : التحبب الى الله تعالى بالنوافل والثانى الصبر على أحكام الله تعالى ، والثالث الرضا بتقدير الله عز وجل والرابع الحياء من نظر الله عز وجل •

أما معرفة الحق سبحانه التى سبحت فيها روح شيخنا رضى الله عنه فقد عرفها السادة الصوفية فقالوا : حقيقة المعرفة المحبة له بالقلب والذكر له باللسان وقطع الهمة عن كل شىء سواه ، ولذلك تراهم يحذروننا من الغفلة وآثارها فيقولون : لا نوم أثقل من الغفلة ، ولا رق أملك من الشهوة ، ولولا ثقل الغفلة ما ظهرت بك الشهوة •

وقد سئل سيدى أحمد بن خضرويه رضى الله عنه : أى الاعمال أفضل ؟ فقال رعاية السر عن الالتفات الى شىء سوى الله تعالى ، ويقول سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه : ثلاث خصال من صفة الاولياء : الثقة بالله فى كل شىء ، والغنى به عن كل شىء ، والرجوع اليه فى كل شىء وقد سئل رضى الله عنه : اخبرنا عن الله ما هو ؟ قال: اله واحد ، قيل : كيف هو ؟ قال : ملك قادر ، قيل : أين هو ؟ قال : بالمرصاد ،قيل : ليس عن هذا نسألك : قال : فذاك الذى تسألون عنه صفة المخلوق ، أما صفة الخالق فما أخبرتكم به •

ويقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل نور الله ضريحه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

اذا كنت تهوى الله نلت مكانة
وان كنت تهوى الناس نلت هوانا

ومن يذكر الرحمن بالقلب صادقا
علا فوق اعناق الملوك مكانا
ونحن قلوب طهر الله أصلها
ورب السما بالمكرمات كسانا
ولم نتكلم انما فاض حبنا
شهودا فأرسلنا العلوم بيانا
مددنا الايادى للمهيمن ذلة
فجاد علينا واستجاب ندانا
خليلى ان الحب يقتل أهله
وما عز من فى الحب لا يتفانى
الا أيها اللاحى تجرع كؤوسنا
لتصبح منا ان سقيت سقانا
تجلت لنا الانوار من عالم البقا
فهامت بنا أرواحنا ونهانا
فنينا بها حبا فطابت حياتنا
رأينا بها عند الفناء بقانا

ومعرفة الله عند السادة الصوفية على ثلاثة أوجه : معرفة اقرار، ومعرفة حقيقة ، ومعرفة مشاهدة وفى معرفة المشاهدة يندرج الفهم والعلم والعبارة والكلام وذلك ما يفسر لك قول شيخنا العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه :

ولم نتكلم انما فاض حبنا
شهودا فأرسلنا العلوم بيانا

ولم يكن كلامه مثل كلام غيره ، وانما امتاز كلامه بالذوق الذى يتحلى به أهل الشهود الذين اختصهم الله برحمته واجتباهم لساحة قدسه وقال فيهم (يحبهم ويحبونه) كما قال فيهم (والذين آمنوا أشد حبا لله) .

ومحبة الله عند السادة الصوفية على ثلاث أحوال :

الأول — محبة العامة ، وتتولد من احسان الله تعالى اليهم وعطفه عليهم لأن النفوس جبلت على حب من احسن اليها ، وعلامة هذه المحبة صفاء الود مع دوام الذكر لان من احب شيئا أكثر من ذكره .

الثانی — حب الصادقين ويتولد من نظر القلب الى غناء الله وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته ، وقد سئل الامام ابو سعيد الخراز عن هذه المحبة فقال : طوبى لمن شرب كأسا من محبته ، وذاق نعيما من مناجاة الجليل وقربه بما وجـد من اللذات بحبه ، فملأ قلبه حبا ، وطار بالله طربا ، وهام اليه اشتياقا ، فيالهٍ من وامق متصل بربه ، كلف دنف ، ليس له سكن غيره ولا مألوف سواه •

وفى هذه المحبة يقول سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه :

اذا قيـل لـى أطلب قلت ربـى مطلبـى
وان قيـل لـى اشرب قلت أنـواره كـأسى

سلونى عن العشـاق قد ذقت حبهم
وانـى لهـم رأس اذا كـان مـن رأس

وان حبـال الوجـد تربط مهجتى
وقلبـى بحب اللـه يعبـق كالـورس

حسبت الهـوى سـهلا فخضت عبـابه
فطـورا بـه أطفـو وطـورا بـه غطسى

الـى ان انتنـى مـن لدنـه عنـاية
وصـلت بهـا بـر السلامة والانس

الثالث — محبة الصديقين والعارفين ، وتتولد من نظـرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة ، فكذلك أحبوه بلا علة يقول فى تلك المحبة سيدى الشيخ على عقل قدس الله سره :

طـول ليـلى فى محبتـكم
أتحـلى مـن جـلالتكم

قـد غرقنـا فى مودتـكم
وانتظمنـا فى حمـايتكم

فى جلال صيب هطل

يـا حبيبى أنـت محتسـبى
أنـت مقصـودى ومطلبـى

أنت يا رب السما اربى
أنت يا خلاق هتسبى

أنت لى ياذا الجلال ولى

فاذا عرف المؤمن ربه بمذاقه أحبه محبة العارفين ومن أحبه محبة العارفين توكل عليه فى أموره كلها ، وقد قال تعالى (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقال تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فكان توكل المتوكلين أخص من توكل المؤمنين ، وقد رد سبحانه المتوكلين اليه فقال تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيه ، وأمر أحب أحبابه صلى الله عليه وسلم بالتوكل عليه فقال تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت) كما قال له (وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم) .

وقد سئل الامام أبو تراب النخشبى رضى الله عنه عن معنى التوكل فقال هو طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة الى الكفاية ، فان أعطى شكر ، وان منع صبر راضيا موافقا للقدر ، وقد قال الامام الجنيد رضى الله عنه ان التوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى .

ويقول السادة الصوفية ان التوكل يقتضى الرضا ، وهو مقام شريف نوه بفضله القرآن الكريم فقال تعالى (رضى الله عنهم ورضوا عنه) وقال تعالى (ورضوان من الله أكبر) فبين سبحانه ان رضا الله عن عباده أقدم وأكرم من رضاهم عنه .

وعرف السادة الصوفية الرضا بأنه سكون القلب تحت حكم الله عز وجل ، وعللوا هذا السكون بان القلب ينظر الى قديم اختيار الله تعالى فيعلم ان ربه اختار له الافضل فيرضى به ويترك السخط .

ومن السادة الصوفية من عمل فى اسقاط الجزع حتى يكون قلبه مستويا لله عز وجل فيما يجرى عليه من حكم المكاره والشدائد والمنة والعطاء .

ومنهم من ذهب عن رؤية رضائه عن الله عز وجل برؤية رضا الله عنه لقوله تعالى (رضى الله عنهم ورضوا عنه) فلا تثبت لنفسه قدم فى الرضا وان استوى عنده الشدة والرخاء والمنع والعطاء .

وفى ذلك يقول قائلهم :

اذا أعطى فقد أرضى ولكن
اذا سلب الذى أعطى أثابا
فأى النعمتين أحق شكرا
وأحمد عند منقلب ايابا
أنعمته التى أهدت ثناء
أم الاخرى التى أهدت ثوابا

وهو يشير فى الشطر الاخير الى ثواب الصبر على البلايا حين يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب يوم يقوم الناس لرب العالمين .

ويحكى سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه أنه دخل مرة على مريض يعوده فبينما كان يكلمه أن أنة ، قال ذو النون فقلت له : ليس بصادق فى حبه من لم يصبر على ضربه ، فقال : ليس بصادق فى حبه من لم يتلذذ بضربه .

وحين يتكلم السادة الصوفية عن الصبر يقولون ان الصبر على ثلاثة أوجه : متصبر ، وصابر ، وصبار ، فالمتصبر من صبر فى الله تعالى ، فمرة يصبر على المكاره ومرة يعجز ، والصابر من يصبر فى الله ولله ولا يجزع ، وأما الصبار فذاك الذى صبره فى الله ولله وبالله فهذا لو وقع عليه البلايا لا يعجز ولا يتغير من جهة الوجوب والحقيقة، لا من جهة الرسم والخلقة .

وكان الامام الشبلى رضى الله عنه اذا سئل عن الصبر يتمثل بهذه الابيات :

عبرات خططن فى الخد سطرا
قد قرأها من ليس يحسن يقرا

ان صـــوت المحب من ألـم الشــو
ق وخــوف الفــراق يــورث ضرا
صــابر الصــبر فاستغاث بــه الصـ
ـبر فصـاح المحـب بالصـبر صبرا

ويقول السادة الصوفية ان شكوى الضر لله تعالى لا تخرج المحب عن صفة الصبر ، ويستدلون على ذلك بان سيدنا أيوب عليه السلام شكا ضره لربه حين قال : (انى مسنى الضر وأنت ارحم الراحمين) ولم تخرجه هذه الشكوى من صبره واطمئنان قلبه الى حكم القضاء فمدحه الله تعالى وقال فى شأنه (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) وانت ترى من ذلك ان المدار كله على سكون القلب لمجارى الاقدار ، ولذلك يقول السادة الصوفية فى حكمهم : الرضا بمواقع القدر نعم الوسيلة الى درجات المعرفة ، وفى هذا المقام يقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه :

قلبى اصـبر لا تـشكن تشـكو
ونفســى لا تئنــى
لـم ألاحـظ غـير وجـه اللـه
خـل الخـلق عنـى
ان سـألت النـاس أحـرم
ان سـألت اللـه يغنـى
ان سـألت النـاس أبعـد
ان سـألت اللـه يـدنى
ان آيـات التجـلى
بالمعـانى عـرفتنى
آيـة الوجـدان روضى
وشـهود اللـه فنـى

وكذلك هم يقولون ان الدعاء لا ينافى التسليم والتفويض ، وقد سئل بعض السادة الصوفية عن الدعاء وما وجهه لاهل التسليم والتفويض فقال : يدعو الله ولهذا الدعاء وجهان : احدهما يزين جوارحه الظاهرة بالدعاء لان الدعاء نوع من الخدمة ، والثانى أنه يدعو ائتمارا بأمر الله الذى أمر بالدعاء .

ومن دعاء الامام الجنيد رضى الله عنه :

الهى وسيدى ومولاى ، من أحسن منك حكما لمن أيقن بك ؟ ومن أوسع منك رحمة لمن انتقاك وقصدك ، ومن أسرع منك عطفا ورأفة لمن أرادك وأقبل على طاعتك ؟ فكلهم فى نعمائك يتقلبون ، ولك بفضلك عليهم يعبدون ، وفنيت حظوظهم من دونك واجتمعت لك وحدك، فهم اليك فى الليل والنهار متوجهون ، وعليك فى كل الاحوال مقبلون ولك على الاحوال مؤثرون فأنا أسألك يا الهى وسيدى ومولاى ان تكون لى بفضلك كالئا عاصما راحما ، فانى اليك لاح ، وبك مستغيث ، واليك راغب ، ومنك راهب ، وعليك فى أمور الدنيا والاخرة متوكل ، لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين .

وحكى الامام الجريرى رضى الله عنه فقال : سمعت ابراهيم المارستانى رحمه الله تعالى يقول : رأيت الخضر عليه السلام فى المنام، فعلمنى عشر كلمات وأحصاها على بيده :

اللهم انى أسألك حسن الاقبال عليك ، والاصغاء اليك ، والفهم عنك ، والبصيرة فى أمرك ، والنفاذ فى طاعتك ، والمواظبة على ارادتك، والمبادرة فى خدمتك ، وحسن الادب فى معاملتك ، وبرد التسليم اليك، والنظر الى وجهك .

وكان سيدى يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله يقول فى دعواته : الهى ، اذا قلت لى فى القيامة : عبدى ماغرك بى ، أقول : سيدى برك بى ، وان ادخلتنى النار بين اعدائك لأخبرتهم بأنى كنت فى الدنيا أحبك لانك مولاى ومن جميع الاشياء مغناى ، وكذلك كان رضى الله عنه يقول : اللهم ان نجيتنى نجيتنى بعفوك ، وان عذبتنى عذبتنى بعدلك، رضيت ما بى لانك ربى وأنا عبدك ، الهى أنت تعلم انى لا أقوى على النار ، وأنا أعلم انى لا أصلح للجنة ، فما الحيلة الا عفوك ، وكان رضى الله عنه يقول : اللهم انقرب اليك ، وبك ادل عليك ، وحجتى نعمك لا عملى ، ولا أظنك تحاسب غدا بعدلك من غشيته اليوم بفضلك، وعفوك يستغرق الذنوب ، ورضوانك يستغرق الآمال ، ولولا أنك بالعفو تجود ما كان عبدك بالذنب يعود .

وكان رضى الله عنه يقول : الهى وسيدى ومولاى ومن جميع الاشياء مغناى ، ضيعت نفسى بالذنوب فردها على بالتوبة ، أنت تعلم أن الكريم من عبادك يعفو عمن ظلمه وقد ظلمت نفسى وأنت أكرم الاكرمين فاعف عنى ، الهى أنت تعلم ان ابليس عدو لك ولى ، وليس شىء أنكى لكمده وأقطع لكيده من غفرانك لى فاغفر لى يا أرحم الراحمين .

وختاما أقول : (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم) .

جهاد النفس والهداية

أرسلك الى نفسك خاصة تجاهدها ، فان قدرت عليها وصرت مع الله خاصة أرسلك بعد ذلك الى أهلك ، فتسرى روحك بنور من عند الله الى قلوبهم بدون جهد ولا تعب ولا علم منك ، فيهديهم الله هداية كهدايتك ، فتفرح بهم ويفتح الله عليك وعليهم ثم بعــد ذلك يرسلك الى أهل ودك ومحبتك ، فيهتدون بما يقذفه الله تعالى من سر روحك ثم بعد ذلك لأهل قطرك حسب ما قدر لك ، ثم الى الملأ الأعلى فتنتفع وتنتفع وتعرف مقام المصطفى صلى الله عليه وسلم وتتلذذ من شراب بحره الفياض ، وتعرف أن حيرة القلب أمام الرب سبحانه تكون من الميل الى الناس فى غفلة عن رب الناس مع أن الناس ليسوا هم الأساس ، فلا تشرب الا من شراب الرسول صلى الله عليه وسلم .

جاءت السطور المتقــدمة فى رسالة بعث بهـــا ســيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق الكريم السيد / سالم جمعة ، بارك الله له فى دينه ودنياه ، وهى ترينا أثر جهاد النفس فى ذات المسلم فى آله وذويه وأحبابه وأهــل وطنه ، كيفما شاء الله تعالى وقدر .

وقد أرانا سيدى الشيخ أن جهاد النفس يتدرج بصاحبه شيئافشيئا فى صعوده الى قمة العرفان التى تنتهى اليها همم العارفين بالله ، الذين شغلهم الله تعالى عما سواه . فالدرجة الأولى التى يصعدها المؤمن هى تهذيب نفسه لنفسه فان بلغها تعدى أثره الى من حوله من أهله وخاصته، ثم الى أصدقائه الذين يتصلون به ، ثم الى أهل وطنه فلا يقف سره عند الأقربين بل يتعداهم الى غيرهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ويقول السادة الصوفية أن المؤمن فى تهذيب نفسه ينتقل من العبادة الى العبودية ثم ينتقل من العبودية الى العبودة ، فالعبادة تكون لأهل المجاهدات ، والعبودية تكون لأهل المكابدات والعبودة تكون لأهـــل

المشاهدات • وعنهم أن المؤمن لا يستطيع تهذيب نفسه الا بمخالفة هواها ، ويحكى سيدى الامام أبو القاسم الجنيد فيقول فى ذلك :

أرقت ليلة ، فقمت الى وردى (من الصلاة) فلم أجد ما كنت أجده من الحلاوة والتلذذ بمناجاتى لربى ، فتحيرت ، فأردت أن أنام فلم أقدر . فقعدت فلم أطق القعود ، ففتحت الباب وخرجت فاذا رجل ملتف فى عباءة مطروح على الطريق ، فلما أحس بى رفع رأسه وقال : يا أبا القاسم الى الساعة ؟ فقلت يا سيدى : من غير موعد ؟ قال : بلى ، قد سألت محرك القلوب أن يحرك الى قلبك ، فقلت : قد فعلت ذلك ، فما حاجتك ؟ فقال: متى يصير داء النفس دواءها ؟ قلت : اذا خالفت هواها صار دواؤها داءها ، فأقبل على نفسه وقال : اسمعى ، قد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات فأبيت أن تسمعيه الا من الجنيد ، فقد سمعت ، وانصرف عنى ، ولم أعرفه ، ولم أقف عليه بعد •

أقول والقرآن الكريم يؤيد السادة الصوفية فى فهمهم هـذا ، فانه سبحانه وتعالى يقول (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) ، ويقول الامام أبو حفص رضى الله عنه : من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ، ولم يجبرها على مكروهها فى سائر أيامه كان مغرورا ، ومن نظر اليها باستحسان شىء منها فقد أهلكها ، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه والكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم الخليل (عليهم الصلاة والسلام) يقول (وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى) •

ويقول سيدى الامام الجنيد رضى الله عنه : النفس الأمارة بالسوء هى الداعية الى المهالك ، المعينة للأعداء ، المتبعة للهوى المهتمة بأصناف الأسواء • ومن حكم السادة الصوفية : نفسك كالدابة ان ركبتها حملتك وان ركبتك قتلتك • ويقولون : النعمة العظمى الخروج من النفس لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله عز وجل • ويقول سيدى أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه : وقفت نفسى مع المصلين فلم أر لى معهم قدما ، ووقفت نفسى مع الصائمين فلم أر لى معهم قدما ، فقلت يارب : كيف الوصول اليك ؟ فقال : أترك نفسك وتعال ، ويقول سيدى سهل التسترى رضى الله عنه : ما عبد الله بشىء مثل مخالفة النفس والهوى •

وفى نهى النفس عن هواها وفاء بعهد الله تعالى وخوف منه سبحانه . وقد قال تعالى لبنى اسرائيل (وأوفوا بعهـــدى أوف بعهدكم واياى فارهبون) ، ويقول سيدى الامام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف اشاراته عند هذه الآية الكريمة :

عهده سبحانه حفظ المعرفة ، وعهدنا اتصال المغفرة ، عهده حفظ مخابه وعهدنا لطف ثوابه ، عهده حضور الباب وعهدنا جزيل المـــآب .

أوفوا بعهدى بفحظ السر أوف بعهدكم بجميل البر ، أوفوا بعهدى الذى قبلتم يوم الميثاق أوف بعهدكم الذى ضمنت لكم يوم التلاق ، أوفوا بعهدى فى ألا تؤثروا على غيرى أوف بعهدكم ألا أمنع عنكم لطفى وخيرى وأطال رضى الله عنه فى تلك الروائع الى أن قال :

أوفوا بعهدى فى المطالبات بترك الشهوات أوف بعهدكم بكفايتكم تلك المطالبات ، أوفوا بعهدى بأن تقولوا أبدا : ربى ربى ، أوف بعهـــدكم بأن أقول لكم عبدى عبدى . واياى فارهبون أى أفردونى بالخشــية لانفرادى بالقدرة على الايجاد فلا تصح الخشية ممن ليس له قـــدرة ولامنـــة .

ومن حكم سيدى أبو ســـليمان الدارانى رضى الله عنـــه قوله : من أحسن فى ليله كوفىء فى نهاره ، ومن أحسن فى نهاره كوفىء فى ليله ، ومن صدق فى ترك شهواته كفى مؤونتها ، والله أكرم من أن يعذب قلبا ترك شهوة لأجله . ويقول السادة الصوفية أن متابعة النفس فى هواها يؤدى بصاحبها الى الهوان عند الله تعالى ، وفى ذلك أنشدوا .

نون الهـــوان من الهـــــوى مسروقة
وصريع كل هـــوى صريع هــــوان

وفى جهاد النفس يستقصى السادة الصوفية عيوبهم الباطنة وهى عندهم ثلاثة أنواع :

(أ) عيوب النفس ، وتأتى من تعلقها بالشهوات الجســدية ، كطيب المـــأكل والمشرب والملبس والمركب .

(ب) وعيوب القلب ، وتتأتى من تعلقه بالشهوات القلبية ، كحب الجاه والرياسة والكبر والحرص والحسد والحقد ، وتلك من أخلاق الشياطين .

(ج) وعيوب الروح ، وتتأتى من تعلقهـا بالحظوظ الباطنـة ، كطلب الكرامات والمقامات .

وهم لا يحرمون زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، انما يرون ألا ينخدع المؤمن بظواهر الدنيا فيقف عندها ويجعلها نهاية أفقه بل يمد نظره الى الآخرة التى هى خير وأبقى ، لأن الله تعـالى ينظر الى القلوب والأحوال ولا ينظر الى الأجساد والأشكال ، ولذلك ورد فى الحديث الشريف : « رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك » .

ومن حكم السادة الصوفية فى أحوال المعيشة قولهم : الدنيـا كلهـا فضول الا خمس خصال : خبز يشبعه ، وماء يرويه ، وثوب يستره، وبيت يكنه ، وعلم يستعمله . ويقول الامام جلال الدين الرومى رضى الله عنه فيما ترجمه عنه صديقى الفاضل الشيخ الصـاوى شعلان : « اقرأ ما كتب الرحمن فى صحائف الأكوان ، ولا تجعل الظواهر منتهى بصرك ومبلغ علمك حتى لا تحجب الحقيقة عن عينك وتنحرف بك الأهواء عن سبيل الرشد ، واعلم أن الدنيا لو كانت كلها طوع يدك ما كان لك سوى القوت ، فلا تأكل فى سبعة أمعاء ، ان أموال قارون لم تزده لحظة على العمر المقدور ، وان الاسكندر الاكبر قهر الجيوش الزاحفة ثم زحف عليه الاجل المحتوم وقهره فى الوقت المعلوم .

« أيها المؤمن ، أن آثام اليوم هى عقارب الغد ، وسكرة الدنيا هى لهيب العطش فى صحراء القيامة .

« أيهـا المؤمن ، اسق ورد الطاعات من دموع توبتك حتى تستروح الفردوس أنســام صلواتك ، وتستقبل الحور هدايا الطيب والعطر من حسناتك ، وتنظم عقود الجواهر من تسبيحاتك » .

وحين يتمتع السادة الصوفية بالحلال ، يوجهون النية فيه لله تعـالى فاذا أكلوا حلالا ينوون أن تكون لهم بأكله قوة فى عبادة الله سبحانه .

وهذه النية عندهم ألذ من طعم الطعام ذاته ، واذا لبسوا اللباس قصدوا به ستر العورة وأخذ الزينة للصلاة ولا يقصدون به التباهى والتفاخر كما يقصد عامة الناس ، واذا أتوا نساءهم قصدوا أن يعفوا أنفسهم ونساءهم عن الحرام ، أو بنية النسل الطيب ، ويقول مولانا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما أتيت أهلى قط بنية الشهوة ولكن بنية أن يرزقنى الله منها من يوحد الله ولا يشرك به شيئا •

وقد أرادوا أن يغير رضى الله عنه ملبسه بأفخر منه حين ولى الخلافة . ورجوا من سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن تكلمه فى ذلك فكلمته فقال لها : يرضى الله عنك يا أم المؤمنين تريدين أن أغير ما كنت عليه فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وقصته رضى الله عنه حين أركبوه البرذون (السيسى) معروفة فقد ركبه قليلا ثم قال أنزلونى ، أنزلونى قالوا لماذا يا أمير المؤمنين ، قال أخشى أن يداخلنى الغرور •

ولا تعجب أن يسلك السادة الصحابة هذا المسلك ، فقد صحبوا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأسوا به فى أقواله وأفعاله وأحواله وقد بلغ فى زهده ما لم يبلغه الا رسول كريم وكان يستطيع أن يعيش عيشة الملوك لو شاء ، ولكنه آثر ما يبقى على ما يفنى حتى لقد دخل على ابنته السيدة الزهراء رضى الله عنها فوجدها تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر فقال لها : تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة •

وقد روى عقبة بن علقمة قال : دخلت على على رضى الله عنه فاذا بين يديه طعام خشن فقلت : يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا ؟ فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا فان لم آخذ نفسى بما أخذ به نفسه خفت ألا ألحق به •

ويستعين السادة الصوفية فى جهاد أنفسهم بمراقبة الله تعالى واستحضار عظمته سبحانه ، ويقولون فى هذا المقام : تعهد نفسك فى ثلاثة مواضع : اذا عملت فاذكر نظر الله اليك ، واذا تكلمت فاذكر سمع الله اليك ، واذا سكت فاذكر علم الله فيك •

والجهاد عند السادة الصوفية ثلاثة أنواع : جهاد فى سرك مع الشيطان حتى تكسره ، وجهاد فى العلانية فى أداء الفرائض حتى تؤديها كما أمر الله تعالى ، وجهاد مع أعداء الله فى غزو الاسلام • وهم يقولون ان أقوى القوة غلبتك نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز ، ومن أطاع من فوقه أطاعه من دونه •

ويقول سيدى شقيق البلخي رضى الله عنه : عملت فى القرآن عشرين سنة حتى ميزت الدنيا عن الآخرة ، فأصبته فى حرفين وهو قوله تعالى (فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى) • ويقول رضى الله عنه كذلك : اذا أردت أن تكون فى راحة فكل ما أصبت والبس ما وجدت وارض بما قضى الله عليك • ويقول سيدى ابو يزيد البسطامى رضى الله عنه : ان الله أمر العباد ونهاهم فأطاعوه فخلع عليهم خلعه فاشتغلوا بالخلع عنه ، وانى لا أريد من الله الا الله•

ومن كلمة سيدى أبى يزيد المتقدمة ترى أن القوم لا يشتغلون بالنعم عن المنعم • ويقول السادة الصوفية اذا كان الله قد أمرك بالاحسان الى جارك ومراعاة حقه ، فجار نفسك — وهو قلبك — أولى بألا تضيعه ولا تغفل عنه ولا تمكن حلول الخواطر الرديئة به • واذا كان جار نفسك هذا حكمه فجار قلبك — وهو روحك — أولى أن تحامى على حقها ولا تمكن لما يخالفها من مساكنتها ومجاورتها ، وجار روحك — وهو سرك — أولى أن ترعى حقه ، فلا تمكنه من الغيبة عن أوطان الشهود على دوام الساعات •

وهم يقولون ان النفس والقلب والروح والسر شىء واحد فى أصله وبحسب ما يكون فيه مجاهد نفسه يوصف بوصفه ، فاذا جاهد نفسه الامارة صار الى قلبه ، واذا جاهد قلبه صار الى روحه واذا جاهد روحه صار الى سره ، وهذا السر يكون بينه وبين ربه فلا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ، ويشبهون ذلك بالبذرة التى تكون فى الأرض فانها اذا نمت كان جذعا ثم فروعا ثم زهورا ثم ثمارا وأصلها واحد واختلفت مسمياتها بحسب أوضاعها التى تكون عليها • واذا نضجت الشجرة استظل الناس بظلها وأكلوا من ثمرها ، وكذلك المؤمن اذا نضج فى تربية نفسه التف الناس حوله وانتفعوا بتجربته وتربيته اذا كان الله اراده اماما للناس •

والسادة الصوفية يعولون كثيرا فى تربية النفس على صحبة الشيخ المربى ، ويقولون أن السالك الى ربه بنفسه يكون كالشجرة التى تنبت بنفسها فانها تورق ولكنها لا تثمــر ، واذن لابد للمريد من شيخ يربيه فى جنب الله ويعينه على جهاد نفسه والتخلص من كدوراتها ورعوناتها . ويقول سيدى أبو طالب المكى رضى الله عنه :

واعلم أن الأنس لا يوجد فى كل عالم ، ولا فى كل عاقل ، ولا فى كل عابد زاهد ، ويحتاج الأنس الى وجود معان تكون فى الولى ، فاذا اجتمعت فيه كمل فيه الأنس ، وانتفت عنه الوحشة ، ومن لم تكن فيه لم يوجد فيه أنس ، ومن لم تكمل فيه وجد فيه بعض الأنس ، واذا حصل الأنس ففيه الروح من الكروب ، والاســتراحة من الغم ، والسكون وطمأنينة القلب فكذلك عز من يوجد فيه الأنس لعزة خصاله وهى سبع : علم ، وعقل ، وأدب ، وحسن خلق ، وسخاء نفس ، وسلامة قلب ، وتواضع ، فان فقد بعضها لم يجد خلا يأنس لكماله . وأضدادها وحشة كلهــا ؛ لأن الجاهل لا أنس فيه ، والأحمق لا أنس به ، والبخيل سيء الخلــق لا أنس عنده ، والخبيث والمتكبر لا أنس معه فاعرف هذا .

وأضاف رضى الله عنه قوله :

ومثل جملة الناس كمثل جملة الشجر ، منهم من له ظل ليس فيه ثمر ، وهذا الذى فيه نفع من الدنيا ولا ثمر له فى العقبى ، ويحتاج اليه فى وقت ، ومنهم من فيه ثمر وليس له ظل ، وهذا يصلح للآخرة ولا يصلح للدنيا ، ومنهم من فيه ظل وثمر ، فهــذا يصلح للدين وللدنيــا وهو أعزها ، ومنهم من لا ظل له ولا ثمر وهذا الذى لا يحتاج اليه ، فمثله فى الشجر مثل شجر الغضا يمزق الثياب لا طعام فيه ولا شراب ، فهؤلاء من الناس من يضر ولا ينفع ويكثر ولا يدفع ، مثله كما قال الله تعــالى (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) وقد قيل فى وصف النــاس :

النـــاس شـــتى اذا ما أنت ذقتهــم
لا يســتوون كما لا يســتوى الشـــجر

ذا رب ظـــل ، وهـــذا عنـــده ثمـر
وذاك ليس له ظـــل ولا ثمــــر

وليس العلم الذى شرطوه فى الداعى الى الله تعالى علم دراسة فحسب بل هو علم دراسة وعلم وراثة أو علم وراثة يغنى عن الدراسة ، فكم من عالم راوية لم يصل الى الدراية والوعاية التى تصحب أهل الحق والحقيقة من الدعاة الى الله عز وجل ، وهذا ما يفسر قول مالك رضى الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية وانما هو نور يقذفه الله فى القلوب ، وقوله: لا أحب من الكلام الا ما كان تحته عمل • وفى الحديث الشريف (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) • ويقول امامنا الشافعى رضى الله عنه :

شكوت الى وكيع سوء حفظى
فأرشدنى الى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور
ونور الله لا يهدى لعاصى

ولهذا العلم النورانى يشير سيدى وشيخى الشيخ على عقل رضى الله عنه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

بحر التجلى كله حكمة
كم تسكر الأرواح من عذبه
دع ما يقول الناس من علمهم
ما دمت تلقى العلم من سببه

وليس فى صحبة المريد لشيخه اشتغال بالناس عن الله لأن الشيخ انما هو يد الله وعونه للمريد وقد ربط سبحانه الأسباب بالمسببات ، والامامة فى سبيل الهدى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من دعائم الدين والله تعالى يقول فى وصف عباد الرحمن (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما) كما يقول تعالى (يوم ندعو كل أناس بامامهم) أما الاشتغال بالناس والمنهى عنه شرعا فهو اغتيابهم واستقصاء عيوبهم والأولى بالمؤمن أن يشتغل بعيوب نفسه ويصلحها بمعاونة أحد العارفين بالله تعالى من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر على نور من ربهم •

وقد غرف سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه من بحر التجلى حتى روى وأروى ، ويقول متحدثا بنعمة ربه عليه فى الهامه الربانى الذى كان فيه وحيد نسجه :

علومى فى الورى نفحـــــات ربى
فمـــا بلغوا مــذاقى أو شـــمولى
ولى من مشرق الايمـــان عـــلم
ســـموت بـه عـلى كل الفحـــول

ويبين رضى الله عنه أن الالهام الربانى الذى يقذفه الله فى قلوب أوليائه من أهل اليقين انما يجيئهم بعــد مجـــاهدات شاقة لا يصبر عليها الا أولو العزم ممن باعوا أنفسهم لله تعالى واستسهلوا فى سبيله كل صعب ونظروا الى فضله ولم ينظروا الى أعمالهم بل أيقنوا أنه سبحانه ان قبلها منهم فانما يقبلها كرما بعد تجاوز عنهم ، وفى ذلك يقــول طيب اللـــه ثراه :

ومــن له قــلب قـــوى اليقــين
يلبســـه الخـــالق أســـمى وسـام
كم مــن مصـــل لم يذق قلبـــه
طعم الصـــلاة أو طــويل انقيـــام
وصـــــــائم يزيـد فى صــــــومه
والروح لا تفهــم معنى الصــــيام
فالذوق فى القــلب لــه طعمـــه
وانــه والله أشـــهى طعـــام
قالوا ينـــام الليـــل عبـد الصـفا
فقلت عيب عنــدنا أن ينــــام
أيــدعى الحب ويهـــوى الــكرى
الا ان ذا واللـــه شر انهـــــزام
لو أنهـــم بالنـــوم يعطونهـــا
مــا صـــح فى الأوليــــا الاعتصام
لــكنهم بالـــذكر يعطونهـــــا
والــذكر أزكى مبرىء للســـقام
يا بائــع الــروح لخلاقهـــــا
تقبـــل البيـــع بغـير التـــزام

وسلعة بيعت على عيبها
مقبولة بالطبع عند الكرام

والله ربى أكرم الأكرمين
يقبلنا بعيبنا والسلام

واذا أراد القارىء الكريم أن يقف على مواجيد سيدى الشيخ فى صلته بالله تعالى فليقرأ ما وصفها به رضى الله عنه فى الأبيات الآتية التى كانت الهاما لوقته من غير تفكير :

طاب فى نشره عبير غرامى
فتضافيت والهوى يهدينى

وحياتى حياة عالم قوم
عرف الحق دون أى فتون

ومقامى مقام صب معنى
ثابت الجأش صادق التمكين

دعواتى من الضياء ضياء
صرت كالفرقدين فى التبيين

ان سكنت الثرى بجسمى فروحى
فى سماء الهدى ونور اليقين

يرمس الناس فى القبور ورمسى
حب ربى وفضله يكفينى

طال نوحى ولست الا محبا
سمع الطير من أعالى الغصون

وسمعت الطيور وهى تناجى
والتناجى يثير شجو الحنين

فتناجيت بالأغاريد حتى
هامت الطير من سماع حنينى

لم أمتع بغير ربى قلبى
ولهذا ماء الهدى يروينى

وأنـــا الثـــابت المحب دوامـــــــا
لســـت أخشى عـــذل من عـــذلونى
لو يذوقـــون بعض مـــا ذقت فى الحب
خففـــــوا عــــــذلهم وقـــــد عـــذرونى
أخضـــــع الراســــيات من كلم العشـــق
فتعنـــــو الجبــــال عنــــــد أنينى
فمـــــرامى وجـــــه الحبيب وان مت
شـــــهيدا ففى الرحـــــــاب ذرونى
أمـــلى فيــــــــــه أن يـــكفر عنى
مـــا تجـــــاوزت من حــــدود الدين
أنا ان كنت مذنبـــــا وأثيمــــــا
انمـــــا ذو الجــــلال لا يردينى
أنـــــا ان كنت مذنبـــــا وأثيمـــــا
فرحيـــــــم العبـــــاد لا يخـــزينى
أنـــــا ان كنت مذنبـــــا وأثيمـــــا
فرضـــــــا اللــــــه ســــوف لا يخطينى
أنـــــا ان كنت مذنبـــــا وأثيمـــــا
فالهى من الضـــــــنى يشـــــــــفينى
أنـــــا ان كنت مذنبـــــا وأثيمـــــا
انمـــــا رحمـــــة الاله تقيـــــنى
عـــلم اللــــــه أن قلبى ضــــــعيف
فـــروانى بمـــــاء عــــين اليقـــــين

والفضل فى تسجيل الأبيات المتقدمة والتى تنشر لأول مرة كان للصديق الفاضل الدكتور مظهر سعيد وقد تكرم فنسخ لى صورة منها ومن غيرها مما سجله عن الشيخ فى ليلة سهرها معه من نحو ثلاثين سنة فى بلقاس ، وسوف لا يفوتنى أن أمتع القراء بالبقية الممتعة فى مقالاتى اللاحقـــــة ان شاء الله ، وشكر الله للصديق صنيعه •

الا رضى الله عن مشايخنا العارفين بالله الذين أوردونا موارد الايمان، وسقونا من رحيق الاحسان ، ومشارب العرفان ، وصـــدق الله العليم الحكيم اذ يقول ناصحا لعبده (واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) •

مسالمة الناس ومعرفة الله تعالى

« يا سالم أنت ان شاء الله سالم ، أنعم الله عليك بالسلم والمسالمة وحفظ الله عليك عقلك ، وأوحى فى قلبك ما أراده لتتصرف به ، وجعلك من أهل التمييز ، وسقاك الشراب اللذيذ وهو شراب القوم ، ولكل قوم مشرب ، ومشرب القوم أهل الله معرفة الله على قدر تمييز الانسان فى فهم اسماء الله وصفاته لان حقيقة المعرفة لا يتحملها الانسان ، وقد نظر سيدنا موسى عليه السلام للجبل فرآه اندك من تجليات العظمة والجلال (وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين) فمن طلب الادراك كان الجهل قرينه ، ومن عجز عن الادراك أدركه الله بلطفه وفقه أنه خادم وجب عليه أن يؤدى الخدمة كما أمره سيده » •

جاءت هذه السطور فى رسالة بعث بها سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح التقى الصديق الوفى السيد / سالم جمعة مد الله فى عمره وهى ترشدنا الى التحلى بمكارم الاخلاق وترينا مشرب السادة الصوفية فى معرفة الله تعالى وفى عبادته سبحانه •

ومكارم الاخلاق تقتضى مسالمة المسلمين خاصة فلا نؤذى احدا منهم بألسنتنا أو بأيدينا ، ولا نخدعهم أو نكذبهم أو نغشهم أو نعتدى من قريب أو بعيد على دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم ، فالمسلم أخو المسلم يحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها •

وقد وصف الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال فى شأنهم (أشداء على الكفار رحماء بينهم) فاجتمع لهم شدة على الاعداء ورحمة بالاخلاء ،ومدح سبحانه سادتنا الانصار فى حبهم لاخوانهم المهاجرين وايثارهم على أنفسهم فقال تعالى (والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن

يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وعلم الله سبحانه الخلف ألا ينسوا أسلافهم من دعواتهم ، فقال تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم) •

وفى التاريخ الكبير للبخارى أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « طوبى لمن ذل نفسه وطاب كسبه وصلحت سريرته وكرمت علانيته وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله » •

والاسلام يربى المسلمين على المسالمة ومكارم الاخلاق فيما بينهم، وللمسلم على أخيه المسلم عشرة حقوق ، أن يسلم عليه اذا لقيه ، ويجيبه اذا دعاه ، ويشمته اذا عطس ، ويعوده اذا مرض ، ويشهد جنازته اذا مات ، ويبر قسمه اذا أقسم عليه ، وينصح له اذا استنصحه ويحفظه بظهر الغيب اذا غاب عنه ، ويحب له ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه •

ويقول السادة الصوفية فى معنى قوله تعالى (رحماء بينهم) أى أنهم متوادون فيما بينهم ، يدعو صالحهم لطالحهم ، فاذا نظر الصالح الى الطالح من المسلمين دعا الله له وقال ، اللهم اهده وتب عليه واغفر له ، واذا نظر الطالح الى الصالح دعا الله له وقال ، اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبته عليه وانفعنا به •

وكان سيدى الامام سهل التسترى رضى الله عنه يقول من كف اذاه عن الخلق مشى على الماء •

ومن أروع ما قرأت للسادة الصوفية فى الكبائر أنها تكون فى القلوب وفى اللسان ، وفى البطن ، وفى الفرج ، وفى اليدين ، وفى الرجلين ، وفى جميع الجسد • ويفصلون ذلك فيقولون :

أما كبائر القلوب فأربع ، الشرك بالله تعالى ، والاصرار على معصية الله تعالى ، والقنوط من رحمة الله تعالى ، والأمن من مكر الله تعالى•

وأما كبائر اللسان فهى شهادة الزور ، وقذف المحصن (وهو الحر البالغ المسلم) واليمين الغموس (وهى التى تبطل بها حقا وتحق بها

باطلا ، وقيل هى التى يقطع بها مال المسلم ظلما ولو سواكا ، وسميت غموسا لأنها تغمسه فى غضب الله تعالى ، وقيل لانها تغمس صاحبها فى النار) والسحر ـ والسحرة هم النفاثات فى العقد الذين أمرنا الله بالاستعاذة منهم •

وكبائر البطن هى ، شرب الخمر والمسكر من الاشربة ، وأكل مال اليتيم ظلما ، وأكل الربا وهو يعلم •

وكبيرتا الفرج هما ، الزنا ، وعمل قوم لوط فى الادبار •

وكبيرتا اليدين هما ، القتل والسرقة •

وكبيرة الرجلين هى الفرار من زحف العدو ، بأن يفر الواحد من اثنين غير متحرف الى الامام ولا متحيز الى فئة ولا معتقد الكرة •

وكبيرة الجسد كله هى عقوق الوالدين ، وتفسير العقوق جملة ان يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما ، وان يسألاه فى حاجة فلا يعطيهما، وأن يأمناه فيخونهما ، وأن يجوعا فيشبع ولا يطعمهما ، وأن يشتماه فيضربهما •

ومن الاستنباطات الرائعة لسيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قوله حين سئل عن الكبائر ، اقرأ من أول سورة النساء الى رأس ثلاثين آية منها الى قوله تعالى (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) وانك اذا راجعت هذه الايات البينات وجدته انما استنبط ذلك بنور من ربه ، وسبحان من علم أصفياءه مالم يكونوا يعلمون •

ويروى سيدى الامام أبو طالب المكى حديثا مسندا عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه « ان العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له دخل الجنة ، ويأتى قد ظلم هذا ، وشتم هذا ، وضرب هذا ، فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته ، حتى لا تبقى له حسنة ، فتقول الملائكة يا ربنا قد فنيت حسناته ، وقد بقى طالبون كثير ، فيقول الله تعالى ، ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكو له صكا الى النار » •

ويقول السادة الصوفية فى معنى قوله تعالى (قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ان الفاحشة الباطنة هى الحسد . ويقولون فى حكمهم الحاسد جاحد ، لانه لا يرضى بقضاء الواحد . كما يقولون ، الحاسد اذا رأى نعمة بهت ، واذا رأى عثرة شمت .

ويقول سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه ، ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال ، ان لم تنفعه فلا تضره ، وان لم تسره فلا تغمه ، وان لم تمدحه فلا تذمه . وقد كان سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه يتمثل بالبيتين التاليين :

كن كيف شئت فان الله ذو كرم
وما عليك اذا أذنبت من باس
الا اثنتين فلا تقربهما أبدا
الشرك بالله والاضرار بالناس

وقد جاء فى الخبر « الدواوين ثلاثة ، ديوان يغفر ، وديوان لا يغفر، وديوان لا يترك . فأما الديوان الذى يغفر فذنوب العباد فيما بينهم وبين الله تعالى ، وأما الديوان الذى لا يغفر فالشرك بالله تعالى . وأما الديوان الذى لا يترك فمظالم العباد » اى ان الله لا يترك مؤاخذة العبد على تلك المظالم التى هى من حقوق العباد .

لكن ينبغى أن نعلم أن ثواب الله على الصالحات منجز للعبد أما العقاب على المعاصى فان الله فيه بالخيار ان شاء عذب العاصى وان شاء غفر له . ويقول سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) أى يغفر الذنب العظيم لمن يشاء ويعذب من يشاء على الذنب الصغير .

وأسوأ العبيد حالا فى رأى السادة الصوفية عبد يذنب ثم يتبع الذنب مثله أو أعظم منه ، ويقيم على الاصرار ، ولا ينوى توبة ولا يعقد استقامة ، ولا يرجو وعدا بحسن ظنه ، ولا يخاف وعيدا لتمكن أمنه ، فهذا هو حقيقة الاصرار ومقام بين العتو والاستكبار ، وفى مثل هذا جاء الخبر « هلك المصرون قدما الى النار » ونفس هذا العبد هى النفس الامارة ، وروحه من الخير فرارة ، ويخاف على مثله سوء الخاتمة ،

ولا يبعد منه سوء القضاء ودرك الشقاء ، وان اللعنة هى الخروج من الذنب الى أعظم منه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

ويقول سيدنا الامام جعفر الصادق رضى الله عنه ، ان الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث ، رضاه فى طاعته ، فلا تحتقروا منها شيئا لعل رضاه فيه ، وخبأ غضبه فى معاصيه ، فلا تحتقروا منها شيئا لعل غضبه فيه، وخبأ ولايته فى عباده المؤمنين ، فلا تحتقروا منهم أحدا لعله ولى الله تعـــالى .

ويقول السادة الصوفية ان من الرجاء تحسين الاخلاق مع الخلق ، وجميل الصبر عليهم ، وحسن الصفح عنهم ، ولطيف المداراة لهــم . تقربا الى الله عز وجل بذلك ، وتخلقا بأخلاقه سبحانه فانه يعفو عن قدرة ، ويغفر عن سلطان . وجعل سبحانه عفو العبد عن أخيه سبيلا لعفو الله عنه فى قوله الكريم (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) .

أما عن الشراب اللذيذ الذى أشار اليه سيدى الشيخ فى عبارته وهو شراب القوم ، أى أهل الله ، وهم السادة الصوفية فانما يقصد به معرفة الله ، فهى مشربهم ، الذى يردونه ، ويصدرون عنه ، وهى فى رأيهم أطيب شىء فى الدنيا ، ولذلك يقول الامام مالك بن دينار رضى الله عنه ، خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شىء فيها ، قيل ، وما هو ؟ قال المعرفة ثم أنشأ يقول .

ان عــــرفان ذى الجـــــلال لعـــز
وضـــــياء وبهجـــــــة وسرور
وعلى العـــارفين أيضــــا بهـــاء
وعليهم مـــن المحبـــة نـــور

والمعرفة عند السادة الصوفية هى دعامة الدين ، ويقولون فى تعريفها انها صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صـــدق الله تعالى فى معاملاته ، ثم تنقى عن اخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم طـــال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه ، فحظى من الله تعالى بجميل اقباله ، وصدق الله فى جميع أحواله ، وانقطعت عنه هواجس نفسه ،

ولم يصغ قلبه الى خاطر يدعوه الى غيره ، فاذا صار من الخلق أجنبيا، ومن آفات نفسه بريا ، ومن المساكنات والملاحظات نقيا ، ودامت فى السر مع الله مناجاته ، وحق فى كل لحظة اليه رجوعه ، وصار محدثا (أى ملهما) من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجـريه من تصاريف اقداره يسمى عند ذلك عارفا وتسمى حالته معرفة • أما المعرفة عند العلماء فهى العلم ، فكل علم معرفة ، وكل معرفة علم ، وكل عالم بالله عارف ، وكل عارف عالم •

أما ما يشير اليه سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه من أن معرفة الله تكون على قدر تمييز الانسان فى فهم أسماء الله وصفاته فيفسره ما يقول به السادة الصوفية من أن المعرفة معرفتان ، معرفة حق ، ومعرفة حقيقة — فمعرفة الحق هى معرفة وحدانيته سبحانـه على ما أبرز للخلق من الاسامى والصفات أما معرفة الحقيقة فلا سبيل اليها لأن حقيقة معرفته لا يطيقها الخلق ، ولا ذرة منها ، لان الكون بما فيه يتلاشى عند ذرة من أول باد يبدو من بوادى سطوات عظمته ؛ لذلك قالوا ، ما عرفه غير لأن الصمدية ممتنعة عن الاحاطة والادراك بقوله تعالى (ولا يحيطون به علما) • وقد حكى عن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال ، سبحانه من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته •

وقد سئل سيدى أبو الحسين النورى رحمه الله ، كيف لا تدركه العقول ولا يعرف الا بالعقول ؟ فقال ، كيف يدرك ذو أمد من لا أمد له ؟ أم كيف يدرك ذو عاهة من لا عاهة له ولا آفة ؟ أم كيف يكون مكيفا من كيف الكيف ؟ أم كيف يكون محيثا من حيث الحيث ؟

وقد قيل فى أبيات نسبت لامامنا على كرم الله وجهه :

رأيـت ربـى بعـين قلبـى ... فقلت لا شـك أنت أنـت
أنت الذى حـزت كل أين ... بحيـث لا أين ثـم أنـت
فليس للايـن منـك أيـن ... فيعـرف الاين أين أنـت
وليس للكيـف منـك كيـف ... فيعرف الكيـف كيـف أنت
أحطت علمـا بـكل شىء ... فـكلّ شىء أراه أنـت
وفى فنـائى فنى فنـائى ... وفى فنـائى رأيـت أنـت

وعلى قدر معرفة العبد بربه تكون خشيته منه ، ولذلك قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) فمن لا خشية عنده لا يعتبر من علماء الآخرة وان حصل كثيرا من العلم وانما يكون من علمـاء الدنيا وكان السادة الصوفية اذا أشاروا الى واحد من هؤلاء يقولون ، حدثنا فلان وكان من أوعية العلم ولا يقولون وكان عالمـا .

ويقول امامنا على كرم الله وجهه فى علماء الآخرة هؤلاء ، هلك خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقـودة وأمثالهم فى القلوب موجودة ، يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعها نظراءهم ، ويزرعوها فى قلوب اشباههم ، وهجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، فباشروا روح اليقين ، فاستلانوا ما استوعره المترفـون ، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى أولئك أولياء الله من خلقه ، وعماله فى أرضه ، والدعاة الى دينه ، ثم بكى وقال ، واشوقاه الى رؤيتهم .

وذلك الذى قاله امامنا على يفسر لك ما قاله سيدنـا عبد الله بن مسعود عند موت أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، فقد قال ، أحسب أن تسعة أعشار العلم قد مات بموت عمر ، فقالوا له ، تقـول ذلك وفينا جلة الصحابة ، قال لست أعنى العلم الذى تريدون ، انما أعنى العلم بالله تعالى . فجعل رضى الله عنه العلم بالمعلومات غير حقيقة العلم ، وجعل العلم بالله تعالى تسعة أعشار العلم .

ويرشدنا سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه الى طلب العلم والعمل به فيقول ، تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والزين عند الاخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواما ، فيجعلهم الله فى الخير قادة وهداة يقتدى بهم ، أدلة فى الخير ، تقتص آثارهم ، وترمق أعمالهم ويقتدى بفعالهم ، وينتهى الى رأيهم ، وترغب الملائكة فى خلتهم وبأجنحتها تمسحهم ، حتى كل رطب ويابس لهم مستغفر ، حتى حيتان البحـر وهوامه ، وسباع البر ونعامه ، والسماء ونجومها .

وفى قوله تعالى (يا أيهـا الذين آمنـوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) ان الله تعالى جعل مفتـاح القول السديد والعلم الرشـيد والسمع المكين التقوى ، وهى وصية الله تعالى لمن قبلنا كما هى وصيته لنا اذ يقول تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله) ويضيفون أن هذه الآية الاخيرة هى القطب الذى يدور عليه القرآن الكريم كله .

ويقول الامام سهل التسترى رضى الله عنه ، العلماء ثلاثة ، عالم بالله تعالى ، وعالم لله تعالى وعالم بحكم الله تعالى . ويعنى بالأول العارف الموقن ، ويعنى بالتالى العـالم بعـلم الاخلاص وبالاحوال والمعاملات ، ويعنى بالثالث العالم بتفصيل الحلال والحرام . ويقول رضى الله عنه كذلك ، الناس كلهم موتى الا العلماء ، والعلماء نيام الا الخائفين ، والخائفون منقطعون الا المحبين والمحبون أحياء شهداء وهم المؤثرون لله تعالى على كل حال .

وفى التفرغ لله ومحبته المحبة التى يعتد بهـا السادة الصـوفية ويبذلون فى سبيلها كل مجهود مستطاع يقول سيدى عمر بن الفارض وهو سلطان العاشقين فى احدى غرامياته .

نسـخت بحبـى آيـة الحـب من قبـلى
فأهـل الهوى جنـدى وحكمى على الـكل
وكـل فتـى يهـوى فانـى امـامـه
وانـى بـرىء من فتـى سـامع العـذل
ومن لـم يـكن فى عـزة الحـب تائهـا
بحـب الـذى يهـوى فبشره بالـذل

وفى احـدى مناجاته يقـول رضى الله عنه

أنتـم فـروضى ونفـلى — أنتـم حـديثى وشـغلى
يـا قبلتى فى صـلاتى — اذا وقفـت أصـلى
جمالـكم نصـب عينى — اليـه وجهـت كـلى
وسركـم فى ضمـيرى — والقلـب طـور التجـلى
آنسـت فى الحـى نـارا — ليـلا فبشرت أهـلى
قلـت امكثـوا فلعـلى — أجـد هـداى لعـلى
دنـوت منهـا كفاحـا — ردوا ليـالى وصـلى

صـــارت جبـــالى دكـــا   من هيبـــــة المتجـــلى
ولاح ســــــر خـــفى   يدريـــه من كـــان مثـــلى
وصرت مـــوسى زمـــانى   مـــذ صـــار بعضى كلى
فالمـــوت فيـــه حيـــاتى   وفى حيـــــاتى قتـــلى
أنـــــا الفقـــــير المعـــنى   رقـــوا لحـــالى وذلى

وفى الابيات المتقدمة يشير سلطان العاشقين الى ما وقـع لسيدنا موسى عليه السلام عند تجلى الحق للجبل الذى أندك مع صـلابته من هيبة المتجلى ، وقد أشار الى ذلك سيدى الشيخ عبد السـلام رضى الله عنه بقوله عن الجبل : اندك من تجليات العظمة والجلال • ويتعرض سيدى الامام القشيرى رضى الله عنـه الى موقف سيدنـا موسى فى هذا المقام عند قوله تعالى (ولمـا جاء موسى لميقاتنا ••• الآية) فيقول فى لطائف الاشارات جاء موسى مجىء المشتاقين الهيمين ، جاء موسى بلا موسى ، جاء موسى ولم يبق من موسى شىء لموسى ، آلاف الرجال قطعوا مسافات طويلة فلم يذكروا ، وهذا موسى خطا خطوات فالى يوم القيامة يقرأ الصبيان (ولمـا جاء موسى لميقاتنا ••) •

ويستطرد رضى الله عنه قائلا :

« ويقال لمـا جاء موسى لميقات باسط الحق ، سبحانه ، سقط بسماع الخطاب فلم يتمالك حتى قال (أرنى أنظر اليك) فان غلبات الوجد عليه استنطقته بطلب كمال الوصلة من الشهود ، وكذا قالوا :

وأبرح مـــا يكـــون الشـــــوق يومـــا
اذا دنـــت الخيـــام مـــن الخيـــــام

وفى ذلك أشار الى غاية القرب ، أى صفاء الحال ، لأن قرب المكان لا يصح على الله سبحانه •

ويقال صار موسى عليه السلام عند سماع الخطاب بعين السـكر فنطق ما نطق ، والسكران لا يؤخذ بقوله ، ألا ترى أنه ليس فى نص الكتاب معه عتاب بحرف •

وأضاف رضى الله عنه الى ما تقدم روائع من لطائف اشاراته الى أن قال :

« ويقال فى قوله تعالى (انظر الى الجبل) بلاء شديد لموسى لانه نفى عن رؤية مقصودة ومنى برؤية الجبل ، ولو أذن لـه أن يغمض جفنه فلا ينظر الى شىء لكان الأمر أسهل عليه ولكنه قال (لن ترانى ولكن انظر الى الجبل) » .

« ثم أشد من ذلك أنه أعطى الجبل التجلى ؛ فالجبل رآه وموسى لم يره ، ثم أمر موسى بالنظر الى الجبل الذى قدم عليه فى هذا السؤال وهذا والله لصعب شديد ، ولكن موسى لم ينازع ، ولم يقل أنا أريد النظر اليك فاذا لم أرك لم أنظر الى غيرك بل قال : لا أرفع بصرى عما أمرتنى بأن أنظر اليه وفى معناه أنشدوا » .

أريـد وصـــاله ويـريد هجـــرى
فاتـــرك مـــا أريـــد لمـــا يريـــد

« ويقال لمـا رد موسى الى حال الصحو وأفاق رجع الى رأس الأمر فقال (تبت اليك) يعنى ان لم تكن الرؤية هى غاية المرتبة فلا أقل من التوبة ، فقبله تعالى لسمو همته الى الرتبة العلية » .

« وفى قوله (تبت اليك) اناخة بقوة العبـودية ، وشرط الانصاف الا تبرح محل الخدمة وان حيل بينك وبين وجـود القربة لان القربة حظ نفسك ، والخدمة حق ربك ، وهى تتم بالا تكون بحظ نفسك .

وفى كلام سيدى الامام القشيرى المتقدم تفسير كاف لقول سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى : ومن عجز عن الادراك أدركه الله بلطفه وفقه إنه خادم وجب عليه أن يؤدى الخدمة كما أمره سيده ؛ وصدق سبحانه وتعالى اذ يقول (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) والهام العارفين من كلمات الله التى لا تنفذ فهم يغرفون من معين واحـد لا نهاية لمدده بقلوب خشعت وخضعت فعرفت ؛ فشربت وسقت غيرها وذلك ما يرمز اليه الامام السهروردى حين قال :

لا تسقنى وحدى فما عودتنى أنى أشح بهـا على جلاس
أنت الكريم ولا يليق تكرما أن يصبر الندماء دون الكاس

ويقولها صريحة شيخى وسيدى الشيخ على عقل فى فتوحاته المنهمة لفورها والتى نقلناها عنه ، رحمه الله :

شراب الحب يعرف بالمـذاق   وما كل السـقاة لـه بساق
دعاة الحب أكثر مـا تلاقى   وقل الصادقون فمـا تلاقى
ألا يـا ساقى العشاق مهلا   تعالى املأ كؤوسك من حقاقى
غرامى قد مزجت به رجائى   على خوف فمن خوفى مذاقى
وروحى أدركت معنى التجلى   فمنه أرى اصطباحى واغتباقى
وكيف أحب غير الله يوما   وليس سواه فى الاكوان باق
ومن عرف المحبـة عن يقين   محال أن يميل الى فـراق

اللهم اجمعنا على الباب فى زمرة الاحبـاب الذين سقيتهم شراب محبتك الصافية ، ومودتك الخالصة وقلت فيهم (يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) •

التمسك بالله تعالى

« فالعقل أن يتمسك العبد بالله ولا يميل عما قضاه ، والكتاب بشير نذير ، والنبى رسول كبير ، بلغ الكتاب وفسره ، ما كذب الفؤاد ما غيره فمن اتبع الرسول فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وكان مع ربه ثابتا لا يتغير » .

جاءت السطور المتقدمة فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق التقى السيد/ سالم جمعه ، حفظه الله ورعاه ، وهى ترشدنا بكلماتها النورانية الى التمسك بالله على هدى الكتاب والسنة ، فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، والسراء والضراء ، والسر والعلانية وذلك شأن المؤمنين الصادقين ، أهل الوفاء والتمكين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على الطريقة فغمرهم نور الحقيقة .

ويقول سيدى الشيخ : فالعقل ان يتمسك العبد بالله ، وهو قول حق يؤيده كتاب الله الكريم فى قوله تعالى مؤنبا بنى اسرائيل (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) فقد نفى العقل عنهم حين نصحوا غيرهم ولم ينصحوا أنفسهم ، ونفس الانسان أقرب اليه من نفس غيره ، وهى أولى بالرعاية وأحق بالعناية ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز .

أما عدم الميل عما قضاه الله ، فيقتضى الرضا والتفويض اليه فيما كان وما يكون ، لانه سبحانه لا يقع فى ملكه الا ما يريد ، وانما يجرى القضاء بأحكام الله ، الست تراه تعالى يقول لأحب أحبابه سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا) كما قال له (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وقال أيضا (واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) وغير ذلك كثير فى كتاب الله عز وجل .

وقد اجتمع لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبر من أطرافه فصبر على الطاعات وما فيها من التــكاليف ؛ وصبر على المصيبات وما فيها من التصاريف وصبر على الناس وما فيهم من المتاعب وصبر على العوافى وما فيها من الفتن ، أما السيئات فلم يكن لها عليه سبيل، فقد شرح الله صدره ؛ ووضع عنه وزره ، فهو المعصوم بعصمة الله والطاهر المطهر بأمره سبحانه .

وقد جعله سبحانه اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخــر وذكر الله كثيرا . لذلك حرص السادة الصوفية على أن يكونوا على صورة أصحابه الاعلام الذين لم يدعوا مجهودا فى مرضاة الله ورسوله الا بذلوه فأخذوا بالعزائم والمجاهدات ، دون الرخص والتأويلات ؛ ويقول سيدى جلال الدين الرومى رضى الله عنه فيما ترجمه عنه من الفارسية الى العربية صديقى الفاضل الشيخ الصاوى شعلان مد الله فى عمره :

« ولقد كان الأولون فى بعض ما أحل لهم أزهد منا فيما حرم علينا وكانوا لصغائر الذنوب أشد استعظاما منا لكبائر المعاصى ، حتى كادوا يفوقون بفطرهم صومنا ، ويتحدثون بنومهم يقظتنا ، وربما تركوا سبعة أبواب من الحلال من أجل باب من الحرام يخشونه ، فعملوا صالحا وكسبوا حلالا ، وأكلوا طيبا ، وانفقوا برا ، وقدموا أجرا ، فعش أيها المؤمن فى ذكراهم كأنك معهم ، ولا تسلط الهوى فى نفسك ، ولا تدع الاحجار المتراكمة من الخطايا تحطم قلبك ؛ فان الفخـــار اذا انكسر لا يرقع ولا يعاد طينا » .

« ان الظواهر أضلت ابليس فلم ير من جوهر آدم الا المـــاء والطين وأضلت الظواهر أبا جهل حين نظر بعينيه الى سيدنا محمد القرشى ، صلى الله عليه وسلم ، على انه يتيم أبى طالب ، ولم يره على أنه رسول الله ؛ صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله . وما ذنب البســتان اذا قصرت عن جنى ثماره وما ذنب النهار اذا أغمضت العين عن شهود أنواره » .

ويقول السادة الصوفية ان الله تعالى من رحمته بعباده تعرف الى خلقه بما يلائمهم ، فتعرف الى العـــامة بخلقه فقال سبحانه (أفـــلا

ينظرون الى الابل كيف خلقت • والى السماء كيف رفعت • والى الجبال كيف نصبت • والى الأرض كيف سطحت) وتعرف الى الخاصة بكلامه وصفاته ، فقال تعالى ، (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وقال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ، وتعرف الى الانبياء بنفسه كما قال تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا) •

والقرآن الكريم كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أنزله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وسلم فبلغه كما أنزل اليه ، وفسر ما أجمله من أحكام الله تعالى ، فكانت السنة مبينة للشرع ومتممة له . والخواص يذوقون من حلاوة القرآن ما لا يذوقه العوام لان الكلام على من على وحكيم من حكيم ، ويعطى الله فى فهمه ما يشاء لمن شاء من غوامض خطابه ، وخواص اشاراته •

ويقول سيدى عامر بن عبد الله رضى الله عنه : قرأت ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل استعنت بهن على ما أنا فيه ، فاستعنت بقوله تعالى (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله) فقلت : ان أراد أن يضرنى لم يقدر أحد أن ينفعنى وان أعطانى لم يقدر أحد أن يمنعنى • وقوله تعالى (فاذكرونى أذكركم) فاشتغلت بذكره عن ذكر من سواه • وقوله تعالى (وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها) فوالله ما اهتممت برزقى منذ قرأتها فاسترحت •

وقد اشتغل الناس بهم الرزق عن الرزاق ، مع انه سبحانه ضمن الرزق لكل دابة فى الأرض ، وكان الاولى مع هذا الضمان الصادر من القادر المقتدر أن يشتغل العباد بربهم وهم مطمئنون على وصول أرزاقهم اليهم من الأسباب التى اقامها وكلفهم أن يسعوا فيها درءا للتواكل والكسل ، وربطا بين العمال والعمل ، فان أفضل ما أكل العبد انما يكون من كسب يده ، وقد كسب الانبياء عليهم الصلاة والسلام عيشهم بأيديهم ، ويرحم الله أمير الشعراء شوقى اذ يقول :

من أحسن الأمثال فيما أحسب
الخبز لا يعطى ولكن يكسب
موسى الكليم استؤجر استئجارا
وكان عيسى فى الصبا نجارا

وقد رعى صلى الله عليه وسلم الغنم ، وعمل وكيلا أجيرا فى أموال السيدة خديجة رضى الله عنها فى شبابه الباكر .

ومن عجيب أمر الله تعالى أنه يرزق عبده المال ويثنى عليه فى انفاقه ويذمه فى البخل به ، لاظهار الاحكام ، وبيان الحلال والحرام ، والتبشير بالثواب ، والتخويف من العقاب ، فقد أظهر أمره ، وأخفى قدره ، ليهنأ العاملون بأمره ، وتسقط حجة المستندين فى التقصير الى قضائه وقدره .

ويقول سيدى الامام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف اشاراته عند قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) .

« المسلم لا يتحرك فى باطنه عرق للمنازعة مع التقدير ، فان الاسلام يقتضى تسليم الكل بلا استثناء ، ومن استثقل شيئا من التكليف أو بقى منه نفس لكراهية شىء فيعد غير مستسلم لحكمه .

« ويقال نور فى البداية هو نور العقل ، ونور فى الوسائط هو نور العلم ، ونور فى النهاية هو نور العرفان ، فصاحب العقل مع البرهان وصاحب العلم مع البيان ، وصاحب المعرفة فى حكم العيان » .

« ويقال من وجد أنوار الغيب ظهرت له خفايا الأمور ، فلا يشكل عليه شىء من ذوات الصدور عند ظهور النور ، وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » .

« ويقال أول أثر لانوار الغيب فى العبد ينبهه الى نقائص قدره ومساوىء غيه ، ثم يشغله عن شهود نفسه مما يلوح لقلبه من شهود ربه ، ثم غلبات الأنوار على سره حتى لا يشهد السر بعد ما كان يشهد كالناظر فى قرص الشمس تستهلك أنوار بصره فى شعاع الشمس ، كذلك تستهلك أنوار البصيرة فى حقائق الشهود ، فيكون العبد صاحب

الوجود دون الشهود ، ثم بعده خمود العبد بالكلية ، وبقاء الاحدية بنعت السرمدية » •

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه : اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك » وهو فى هذه الحكمة البالغة يوجهنا بمنطق سليم الى العمل للآخرة ، لان الله سبحانه ضمن لنا رزق الدنيا ولم يضمن لنا رزق الآخرة ، ومع ان رزق الدنيا مضمون ومكفول فقد بذلنا فيه كل جهودنا المستطاعة ولم يمنعنا الضمان من بذلها ، وكان الأحرى أن نسعى بالمثـــل أو أكثر للآخرة سعيها ، فلا نقصر فى طلبها وهى غير مضمونة •

ويقول سيدى ابراهيم بن ادهم رضى الله عنه : اعربنا فى الكلام ولحنـــا فى الأعمال ، فياليتنا لحنا فى الكلام وأعربنا فى الأعمال (وهو أيضا يشير الى عنايتنا بالظواهر واهمالنا البواطن ، فاننا نحرص على أن تنطق ألسنتنا الكلام صحيحا ، ولا نعبأ بفساد أعمالنا ، وكان الأولى ان نعكس اذا لم نستطيع تصحيح الناحيتين معا •

ولست أنسى ما حييت تجربة تربوية وقعت لى فى شبابى ونفعتنى طول حياتى ، وذلك انى كنت مرشحا للترقية وتهيأت لى ظروف الفوز بها من كل جانب ، ولكنى لم أظفر بها ، فوقع فواتها منى موقعا سيئا ضاق له صدرى ، وجزعت به نفسى ضيقا شديدا ، فرأيت أن أزور سيدى الشيخ عبد السلام لأنفس الشدة ، وبينما أنا راكب اليـــه ، وفى وسط الطريق ، اذا بهاتف رحمانى يهتف فى صدرى : ده ده أنت ها تعمل زى اللى بيقول فيهم ربنا (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) فانقلب ضيقى الى خوف من الله تعالى واستغفرت ربى وانبت وتبت اليه وســألته العفو عنى ، وصرفت نفسى عن الاشتغال بموضوع الترقية كلية ، وما كدت أصل الى سيدى الشيخ حتى قصصت عليه أمر الهاتف فابتسم رضى الله عنه وقال لى : دى خواطر القرآن عظيمة جدا ، وكأنه يقول لى : الـــزم ما نصحك به ربك وارض بقضائه وان كان على غير ما تحب ، وكنت بعد ذلك أخاف أن أشتغل بأمر الترقية قليلا أو كثيرا حتى جاءتنى

الترقية ذات يوم على غير انتظار ، وسبحان الله الفعال لما يشاء ، وتعودت بعد ذلك أن أترك ما أريد لما يريده ربى عز وجل ، وتأكد لى مما جرت به المقادير صدق ما ورد فى الحديث الشريف : ما كان لك فهو آتيك على ضعفك وما ليس لك فلن تدركه بقوتك .

هذا وكما تتفاضل أقدار الناس فى الدنيا ، كذلك تتفاضل درجاتهم فى الآخرة (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) ويقول السادة الصوفية ان المؤمنين يتفاضلون فيما بينهم . فالعباد يفضل الله بعضهم على بعض فى زكاء الأعمال ، والعارفون يفضل بعضهم فى صفاء الاحوال ، فقوم تفاضلوا بصدق القدم ، وقوم تفاضلوا بعلو الهمم ، والتفضيل فى الآخرة أكبر ، فالعباد تفاضلهم بالدرجات ، قال صلى الله عليه وسلم « انكم لترون أهل عليين كما ترون الكوكب الدرى فى أفق السماء وان أبا بكر وعمر منهم » .

ويقول سيدى حاتم الاصم رضى الله عنه : عجبت ممن يعمل بالطاعات ويقول انى أعملها ابتغاء مرضاة الله ، ثم تراه أبدا ساخطا على الله رادا لحكمه ، أتريد أن ترضيه ولست براض عنه ؟ كيف يرضى عنك وأنت لم ترض عنه . وهو بذلك يحذرنا من السخط على المقدور مهما كان مرا ، فنكون مع الله على ما أراد ، ولا نميل عما قضاه كما قال سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه . ويقول سيدى حاتم أيضا: أربعة يندمون على أربعة :

المقصر اذا فاته العمل .

والمنقطع عن أصدقائه اذا نابته نائبة .

والممكن منه عدوه بسوء رأيه .

والمجرى على الذنوب .

ويقول السادة الصوفية : أصل الطاعة ثلاثة أشياء : الخوف والرجاء والحب . وأصل المعصية ثلاثة أشياء : الكبر والحرص والحسد .

ويقول سيدى أبو على الدقاق رضى الله عنه فى الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : الاستقامة لها ثلاثة مدارج : أولها التقويم ثم الاقامة

ثم الاستقامة ، فالتقويم من حيث تأديب النفوس ، والاقامة من حيث تهذيب القلوب ، والاستقامة من حيث تقريب الاسرار .

ويرشدنا السادة الصوفية الى أن الطاعات يجب أن يصحبها الاخلاص والصدق ، وان تكون خالية من الرياء ، ويعرفون الاخلاص بأنه التوقي من ملاحظة الخلائق ، والصدق بأنه التنقي من مطالعة النفس فالمخلص لا رياء له ، والصادق لا اعجاب له . ويقول الامام الجنيد رضى الله عنه : الاخلاص سر بين الله تعالى وبين العبد ، لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله . ويقول سيدى سهل التسترى رضى الله عنه : أهل لا اله الا الله كثير والمخلصون منهم قليل . ويقول السادة الصوفية : ما أخلص عبد قط أربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

ويفرق السادة الصوفية بين الصادق والصديق فيقولون أن الصادق من صدق فى أقواله ، والصديق من صدق فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله . وأقل الصدق عندهم استواء السر والعلانية . ويعول السادة الصوفية فى علاج أمراض النفس على ذكر الله تعالى ذكرا كثيرا ، ويقولون ان الذكر ركن قوى فى طريق الحق سبحانه وتعالى ، بل هو العمدة فى هذا الطريق ولا يصل أحد الى الله تعالى الا بدوام ذكره عز وجل .

ولذلك يقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل رضى الله عنه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

ان الطريق هى الذكر الكثير فلذ
بالذكر هذا هو التقوى هو القدم

كما يقول رضى الله عنه :

والعاشقون لهم فى الحب ان صبروا
روض من العز لم يذبل له ثمر

ميـــاهه الذكـــــر والتقـــوى منـــابعه
والعـــلم والـــدين والآيـــات والعبـــر
خـــل المعـــارف للعشـــاق تقطفهـــا
ان كنـــت منهم فسر واســـهر كما ســـهروا

وذكر الله عند السادة الصوفية على قسمين.: ذكر اللسان ، وذكر القلب ، والتأثير لذكر القلب ، فاذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه .

ويقول سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه فى ذكر القلب :

وقفـــت علـــى نجـــوى الالـــه جـــوانحى
لذلـــك قلبـــى منـــزل كلـــه ذكـــر
وأخليـــت قلبـــى من منـــاجاة غيره
فأصـــبح طـــودا لا يزلـــزلـــه الغـــير
أســـارع مشـــتاقا وأســـكت هائمـــا
وأنطـــق اجـــلالا ومـــا عاقنى ســـير
ففى صحـــوتى شـــوق وفى غفـــوتى هـــوى
وفى مشـــيتى علـــم وفى وقفتـــى سر

ويقول فى أثر ذكر اللسان على القلب رضى الله عنه :

رب يسر لـــى وأحســـن مـــوقفى
ذاك قلبـــى طالبـــا منـــك شـــفاه .
ولســـانى لـــم يكـــن الا لـــكم
لـــم أحـــرك بســـوى اللـــه الشـــفاه

ويرشدنا رضى الله عنه الى التمسـك بالخالق وعبـادته وذكره ، ويحذرنا من الاشتغال بالخلائق فيقول :

اذا مـــارمـــت أســـباب الســـعادة
تمســـك فى حيـــاتك بالعبـــادة

وان رمــت النجــاة الجــأ اليــه
وان رمــت العطــاء فــدع عبــاده

عــلامة حبــك الرحمــن عنــدى
قيــام الليــل والذكــر الشــهادة

ولولا الذكــر مــا كســبت قلــوب
بقــدر الذكــر تكتســب الافــاده

فنيــنا فى المحبــة عــن ســواه
وأدركنــا بتقــواه وداده

دمــوع النــاس من حــزن. ولكــن
دمــوع العــارفين مــن العبــادة

ومــا خــاب امــرؤ للــه يســعى
ويجعــله مــن الدنيــا مــراده

ويندد رضى الله عنه بأهل الغفلة عن الله تعالى فيقول :

من لــم يذوقــوا ذكر خــلاق السما
هــم والبهــائم فى المقــام ســواء

بــل ربمــا فطــن البهيــم لــربه
والغــافلون عــن الهــدى بلهــاء

والاصــل فى الدنيــا المحبــة والهــدى
لولا الهــدى لــم تخــلق الاشــياء

ويتعرض السادة الصوفية لفضائل ذكر الله تعالى فيقولون انه غير مؤقت ، بل ما من وقت من الاوقات الا والعبد مأمور بذكر الله امــا فرضا واما ندبا . والصلاة وان كانت أشرف العبادات فقد لا تجوز فى بعض الاوقات . والذكر بالقلب مستدام فى جميع الحالات ، ويقول فى ذلك سيدى أبو بكر الشبلى رضى الله عنه :

ذكـــرتك لا أنـــى نســـيتك لمحـــة
وأيسر مـا فى الذكـــر ذكـــر لسـانى

وكـدت بـــلا وجـد أمـــوت من الهـــوى
وهـــام علـــى القلـــب بالخفقـــان

فلمـــا أرانى الوجـــد أنـك حـاضرى
شـــهدتك موجـــودا بـــكل مـــكان

فخـاطبـت مـوجـــودا بغـير تـكلـم
ولاحظـــت معـــلوما بغـــير عيـــان

ويقول بعض العارفين : لولا أن ذكره تعالى فرض على لما ذكرته اجلالا له ، مثلى يذكره ؟ ولم يغسل فمه بألف توبة.ومن خصائص الذكر ان الله تعالى يذكر فى مقابلته ذاكره فيعطيه ويرقيه لانه تعالى يقول (فاذكرونى اذكـــركم) ويتعـــرض سيدى القشـــيرى فى لطـــائفه فى اشاراته الى فضل الله على الامة المحمدية فى ذلك فيقول انه سبحانه قال لبنى اسرائيل (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) بينما قال للامة المحمدية (فاذكرونى أذكركم) ولا شك أن ذكر المنعم أكبر من ذكر النعم وكأنه رضى الله عنه أراد أن يبين لنا الا نقف فى معرفة الله عند التحدث بنعمه ، بل نذكره تعالى مع التحدث بها ، فنجمع بين الفضيلتين وتغمرنا بركات المنعم المتفضل بالعطاء والثواب وما أكرمه عز وجل حين يمنح عبده التوفيق للطاعة ويثيبه عليها ، ويمدحه بها مع أن الفضل فضله والعبد ملكه .

ويقول السادة الصوفية : اذا تمكن الذكر من القلب ، فان دنا منه الشيطان صرع (كما يصرع الانسان اذا دنا منه الشيطـــان) فتجتمع الشياطين فيقولـــون : ما لهذا ؟ فيقـــال : قد مســـه الانس ويقـــول سيدى سهل التســـترى رضى الله عنـــه : ما من يـــوم الا والجليـــل سبحانه ينادى : يا عبدى ما أنصفتنى ، أذكرك وتنسانى ، وأدعوك الى وتذهب الى غيرى ، وأذهب عنك البلايا وأنت معتكف على الخطايا يا ابن آدم ما تقول غدا اذا جئتنى ؟

وحين يتعرض السادة الصوفية للحديث القدسى : « أنا جليس من ذكرنى » ، يقولون للذاكــرين : ما الذى أفدتم من مجالســة الحق سبحانه ، وكأنهم بذلك يقولون من لم يستفد فهو غافل عن ذكره سبحانه ولو كان ذاكرا حقيقة لاستفاد • ولذلك يقول سيدى أبو على الدقاق رضى الله عنه : الذكر منشــود الولاية ، فمن وفق للذكر فقد أعطى المنشود ، ومن سلب الذكر فقد عزل •

وكم رأيت ذاكرين من ذوى الهمة فى أتباع القطب الاكبر وشيخنا الاشهر سيدى الحاج محمد أبى خليل ساكن ضريحه المشرق بالزقازيق طيب الله ثراه ، ولا أنسى انى مرة طلبت فى مولده المبارك من صديقى الراحل الشيخ أحمد غلبون رحمه الله رحمة واسعة ان يصحبنى لزيارة بعض الاحباب فى سرادقهم : فقال لى انتظر حتى أكمل الاسم الذى أذكره فقلت له كم بقى عليك لاتمام ذكره فقال عشرة آلاف ، فانظر كيف كانت همته فى طلب الله تعالى حتى صارت الآلاف عنده فى الذكر كالاحاد ، ولا تعجب أن يكون هذا حال الذاكرين الله كثيرا فقــد توج الله بهم أرباب المقامات الجليلة فى قوله الكريم (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتــات والصــادقين والصــادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) •

الصبر والشكر

« اما عن صحتى ، فقضاء قضاه القاضى فى جميع الامور • قدر ونفذ القضاء ، ولطف فى قضائه وقدره حيث علم ضعف من قضى عليه ، فلطف به لطفه الخفى ، وعامل باحسانه من أيقن أنه لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولاموتا ولا حياة ولا نشورا ، وانه بين يدى ربـــه ، فالداران له سبحانه وتعالى ، ومنه واليه تعالى الحمد والشكر ، فان تفضل على عبده اقدره على حمده وشكره ، وبه جل وعلا نحمده ونشكره ونسأله اللطف فيما جرت به المقادير » •

جاءت تلك السطور فى رسالة بعث بها شيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى ، رضى الله عنه ، الى تلميذه الوفى الصالح السيد / ســالم جمعه حفظه الله ورعاه ، وواضح منها ان سيدى الشيخ كتبها وهــو مريض ، لكنه لم يشك المرض ، بل صبر على البلاء ونظر اليه على أنه قضاء من رب الارض والسماء ، صحبه لطف الله الخفى ، واحسانه الى عبده الضعيف الذى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، واحسانه سبحانه انما جاء عن قدرة ، فكان رحمة من الرءوف الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء ، ومع صبر الشيخ على البلاء ، حمد الله وشكره بتوفيق منه سبحانه ، فكان سيدى الشيخ فى هذا المقام من القلة الكرام البررة الذين قال تعالى فى شأنهم (وقليل من عبادى الشكور) •

والرضا بما يجرى به قضاء الله من أعظم مقامات اليقين ، ومما يقوله شاعر الصوفية الاكبر ، وصاحب المثنوى ، سيدى جلال الدين الرومى طيب الله ثراه :

« فالذى يهب الروح يجوز له أن يقتلك ، فضع رأسك أمــامه مثل اسماعيل وأسلم الروح على خنجره فرحا ضاحكا حتى تبقى روحك ضاحكة الى الأبد ، ومن أجل تلك الحـــال كان الامتحان الذى يميــز الخبيث من الطيب ، فهو كالنار التى تخلص الذهب من الزبد ، وان الطفل يرتعد امام ابرة الطبيب ولكن الام المشفقة يسعدها مثل هــذا الالم » •

أقول والصبر على البلاء من لوازم الرضا والتسليم ، ويعرف السادة الصوفية الصبر فيقولون : هو الوقوف مع البلاء بحسن الادب، كما يقولون ان الصبر هو الثبات مع الله سبحانه وتعالى وتلقى بلائه بالرحب والدعة ، وأنشدوا فى ذلك •

سأصبر كى ترضى وأتلف حسرة
وحسبى ان ترضى ويتلفنى صبرى

كما أنشدوا :

صبرت ولم اطلع هواك على صبرى
واخفيت مابى منك عن موضع الصبر
مخافة ان يشكو ضميرى صبابتى
الى دمعتى سرا فتجرى ولا ادرى

ويقول سيدى أبو على الدقاق ، رحمه الله : فاز الصابرون بعز الدارين لانهم نالوا من الله معيته ، قال تعالى (ان الله مع الصابرين)، ويقول سيدى أحمد بن خضرويه رضى الله عنه : من صبر على صبره فهو الصابر لا من صبر وشكا •

ويحكى السادة الصوفية ان الامام الشبلى رضى الله عنه حبس وقتا فدخل عليه جماعة فقال لهم : من انتم ، فقالوا : أحباؤك جاءوا زائرين، فأخذ يرميهم بالحجارة وأخذوا يهربون ، فقال : يا كذابون ، لو كنتم أحبائى لصبرتم على بلائى •

ويكشف لنا امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن فلسفة صبره فيقول :

مامن بلاء يصيبنى الا وأرى لله على فيه أربع نعم : النعمة الاولى ان البلاء وقع فى دنياى ولم يقع فى دينى ، النعمة الثانية أنه لم يقع أكبر مما وقع ، النعمة الثالثة أن الله صبرنى عليه فاحتملته ، النعمة الرابعة أن الله ادخر لى ثواب الصبر عليه •

أما وقد بلغ أمير المؤمنين فى صبره هذ المبلغ فلايعجب القارىء الكريم من قوله رضى الله عنه : لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب •

وقال ابن عيينة رضى الله عنه فى معنى قوله تعالى (وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) اى لما أخذوا رأس الامر (يعنى الصبر) جعلناهم رؤساء •

ويقول الامام أبو على الدقاق رضى الله عنه : ان الصبر حده الا تعترض على التقدير ، فأما اظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافى الصبر ، ويستدل على ذلك بقصة سيدنا أيوب عليه السلام حيث قال تعالى فى شأنه :

(انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) مع انه تعالى اخبر عنه انه قال (انى مسنى الضر وانت أرحم الراحمين) ويضيف رضى الله عنه قائلا : استخرج الله منه هذه المقالة (مسنى الضر) لتكون متنفسا لضعفاء هذه الامة •

وقال بعض السادة الصوفية : ان الله تعالى قال فى شأن سيدنا أيوب عليه السلام (انا وجدناه صابرا) ولم يقل صبورا لانه كان فى بعض أحواله يستلذ البلاء ويستعذبه فلم يكن فى حال الاستلذاذ صابرا فلذلك لم يقل الله « صبورا » •

ويحكى الامام القشيرى رضى الله عنه فى رسالته المباركة انه سمع استاذه أبا على الدقاق رضى الله عنه يقول : حقيقة الصبر الخروج من البلاء على حسب الدخول فيه مثل أيوب عليه السلام فانه قال فى آخر بلائه : « مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » ولم يصرح بقوله « ارحمنى » •

ويقول السادة الصوفية فى معنى قوله تعالى (فاصبر صبرا جميلا) الصبر الجميل ان يكون صاحب المصيبة فى القوم ولا يدرى الناس من هو •

وقد مات ابن لامامنا السبط ابى عبد الله الحسين بن على رضىالله عنهما فلم ير الناس عليه جزعا فسألوه فى ذلك فقال وما أروع ما قال: نحن أهل البيت نسأل الله فيعطينا ، فاذا أراد ما نكره فيما يحب رضينا • ويقول رضى الله عنه فى وصف الدنيا وأهلها : الناس عبيد

الدنيا ، والدين لعق على السنتهم يحوطونه مادرت به معايشهم فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون (اللعق جمع لعقة) •

ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف الاشارات عند قوله تعالى (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) :

« البلاء الاختبار ، فيختبرهم مرة بالنعم ليظهر شكرهم أو كفرانهم، ويختبرهم أخرى بالمحن ليظهر صبرهم أو ذكرهم أو نسيانهم •

« والبلاء الحسن توفيق الشكر فى المنحة ، وتحقيق الصبر فى المحنة، وكل ما يفعله الحق فهو حسن من الحق لان لـــه أن يفعله ، وهذه حقيقة الحسن وهو ما للفاعل أن يفعله •

« ويقال : البلاء الحسن أن تشهد المبلى فى عين البلاء • ويقال البلاء الحسن مالا دعوى لصاحبه ان كان نعمة ولا شكوى ان كان محنة • ويقال البلاء الحسن ما ليس فيه ضجر ان كان عسرا ، ولا بطر ان كان يسرا •

« ويقال بلاء كل احد على حسب حاله ومقامه،فاصفاهم ولاء أوفاهم بلاء ، قال صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس بلاء الانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل » •

ويضيف الامام القشيرى رضى الله عنه فى اشارته عند قوله تعالى (ان الله سميع عليم) :

« تنفيس لقوم وتهديد لقوم ، أصحاب الرفق يقــول لهم : ان الله « سميع » لأنينكم فيروح عليهم بهــذا وقتهم ويحط عنهم بــلاءهم وانشدوا فى ذلك :

اذا مـــا تمنى النـــاس روحـــا وراحـــة
تمنيت أن أشـــكو اليك فتسمعـــــا

« واما الاكابر فلا يؤذن لهم فى التنفس ، وتكون المطالبة متوجهـــة اليهم بالصبر ، والوقوف تحت جريان التقدير من غير اظهار ولا شكوى،

فيقول : لو ترشح منك ماكلفت بشربه توجهت عليك الملامة ، فان لم يكن منك بيان فانى سميع لقالتك عليم بحالتك .

« ويقال فى قوله تعالى (عليم) تسلية لارباب البلاء ، لان من علم ان مقصوده يعلم حاله سهل عليه مايقاسيه فيه ، قال سبحانـه لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) .

ويقول السادة الصوفية ان الله تعالى وصف لنبيه عليه الصـلاة والسلام العلاج الناجح لضيق الصدر فقال سبحانه (ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أى ان ضاق صدرك بسماع ما يقوله اعداؤك فيك من ذمك فارتع بلسانك فى رياض تسبيح ربك والثناء عليه فيزول ضيق صدرك ، وقف على بساط العبودية بالخدمة تلحق بالرفيق الاعلى وتجلس على بساط القربة ، فان أشرف خصالك قيامك بحـق العبودية . ويؤيد هذا المعنى انمولانا رسول الله صـلى الله عليـه وسلم كان اذا حزبه أمر قام الى الصلاة فنفس عن صـدره . ومـا أحوجنا للتأسى به صلى الله عليه وسلم فى ذلك .

أما ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه : ومنه واليه تعالى الحمد والشكر ، فانه يشير به الى ما يقوله السادة الصـوفية من انه سبحانه مستحق للحمد لظهور سلطانه ، ومستحق للشكر لوفور احسانه ، وحقيقة الحمد الثناء على المحمود بذكر نعوته الجليلةوأفعاله الجميلة ، وحقيقة الشكر الاعتراف بنعم المنعم على وجه الخضوع .

وللشكر عند السادة الصوفية ثلاثة أقسام :

فشكر باللسان ، وهو اعتراف العبد بالنعمة بنعت الاستكانة .

وشكر بالاركان ، وهو قيام الجوارح بالعبادات والوفاء بالخدمة .

وشكر بالقلب ، وهو اعتكاف القلب على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة .

ويقول الامام الشبلى رضى الله عنه : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة ، ويقول بعض العارفين شكر العـامة على المطعم والملبس ، وشكر الخاصة على ما يرد على قلوبهم من المعانى .

ويهون السادة الصوفية على أنفسهم بـــلاء الدنيـــا مادام دينهم محفوظا عليهم ، ويحكون فى هذا المقام ان رجلا شكا الى الامام سهل التسترى فقال : ان لصا دخل دارى وأخذ متاعى فقال له : اشكر الله تعالى ، لو دخل اللص قلبك (يعنى الشيطان) وأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع •

ويقول الامام أبو القاسم الجنيد ان استاذه الامام السرى السقطى سأله يوما فقال له : يا ابا القاسم ، ما الشكر فأجابه : الا يستعان بشىء من نعم الله على معاصيه ، فقال له : من اين لك هذا ؟ فأجابه : من مجالستك •

ويقول السادة الصوفية فى الفرق بين الشاكر والشكور ان الشاكر هو الذى يشكر على الموجود ، والشكور هو الذى يشكر على المفقود، وفى قول آخر الشكور الذى يشكر بماله ينفقه فى سبيل الله ولا يدخره، ويشكر بقلبه ربه فلا تأتى عليه ساعة الا وهو يذكره ، ويشكره بنفسه فيستعملها فى طاعة الله •

وقد ورد ان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ليلة فتوضأ ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة ، فقالت له ام المؤمنين سيدتنا عائشة : مايبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال صلى الله عليـــه وسلم : أفلا أكون عبدا شكورا ؟

ويحكى السادة الصوفية عن امامنا السبط أبو محمد الحسن بن على رضى الله عنهما أنه التزم الركن من بيت الله الحرام وقال يناجى ربه: الهى نعمتنى فلم تجدنى شاكرا ، وابتليتنى فلم تجدنى صابرا ، فلا أنت سلبت النعمة بتركى الشكر ، ولا أدمت الشدة بتركى الصـــبر، الهى ما يكون من الكريم الا الكرم •

ويفهم السادة الصوفية من الاية الكريمة (وهو الذى انشأ لـــكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون) انه تعالىذكرنا بعظيم منته علينا بأن خلق لنا هذه الاعضاء وطالبنا بالشكر عليها ، وشكره

عليها هو استعمالها فى طاعته ، فشكر السمع الا تسمع الا بالله ولله، وشكر البصر الا تنظر الا بالله ولله ، وشكر القلب الا تشهد غير الله والا تحب به غير الله .

ويقول السادة الصوفية ان فضل الله على العبد كما يكون فى جلب النعم يكون كذلك فى دفع النقم ويستدلون بقوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رءوف رحيم) وقد جاءت مكررة لمعنى آية سابقة عليها فى سورة النور وهى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) ، وهم يقولون انه مع عظيم جرمهم فى حديث الافك فانه لم ينتقم منهم وأمرهم بعدم العودة الى مثله ابدا (يعظكم الله ان تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين) وبذلك بين لهم سبحانه ان حسن الدفع عنهم كان بفضله وبرحمته وجميل عطائه ، وكثير من يشهد حسن العطاء ويشكر الله عليه ، وقليل من يشهد من ربه حسن الدفع عنه فيحمده على ذلك ، لان العطاء ظاهر جلى ودفع الضرر باطن خفى وقد عبر عنه سيدى الشيخ بقوله : فلطف به لطفه الخفى .

وينبهنا الله سبحانه الى شكره على دفع السوء عنا بقوله الكريم (يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ويقول السادة الصوفية فى التعقيب على هذه الاية : لقد بالغ فى الاحسان اليك من كان يظهر لك الغيب من غير التماس أو سبق شفاعة فيك .

أما ما يقوله سيدى الشيخ : فان تفضل على عبده اقدره على حمده وشكره ، فانه يشير به الى ما يقوله السادة الصوفية من تفاوت طبقات الحامدين لتبيانهم فى أحوالهم ، فطائفة حمدوه على مانالوا من انعامه واكرامه من نفعه ودفعه ، وطائفة حمدوه على ما لاح لقلوبهم من عجائب اسراره ومكنونات بره وخفى غيبه ، فهو سبحانه رب العالمين ربى الاشباح بوجود النعم وربى الارواح بشهود الكرم ، واعيت نعمه العادين بقوله الكريم (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ومن ذلك ندرك ما أرشدنا اليه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم من عجزنا عن حمده تعالى والثناء عليه بما هو اهله حين قال صلوات الله

وسلامه عليه فى مناجاة ربه جل وعلا : « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما اثنيت على نفسك » .

وفى عجز الخلق عن حمده بما هو أهله سبحانه يقول الامام القشيرى رضى الله عنه : علم الحق سبحانه وتعالى شدة ارادة أوليائه بحمده وثنائه ، وعجزهم عن القيام بحق مدحه على مقتضى عزه وسنائه ، فأخبرهم أنه حمد نفسه بما افتتح به خطابه بقوله (الحمد لله) فانتعشوا بعد الذلة ، وعاشوا بعد الخمود ، واستقلت اسرارهم بكمال التعزز حيث سمعوا ثناء الحق عن الحق بخطاب الحق .

ويقول الامام أبو طالب المكى رضى الله عنه : ان الله تعالى قرن الشكر بالايمان ورفع بوجودهما العذاب فقال تعالى (ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما) ويضيف رضى الله عنه قائلا : وفى أحد الوجوه من قوله عز وجل (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) قال : طريق الشكر ، فلولا ان الشكر طريق يوصل الى الله تعالى لما عول العدو على قطعه ولما قال ابليس اللعين (ولا تجد أكثرهم شاكرين) .

ويقول رضى الله عنه كذلك : والشاكر على مزيد ، والشكور فى نهاية المزيد ، وهو الذى يكثر شكره على القليل من العطاء . ويتكرر منه الشكر والثناء على الشىء الواحد من النعم . وقد قطع الله تعالى . بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فيه ، واستثنى فى خمسة أشياء : فى الاغناء ، والاجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة ، فقال تعالى (فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء) وقال تعالى (فيكشف ما تدعون اليه ان شاء) وقال تعالى (يرزق من يشاء) وقال تعالى (يغفر لمن يشاء) وقال عز وجل (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) بينما قال تعالى فى الشكر (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

وفى الخبر ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لرجل : كيف أصبحت؟ قال : بخير ، فأعاد النبى صلى الله عليه وسلم السؤال ثانية : كيف أنت؟ قال : بخير ، فأعادوا عليه الثالثة : كيف أنت ؟ فقال بخير أحمد الله وأشكره ، فقال صلى الله عليه وسلم : « هذا الذى أردت منك » أى اظهار الحمد والشكر والثناء .

ويقول السادة الصوفية ان قوله تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه) مع قوله تعالى (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) فيه تنبيه لذوى الألباب الذين وصل لهم القول ليتذكروا ان يذروا ظاهر الاثم شكرا لظاهر النعم ويذروا باطن الاثم شكرا لباطن النعم •

كما يقول السادة الصوفية ان أكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم ، وأصل قلة الشكر الجهل بالنعمة ، وسبب الجهل بالنعمة قصور العلم بالله تعالى وطول الغفلة عن المنعم ، وترك التفكر فى نعمه والتذكر لآلائه سبحانه وتعالى مع أنه أمرنا بتذكرها وجعلها سبيلا للفلاح فى قوله الكريم (فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) والآلاء هى النعم •

والله تعالى يقول (ان الانسان لربه لكنود) ومعناها انه يشكو المصائب وينسى النعم ، مع أن النعم التى يتقلب فيها أضعاف المصائب التى تحل به • ويرى السادة الصوفية أن المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام وكلها نعم من الله تعالى : فهى اما ان تكون درجة وهذا للمقربين والمحسنين ، واما ان تكون كفارة ، وهذا لخصوص أصحاب اليمين، أو تكون عقوبة ، وهذا للكافة من المسلمين ، وتعجيل العقوبة فى الدنيا رحمة ونعمة ، ومعرفة هذه النعم طريق الشاكرين •

ويرى السادة الصوفية ان الايمان نعمة كبرى ، ودوام الايمان نعمة أخرى ، فلو لم يرد الله سبحانه دوام الايمان لرجع القلب الى الكفر ، لانه تعالى يقول (يمحو الله ما يشاء ويثبت) أى يمحو ما لا يشاء ثبوته ، ويثبت ما يحب • وقد من سبحانه على فريق المؤمنين فى قوله الكريم (أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) أى قواهم بمدد يثبته ويقويه ، وهو معنى قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) •

ولذلك كان من دعوات مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم « يامقلب القلوب ثبت قلبى على طاعتك » فلو قلب سبحانه قلوبنا عن التوحيد كما تتقلب جوارحنا فى الذنوب فبأى شىء كنا نطمئن ، فثبات الايمان فى القلوب من كبائر النعم ، ومعرفة ذلك شكر لنعمة الايمان ، وجهله غفلة توجب العقوبة ، ونعوذ بالله من الغفلات والعقوبات •

ويقول السادة الصوفية ان حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفة العبد بتقصيره عن شكر الله شكر ، والاعتذار الى الله من قلة الشكر شكر ، والتواضع بالنعم شكر ، وشكر الخلق والثناء عليهم شكر لله لانهم أسباب المعطى سبحانه وقد جاء فى الحديث القدسى « عبدى لم تشكرنى مالم تشكر من أجريت النعمة لك على يديه » .

وقد علمنى شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه درسا فى الصبر والشكر مما لا أنساه ، وذلك أنى دخلت عليــه فى مرضه الأخير فوجدته فى حالة شديدة للغاية وخيل الى أنه يحتضر فقد كان صوته خافتا جدا ، ولكن حمله أدبه العالى أن يخفف عنى ما أحسه من ألمى فقال بصوته الخافت تكلم ، فقلت : ماذا أتكلم يا سيدى ، قال : أى شيء ، قلت : سأتكلم ان شاء الله عندما يقتضى الكلام ، وكان ألمى من حالة الشيخ قد بلغ منتهاه ، فاذا بــه مع اعيائه يسرى عنى بكلامه معى فيقول رضى الله عنه : له الملك وله الحمد ، عطف سبحانه الحمد على الملك ، والملك يشمل الخير والشر ، وذلك اشارة منه تعالى الى أنه يجب أن يحمده عباده فى الخير والشر على السواء ، ثم سكت الشيخ ولكن كلماته جالت بى فى عالم الملكوت ونقلتنى من اليأس الى الرجاء ومن الجزع الى الصبر ، ومن القلق الى الرضا ، ومن الرضا الى الحمد فى السراء والضراء ، وبان لى فضل الله على سيدى الشيخ فى صبره وشكره ، وحمدت الله على ادراكه والأخذ عنه ، وذلك حظ جزيل ، لا أستطيع شكر الله عليه الا بالعجز عن شكره ، ولست أفى الشيخ حقه مهما أثنيت عليه ، وكفاه شرفا أنه جمع بين الصبر والشكر ، وقد قرن الله تعالى بينهما ووصف المؤمنين بهما فى قوله الكريم (ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) .

ماشاء الله كان

« وقد خلق مالك الملك خلقه ، وبأمره دار الفلك كما خلقه ، فسير الخلق بما به دار ، فكان لكل خلق قرار ورسالة يقوم بها ، وكل يظن أنه مصيب بفعلها ، مع أن البعض مخطىء والبعض مصيب ، والبعض ناجح والبعض يخيب ، والله هو الفاعل المختار ، فليس لانسان أن يختار أو يحتار » .

جاءت السطور المتقدمة فى رسالة بعث بها شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى لتلميذه الصالح المبارك الصديق العزيز السيد / سالم جمعه حفظه الله ورعاه ، وهى تمس قضية دقيقة حيرت افهام الناس وهى قضية القضاء والقدر ، وقد أمرنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا نخوض فيها حتى لا تزل بنا القدم بعد ثبوتها .

والخوض الذى نهينا عنه هو التدخل فى سلطان الله سبحانه وتعالى والبحث عن حكمته فيما يجرى به قضاؤه أو السخط على المقدور بينما نحن مطالبون بالرضا بما قضى وقدر ، وأخفى وأظهر ، فلا سخط على المقدور ولا اعتراض منا على أمر من الأمور ، بل تسليم مطلق ، ورد الأمور لمشيئته العالية والنافذة سبحانه ، لأنه تعالى مالك الملك والملكوت ، يؤتى ملكه من يشاء ، فلا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وكل أفعاله تعالى حسنة ، ولكن قل من يفهم ذلك ، فأكثر الناس يرى أن ما صادف هواه من تلك الأفعال هو الحسنة ، وما خالف هواه هو السيئة ولكنه تعالى يقول (قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) .

وقد يشتبه ذلك القول الكريم على بعض الافهام مع قوله تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ولو درس المؤمن أن السيئة من الله ايجادا ومن أنفسنا اسنادا لزال الاشتباه واستقام الفهم على الوجه الشرعى الصحيح ، ويؤيد ذلك قوله تعالى « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ان الله على كل شىء قدير » فى حين يقول سبحانه قبل ذلك

(وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين) •

اذا علمنا ذلك على الوجه الشرعى تبينا معنى ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام « والله هو الفاعل المختار ، فليس لانسان أن يختار أو يحتار » وهو قول رائع كما ترى ، وتتميز روعته فى ضوء ما بينه فى ذلك المقام امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فقد سأله رجل عن القدر فقال الامام للرجل : طريق دقيق لا تمشى فيه ، فقال الرجل ، يا أمير المؤمنين : أخبرنى عن القدر ، قال الامام ، بحر عميق لا تخض فيه ، فقال الرجل ، يا أمير المؤمنين : أخبرنى عن القدر ، فقال الامام : سر خفى لا نفشيه ، فقال الرجل ، يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، وكأنما كان الرجل فى الحاحه هذا محتارا فى القدر ،

فقال أمير المؤمنين وأبدع :

ان الله تعالى خلقك كما شاء أو كما شئت ، فقال ، كما شاء ، فقال الامام : ان الله يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء ، فقال الرجل : كما شاء ، قال الامام للرجل: ألك مشيئة مع مشيئة الله ، أو فوق مشيئة الله ، أو دون مشيئة الله ؟ اما ان قلت مع مشيئته ادعيت الشركة معه ، وان قلت دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وان قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيئته •

ولامامنا الشافعى رضى الله عنه فى تلك المشيئة الربانية شعر رقيق يناجى فيه ربه تعالى يقول فيه :

وما شئت كان وان لم أشــأ ۝ وما شئت ان لم تشأ لم يكن
خلقت العبـــاد على ما علمت ۝ ففى العلم يجرى الفتى والمسن
على ذا مننت وهـــذا خذلت ۝ وهــــذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شـــقى ومنهم ســـعيد ۝ ومنهم قبيح ومنهم حســـن

أما شيخنا الملهم سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه فيقول فى الرضا والتسليم فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

ماذا يضيرك لو رضيت وما علمت الماهيه
واذا عجزت عن الأمور دع الأمور كما هيه
واذا رضيت قضاء ربك لا تخاف القاضيه
انى من التوحيد فى حشرى أمنت الطاغيه
ومنابت الأشواق من ثمر المحبة زاهيه
فنيت به عن غيره فاستمسكت بالباقيه
رضيت فلما أخلصت بقيت وان تك فانيه
شرفت به وتلذذت بشهوده فى عافيه
ان كان جسمى بالفناء سقوفه متداعيه
فالروح بعد فنائه فى الخلد شمس ساميه

وينهانا رضى الله عنه عن البحث فى القضاء فيقول فى الهامه الفورى الرائع :

سلم لأمر الله لا تقف الهوى من سلم الأمر احتواه أمان
ومنازل التسليم خير وقاية ممن يخوض وماله عرفان
ماذا يفيدك أن تعلل رحمة أو أن يكون على القضاء بيان
تعس الذى لم يبغ الا علة وقضى ولم يسطع له برهان
ومن البلادة أن ينقب عاجز عن سر من من خلقه الأكوان
خذ من حياتك عدة من شرعه ان الشريعة للهدى ميزان

ويقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الكبير (والد سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنهما) فى ديوانه :

أفعاله محكمة وقل من يفهمها
يفعل ما يشاؤه لحكمة يعلمها

ويعلق رضى الله عنه على هذين البيتين بقوله فيقول : ما فرحت بشىء من نظمى قط فرحى بهذين البيتين ، وأرجو أن ينفعانى غدا ان شاء الله تعالى ، وانى أكررهما فى النازلة تنزل بى فينكشف عنى غمها .

ويبين لنا امامنا الشافعى رضى الله عنه أن أرزاق العباد ليست مرتبطة بمواهبهم العقلية بل ترتبط بقضاء الله الذى تخفى عنا أسراره فيقول:

كم من قوى قوى فى تقلبه مهذب الرأى عنه الرزق ينحرف
ومن ضعيف ضعيف الرأى مختلط كأنه من خليج البحر يغترف
هـذا دليل على أن الاله له سر خفى علينا ليس ينكشف

وليس معنى هذا ان يتواكل الناس ولا يتخذون الاسباب فى التكسب بل يجب اتخاذ الاسباب شرعا والتفويض لله فى نتائجها ، ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى فى ذلك : فلابد لك من الاسباب وجودا ولابد لك من الغيبة عنها شهودا ، فأثبتها من حيث اثبتها تعالى بحكمته ولا تستند اليها لعلمك بأحديته .

ولعلم الله تعالى بضعفنا البشرى ضمن لنا سبحانه الرزق لئلا تشغلنا أسباب طلبه عن الرازق فقال تعالى مؤكدا عونه فى أرزاقنا (وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها) وكما كلفنا السعى على ارزاقنا فى الدنيا كلفنا السعى فى طلب الآخرة لنيل رضاه سبحانه فقال تعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) ثم بين لنا جل وعلا ان التفاضل فى درجات الآخرة أكبر منه فى ارزاق الدنيا فقال تعالى (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللاخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) وبين لنا صورة من صور اسلافنا الصالحين فى السعى للاخرة فقال سبحانه (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الالباب) ومن لوازم السعى للاخرة صفاء العبادة والمعاملة .

وقد اجتمع مشايخ حرم الله تعالى على ابى الحسين على بن هند القرشى الفارسى رضى الله عنه فسألوه عن صفاء العبادة والمعاملة فقال :

« ان للعقل دلالة ، وللحكمة اشارة ، وللمعرفة شهادة ، فالعقل يدل ، والحكمة تشير ، والمعرفة تشهد ان صفاء العبادات لا ينال الا بصفاء معرفة أربعة : فاول ذلك معرفة الله تعالى ، والثانى معرفة النفس ، والثالث معرفة الموت ، والرابع معرفة ما بعد الموت من وعد الله ووعيده .

« فمن عرف الله تعالى قام بحقه ، ومن عرف النفس استعد لمخالفتها ومجاهدتها ، ومن عرف الموت استعد لوروده ، ومن شهد وعيد الله ينزجر عن نهيه وينتدب لأمره .

« فمراعاة حق الله تعالى على ثلاثة أوجه : على الوفـاء والادب والمروءة ، فاما الوفاء فانفـراد القلب بفردانيته والثبات على مشاهدة وحدانيتـه بنـور أزليتـه والعيش معـه ، واما الادب فمراعـاة الاسرار من الخطرات وحفظ الاوقات والانقطاع عن الحسد والعداوات، واما المروءة فالثبات على الذكر نطقا وفعلا وصـيانة اللسان وحفظ النظر وحفظ المطعم والملبس ، وينال ذلك بالادب ، لان أصل كل خير فى الدنيـا والآخرة الادب » .

هذا وقد كتب الامام الحسن البصرى الى امامنا السبط الحسـن ابن على رضى الله عنهما يسـأله عن القضـاء والقدر ، فكتب السبط الكريم يقول فى روعة بالغة كما ترى :

« من لم يؤمن بقضاء الله وقدره ، خيره وشره ، فقد كفر ، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر ، وان الله تعالى لا يطاع استكراهـا ولا يعصى بغلبة ، لانه تعالى مالك لما ملكهم ، وقادر على ما أقدرهم ، فان عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما عملوا ، فان لم يفعلوا فليس هو الذى اجبرهم على ذلك ، ولو اجبر الخلق على الطاعة لاسـقط عنهم العقاب ، ولو اهملهم فان ذلك عجز فى القدرة ، ولـكن الله له فيهم المشيئة التى غيبها عنهم ، فان عملوا بالطاعة فله المنـة عليهم ، وان عملوا بالمعصية فله الحجة عليهم » .

فاحرص أيها القارىء الكريم على الانتفاع بهذا الـكلام النفيس الذى لا يتكلم به الا أهل بيت النبوة ، وهم معدن العلم والمعـرفة ، ومصدر البيان والتبيين ، واليك درة أخرى من درر ذلك السبط الكريم رضى الله عنه وعن آله وذويه فقد قال فى تقوى الله واثرها :

« ان الله لم يخلقكم عبثا ، وليس بتارككم سدى ، كتب آجالكم ، وقسم بينكم معايشكم ، ليعرف كل ذى منزلة منزلته ، وان ما قدر له أصابه ، وما صرف عنه فلن يصيبه ، قد كفاكم مؤونة الدنيا ، وفرغكم

لعبادته ، وحثكم على الشكر ، وافترض عليكم واوصاكم بالتقـوى ، وجعل التقوى منتهى رضاه ، والتقوى باب كل توبة ، ورأس كل حكمة، وشرف كل عمل بالتقوى ، فاز من فاز من المتقين، قال الله تبارك وتعالى (ان للمتقين مفازا) وقال (وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولاهم يحزنون) فاتقوا الله عباد الله ، واعلموا ان من يتـق الله يجعل له مخرجا من الفتن ، ويسدده فى أمره ، ويهيىء له رشده، ويفلجه بحجته ، ويبيض وجهه ، ويعطيه رغبته مع الذين انعـم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

واليك درة ثالثة من درره رضى الله عنه ، لا تقل صفاء عن سابقتيها يقول فيها :

« يا ابن آدم عف عن محارم الله تكن عابدا ، وارض بما قسم الله تكن غنيا ، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلما ، وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عادلا .

« انه كان بين ايديكم قوم يجمعون كثيرا ويبنون مشيدا ، ويأملون بعيدا ، أصبح جمعهم بورا ، وعملهم غرورا ، ومساكنهم قبورا .

« يا ابن آدم ، انك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن امك، فجد بما فى يديك فان المؤمن يتزود ، والكافر يتمتع ، وكان رضى الله عنه يتلو عقب كلامه هذا قوله تعالى (وتزودوا فان خير الزاد التقوى).

ونعى سيدى وشيخى على عقل رضى الله عنه على المؤمنين عنايتهم بأمور دنياهم وتهاونهم فى أمور دينهم فيقول فى الهامة الفورى الذى نقلناه عنـه :

النـاس فى أيامنـا سـوقة ... همهم المـال ولبس الجـديد
يسـعون للـدرهم فى قـوة ... لا حر يثنى سعيهم أو جليد
وان دعوا الى الصلاة ادعوا ... ان اشتداد الحر عاق السجود
أخلدوا للركون والنوم حتى ... فترت همـة وطـاب قعود
اتركوا غيكم وكونوا جنـودا ... للذى عز فى حماه الجنـود
كل شىء يحـد غـير هـواه ... لم تحطه من القلوب حـدود
ليس الغنى من افـاد الغنى ... ان الغنى من نجـا بالخلود

واعلم ايها القارىء العزيز ان الله تعالى خلقنا بقدرته من العدم ، فهو اذن غنى عنا وعن طاعتنا ، لا تنفعه طاعة المطيع كما لا تضره معصية العاصى ، انما نحن الذين تعود علينا آثار الطاعة أو المعصية ، وقد تبين لنا ذلك فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والثواب منه تعالى بمحض فضله ، والعقاب بمحض عدله ، لا يسأل عما يفعل، وكيف يسأل من يتصرف فى ملكه بسلطانه ؟

ويقول سيدى الامام جعفر الصادق حفيد امامنا الحسين السبط رضى الله عنهما فى ابداع ظاهر :

ان الله تعالى أراد منا شيئا وأظهره لنا ، وأراد بنا شيئا وطـواه عنا ، فلا يجوز ان نشتغل بما أراده بنا عما اراده منا •

ويقول العارفون ان الله تعالى يبعث الخلائق يوم القيامة فيسألهم عما طلبه منهم ولا يسألهم عما قضاه عليهم •

ويروى لنا سيدى سفيان الثورى رضى الله عنه حديثا عن سيدنـا عبد الله بن مسعود يقول فيه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« لا ترضين احدا بسخط الله تعالى ، ولا تحمدن احدا على فضـل الله عز وجل ، ولا تذمن احدا على مالم يؤتك الله تعالى ، فان رزق الله لا يسوقه اليك حرص حريص ، ولا يرده عنك كراهة كاره ، وان الله تعالى بعدله وقسطه ، جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » •

أقول وانما يحمد العبد ربه على نعمتين ، نعمة الايجاد ، ونعمـة الامداد ، ولابد لكل مخلوق منهما ، ولذلك علمنا سبحانه حمده فى فاتحة الكتاب ، وأمرنا مع ذلك ان نشكر من جرت نعمة الله لك على يديه (ان اشكر لى ولوالديك الى المصير) فالحمد مختص بالله وحده والشكر يكون له سبحانه ولعباده الذين تجرى على ايديهم نعمه ، وقد ورد فى الحديث القدسى : « عبدى لم تشكرنى مالم تشكر من أجريت النعمة لك على يديه » •

وينبهنا السادة الصوفية الى مسألة دقيقـة فى الرضا بالقضـاء فيقولون ان واجب العبد ان يرضى بالقضاء الذى أمره الله ان يرضى به،

اذ ليس كل ما هو بقضاء الله يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به ، فلا يجوز مثلا أن يرضى بالمعاصى كما لا يجوز له ان يرضى بالمحن التى تصيب المسلمين فيجب أن يترك المعــاصى ويدعو بكشف الضر عــن المسلمين •

وقد سأل تلميذ استاذه : هل يعرف العبد ان الله تعالى راض عنه؟ فقال لا ، كيف يعلم ذلك ورضاه غيب ؟ فقال التلميذ : بل يعلم ذلك، فقال : وكيف ؟ فقال : اذا وجدت قلبى راضيا عن الله تعالى علمت أنه راض عنى فقال الاستاذ : احسنت يا غلام •

ويقول السادة الصوفية : من أراد أن يبلغ محل الرضا فيلتزم ماجعل الله رضاه فيه • كما يقولون : الرضا على قسمين رضا به سبحانه ورضا عنه ، فالرضا به ان يرضاه العبد مدبرا ، والرضا عنه ان يرضى العبد بما قضاه تعالى • وقد عرفوا الرضا فقالوا : هو ســكون القلب الى أحكامه وموافقة القلب بما رضى الله به واختاره لعبده • وقد سئلت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها : متى يكون العبد راضيا ؟ فقالت: اذا سرته المصيبة كما سرته النعمة •

وقد قيل لامامنا السبط الحسين بن على رضى الله عنهما : ان ابا ذر يقول : الفقر أحب الى من الغنى والسقم أحب الى من الصحة ، فقال: رحم الله ابا ذر ، اما انا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله تعالى له ، لم يتمن غير ما اختاره الله عز وجل له ، ولا تعجب ان يقول ذلك امامنا الحسين السبط ، فقد مات له ابن من ابنائه فلم ير الناس عليه جزعا فسألوه فى ذلك فقال ، وما أبدع ما قال : نحن اهل البيت نسأل الله فيعطينا فاذا أراد ما نكره فيما يحب رضينا •

وقد سئل أبو عثمان الصوفى رضى الله عنه عن قول النبى صلى الله عليه وسلم « اسألك الرضا بعد القضاء » فقال لان الرضا قبل القضاء عزم على الرضا ، والرضا بعد القضاء هو الرضا •

وما أهنأ أهل الرضا والرضوان من المؤمنين الذين قال تعالى فيهم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية • جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) •

الفــرج بعـــد الشــدة

« وانى أتوكل عليه سبحانه موقنـــا بربوبيته وعجيب قدرته وأنه يقول للشىء كن فيكون ، فكم ضاق أمر وكاد العبد أن ييأس من الفرج ولكن سرعان ما يأتى الفرج القريب بأعاجيب قدرة المولى جل وعـــلا وهنا يتجلى الايمان به ويظهر صدق التوكل عليه » •

جاءت تلك السطور فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد ــ سالمجمعة حفظه الله ورعاه وزاده فضلا واحسانا وهى كما تراها تفتح للمؤمن باب الرجاء وتغلق عنه باب اليأس وتبين ان الرجاء فى الله تعالى مظهر من مظاهر صدق التوكل عليه سبحانه وقوة اليقين به وأن انتظار الفرج بعد الشدة عبادة من عبادات المؤمنين المخلصين•

ويقول السادة الصوفية : على العبد فرض ان يرجو مولاه وخالقه ومعبوده ورازقه من حيث فضله وكرمه لا من حيث نظر العبد الى صفات نفسه ولؤمه • كما يقولون : ان الرجاء هو أول مقام من مقامات اليقين عند المقربين وهو ظاهر أوصاف الصديقين ، ونور اليقين بالله عندهم يفوق نور الشمس المشرقة ومن كلامهم فى هذا المعنى :

هـــذه الشـــمس قابلتنـــا بنـــور
ولشـــمس اليقـــين أبهـــر نـــورا
فـــرأينـــا بهـــذه النـــور لـــكن
بهـــاتيـــك قـــد رأينـــا المنـــيرا

ويقول سيدى ابن عطاء رضى الله عنه : على قدر قربهم من التقوى أدركوا ما أدركوا من اليقين ، وأصل التقوى مباينة النهى (أى الانتهاء عما نهى الله عنه) • ومباينة النهى مباينة النفس (أى مخالفة هواها) فعلى قدر مفارقتهم النفس وصلوا الى اليقين •

والله سبحانه وتعالى يبتلى عبده بأنواع من البلايا ليمحصه بالصبر ويحمله بها على اليقين به سبحانه والتوكل عليه فى كشف ضره ، ويقول امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه : الصبر من الايمان بمنزلة الرّأس من الجسد ، ويقول سيدى أبو القاسم الحكيم رضى الله عنه فى قوله تعالى (واصبر وما صبرك الا بالله) اصبر ، أمر بالعبادة ، وما صبرك الا بالله ، عبودية ، فمن ترقى من درجة لك أى من درجة الصبر لله ، الى درجة بك (أى الصبر بالله) فقد انتقل من درجة العبادة الى درجة العبودية .

ومن تمام عبوديته صلى الله عليه وسلم انه كان يقول : بك احيا وبك أموت ، وكان ابن شبرمة رضى الله عنه اذا نزل به بلاء قال : سحابة ثم تنقشع ، وقال ابن عيينة رضى الله عنه فى قوله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) لما أخذوا برأس الامر (يقصد الصبر) جعلناهم رؤساء (أى أئمة) .

والصبر حده الا تعترض سرا أو جهرا على تقدير ربك الذى أجراه عليك وسيدنا أيوب عليه السلام حين قال (أنى مسنى الضر) لم يكن متبرما بالقضاء وانما كان متضرعا بالدعاء ولذلك وصفه ربه بالصبر الجميل وقال فى حقه عليه السلام (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) والاواب هو التواب الرجاع الى الله فى همة قوية : وقد جعل الله له ، عليه السلام ، فرجا من شدته حين قال له (أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) فضرب الارض برجله فأخرج الله الماء بقدرته فاغتسل وشفاه الله وشرب فرواه الله وكان بينه وبين الشفاء والرى ضربة الارض باذن الله وسبحان من ملك (باللام المخففة) وملّك (باللام المشددة) وسبحان من ابتلى وعافى وأنعم بالصبر وأثاب فى الدنيا بالفرج القريب وفى الآخرة بالاجر العظيم ، وفى الخبر « ما من عبد الا يعطى أجره بحساب وحد الا الصابرين فانهم يجازفون مجازفة بغير ميزان ولا حد .

وكان الامام سهل التسترى رضى الله عنه يقول : الصالحون فى المؤمنين قليل ، وأحسن الناس صبرا عند المصائب أكثرهم يقينا ، وأكثر الناس جزعا وسخطا فى المصائب أقلهم يقينا ، ولذلك كان من دعائه صلى الله عليه وسلم « أسألك من اليقين ما تهون به مصائب الدنيا »

وفى تفضيل الصبر على الشكر يقول السادة الصوفية ان الله تعالى جعل الشكر له ولعباده فى قوله تعالى (أن اشكر لى ولوالديك) ولم يجعل معه فى الصبر من خلقه أحدا فقال تعالى (ولربك فاصبر) وقال (واصبر لحكم ربك) .

ومن لطف الله تعالى بعباده أنه ابتلى أكرم الناس عليه واقربهم زلفى لربه وهم سادتنا الانبياء والمرسلون عليهم صلوات الله وسلامه وكذلك الأوليـــاء الأصفياء وفى ذلك تسلية لعامة المؤمنين الذين هــم أضعف قوة فى حمل أعباء البلاء ، ويقول صلوات الله وســلامه عليه « نحن معاشر الانبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل » وفى ذلك تنفيس على المكروبين من عامة المؤمنين .

ويقول الامام الحارث المحاسبى رضى الله عنه فى كتابه « المسائل » أن التفويض من خالص التوكل على الله عز وجل للثقة به والمعرفة بنفاذ قدرته ورحمته ورأفته ، والمريدون فى ذلك رجلان :

رجل اعتقد من قلبه أنه ألجأ أموره كلها الى الله ، متبرئا من الحول والقوة من نفسه ومن الخلق ، الا الى الله تعالى ، ولا ينتظر لطفا ولا صنعا الا من عنده ، قد طابت وسخت نفسه بالجائه الامور الى مــولاه .

والرجل الثانى اعتقد فى قلبه انه لا أمر له ولا حول ولا قوة ، ولكن ربه مالك نفسه وجميع أموره فيقول فى نفسه : الامور كلها لله ، وبالله تكون وتتصرف ، فألجأت الامور كلها لله عز وجل وأنا منتظر ما يقضى ويقــدر .

ويضيف الامام المحاسبى قائلا : والمفوض مكتف مستريح ، ألم تسمع مولاى وهو يخبر عن العبد الصالح حين فوض أمره اليه سبحانه (وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد) ثم قــال الله تعالى (فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب) .

ويعرف السادة الصوفية الرضا فيقولون : هو أن يكون العبد ساكنا تحت حكم الله عز وجل . ويقول سيدى ابن عطاء رحمه الله : ان الرضا يكون من نظر القلب الى قديم اختيار الله تعالى للعبد ، فيعلم

ان الله تعالى اختار له الافضل (فيما يراه الله بعلمه) فيرضى به ويترك السخط • ويحكى سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه فيقول دخلت على مريض أعوده فبينما كان يكلمنى أن أنة ، فقلت له : ليس بصادق فى حبه من لم يصبر على ضربه ، قال : ليس بصادق فى حبه من لم يتلذذ بضربه •

ويقول السادة الصوفية كذلك ان علامة الصوفى الصادق ترك الشكوى واخفاء أثر البلوى ، وهو مقام الصديقين ، ويسترعى السادة الصوفية انتباهنا الى قوله تعالى فى حق رسوله صلى الله عليه وسلم (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) ويعقبون على تلك الآية الكريمة فيقولون :

موضع التشديد فى هذه الآية ان الله تعالى أقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسول الله فيما شجر بينهم ثم ان وجدوا فى أنفسهم حرجا ، يعنى فى قلوبهم وأسرارهم وباطنهم ضيقا ، أو كراهة فى حكمه لو أنه حكم عليهم بالقتل ، فقد خرجوا من الايمان ، وأقسم الله على خروجهم من الايمان ، فلو قسنا على ذلك ما أمرنا الله به من الصبر على أحكام الله عز وجل ، والرضا بما قسم لنا من الاخلاق والارزاق والآجال لم نجد معنا ومع كثير من الناس ذرة من الايمان ، ولولا رجاء الخلق فى سعة رحمة الله تعالى لهلكوا بذلك •

ولسيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى (والد شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنهما ، حكمة يقول فيها شعرا:

سلم لربك ما قضى واصبر اذا اشتد الحرج
وأذكر حديث المصطفى الصبر مفتاح الفرج

والقرآن الكريم يؤيد الحديث الشريف الذى تضمنته الحكمة السابقة فى مواضع كثيرة من آيات الله البينات من مثل قوله تعالى (أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب) ومثل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها

وكان الله بما تعملون بصيرا • اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا • هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) ثم انظر كيف كان سيدنا يعقوب عليه السلام قوى اليقين بالله حين قال لبنيه (يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) وكان بعد ذلك ان دخلوا مصر وتعرف عليهم سيدنا يوسف عليه السلام (قالوا ائنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) •

وها أنت ذا ترى أن سيدنا يوسف رد الفرج الذى من الله به عليه وعلى آله الى شيئين هما التقوى والصبر ، فكان الفرج أجر الاحسان فيهما ، وللسادة الصوفية دقة فى فهم قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) فيقولون : اتقوا الله بجميع استطاعتكم فلا يدخر المؤمن مجهودا مستطاعا الا بذله فى مرضاة ربه ، وهم يقولون أن التكاليف الشرعية كلها فى حدود استطاعتنا لانه تعالى لم يكلفنا الا ما نستطيعه لانه حكيم فلا يكلف النفوس فوق طاقتها •

ويقول السادة الصوفية فى معنى قوله تعالى (رضى الله عنهم ورضوا عنه) الرضا فى الدنيا تحت مجارى الاحكام يورث الرضوان فى الآخرة بما جرت به الاقلام ، وهم يروون عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قوله : ما أبالى على أى الحالين وقعت ، على غنى أو فقر ، ان كان فقرا فان فيه الصبر ، وان كان غنى فان فيه الشكر ، ويعقبون على كلامه المتقدم فيقولون : ذهب عنه التمييز بين الارفق وضده ، وغلب عليه رؤية ما للحق سبحانه من الصبر والشكر • كما يروى السادة الصوفية عن سيدنا أبى الدرداء رضى الله عنه قوله : أحب الموت اشتياقا الى ربى ، واحب المرض تكفيرا لخطيئتى،وأحب الفقر تواضعا لربى • ويقول سيدى أبو بكر بن عبد الله رضى الله عنه : فى المحن ثلاثة أشياء ، تطهير وتكفير وتذكير ، فالتطهير من الكبائر والتكفير من الصغائر والتذكير لاهل الصفاء •

ويقول سيدى سهل التسترى رضى الله عنه : أول مقام فى المعرفة أن يعطى العبد يقينا فى سره تسكن به جوارحه ، وتوكلا فى جوارحه

يسلم به فى دنياه ، وحياة فى قلبه يفوز بها فى عقباه ، أقول وهــؤلاء العارفون الاوفياء الاتقياء الاصفياء هم حزب الله وهم المفلحون كما أخبر سبحانه عنهم ، ولله در القائل فى وصف أحدهم :

مــــريد صـــــفا منـــــه سر الفــــؤاد
فهــــــــام بـــــه السر فى كـــــل واد

ففــــــى أى واد ســـــعى لم يجـــــــد
لـــه ملجـــأ غـــير مـــولى العبـــاد

صـــفا بالوفــــــاء وفى بالصـــــفا
ونـــور الصــــفا سراج الفـــــؤاد

أراد مـــــا كــــان حتـــى أريـــــد
فطــــوبى لـــــه من مـــريد مـــراد

ويقول سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه فى محبة اللّه لاهل الابتلاء :

يــا صـــاحب البـــلوى دع الشكوى الى
غـــير الا لـــه وامتثـــل حـــكم الالـــه

واشــــكره فهـــى نعمـــة اذ قـــد أتـــى
اذا أحـــب اللـــه عبـــــدا ابتـــلاه

وفى الحديث الشريف : « اذا أحب الله عبدا ابتـــلاه ، فان صبر اجتباه وان رضى اصطفاه » .

ويقول سيدى القطب الكبير عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه فى التسليم لأمر الله تعالى :

لا الامـــر أمــــرى ولا التـــــدبير تدبيرى
ولا الامـــور التـــى تجـــرى بتقـــديرى

لـــى خـــالق رازق مـــا شـــاء يفعـــل بـــى
أحـــاط بـــى علمـــه من قبـــل تصـــويرى

أما سيدى على البيــومى سلطان الموحدين رضى الله عنه فيقول :

كـــل لــــه ورد يكـــــون وســـــيلة
لمعـــاشـــه ومعـــاذه ومعـــبـــــاده

وجعلــت وردى فى الخروج عن الســـوى
وأكـــون مــع مــولاى تحــت مــراده

وأما سيدى وشيخى الشيخ على عقل فيقول فى ثباته عند الاحداث والتزامه اليقين والتقوى ، مما نقلناه عنه من الهامه الفورى :

علمـــونى كيــف المســـير الــى اللـــه
وقـــالــوا خـــذوا الرضــا تيـــجانا

نتنــــادى الــى اليقـــين هلمـــــوا
وبهــــذا لربنـــــا نتـــــدانى

قـــد نشـــأنا عــلى اليقـــين صــغارا
وكبـــرنــا ومـــا جهلنـــا المـــكانا

ونطقنـــــا ومـــا نطقنـــا بهجـــر
بل جعلنـــا تقـــواه منـــا لســـانا

وادخـــرنا اليقـــين للحشر ذخــــرا
ومـــــلأنا مــن الثبـــات جنـــــانا

ولبســـنا مــن الحيـــاء شــــعارا
وجعلنــــاه فوقنـــا طيلســـــانا

قـــد علمنــــا أن المحبـــة كنــــز
كــل مــن صـــانها ســـما بنيـــانا

وهو فيما يقول يعلمنا رضى الله عنـــه ان المحبة تقتضى الرضــا والتسليم فمن شكا من بلاء نزل به خرج بشكواه عن حال المحبين من السادة الصوفية الذين يقول أحدهم : لـــو قطعنى البلاء اربا اربا ما ازددت لك الا حبا حبا ، وأنشد بعضهم :

فلـــو قطعتنــى فى الحــب اربـــــا
لمـــــا حـــن الفـــؤاد الـــى ســـواك

وقد ذهب شيخ من الصوفية الى تلميذ من تلاميذه ليعوده فى مرض أصابه فقال التلميذ لشيخه : انى طريح الفراش هكذا منذ أربعة أشهر فقال له شيخه معلما ومرشدا : أحصيت أيام البلاء فهل أحصيت أيـــام الرخاء فدله بارشاده على أن ينظر الى العافية التى متعـــه الله بهـــا سنوات طوال بدل ان يشكو من علته فى مدة قصيرة اذا قيست بسنوات العــــافية •

ومن الرضا عند أهل الرضا الا يقول العبد هذا يوم شديد الحر ، ولا هذا يوم شديد البرد ولا يقول : الفقر بلاء ومحنة ، والعيال هم وتعب ، بل يرضى ويسلم ويطمئن الى حسن التدبير ولطف التقدير ، ويقول سيدى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أصبحت ومالى سرور الا فى انتظار مواقع القدر •

والرضا يكون فى المصائب والشدائد التى تصيب العبد ، ولا ينبغى ان يرضى العبد بالمعايب ويقول انها من تقدير الله على عبده مع أن الله نهاه عنها وحذره منها ، وقد ذم الله المتخلفين عن جهاد الاعداء فقال تعالى (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) أى مع النساء ثم قال (وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) وذم من تمتع بمتاع الدنيا ونسى العمل للآخرة فقال تعالى (ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) •

ويضرب لنا امامنا أبو عبد الله الحسين السبط رضى الله عنه أروع مثل فى الثبات عند الشـــدائد وفى اللجـــوء الى الله فى تفريجها فيقول مناجيا ربه وقد أحاط به جيش الطاغيـــة ابن زياد فى واقعة كـــربلاء المشؤومـــة :

اللهم أنت ثقتى فى كل كرب ، ورجائى فى كل شدة ، وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثقة وعدة ، كم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيـــه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو انزلته بك وشكوته اليك رغبة منى اليك عمن سواك ففرجتـــه وكشفته ، فأنت ولى كل نعمـــة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة الهى أنت وليى فى الدنيا والآخرة ان وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين •

وكان أبوه الامام على كرم الله وجهه يدعو عند كل شدة بهذا الدعاء:

« يا (كيعص) أعوذ بك من الذنوب التى توجب النقم ، وأعوذ بك من الذنوب التى تغير النعم ، وأعوذ بك من الذنوب التى تهتك الحرم، وأعوذ بك من الذنوب التى تحبس غيث السماء ، وأعوذ بك من الذنوب التى تديل الاعداء ، انصرنا على من ظلمنا » .

والسادة الصوفية مع الرضا والتسليم يلجأون فى الشدائد الى الله تعالى بالدعاء لكشف الضر عنهم ، وقد قالوا فى تعليل الدعاء مع التسليم: الدعاء مظهر للعبودية فالداعى يزين جوارحه بدعاء ربه ، كما أن الدعاء ائتمار بأمر الله تعالى وهو القائل (ادعونى استجب لكم) وفى ذلك المعنى قيل :

أدعـــوك رب كمـــا أردت تضرعـــا
فـــاذا رددت يـــــدى فمنـــذا يـــرحم

وقد قال رجل لسيدى ذى النون المصرى رضى الله عنه : زودنى كلمة ، فقال له :

« لا تؤثرن الشك على اليقين ، ولا ترض من نفسك بغير التسكين وان تأتك نائبة الدهر فتحملها بحسن الصبر ، وارم بآمالك نحو الدائم الخبير تجده بآمالك قائما ، واغتنم مواصلة الله تعالى فان لله تعالى عبادا ألفوه فاستأنسوا به ، وعرفوه فأملوه على معرفته ، وواصلوه على عين يقين ، فسمت أبصارهم نحو عظيم ، جليل قدرته ، فسقاهم من حلاوة مواصلته ، والعقهم من لذاذة مخالصته ، فلبكائهم حول العرش دوى ، ولدعائهم حنين تتقعقع أبواب السماء لسرعة تفتحها لاجابة دعائهم .

ومن دعاء الامام الجنيد رضى الله عنه :

أسألك سؤال خاضع خاشع متذلل متواضع ضارع اشـــتدت اليك فاقته ، وانزل بك على قدر الضرورة حاجته ، وعظمت فيما عندك رغبته

وعلم الا يكون شيء الا بمشيئتك ، ولا يشفع شافع اليك الا من بعد اذنك ، فكم من قبيح قد سترته ، وكم من بلاء قد صرفته ، وكم من عثرة قد اقلتها وكم من زلة قد سهلت بها ، وكم من مكروه قد رفعته وكم من ثناء قد نشرته ، أسألك يا سامع أصوات المستغيثين ، وعالم خفى أضمار الصامتين ، وأنت المطلع فى الخلوات على أفعال المتحركين وناظر الى ما دق وجل من آثار الساعين ، أسألك الا تحجب بسوء فعلى عنك صوتى ، ولا تفضحنى بخفى ما اطلعت عليه من سرى،ولا تعاجلنى العقوبة على ما علمته من خلواتى ، وكن بى فى كل الاحوال رافقا ، وعلى فى كل الاحوال عاطفا ... » .

ويقول سيدى القطب الكبير الامام عبد القادر الجيلانى قدس الله سره فى الاستغاثة بالله عند الشدائد :

يا من تحل بذكره عقد النوائب والشدائد
يا من اليه المشتكى واليه أمر الخلق عائد
يا حى يا قيوم يا صمد تنزه عن مضادد
أنت العليم بما بليت به وأنت عليه شاهد
فرج بحولك كربتى يا من له حسن العوائد
فخفى لطفك . يستعان به على الزمن المعاند
أنت الميسر والمسبب والمسهل والمساعد
يسر لنا فرجا قريبا يا الهى لا تباعد
يا ذا الجلال وعافنى مما من البلوى أكابد
هذى يدى وبشدتى قد جئت يا مولاى قاصد
فلكم الهى قد شهدت لفيض لطفك من عوائد
ثم الصلاة على النبى وآله الغر الاماجد
وعلى الصحابة كلهم ما خر للرحمن ساجد

فأما سيدى العارف بالله الشيخ احمد الحلوانى الكبير فيقول فى استغاثته من قصيدته المستغيثة :

يا عدتى فى كربتى وصاحبى فى غربتى
وحافظى فى شدتى ويا ولى نعمتى
انجز قضاء طلبتى ولذتى ببغيتى
وسق الى حاجتى ولا تطل تشتتى
أجب أجب لى دعوتى فأنت أنت عمدتى
وليس تحت حيلتى سواك يا أمنيتى
ولا بحولى طلبتى تقضى ولا بقوتى
يا عالما بقصتى اغث آغث بسرعة
بجاه سمح الملة ازكى البرايا المخبت
وصل كل برهة عليه حتى الساعة
وعم كل الامة وازفف له تحيتى

وكيف لا يغيث الله المستغيث به وهو سبحانه وتعالى القائل (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أاله مع الله قليلا ما تذكرون) .

المحبة فى الله تعالى

« وقد حملنا لك حبا كله لله ، يتصل بالدم والعظم والجسم لا نبغى به الا وجه الله تعالى ، لانه حب الاخوة فى الله تعالى ، فمن هذا الحب ومن القلب اهديك سلاما لا تشوبه شائبة من هوى النفس ، واشكر لكم مكاتبتكم التى تدل على صفاء القلب بل صفاء الحب فى الله تعالى ».

جاءت تلك السطور فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق الوفى التقى السيد ـ سالم جمعة حفظه الله ورعـاه ، وهى سطور من نور تضىء لنا سبيل المحبة فى الله تعالى فى صفاء لا تشوبه شائبة من غرض دنى يجعل المحبة كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا كمحبة أهل الدنيا المعلولة .

والمحبة فى الله تعالى تقتضيها الاخوة التى أقامها الله بين المؤمنين مع اختلاف أوطانهم واجناسهم فى قوله الـكريم (انما المؤمنون اخوة) وفى قوله تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وقد من سبحانه علينا نحن المؤمنين بالتأليف بين قلوبنا على بساط المحبة فى الله تعالى وبين لنا أن ذلك التأليف نعمة منه عز وجل فقـال تعـالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) فالجماعة رحمة والفرقة عذاب ويد الله مع الجماعة .

والمحبة فى الله تعالى عامة وخاصة ، فالعامة تكون لعامة المسـلمين والخاصة تكون لخاصتهم من الوالدين والاقربين والاساتذة والشـيوخ المربين والانبياء والمرسلين ، وتلك المحبة الخاصة تتفاوت بتفاوت النفع الاخروى ، فكلما كان نفع المؤمن فى طريق آخرته أكبر كان حبه لمن انتفع منه أقوى ، فحب المـؤمن لمولانا رسـول الله صلى الله عليه وسلم أقوى من حبه لوالديه بل ومن حبه لنفسه ، وقد قيل لبعضهم

لم تحب شيخك أكثر من حبك لابيك ؟ فقال : أبى سبب حياتى الفانية وشيخى سبب حياتى الباقية .

وقالوا فى ذلك شعرا :

أقـــدم استاذى على حق والدى
وان نـالنى من والـدى العز والشرف

فهذا مربى الـروح والروح جوهر
وذاك مربى الجسـم والجسـم كالصدف

ومن حق الله على عبده المؤمن أن يحب حبيبه ويعادى عدوه لانه ليس من محبة الله أن تحب من يبغضه الله أو تبغض من يحبه لان ذلك من أقوى شواهد المخالفة . وقد ناجى بعض المؤمنين ربه فاستند فى مناجاته الى محبة أحباب الله فقال مناجيا :

ادعـوك يارب مضـطرا على ثقـة
فمـا وعـــدت بــه المضطـر يدعـوكا

حـان الرحيل وما أعـددت من عمـل
الا محبـــة اقـــوام أحبـوكــا

وكأنه فى مناجاته يشير الى ما جاء فى الحديث الشريف ان رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : متى الساعة ؟ فقال له : ما أعددت لها؟ قال : ما اعددت لها كثير صوم ولا صلاة الا محبة الله ورسوله ، فقال صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب ، قال أنس رضى الله عنه : فما فرحنا بشىء فرحنا بقوله صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب، لانه رضى الله عنه كان والسادة الصحابة واثقين من محبتهم لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد حكوا ان الامام الشاذلى رضى الله عنه استمع وهو فى هودجه الى اثنين من تلاميذه الذين صحبوه الى بلادنا العزيزة فقال احدهما لصاحبه ان فلانا اساءك فلاطفته مع اساءته لك ، فأجابه انى تذكرت

رأى المجنـــون فى البيــــداء كلبــا
فجـــر لـــه من الاحســان ذيـــلا

فلامـــوه علـــى ما كــــان منـــه
وقـــالوا قـــد انلـــت الـــكلب نيـــلا

فقـــال دعـــوا المـــلامة ان عينى
رأتـــــه مـــــرة فى حـــى ليلـــى

قالوا فما كاد سيدى ابو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يسمع البيت الاخير حتى اهتز طربا وأخذ يكرره وهو يتمايل يمنة ويسرة ، وكأنه أراد ان يعلمنا التسامح مع عباد الله المؤمنين ارضاء لرب العالمين فلا نقابل السيئة بالسيئة بل نعفو ونصفح ان لم نستطع ان نقابل السيئة بالحسنة .

ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه فى « الاحياء » ان حب الله تعالى اذا قوى غلب على القلب واستولى عليه حتى انتهى الى حد الاستهتار فيتعدى الى كل موجود سواه ، فان كل موجود سواه أثر من آثار قدرته ، لذلك كان صلى الله عليه وسلم اذا حمل اليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال انها قريبة عهد بربها .

ويستطرد امامنا الغزالى رضى الله عنه قائلا فى المحبة الخالصة لوجه الله تعالى : وما من مؤمن محب للآخرة ومحب لله الا اذا أخبر عن حال رجلين احدهما عالم عابد والاخر جاهل فاسق فوجد فى نفسه ميلا الى العالم العابد ثم يضعف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف ايمانه وقوته وبحسب ضعف حبه لله وقوته ، وهذا الميل حاصل وان كانا غائبين عنه بحيث يعلم انه لا يصيبه منهما خير ولا شر فى الدنيا ولا فى الاخرة ، فذلك الميل هو حب فى الله ولله من غير حظ . فانه انما يحبه لأن الله يحبه ولانه مرضى عند الله تعالى ولأنه يحب الله تعالى ولانه مشغول بعبادة الله تعالى ، الا أنه اذا ضعف لم يظهر اثره ولا يظهر به ثواب ولا أجر ، فاذا قوى حمل على الموالاة والنصرة والدفاع بالنفس والمال واللسان ، ويتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم فى حب الله عز وجل .

ويضيف رضى الله عنه قائلا : ولو كان الحب مقصورا على حظ ينال من المحبوب فى الحال أو المآل لما تصور حب الموتى من العلماء والعباد ومن الصحابة والتابعين بل من الانبياء المنقرضين صلوات الله عليهم

وسلامه ، وحب جميعهم مكنون فى قلب كل مسلم متدين ، ويتبين ذلك بغضبه عند طعن اعدائهم فى واحد منهم وبفرحه عند الثناء عليهم وذكر محاسنهم ، وكل ذلك حب لله لانهم خواص عباد الله .

ويقول الوزير لسان الدين بن الخطيب فى كتابه القيم « التعريف بالحب الشريف » ما نصه :

« فمن علامة الله محبة الله محبة كل من أحبه الله ومن اختصه الله وقربه أو نص كتابه على محبته اياه ، من ملك ونبى ، ورسول وولى ، ومؤمن وتائب ، ومتطهر ومحسن ومجاهد ، ومثلهم ممن أشاد بمزيته وفضل منزلته .

« وتتفاضل الوسيلة بحسب منزلة المحبوب الثانى من الحبيب الأول، فلا وسيلة اذن اعظم ولا أنجح من حب أحب أحباب الله وهو سيدنا ومولانا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، ولذلك يقول سيدى محمد بن أبى المجد :

الا يا محب المصطفى زد صبابة
وضمخ لسان الذكر منك بطيبه
ولا تعبأن بالمبطلين فانما
علامة حب الله حب حبيبه

ويقول صاحب روضة التعريف رحمه الله تعالى :

« ان محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على انحاء ، قيل معناها اتباعه (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) وقيل اعتقاد نصره والدفاع عن سنته واجتناب مخالفته والانقياد لامره ، وقيل دوام ذكره ، وقيل ايثاره وقيل الشوق اليه ، وقيل وجوب مناصحته « اذا نصحوا لله ورسوله » وقيل توقيره وتعظيمه (يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) وقيل احترام أهل بيته (قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى) وقيل رعاية أزواجه (وأزواجه أمهاتهم) وقيل الصلاة عليه (يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وقيل

زيارة قبره ، ويلحق بمحبته صلى الله عليه وسلم محبة أصحابهوخلفائه ومحبيه وقد ورد فى ذلك كله من الاحاديث الصحيحة ما هو مشهور » •

وانى أقول ان المحب يجب أن تجتمع فيه كل المعانى المتقدمة التى عددها صاحب روضة التعريف فى معنى المحبة ، لانها جميعا تأتلف ولا تختلفويشد بعضها بعضا ، وهى فروع لاصل المحبة فى الله تعالى والترابط بينها قائم على الدوام •

ويقول صاحب روضة التعريف أيضا •

« واما عداوة العدو وبغضه البغيض فلازم منه ما لزم من ضده مع اختلاف قصده ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا غدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة) وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم) وقال تعالى (افتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) ويقول الشاعر :

صديقى من يصافى من اصافى
ويرمى بالعدواة من رمانى

ويقول الاخر :

انما المخلص عندى
فى ولائى ودادى
من يوالى من أوالى
ويعادى من اعادى

وعلامة محبة الله ورسوله انما هى الطاعة ، فيأتمر المؤمن المحب بأوامر الله وينتهى بنواهيه سبحانه ، وقد سئل الامام الجنيد رضى الله عنه عن علامة المحبة فقال : لا تستثقل اتباع أوامره واجتناب نواهيه • ولا تدل معصية الله على عدم محبته وانما تدل على عدم كمال المحبة ، ومن ذلك ندرك معنى دعاء سيدى الامام ابى الحسن الشاذلى فى حزبه الكبير حين يقول : واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت ، فالاحسان لا ينفع مع البغض منك ، والاساءة لا تضر مع الحب منك ، وقد ابهمت الامر علينا لترجو

ونخاف ، فآمن خوفنا ، ولا تخيب رجاءنا ، فليس كرمك مخصوصا بمن أطاعك وأقبل عليك ، بل هو مبذول بالسبق منك لمن شئت من خلقك وان عصاك واعرض عنك » •

أقول : وقد اشترك عبدان فى المعصية ، آدم عليه السلام ، وابليس عليه اللعنة ، فاصطفى الله آدم فى قضائه وغفر له ، وجعل لعنته الدائمة على ابليس والعياذ بالله ، وكذلك من علامات محبة الله تعالى مداومة ذكر المحبوب سبحانه ، ويقول سيدى يحيى بن معاذ الرازى: ماولع المريد بذكر شىء الا استفاد منه محبة ذلك الشىء ، وأنشدوا فى ذلك شعرا •

خطرات ذكرى تستثير مودتى
واحس منها فى الفؤاد دبيبا

لا عضو لى الا وفيه صبابة
فكأن اعضائى خلقن قلوبا

والذاكرون الله كثيرا ينجذب بعضهم لبعض بحكم التجانس القائم بينهم والتقاء أرواحهم على بساط محبته سبحانه وتعالى ، ويحب أحدهم لاخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها ، ويتمنون الخير لجميع المؤمنين ، ولا يحتقرون احدا منهم بذنب أو غفلة • ولكل مسلم على اخيه عشرة حقوق وهى : ان يسلم عليه اذا لقيه ، ويجيبه اذا دعاه ، ويشمته اذا عطس ، ويعوده اذا مرض ، ويشهد جنازته اذا مات، ويبر قسمه اذا أقسم عليه ، وينصح له اذا استنصحه ، ويحفظه بظهر الغيب اذا غاب عنه ، ويحب له ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه •

وقد قالوا فى معنى وصفه تعالى للسادة الصحابة رضوان الله عليهم (رحماء بينهم) يعنى متوادين بينهم ، يدعو صالحهم لطالحهم ، واذا نظر الصالح الى الطالح قال : اللهم اهده وتب عليه واغفر له ، واذا نظر الطالح الى الصالح قال : اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبته عليه وانفعنا به •

وقد سئل امامنا على بن أبى طالب عن بعض الصحابة فقال عن أيهم تسألون ؟ قالوا عن سلمان ، قال ادرك علم الاولين والآخرين ،

قالوا فعمار ؟ قال : ملىء ايمانا الى مشاشه ، قالوا : حذيفة ، قال صاحب السر اعطى الكشف عن المنافقين • وها أنت ذا تراه كرم الله وجهه قد ذكر كلا منهم بما حباه الله به ولم يحسده على ما آتاه الله من فضله والله تعالى يقول (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز) كما يقول (ام حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب) ويقول على لسان لقمان عليه السلام (يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور) •

والسادة الصوفية ليس لهم شغل سوى القيام بحقه تعالى ، ولذلك تراهم يقطعون العلائق والعوائق والشواغل التى تشغلهم عنه سبحانه لان طريقتهم تقوم على فراغ القلوب لخالقها جل وعلا ، حتى لقد كان الامام الشبلى رضى الله عنه يقول لتلميذه الحصرى فى ابتداء امره ان خطر ببالك من الجمعة الى الجمعة الثانية التى تأتينى فيها غير الله تعالى فحرام عليك ان تحضرنى • كما ان السادة الصوفية يقولون : مالم يستو عند المريد قبول الخلق وردهم لا يجىء منه شىء ، بل أضر الأشياء له الاشتغال بالناس لانه علامة الافلاس •

هذا واللغة التى خاطب بها سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه تلميذه الصالح السيد ـ سالم جمعة هى لغة الحب الخالص لله وفى الله بين الشيخ وتلميذه ولاشك ان سيدى الشيخ كتب كلماته من وجدانه الصادق وحبه الخالص وهو ما أهنىء به صديقى الحميم واخى فى الله السيد ـ سالم جمعة زاده الله من فضله ، وقد قال السادة الصوفية : ان قبول قلوب المشايخ للمريد أصدق شاهد لسعادته ومن رده قلب شيخه يرى علامة ذلك لا محالة ولو بعد حين •

ولا يفهم القارىء العزيز من ذلك انه يجب على المريد ان يعتقد العصمة فى شيخه فان العصمة واجبة للرسل الكرام والأنبياء العظام، وانما الشيخ محفوظ بعناية ربانية تؤهله لقيادة المريدين فى التربية الطريقية ، وعلى المريد أن يحسن الظن بشيخه ويدع ما لا يفهمه من أحواله لله مادام الشيخ يربيه على آداب الكتاب والسنة والجماعة

بلسانه وقلبه وهى ممهة شاقة وان بدت للمريد انها سهلة حين يجنى ثمارها يانعة وهى دانية القطوف ، وما درى أن شيخه حمل عنه المشقات حين أنزله منازل القربات (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرىء بما كسب رهين) • وليس ذلك مقصورا على ذرية الصلب انما هو شامل لذرية الروح (يوم ندعو كل أناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا) أما ذرية ابليس فيقول تعالى محذرا منها ومنه (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) •

وكيف يستسهل المريد مهمة شيخه الذى يسلك به طريق الاخرة وهو طريق دقيق المسالك ولاشك ان الدليل فى صحراء القيامة اشق عبئا من الدليل فى صحراء الدنيا لان صحراء الدنيا طريقها ظاهر محسوس (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) اما صحراء الآخرة فطريقها خفى لا ينكشف الا لاهل البصائر النافذة الذين هيأهم الله لدلالة السالكين وارشادهم الى بر السلامة والامن من الفزع الاكبر • والمريد الذى تصح عقيدته فى شيخه ولا يعترض عليه بقلبه ينال ما قسم الله له من مكاشفات الغيب التى خص بها شيخه فلا يحتاج للتطفل على موائد غيره لان بيت أبيه الروحى أولى بغذائه من بيوت الاخرين •

وصلة المريد بشيخه صلة روحية وهى بذلك لا تتوقف على حياة الشيخ الجسدية ، ولذلك يتربى المريدون على يد خلفاء الشيخ فى طريقه وان لم يعاصروا الشيخ فى حياته فكم مضت قرون على انتقال سادتى الائمة أحمد الرفاعى وعبد القادر الجيلانى واحمد البدوى وابراهيم الدسوقى وأبى الحسن الشاذلى ومانزال مدارسهم تخرج العارفين والهداة المرشدين وذلك ببركة متابعتهم لجدهم سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) •

وقد انتقل الى رضوان الله شيخنا وصاحب طريقتنا سيدى العلم الاشهر والقطب الاكبر الشريف الجسينى الحاج محمد أبو خليل وسكن

ضريحه المبارك بالزقازيق فى ٢٩ يونية ١٩٣٠ وحدثنى شاهد من اخواننا الافاضل أن مجلس الذكر أقيم فى سرادق العزاء وحضره عدد عديد من أتباعه فأخذ عالمنا وعارفنا الملهم سيدى الشيخ على عقل ينشد بالهامه الفورى على مسمع الذاكرين فكان مما انشد :

والله والله العظيم ثلاثة الشيخ حاضر
هو سامع ما قد سمعت وناظر ما أنت ناظر

فهام الذاكرون وكادوا ان يطيروا من هيامهم لو استطاعوا الى ذلك سبيلا وذلك من قوة اتصالهم بروحه القوية وشدة محبتهم الربانية لشيخهم الذى سلك بهم طريق الفلاح الى ساحة القدس .

وتفسير ذلك ان الموت ليس بعدم محض بل هو انتقال من حال الى حال ومن عالم الى عالم ، وانت فى نومك غيرك فى يقظتك ، لان عالم النوم غير عالم اليقظة ، فالروح فى النوم تنتقل بالرؤيا من الفرش الى العرش كما يقولون ، بينما البدن لا يبارح الفراش ولا الغرفة التى ينام فيها ، وكذلك عالم الموت تبطل فيه وظائف الأعضاء التى تستخدمها الروح حال الحياة البدنية حيث كانت تنظر بالعين وتسمع بالاذن وتمشى على الرجلين وتتناول باليدين الخ فهمدت تلك الأعضاء حيث بارحت الروح بالموت الجسد وفارقته الى عالم البرزخ وهو الفاصل بين الدنيا والآخرة .

وحياة الروح فى عالم البرزخ لا شبهة فيها ، فهى ثابتة بالكتاب والسنة ولئن كان الشرع الشريف منعنا من الكلام فى سر الروح بقوله تعالى (قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا) فان الشرع اذن لنا بالتكلم فى حال الروح بعد الموت . ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه فى « الاحياء » ما خلاصته :

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام ادراكها آيات وأخبار كثيرة :

أما الآيات فما ورد فى الشهداء اذ قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) والآية نص فى أرواح الشهداء السعداء .

ولمـا قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يافلان يافلان يافلان قد وجدت ما وعدنى ربى حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات؟ فقال صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده انهم لأسمع لهـذا الكلام منكم الا انهم لا يقدرون على الجواب » رواه مسلم فهذا نص فى بقاء روح الشقى وبقاء ادراكها .

« ولا يخلو الميت من سعادة أو شقاوة قال صلى الله عليه وسـلم « القبر اما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط .

« وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه فى قبره » رواه احمد واضاف الامام الغزالى قائلا .

« ان روح المؤمن لا تموت وعلم المؤمن عند موته لا يمحى وصفاؤه لا يتكدر واليه أشار الامام الحسن البصرى بقوله : التراب لا يأكل محل الايمان وبالايمان تتفاوت درجات السـعداء كما تتفاوت درجات الاغنياء بحسب كثرة المـال وقلته ، فالمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون الى لقاء الله تعالى الا بأنوارهم قال تعالى (يسعى نورهم بين أبديهم وبأيمانهم) .

ثم يقول الامام الغزالى :

« والروح تعلم الاشياء بنفسها من غير آلة ، ولذلك تتـألم بأنواع الحزن والغم والكمد وتتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالاعضاء ، فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة البدن ، وما هو لها بواسطة الاعضاء فيتعطل بموت الجسد فى القبر ولا يبعد أن تؤخر الى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عبـاده » .

وفى هذه المناسبة أكشف الستار عن تجربة وقعت لى فى شبابى الباكر حيث تمنيت أن أطمئن الى صحة انتسابى بالنبوة فى طريق الله الى سيدى الشيخ أبى خليل رضى الله عنه حيث لم يسعدنى الحظ بلقائه

فى حياته الشريفة انما اسعدنى الحظ بادراك خليفته المربى الكامل سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، فكان ان حظيت فى نفس الليلة برؤية سيدى الشيخ أبى خليل فى رؤيا طويلة لا أنسى مدى الايام سعادتى بها فلقد احتضننى طويلا ومن مهابته القيت بوجهى فى صدره فوضع يده اليمنى على عاتقى الايسر ويده اليسرى على عاتقى الايمن وبعد ربع ساعة على هذا العطف الابوى الحانى كلمنى بالسريانى قائلا : « لو كنت تأخذ عشرة نقط من فيلول اينون كانت تعينك على طلب العلم ، أنا زمان كنت اجيبها على ألم نشرح » ثم تقدمت له أحد أصحابى الذين كنت قدمتهم فى الطريق لسيدى الشيخ عبد السلام فعاهده فقال لى سيدى الشيخ أبو خليل رضى الله عنه : أيوه أنا شفته مع الاستاذ رشاد ، ثم هم رضى الله عنه بلبس نعليه وقال : أقوم يا خويا أصلى الصبح أحسن الشمس قربت تطلع ، فانتبهت من نومى فوجدت أنه لم يبق على الشروق الا نصف ساعة فأسرعت بالوضوء وصليت الصبح حاضرا قبل أن تطلع الشمس ببركة سيدى الشيخ طيب الله ثراه .

وقد قصصت تلك الرؤيا على سيدى الشيخ عبد السلام فسرته وفسر لى الاستاذ رشاد بأنه المرشد ، وقد استبشرت بها كثيرا لى ولصاحبى المخلص الاستاذ فهمى عبد الجواد المفتش السابق بوزارة التربية ، ورأيت بركة الرؤيا فيما علمنى الله بعدها ما كنت أجهله من علوم الشريعة حتى صارت لى فيها مؤلفات عديدة أسأل الله ان ينفعنى وقراءها بها يوم ينظر المرء ما قدمت يداه . والرؤيا واضحة فى صلة الشيخ بالمريدين فى طريقه وان لم يجتمعوا به فى حياته الدنيوية ، وقد استحييت ان أسأل سيدى الشيخ عبد السلام عن معنى « فيلول اينون » وكفانا ان نكون محل رعاية روحية من مشايخنا وهم فى برازخهم . وفى سيدى ابى خليل وخليفته سيدى عبد السلام وسيدى على عقل يقول أخى فى الله المرحوم محمد زكى عبد السلام الحلوانى:

الله أكبر قد وضحت طريقة
وثبت اقداما وسدت منارا

خفقت بنود الحق حولك دائما
وشهدت جندك للتقى أنصارا

حتى كأنـــك لم تغـــب مـــن بينهـــم
مـــارددوا الانشـــاد والاذكـــارا

عبـــد الســـلام على يمينـــك يجتلـــى
كـــأبى قحـــافة يمـــلأ الانظـــارا

وعلـــى يزخـــر بالـــروى كـــأنه
ديـــم الســـماء تفجـــرت انهـــارا

وجاء فى الرسالة القشيرية ان ابا بكر الرشيدى رأى محمدا الطوسى فى المنام يقول له : قل لابى سعيد الصفار المؤدب :

تشـــاغلتم عنـــا بصـــحبة غـــيرنا
وأظهـــرتم الهجران مـــا هـــكذا كنـــا

لعـــل الـــذى يقضى الامـــور بعلمـــه
سيجمعنا بعـــد الممـــات كمـــا كنـــا

قال فانتبهت وقلت ذلك لابى سعيد الصفار فقال : كنت أزور قبره كل يوم جمعة ، فلم أزره هذه الجمعة .

وحكى عن بعضهم انه قال : رأيت فى المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله جماعة من الفقراء (أى الى الله) فبينما هو كذلك اذ نزل من السماء ملكان وبيد أحدهما طست وبيد الآخر ابريق ، فوضع الطست بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسل يده ثم أمر الملكين حتى غسلوا أيديهم ، ثم وضع الطست بين يدى فقال أحدهما للآخر : لا تصب على يده فانه ليس منهم ، فقلت : يا رسول الله أليس قد روى عنك انك قلت « المرء مع من أحب » فقال : بلى ، فقلت وأنا أحبك وأحب هؤلاء الفقراء : فقال صلى الله عليه وسلم : صب على يده فأنه منهم .

اللهم اجعلنا من أصفيائك الذين قلت فيهم (يحبهم ويحبونه أذلـة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) .

الافتقار إلى الله تعالى

« الملائكة والأنبياء والمرسلون والشهداء والصالحون وكل الخلق لا يطلبون سواك ونحن الضعفاء ، وأنت ربنا ، لا نلجأ لغيرك ، فلا تردنا عن بابك الذى وسع الخلق وقد شهدوا لك بالربوبية وقد قضيت وقلت (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون) بفضلك مؤمنون بالرجعى اليك ، فعاملنا بالاحسان اذ الفضل منك واليك » .

جاءت تلك السطور فى رسالة بعث بها شيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى الى تلميذه الصالح المبارك الصديق العزيز السيد — سالم جمعة مد الله فى عمره وزاده من فضله ، وهى كما يرى القارىء تنطق بافتقار الخلائق كلهم الى الله عز وجل مهما علت اقدارهم ، ويستوى فى ذلك الافتقار اهل السموات وأهل الارض ، فكلهم خلق الله ، ويجرى عليهم من عطائه غذاء الاجساد والارواح ، وكما انفرد سبحانه بخلقهم انفرد برزقهم ، وشمل رزقه من آمن به منهم ومن كفر ، ومن جحد فضله ومن شكر .

ويلجأ سيدى الشيخ الى ربه لجوء المؤمن بربه ، المقر بفقره اليه وضعفه بين يديه فى حسن ظن بكرمه الذى يسع السائلين الواقفين ببابه، يرجون رحمته وينتظرون احسانه ، وهو سبحانه أجود الاجودين ويعطى بسؤال وبغير سؤال ولكن السؤال مظهر من مظاهر افتقار العبد لربه ، كما هو اقرار بجود الله وكرمه ، وبقربه من عبده ، يسمع له ويستجيب .

وما أرق ما يقول سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه فى دعائه:

لئن مددت يدى اليك داعيا لطالما كفيتنى ساهيا ، أأقطع منك رجاى بما عملت يداى ؟ حسبى من سؤالى علمك بحالى . وهو الذى يقول : أطلب حاجتك بلسان الفقر ، ويعرفنا رضى الله عنه كيف نتحقق بالفقر الى الله تعالى فيقول : من أراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله فانها تذوب وتصفو . ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه لان النفوس كلها فقيرة عند هيبته .

ويقول سيدى السرى السقطى رضى الله عنه : اجعل فقرك اليهتستغن به عمن سواه • ويقول سيدى الحارث المحاسبى رضى الله عنه : صفة العبودية الا ترى لنفسك ملكا وتعلم انك لا تملك لنفسك ضرا ولا نفعا كما يقول : اذا أنت لم تسمع نداء الله فكيف تجيب داعى الله ، ومن استغنى بشيء دون الله جهل قدر الله • ويقول سيدى شقيق البلخى رضى الله عنه : من لم يعرف الله بالقدرة فانه لا يعرفه ، قيل وكيف يعرف بالقدرة ؟ فقال يعرف ان الله قادر اذا كان معه شيء ان يأخذه منه ويعطيه غيره ، واذا لم يكن معه شيء ان يعطيه •

ومن اقوالهم هذه تعلم ان الفقر عندهم ليس معناه فقر الجيوب كما يتبادر الى الذهن ، بل معناه الحاجة الى الله على الدوام فى أمرين فى حفظ ما أتاك من فضله ، وفى اعطائك ما تحتاج اليه من أمر الدين أو الدنيا • أما عن حفظ ما آتاك فيضمنه لك شكر نعمته سبحانه فقد قال تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم) فأكد الحفظ بل وزيادة النعمة ، وشكر النعمة عند السادة الصوفية العارفين هو الا تستعملها فى معصية الله فان استعملتها فى معصيته تكون قد بدلت نعمة الله كفرا ، فكفرت النعمة ولم تشكرها • واما اعطاؤك ما تحتاج اليه من أمر الدين والدنيا فانه تعالى فتح لك باب كرمه الواسع بقولــه سبحانه (واذا ســألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) ولما كان الله تعالى قادرا على سلب النعمة فوجب ان يطيعه العبد فيها ليحفظها عليه ويزيده من فضله • ويستوى فى ذلك النعم الظاهرة والنعم الباطنة (وأسبغ عليــكم نعمه ظاهرة وباطنة) وينصحنا السادة الصوفية العارفون ان نترك الذنوب الظاهرة شكرا لنعم الله الظاهرة وان نترك الذنوب البــاطنة شكرا لنعم الله الباطنة وبذلك الترك تتطهر ظواهرنا وبواطننا فلا نسرق ولا نزنى ولا نغتاب ولا نقتل النفس التى حرم الله الا بالحق الى غير ذلك من الجرائم الظاهرة ولا نحقد ولا نحسد ولا نشمت بمصائب الناس الى غير ذلك من العيوب الباطنة • والنعم الظاهرة هى النعم المحسوسة كالسمع والبصر والرزق الخ ، والنعم الباطنة هى الخافية كالايمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم واليوم الآخر وما يتصل بالعقيدة من خفايا اليقين من الرضا والصبر والشكر والمحبة الخ •

ولا يقف اثر الطاعة على حفظ النعم وزيادتها فى الدنيا ، بل يتعدى اثر الطاعة والمعصية الى حياتنا الاخروية التى آمنا بها ، ولذلك يقول سيدى شقيق البلخى : من دار حول الشهوات فانه يدور بدرجاته فى الجنة ليأكلها ، وينقصها فى الدنيا ، كما يقول : جعل الله أهل طاعته أحياء فى مماتهم وأهل المعاصى أمواتا فى حياتهم •

ويحذرنا سيدى ابو يزيد البسطامى رضى الله عنه من ان تشغلنــا النعم عن المنعم سبحانه فيقول : ان الله تعالى أمر العباد ونهاهم فأطاعوه فخلع عليهم خلعه فاشتغلوا بالخلع عنه ، وانى لا أريــد من الله الا الله • فانظر كيف جرد عبادته من الشوائب والعلل حتى صارت خالصة لله تعالى فعملبما أمره به فى قوله الكريم (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة)

وتلك درجة الخواص ، بل خواص الخواص ، ولا تتأتى للعابد مرة واحدة بل لابد فى الوصول اليها من مجاهدات حتى يأذن الله للمجاهد ببلوغ النهايات مصداقا لقوله الكريم (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) ويقول سيدى أبو يزيد متحدثا عن نفسه فى ذلك : غلطت فى ابتدائى فى أربعة أشياء ، توهمت انى أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه ، فلما انتهيت رايت ذكره سبق ذكرى ومعرفته تقدمت معرفتى ومحبته أقدم من محبتى وطلبه لى أولا حتى طلبته • ويقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل فى مجاهداته من الهامه الفورى الذى نقلنا عنــه :

حسبت الهوى سهلا فخضت عبابه
فطورا به أطفو وطورا به غطسى

الى ان أتتــنى من لــدنه عنــاية
وصلت بهــا بــر السلامة والأنس

ويقول سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه : ثلاث خصال من صفة الاولياء : الثقة بالله فى كل شىء ، والغنى به عن كل شىء ، والرجوع اليه فى كل شىء • ولذلك يقول سيدى أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه فى مناجاته :

« يا ذاكر الذاكرين بما به ذكروه ، ويا بادىء العارفين بما به عرفوه ويا موفق العابدين لصالح ما عملوه ، من ذا الذى يشفع عندك الا باذنك ومن ذا الذى يذكرك الا بفضلك ٠

ويرى سيدى الجنيد رضى اللـــه عنه ان حسن الاعتماد على فضل الله لا ينافى بذل المجهود فى ســـبيله سبحانه لان الأعمـــال الصالحة انما رسمها الله لعباده ليجاهدوا أنفسكم بها فى الوصول الى مرضاته ومن أقواله فى هذا المقام :

ان العارفين بالله أخذوا الاعمال عن الله واليه رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام أنتقص من أعمال البـــرذرة الا أن يحال بى دونها وانه لأوكد فى معرفتى وأقوى فى حالى ٠

ثم انه رضى الله عنه يدعو فى المجاهدات الى الاقتداء بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه صلوات الله وسلامه عليه مع اصطفاء الله له بلغ فى مجاهداته وعبادته الغاية القصوى التى يستطيعها البشر ولا غرو فقد أمره مولاه بالعبادة الدائمة والاصطبار عليها فى مثل قوله تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) ، ويقول سيدى الجنيد رضى الله عنه : الطرق كلها مسدودة على الخلق الا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتبع سنته ولزم طريقته فان طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه ٠

وفى المجاهدة والعبادة يجب أن يستعين العبد بمولاه اذ لا حول ولا قوة الا بالله تعالى ، ومما علمنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لسيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه يا معاذ لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك٠وقد قال تعالى لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) ولهذا يجب أن يكون المؤمن مفتقرا الى ربه ومستندا اليه فى كل أحواله حتى لو جاءته الاسباب بما يحب ويرضى لانها من فضل الله عليه ولا تغنيه الاسباب مهما كانت عن مسببها سبحانه ، ولذلك يقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى : فلابد لك من الاسباب وجودا ولابد لك من الغيبة عنها شهودا ، فأثبتها من حيث أثبتها تعالى بحكمته ولا تستند اليها لعلمك بأحديته ٠

ولهذا نراه رضى الله عنه فى مناجاته لربه تعالى يقول فى ابداع لا يخفى : الهى أنا الفقير فى غناى ، فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى ويشرح سيدى ابن عجيبة الحسنى رضى الله عنه هذه المناجاة فيقول :

أنا الفقير فى غناى الوهمى الادعائى فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى الحقيقى الاصلى ؟ فغناى بموافقة الاسباب الظاهرة ليس وجوده منى ولا بقاؤه بيدى،فأنا فقير فى حالة وجوده فكيف لا أكون فقيرا فى حالة فقده أو يقول : أنا الفقير فى حالة حياتى التى يظهر فيها صورة غناى بعشيرتى وأحبابى فكيف لا أكون فقيرا بعد مماتى حين يتخلف عنى أحبابى وجيرتى أو يقول : أنا الفقير اليك فى حال غناى بك فلا غنى لى عن زيادة مددك ، وهذا كما قال القائل :

أنا الفقير اليكم والغنى بكم
وليس لى بعدكم حرص على أحد

فكيف لا أكون فقيرا فى حال فقرى اليك اذا كنت فقيرا فى حال نظرى الى غناى بك ، وكيف لا أكون فقيرا فى حال نظرى الى فقرى اليك ولله در القائل .

انى اليك مع الأنفاس محتاج
لو كان فى مفرقى الاكليل والتاج

وقال الامام أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه : من أشار الى الله ثم رجع بحوائجه الى غيره أفقره الله الى الخلق ثم نزع له الرحمة من قلوبهم ، ومن شهد محل افتقاره الى الله ورجع بحوائجه اليه أغناه الله من حيث لا يحتسب ، واعطاه من حيث لا يرتقب .

ثم يستطرد سيدى ابن عجيبة قائلا :

فليثق العبد بربه ، وليشتغل بما أمره به ، وليكن كما قال بهلول المجنون : نعبده كما أمرنا وهو يرزقنا كما وعدنا ، ولا يتعلق بمخلوق أصلا قلبا ولا قالبا .

ويناجى سيدى ابن عطاء الله السكندرى ربه مرة أخرى فيقول :

« الهى أنا الجاهل فى علمى فكيف لا أكون جاهلا جهولا فى جهلى »

ويشرح ذلك سيدى ابن عجيبة فيقول :

انا الجاهل فى علمى العارض الذى علمتنى فكيف لا أكون جاهلا فى جهلى الاصلى الذى أركزتنى ؟ أو يقول : أنا الجاهل فى حال نسبتى الى العلم الذى علمتنى ، فكيف لا أكون جهولا فى جهلى الذى هو أصلى ومحلى ؟

وما نسبة علم العبودية فى جانب علم الربوبية الا كنقرة العصفور من البحر ، كما قال الخضر عليه السلام لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) ٠

ثم ان من تحقق بفقره الاصلى لا يسكن الى غناه العارض ، ومن تحقق بجهله الاصلى لا يسكن الى علمه الفرعى ، فان الامور كلهابيد الغنى الكريم والقلوب كلها بيد المدبر الحكيم ، كما أبان ذلك فى المناجاة الثالثة بقوله :

الهى ان اختلاف تدبيرك ، وسرعة حلول مقاديرك ، منعا عبادك العارفين بك من السكون الى عطاء ، واليأس منك فى بلاء ٠

ويشرح ذلك سيدى ابن عجيبة فيقول :

اختلاف التدبير هو اقامة كل عبد فى حكمته وعلى حسب ارادته ومشيئته من فقر أو غنى ، من علم أو جهل ، من عز أو ذل ، من قبض أو بسط من سقم أو صحة أو مرض ، من ايمان أو كفر الى غير ذلك من اختلاف آثار القدرة وتنوع مظاهر الحكمة ٠ وسرعةحلول المقادير هو تبديل تلك الاحوال فى أسرع حال ، من فقر الى غنى ومن غنى الى فقر ، ومن علم الى جهل ، ومن جهل الى علم ، ومن عز الى ذل ، ومن ذل الى عز ، ومن قبض الى بسط ، ومن بسط الى قبض ، ومن سقم الى صحة ، ومن صحة الى سقم ، ومن ايمان الى كفر والعياذ بالله ومن كفر الى ايمان ، فقلوب الخلائق بيد الواحد القهار ، يقلبها كيف يشاء ويختار ، ويفعل بها ما يشاء (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)٠

ويقول السادة الصوفية : علامة العارف أن يكون قلبه مرآة يرى فيها ما غاب عن غيره ، وجلاء القلب لا يكون الا بالايمان واليقين ، فعلى قدر قوة الايمان يكون نور القلب ، وعلى قدر نور القلب تكون مشاهدة

الحق ، وبقدر مشاهدة الحق تكون المعرفة باسمائه وصفاته ؛ وبقدرهما يكون التعظيم لذاته ، وبقدر التعظيم لذاته يكون كمال العبد ، وبقدر كماله يكون استغراقه فى أوصاف العبودية ، وبقدر استغراقه فى أوصاف العبودية يكون قيامه بحقوق الربوبية .

أقول وكلامهم المتقدم يفسر لنا الحكمة القائلة : من عرف نفسه فقد عرف ربه ؛ فمن عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى ؛ ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم ، ومن عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة ، ومن عرف نفسه بالحاجة عرف ربه بالاستغناء ، ومن عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم ؛ ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء . وهكذا وهكذا .

ولست اعني بالمعرفة العلم بذلك واعتقاده ؛ وانما قصدت المعرفة العملية المذاقية ، ويفرق سيدى جلال الدين الرومى بين العلم والعمل فيقول : هل قطفتم وردا من الواو والراء والدال ؟ اذهبوا فابحثوا عن حقيقة المسمى . فهو رضى الله عنه يعلمنا الا نقف عند العلم بالهجاء الخاص بكلمة ورد بل يجب أن نسعى اليه لمعرفته ، وذلك تعليم بالرمز اعتاده العارفون من الصوفية ، وعندما سئلوا لماذا تكثرون فى كلامكم من الاشارات دون ان تصرحوا بالعبارات أجابوا : اننا نكلم أهلنا ولا نكلم غيرهم ؛ والأخرس لا يفهمه الا أهله حين يتكلم معهم بالاشارة .

ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه : فرق بين ان يعلم الانسان حد الصحة والشبع وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون صحيحا وشبعان . ومن ذلك ندرك أن الافتقار الى الله تعالى حال يذوقه أهل الوجدان وليس علما يروى باللسان ويسمع بالآذان ، وقد قال تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد) وليس المراد فقراء المال بل المراد جميع الناس وفيهم أغنياء المال وأصحاب الجاه والسلطان ؛ ولقد وقفت ذبابة على وجه الخليفة ابى جعفر المنصور فدفعها بيده فعادت ودفعها مرة أخرى فعادت وكان يجالسه الامام جعفر الصادق سليل الامام الحسين رضى الله عنهما ، فتساءل أبوجعفر عن حكمة خلق الذباب فأجابه الامام جعفر : خلق الله الذباب لاذلال الملوك واشعارهم أنهم عبيد .

ولقد دخل الشاعر أبو العتاهية على الخليفة هارون الرشيد وكان فى مجلس غناء فقال الخليفة : اسمعنا شعرك يا أبا العتاهية فقال :

عش مـــا بدالك كــم تــراك تعيش
انظــن ســـهم الحـــادثات يطيش

عش كيف شــئت لتــأتينك وقفـــة
يومـــا وليس على جنـــاحك ريش

فبكى الرشيد ، فلام جلساؤه ابا العتاهية فقال الرشيد : دعوه فقد وجدنا فى غفلة فأراد أن يوقظنا منها •

ويقول سيدى الامام ابو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية • ويشرح ذلك سيدى ابن عجيبة رضى الله عنه فيقول : ان الربوبية تقتضى مربوبا موصوفا بضد ما اتصف بــه ربه من الــكمالات الالهية والنعوت القدسية ؛ فمــا ظهرت أوصــاف الربوبية التى هى الغنى والعزة والقدرة وغير ذلك من الكمالات الا فى أضدادها من الفقر والذلة والضعف وغير ذلك ، فالفقــر الحقيقى شامل لسائر الموجودات والغنى المطلق واجب لمن تجــلى فى الارض والسموات •

ولهذا طلب سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه ان يعامله ربه باحسانه اذ الفضل منه سبحانه واليه •

ويقول أبوه العارف بالله سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى فى استغفاره رحمه الله :

قبــائح كنت فيهـــا أسرى وطـــورا أســـير
سررت منهـــا زمانـــا وغمهـــا مذخـــور
نســيتها ووعاهـــا كتـــابى المســـطور
مــاذا أقـــول لـــربى اذا بـــدا التحـــرير
يا رب أنت عفـــو وأنــت رب قـــديـر
وشأن مــن جــل يغضى اذا أســاء الحقــير
ويســتعيب عقابـــا كيــلا يقــال نظــير

يـــارب انـــى حقـــير جـــدا وأنت الـــكبير
وأين تـــرب خســـيس مـــن ربـــه يـــا مجـــير
ومـــا أريـــد احتجـــاجا عليـــك بـــل اســـتجير
أجـــر عبيـــدك يا مـــن ســـواه ليس يجـــير
ولى اليـــك شـــفيع بـــدر الظـــلام المنير
غوث الأنـــام المـــرجى اذا الســـماء تمـــور
بـــه توســـلت فاجبـــر كسرى فانى كســـير
واســـكب عليـــه التحايا مـــا فـــاض منـــه النور

ولينظر القارىء الكريم فى اللجوء الرائع الذى لجأ به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ربه حين لم يستجب لدعوته أهل الطائف واغروا به سفهاءهم وعبيدهم فضربوه بالحجـــارة حتى أدموا قدميه فدعا ربه فى افتقـــار اليه واستنجاد به وقال :

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس: يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى؟ الى بعيد يتجهمنى ؟ أم الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة الا بك » .

ويقول صلوات الله وســلامه عليه « من اعطى الدعاء لم يحـــرم الاجابة » كما يقول : من أذن له فى الدعاء منكم فقد فتحت له أبواب الرحمة ، وما سئل الله شيئا أحب اليه من العفو والعافية » .

وفى ضوء الحديثين المتقدمين يقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فى حكمه النثرية : متى اطلق لسانك بالطلب فاعلم أنـــه يريد ان يعطيك . ويقول رضى الله عنه شعرا :

ففى افتقـــارى وتسآلى ومد يـــدى
أقـــوى دليل على ان تقضى الأربا
لو لم تردنى لمـــــا ارجـــو وآمله
من فيض جودك مـــا علمتنى الطلبـــا

ويقول رضى الله عنه : العارف لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره ، ويفسر ذلك سيدى ابن عجيبة فيقول ، وأما وجه كونه لا يكون مع غير الله قراره فلان قلب العارف رحل الى الله من الكون بأسره ، فلم تبق له حاجة الى غيره ، فقراره انما هو شهود الذات الاقدس ، وسابق العناية لا يتركه يركن الى غير مولاه ، وما تولى الله أولياءه بمحبته حتى حفظهم من شهود غيره ، فكيف بالركون، فكيف بالسكون ؟ هيهات هيهات ، هذا لا يكون •

ويقول فى هذا المقام سيدى وشيخى الشيخ على عقل نور الله ضريحه فى الهامه الفورى :

الوذ بالله لا أبغى به بدلا
ومن يلوذ بباب الله يسعده
أخلى فؤادى له من كل شائبة
ان عشت أو مت أعضائى توحده
وكيف أرضى بغير الله متجها
والكل والجزء والأحشاء تعبده
اذا مددت يدى لله أسأله
مددت الى بمعنى فضله يده

وكنت أمزح معه وأقول ما رأيت فى باب الاحتراس أبلغ من قولكم يا سيدى : مدت الى بمعنى فضله يده ؛ وليت أهل البلاغة سمعوك فنقلوا كلامك هذا مثلا للاحتراس القوى الدقيق المتصل بعقيدة التوحيد والذى نفيت به التشبيه والتمثيل فى براعة ؛ فكان رضى الله عنه يبتسم ويدعو لى •

اللهم اجعلنا فى افتقار دائم اليك حتى نغنى بافتقارنا اليك عن غيرك. فان الافتقار اليك هو الغنى الحق (ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) •

نـــور البـــواطـــن

« ويتحول الاشراق من الظاهر الى الباطن ، فبعد أن كنت ترى الولى مشرقا تراه قد انطفأ الى الحالة العادية حتى لتناجى نفسك أين النور الذى كنت أراه ولا تدرى أنه مع الله ، زهد الخلق وتركهم وترك أحوالهم فلا يعلمه الا الله ومن ماثله فى الدرجات والمقامات » .

ذلك مما كتب سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه لتلميذه الصالح المبارك الصديق الوفى السيد سالم جمعه حفظه الله ورعاه ، وهى سطور من نور ترينا ألا نقف فى الحكم على الناس عند الظواهر وتعلمنا أن قلوب بعض الأولياء تحجب أنوارها ولا تشع على الجوارح وتبقى خفية لا يعلمها الا الله ، وقد يكشفها بما شاء لبعض خواصه فيقول بعضهم لبعض :

لا تخف ما فعلت بك الأشـــــواق
واشرح هـــواك فكلنـــا عشـــاق

ويقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل طيب الله ثراه الهاما فى وصف هؤلاء المحبين الكرام الذين كتموا حبهم بين الجوانح فلم يتعرف اليهم الا أمثالهـــم :

أحن على ذل وأهـوى على هـــدى
وأسرى على علم بقلبى أواصـــله
وهل يدرك الآيات الا رجالهـــا
وهل يعـــرف الوجـــدان الا مزاوله
وذو الوجـد لا يغضى عن الحب لحظـة
به عاش حتى لو أصيبت مقـــاتله
شـــهدنا وشـــاهدنا وطابت نقوســـنا
فهـــامت به أرواحنـــا اذ نســـائله
أســـامر ليلى خاليـــا بشـــهوده
وقلبى بنور الحـق فاضت منـــاهله

أما عن زهد الخلق وترك أحوالهم استغناء بالله عنهم فيقول فيهم فيما نقلناه من الهامه الفورى رضى الله عنه :

تخـــل ولا تحفـــل بجـــن ولا أنس
وعش فى هدى الرحمن تسعد بالأنس
وأقبل على مولاك بالقلب مخلصـا
وأسلم وسلم واتجـه طالب القـدس
وخذ لك بالايمـان أصـدق وجهـة
وطهـر بهـا نفسـا عن الغى والرجس
تجـرد تجـد مولاك أكبر ناصر
وفـوض له ما كان فى الغـد والأمس
اذا قيـل لى اطلب قلت ربـى مطلبـى
وان قيل لى اشرب قلت أنواره كأسى

ويقول أيضا فى الهامه الفورى رضى الله عنه :

نحـن فى عالم اليقـين رجـال
قـد غسـلنا نفوسنا ثم غبنـا
وشراب الرجـال عـلم وحـلم
انمـا نحـن فوق ذاك شربنـا
فتح البـاب ثم قـال لجـوه
فولجنـا وبعدهـا قـد وصـلنا

أما سيدى القطب الكبير ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه فيصف حال الأولياء الأخفيـاء بقـوله :

يقولون لى ما العـلم ما السر ما الذى
هـو الجوهر الغالى عن البحر خبرنا
فقلت لهـم هـذى مطـالع نورنا
ومغربهـا فينـا ومشرقهـا منـا
تركنـا البحـار الزاخـرات وراءنا
فمـن أين يدرى النـاس أنى توجهنا

ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه فى كتاب الاحياء :

ان لله تعالى شرابا يسقيه فى الليل قلوب أحبائه ، فاذا شربوا طارت قلوبهم فى الملكوت الأعلى حبا لله تعالى وشوقا اليه .

ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى الرسالة :

« أول رتبة فى القرب من طاعة الله والاتصاف فى دوام الأوقات بعبادته ، وأما العبد فهو التدلس بمخالفته والتجافى عن طاعته ، فأول البعد بعد عن التوفيق ، ثم بعد عن التحقيق ،بل البعد عن التوفيق هو البعد عن التحقيق ، قال صلى الله عليه وسلم مخبرا عن الحق سبحانه : « ما تقرب الى المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى يحبنى وأحبه ، فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ، فبى يبصر وبى يسمع .

« فقرب العبد أولا قرب بايمانه وتصديقه ، ثم قرب باحسانه وتحقيقه. وقرب الحق سبحانه ما يخصه اليوم به من العرفان ، وفى الآخرة ما يكرمه به من الشهود والعيان ، وفيما بين ذلك من وجوه اللطف والامتنان .

« ولا يكون قرب العبد من الحق الا ببعده عن الخلق ، وهذه من صفات القلوب دون أحكام الظواهر والكون .

« وقرب الحق سبحانه بالعلم والقدرة عام للكافة ، وباللطف والنصرة خاص بالمؤمنين ، ثم بخصائص التأنيس للأولياء .

« ومن تحقق بقرب الحق سبحانه وتعالى فأقله دوام مراقبته اياه ، لأن عليه رقيب التقوى ثم رقيب الحفظ والوفاء ثم رقيب الحياء ، وأنشدوا :

واخوان صدق قد سئمت حديثهم
وأمسكت عنهم ناظرى ولسانى
وما الزهد أسلى عنهم غير أننى
وجدتك مشهودا بكل مكان

ومن كلام الامام القشيرى تدرك أن ما يدعيه أعداء التصوف على السادة الصوفية من القول بالحلول والاتحاد ، انما هى دعوى باطلة

أقامها هؤلاء الأعداء واستدلوا فيها الى شطحات لبعض الصوفية لم يقصدوا بها ظاهر الألفاظ وانما يجب تأويلها تأويلا يليق مع حسن اعتقادهم فى الله تعالى وتفانيهم فى حبه • ويقول سيدى أبو الحسين النورى رضى الله عنه فى دفع تلك التهمة عن السادة الصوفية فيما ورد عنه فى رسالة الامام القشيرى رضى الله عنه ما نصه :

« أما القرب بالذات ، فتعالى الله الملك الحق عنه ، فانه متقدس عن الحدود والأقطار ، والنهاية والمقدار ، وما اتصل به مخلوق ، ولا انفصل عنه حادث مسبوق به ، جلت صمديته عن قبول الوصل والفصل •

« فقرب هو فى نعته محال ، وهو تدانى الذوات •

« وقرب هو واجب فى نعته ، وهو قرب العلم والرؤية •

« وقرب هو جائز فى وصفه ، يخص به من يشاء من عباده ، وهو قرب الفضل باللطف •

أقول ، وقرب الفضل باللطف هذا هو ما عبر عنه الامام القشيرى اجمالا بقوله : وخصائص التأنيس للأولياء ، كما تقدم : وهو مقام فى التصوف قال عنه الامام الغزالى رضى الله عنه « يضيق نطاق النطق عنه » فهو يذاق بالوجدان ويعجز عن وصفه اللسان ، كما قالوا :

لا تسل وصف حبهم فهو سر
بسوى الذوق ماله افشاء

أو كما قال الامام الغزالى نفسه فى ذلك المقام :

فكان ما كان مما لست أذكره
فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

أو كما قال سيدى الإمام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه وأرضاه: « أول منزل يطؤه المحب للترقى منه الى العلا النفس ، فاذا اشتغل بسياستها ورياضتها الى أن انتهى الى معرفتها وتحققها أشرقت عليه أنوار المنزل الثانى وهو القلب ، فاذا اشتغل بسياسته حتى عرفه ولم يبق عليه منه شيء أشرقت عليه أنوار المنزل الثالث وهو الروح ، فاذا اشتغل بسياسته وتمت له المعرفة هبت عليه أنوار اليقين شيئا فشيئا

الى تمام نهاياته ، وهذه طريق العامة ــ وأما طريق الخاصة فهى طريق مسلوك تضمحل العقول فى أقل القليل من شرحها •

وسبحان ربى الذى فضل العباد بعضهم على بعض (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) ويقول الامام القشيرى : فالعباد (بتشديد الباء) فضل بعضهم على بعض ولكن فى زكاء أعمالهم ، والعارفون فضل بعضهم على بعض ولكن فى صــــفاء أحوالهم ، وزكاء الأعمال بالاخلاص ، وصفاء الأحوال بالاستخلاص ، فقوم تفاضلوا بصدق القدم ، وقوم تفاضلوا بعلو الهمم ، والتفاضل فى الآخرة أكبر فالعباد تفاضلهم بالدرجات وأهل الحضرة تفاضلهم بلطائفهم من الأنس بنسيم القربة بما لا يبين بصفة ولا عبارة ، ولا رمز يدركه ولا اشارة ، منهم من يشهده ويراه مرة فى الأسبوع ، ومنهم من لا يغيب عن الحضرة لحظة ، فهم يجتمعون فى الرؤية ويتفــــاوتون فى نصيب كل أحـــــد •

ومن أروع الأمثلة التى ضربها الله لخواصه من الأولياء قصـــة أهل الكهف ، وقد شرحها الله تعالى فى سورة الكهف شرحا وافيا ، ويتعرض الامام القشيرى باشاراته المنيرة الكاشفة لمواقفهم فيقــول فى روعــة ظاهـــــرة :

(أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) قوله تعالى (من آياتنا) يفيد أن قلب العادة من لدن الله غير مستنكر ويقال الاشارة فيه ألا تتعجب من قصتهم ، فحالك ــ أى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ أعجب فى ذهابك الينا فى شطر من الليل حتى قاب قوسين أو أدنى (قرب مكانة وتكريم) وهم قد بقوا فى الكهف سنين •

وعند قوله تعالى (فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا) يقــول رضى الله عنه : أخذناهم عن احساســـهم بأنفســـهم ، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه من حقائق ما كاشفناهم به من شـــهود الأحدية ، واطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية •

وعند قوله تعالى (انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) لقــــاهم أولا التبيين ثم رقاهم عن ذلك باليقين •

وعند قوله تعالى (وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله) .

يقول رضى الله عنه : كانوا فى متسع من الكهف ولكن كان شعاع الشمس لا ينبسط عليهم مع هبوب الرياح عليهم .

ويقال أنوار الشمس تتقاصر وتتصاغر بالقياس الى أنوارهم ، ان نور الشمس ضياء يستضىء به الخلق ونور معارفهم أنوار يعرف بها الحق ، فهذا نور يظهر فى الصورة ، وهذا نور يلوح فى السريرة ، وبنور الشمس يدرك الخلق وبنورهم كانوا يعرفون الحق .

وفى قوله عز اسمه (ذلك من آيات الله) فيه دلالة على أن فى الأمر شيئا بخلاف العادة ، فيكون من جملة كرامات الأولياء .

وعند قوله تعالى (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) يقول رضى الله عنه ، فالله يهدى قوما بالأدلة والبراهين ، وقوما بكشف اليقين ، فمعارف الأولين قضية الاستدلال ، ومعارف الآخرين حقيقة الوصال ، فهؤلاء مع برهان ، وهؤلاء على بيان كأنهم أصحاب عيان .

(ومن يضلل الله) أى من وسمه الله بسمة الحرمان ، فلا عرفان ، ولا علم ، ولا ايمان .

وعند قوله تعالى (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) يقول رضى الله عنه : يقال كلب خطا مع أحبابه خطوات فالى يوم القيامة يقوم الصبيان (وكلبهم باسط ..) وهو قول الحق ، فهل ترى أن مسلما يصحب أولياءه من وقت شبابه الى وقت مشيبه يرده يوم القيامة خائبا ؟ لأنه لا يفعل ذلك .

وعند قوله تعالى (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) يقول رضى الله عنه : أيام الوصال عندهم قليلة وان كانت طويلة ، ولو كان الحال بالصد لكان الأمر بالعكس،

وقد لبثوا طويلا ولكنهم كانوا مأخوذين عنهم ولم يكن لهم علم بتفصيل أحوالهـــــم •

أقول وأنشد بعضهم فى هذه المناسبة :

والله لو حلف العشاق أنهمو
موتى من الحب ما ماتوا وما حنثوا
ترى المحبين صرعى فى ديارهمو
كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

وعند قوله تعالى (قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل) قال الامام القشيرى رضى الله عنه : لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم الا خواص عباده ، ومن كان غريبا فى الحال منهم ، لأن الله تعالى يستر أولياءه عن الأجانب ، فلا يعلمهم الا أهل الحقيقة ، فالأجانب لا يعرفون الأقارب ، ولا تشكل أحوال الأقارب على الأقارب ، كذلك قال شيوخ هذه الطائفة : الصوفية أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم •

وهذا الذى قاله يفسر لك ما قاله سيدى الشيخ عبد السلام فى آخر عبارته التى جاءت فى صدر المقال : زهد الخلق وتركهم وترك أحوالهم فلا يعلمه الا الله ومن ماثله فى ترقى الدرجات والمقامات • وزهد الخلق وتركهم يكون بصرف القلب عن الاشتغال بهم أو الركون اليهم ، لأن الاشتغال بعيوبهم يصرفه عن الاشتغال بعيوب نفسه ، كما يصرفه عن ذكر ربه ، والركون اليهم يضعف توكله على الله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيه • وشعار كل ولى (حسبى الله) وان استعان الولى بأحد من الناس فانه يركن الى ربه فى تسخير الناس باعتبارهم أدوات يحركها الله كيف يشاء •

وقد يكون اعتزال الخلق بالجسد والقلب معا ، كما اعتزل أهل الكهف قومهم الكافرين ، وقد حكى الله عنهم فى اعتزالهم قلبا وقالبا فقال تعالى : (واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا)•ويقول الإمام القشيرى رضى الله عنه فى ذلك : العزلة عن غير الله توجب الوصلة بالله ، بل لا تحصل الوصلة بالله الا بعد العزلة عن غير الله ، ويقال لما اعتزلوا ما عبد من دون الله آواهم الحق الى كنف رعايته ، ومهد لهم مثوى فى

كهف عنايته ، ويقال من تبرأ من اختياره فى احتياله ، وصدق رجوعه الى الله فى أحواله ، ولم يستعن — بغير الله — من أشكاله وأمثاله آواه الى كنف افضاله ، وكفاه جميع أشغاله ، وهيأ له محلا يتفيأ فيه فى برد ظلاله ، بكمال اقباله ٠

وكذلك اعتزل سيدنا ابراهيم الخليل أهله عندما أصروا على الكفر وحكى الله عنه (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا) ومعنى ما تدعون أى ما تعبدون ، وادعوا ربى أى أعبده ، وكانت نتيجة ذلك الاعتزال ما حكاه الله تعالى (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا) ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه : لما أيس من أصله آنسه الله بما أكرمه من نسله ، فأنبتهم نباتا حسنا ورزقهم النبوة ولسان الصدق بالذكر لهم على الدوام (بالصلاة عليه وعليهم فى التشهد) فقال تعالى : (ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا) ٠

أقول واعتزل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شبابه قومه حين سفهت نفوسهم بعبادة الأصنام ، وخلا فى غار حراء بربه ، ينشد وصاله فى أنس لايعرف الوحشة ، وهمة لا تعرف الكلل ، وجهاد لا يشوبه الملل ، وعزم لا يعتوره الوهن ، وشوق متقد ، وحب يملأ الجوانح ، وذلك بتوفيق الهى ، واستعداد ربانى ، يشهد بهما قوله تعالى (فانك بأعيننا) وفى الميقات الذى أراده الله جاءه جبريل عليه السلام بأولى آيات الشفاء والرحمة والنور والحكمة (اقرأ باسم ربك الذى خلق ٠ خلق الانسان من علق ٠ اقرأ وربك الأكرم ٠ الذى علم بالقلم ٠ علم الانسان ما لم يعلم) ولا عجب فهو صلى الله عليه وسلم صفوة الخالق ورسوله للخلائق ، اصطنعه لنفسه وأجرى على يديه رحمته للعالمين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ٠

وان تعجب فاعجب لهذا الرسول الأكرم ، يتقلب فى الدنيا ويطرحها من قلبه ، ويمشى فى الناس بنوره ، ويركن فى كل أحواله الى ربه ويقول له حين رده أهل الطائف ردا غير كريم :

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ،

الى بعيد يتجهمنى ، أم الى عدو ملكته أمرى ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بالله ».

وأولياء الله وهم المتقون يناجيهم الله فى أسرارهم بعلوم شتى من كلماته التى لا تنفد ، ولئن كان سبحانه يكلم أنبياءه ورسله وحيا ، فانه يخاطب الأولياء الهاما ، ولذلك يقول أحدهم حدث كذا فقيل لى ، أى ألهمنى ربى بسر خفى فى باطنه مستتر عن الناس ، وقد يكتمه الولى فيما بينه وبين ربه ، وقد يفصح عنه تعليما لغيره باذن ربه كما يقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل رضى الله عنه .

طال ليلى وحبيبى قال لى
لذ بجاهى انه أكرم جاه
وتعلق بى تجد من رحمتى
ما تمناه وما لست تراه
قلت يا مولاى انى مذنب
ما احتيالى وفؤادى فى أساه
والخطايا حملتنى حملها
وجبال الوزر فوقى ما تراه
قال لا تخف منا اذا ما جئتنا
من أتانا قد شفى الله بلاه
واذا المؤمن قد يممنا
أدركته رحمتى حتى أراه

ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه ان ما يخص الله به أولياءه من لطائف العلوم لا حصر له ، فان أعلم البشر ، وسيد العرب والعجم ومن شهد له الحق بخصائص العلم حين قال : (وعلمك ما لم تكن تعلم) يقال له (وقل رب زدنى علما) ليرجع الى ربه فى الاستزادة من العلم . وما يقذف الله فى قلوب أوليائه من العلوم والمعارف انما يزيدهم به اطمئنانا الى صحة سلوكهم الى الله تعالى واتصالهم به سبحانه على هدى الشرع

الشريف فلا تنازعهم نفوسهم الى الخروج عنه أو التوانى فى طلب الله أو الغفـلة عنـــه •

وفى هذا المقام يحكى السادة الصوفية أن تلميذا لسيدى سهل التسترى رضى الله عنه ، يقال له اسحق بن أحمد ، وكان من أبناء الدنيا فى نشأته فخرج من جميع ما كان له ثم تاب وصحب سهلا رحمه الله ، فقال يوما لأستاذه سهل رضى الله عنه : يا أبامحمد ، ان نفسى هذه لا تترك الضجيج والصراخ من خوف فوت القوت والقوام ، فقال له أستاذه : خذ ذلك الحجر وسل ربك أن يصيره لك طعاما تأكله ، فقال له : ومن امامى فى ذلك حتى أفعله ؟ فقال الامام سهل : امامك ابراهيم عليه السلام حيث قال :

(رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) •

فالنفس لا تطمئن الا برؤية العين لأن من جبلتها الشك ، فقال سيدنا ابراهيم عليه السلام : أرنى كيف تطمئن نفسى ، فانى مؤمن بذلك ، والنفس لا تطمئن الا برؤية العين • وكذلك الأولياء يظهر الله لهم الكرامات تأديبا لنفوسهم وتهذيبا لها وزيادة لهم ، أما معجزات الأنبياء فان الله يعطيها لهم ، للاحتجاج بها فى الدعوة الى الله والدلالة عليــه والاقرار بوحدانيته سبحانه •

والدليل على وقوع العلوم اللدنية للأولياء أن بعض الأميين منهـم آتاهم الله من العلوم ما علموا به جهابذة علماء الشرع فى أزمانهم ، كما وقع بين سيدى على الخواص (وهو أمى) وبين سيدى عبد الوهــاب الشعرانى (وهو عالم وقته) ومن يطلع على كتاب درر الغواص على فتاوى الخواص يرى ما يدهش الألباب ، ولا حرج على فضل الله تعالى• وكذلك كان شيخنا الأكبر سيدى الحاج محمد أبو خليل أميا وتصاغر العلماء فى ساحته حين لمسوا بأنفسهم ما حباه الله به من فضل كبيرولقد أدركت بحمد الله رجالا ممن رباهم فما وجدت نظراء لهم فى هــــذا الزمان لا فى علمهم ولا فى عملهم ولا فى الفتوحات الربانية التى تعلمنا منها الشىء الكثير والتى نقلنا وننقل منه للسادة القراء ما يزدادون به يقينـــا •

ويصف المرحوم الشيخ عبد البارى الشرقاوى وكان من علماء الأزهر الأفاضل سيدى الشيخ أبا خليل وقد عاشره طويلا وانتفع من علمـــه اللدنى :

انمــــا الشـــيخ كالســـماء مقـــاما
يحســـب المـــرء أفقهـــا منتهاهـــا

فيراهــــــا محــــــدودة بحـــدود
لو أتاهـــا لمـــا رآهـــا وتاهـــا

ورأى فوقـــه الســـماء كمـــا كانت
وبانت له حـــدود سواهـــــــــا

مـــن يــــر الشـــيخ فى علو مقـــام
وجـــلال وهيبـــة يلقاهـــــــــا

لم ير العـــــارف الولى ولـــــكن
كـــرة العــــالم العظيـم رآهـــا

فانظر رعاك الله كيف نفذ الشــيخ الأمى بروحه ونوره وعلمه الى رجل فاضل من العلماء المتخصصين فى علوم الشرع حتى شــبه الشيخ بالسماء مقاما ، وحقا لقد سما الشيخ حتى كان السماء وصــفا حتى كان الضــــــياء .

وانى أقرب للافهام ما يقع فى القلوب من الهام الله بواقعة وقعت لى فى شرخ الشباب وكنت أتصدر حلقة علم فى مسجد قريتنا بأمر من شيخى رحمه الله وكان الدرس يومئذ فى خصائص مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت ان من خصائصه الشريفة أن الغمامة كانت تظله فتقيه حرارة الشمس اكراما من الله تعالى ، وكان يجلس فى الحلقة ضيف لى من أهل العلم فاعترضنى علانية وفى شىء من الحدة وقال : ليست هذه خصوصية للنبى صلى الله عليه وسلم وانما هى عامة فى سائر المرسلين ، فأجبته فى هدوء اذا كان لديك الدليل على العمومية فهات الدليل ونحن نسلم لك فسكت،واذا بهامس لطيف يهمس فى قلبى:قل له اذا كان تظليل الغمامة عاما للمرسلين فلماذا حكى الله عن سيدنا موسى عليه السلام وهو من الكبار أولى العزم فقال تعالى (فسقى لهما ثم تولى الى الظل) فلو كان مظللا بالغمامة ما تولى الى الظل ، وسرنى هذا الخاطر الرحمـــانى كل

السرور وقد جاءنى ببركته صلى الله عليه وسلم ولكنى كتمته حتى صلينا وخرجنا فألقيت به لضيفى سرا وصارحته بأنه من الهام الله ، وراعيت أنه فى ضيافتى فلم أشأ أن أحرجه بين الناس ، ولكنى أفهمت الناس بعد ذلك ما كان .

وكذلك وقع لى وأنا فى الحرم النبوى الشريف أنى كنت أتكلم مع بعض القوم فى موضوع التوسل به صلى الله عليه وسلم فقلت لبعض السامعين : من الذى ينعم علينا قالوا ربنا سبحانه ، قلت هل ينعم أحد معه سبحانه قالوا : لا حاشا وكلا ، قلت لهم فلماذا يقول الله تعالى فى قصةسيدنا زيد ابن حارثة رضى الله عنه : (واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله) فسكتوا ، فقلت لهم ، لا يتنافى انعام الله وانعام رسول الله لأن انعام الله هو انعام المسبب سبحانه وهو فى معرض التوحيدوانعام رسولالله هوانعام السببالذى أقامه الله تعالى بحكمته وهو فى معرض الأسباب ، فالله تعالى أنعم قضاء وقدرا والرسول صلى الله عليه وسلم أنعم سببا تنفيذا للقضاء ، فأسلم زيد على يده واعتق من الرق على يده وتزوج من السيدة زينب القرشية على يده صلوات الله وسلامه عليه ، وكل ذلك بمشيئة الله تعالى ، فالتوسل به صلى الله عليه وسلم هو استدرار رحمةالله تعالى وقدقال مخاطبا له (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) فهو صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة ، وتكلمت طويلا بالهام من الله تعالى فى هذا المقامحتى قال قائلهم « عجيب »،والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

واذا كنا ونحن لا نساوى شيئا بالقياس الى السلف الصالح يلهمنا الله تعالى فى قلوبنا ما لا عهد لنا به فكيف بهؤلاء السلف الذين أخلصوا دينهم لله ، وطرحوا الدنيا وزينتها عن قلوبهم ، وعاشوا للآخرة التى خلقوا لها وألزمهم الله كلمة التقوى فكانوا أحق بها وأهلها ، ورحم الله من قال :

واذا لم تر الهلال فسلم
لأناس رأوه بالأبصار

اللهم اجمع قلوبنا على محبتك ، واجعلنا بفضلك من أهل صفوتك ، واكتب لنا مع عبادك الصالحين عزتك التى قلت فيها (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) .

الأرزاق مقدرة

« قال تعالى : (له مقاليد السموات والارض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه بكل شيء عليم) ان سرت الى أقصى الارض أو أدناها فالمقدور معك حيث تكون » .

جاءت تلك العبارة فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبدالسلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعة حفظه الله ورعاه وهى كما ترى عبارة تستند الى كتاب الله الكريم فى علاج مسألة من مسائل المجتمع الهامة وهى مسألة الرزق وقد صارت شغل الناس الشاغل حتى طغت أو كادت تطغى على ماعداها من المسائل حتى كانهم خلقوا لها ولم يكلفوا شيئا غيرها .

وكتاب الله الكريم ملىء بالآيات التى تكلمت عن الرزق وتأتى فى قمتها الآية الشريفة (ومامن دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) وهى وحدها كافية شافية فى تسكين ثائرة نفوس البشر من جهة أرزاقهم لو كانوا يفقهون ، غير ان الحرص على الدنيا وزينتها وفتنتها والوقوف عند حدها حجبت أكثر البصائر فلم تر الحقيقة التى وعظتنا بها (فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

وقضية الرزق وان بدت فى ظاهرها انها قضية دنيوية فى حياة المؤمن الا انها فى الواقع هى قضية دينه ودنياه ، فهى لازمة من لوازم معاشه وخادمة فى طريق معاده . والموفق من المؤمنين هو الذى يكسب عيشه من حلال فى اطمئنان بوعد ربه فى تقدير رزقه ولا تصرفه دنيا المال عن اخراه فيغفل فى طلب الرزق عن الرازق فيخسر اخراه ويندم يوم القيامة حيث لا ينفع الندم .

ومن عجيب رحمة الله بعباده أن يقسم لهم أرزاقهم مقدرة عنده قبل أن يخلقوا فيقول تعالى (وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون) ثم يبين لهم أن فى الارزاق فتنة يجب عليهم ان يحذروها وأن تكون لهم عناية أكبر بأمر

الآخرة فيقول تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) ، فزينة أهل الغفلة فى الدنيا بالمال والبنين وزينة أهل التقوى بالأعمال الصالحة واليقين •

وانظر كيف ضرب لنا الامثال بمن كانوا قبلنا ، فقال مثلا لبنى اسرائيل (كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) والطيبات ما كانت حلالا ، وعند السادة الصوفية الطيب من الرزق ما يكون على مشاهدة الرازق سبحانه •

وقوله تعالى : (ولا تطغوا فيه) أى بتجاوز الحلال الى الحرام وعدم شكر الله ومنع حق الله فى الاموال وانفاقها فى معاصيه وعند السادة الصوفية لا تأكلوا منه على الغفلة عن ربكم والنسيان •

ويقول سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : اختلف الناس فى كل شىء ، الا فى الرزق والاجل ، اجمعوا على انه لا رازق الا الله ولا مميت الا الله • ويقول العارفون : اذا شهد العبد هذا بيقين ايمانه اطمأن قلبه فاستوى عنده الرزق والأجل ، فعلم يقينا انه لابد من رزق ولابد من أجل ، فلم يكن عليه الا مراعاة حكم الله ، وشهد من شهادته ان خلقا لا يقدر ان يزيد فى عمره ساعة ولا ينقص منه ساعة وكذلك ما كان من رزقه لا يعطى لاحد سواه ولا يستطيع أحد أن يحول بينه وبينه •

والمال فى ذاته خير ، ويأتى الشر من قبله اذا افتتن المؤمن به فانفقه فى شهواته وغفل بالانغماس فى الشهوات عن آخرته ، أما اذا استعمله المؤمن فى مرضاة ربه وكان كسبه من حلال فانه وسيلة من وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة ، ولهذا قال صلوات الله وسلامه عليه «نعم المال الصالح للمرء الصالح » كما روى أحمد والطبرانى فى الكبير والاوسط بسند صحيح : وقال تعالى : (كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين) فعبر عن المال بالخير، كما قال تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام (ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا) •

ويقول سيدى الامام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى كتاب

المنح السنية أن سيدى الامام أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنه كان يقول لاصحابه : كلوا من أطيب الطعام ، واشربوا من الذ الشراب ، وناموا على أوطأ الفراش ، والبسوا الين الثياب ، فان احدكم اذا فعل ذلك وقال (الحمد لله) يستجيب كل عضو فيه الشكر ، بخلاف ما اذا أكل الشعير بالملح ولبس العباءة ، ونام على الارض ، وشرب المــاء المالح الساخن ، وقال (الحمد لله) فانه يقول ذلك وعنده اشـــمئزاز وبعض سخط على المقدور ، ولو أنه نظر بعين البصيرة لوجد الاشمئزاز والسخط الذى عنده يرجح فى الاثم على من تمتع فى الدنيا بيقين ، فان المتمتع بالدنيا فعل ما أباحه الحق سبحانه وتعالى ، ومن كان عنـــده اشمئزاز وسخط على مقدور الله فقد فعل ما حرمه الله تعالى .

ومن ذلك نعلم أن ما يطلب من المؤمن الغنى الا تنسيه النعمة ربه الذى انعم بهـــا عليه . ولذلك يقول سيدى الامام الشعرانى رضى الله

ومما انعم الله تبارك وتعالى به على عدم اشتغالى بالنعمة عن المنعم سبحانه وتعالى ، وذلك من أكبر نعم الله عز وجل ، فقل من لا تشغله النعمة عن المنعم ، ويستطرد رضى الله عنه قائلا : والمعين لى على ذلك شهودى عدم ملكى لما خولنى الله تعالى فيه من الاطعمة والملابس انما انا عبد آكل من مال سيدى واسكن فى داره .

ويقول سيدى الامام عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه : احـــذر ان تشتغل بما أعطاك الله من المال عن طاعته فيحجبك بذلك عنه دنيـــا واخرى ، وربما سلبك ذلك المال وافقرك وغيرك عقوبة لك ، واعلم انك ان اشتغلت بطاعة الله عن ذلك المال فهو موهبة من الله تعالى لك وليس هو من المال المذموم ، فيكون المال خادمك وانت خادم المولى جل وعـــلا فتعيش فى الدنيا مدللا وفى الآخرة مكرما .

ويقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل رضى الله عنه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

كل شيء يزول عند الممات غير حب الاله والصدقات
فاذا مت لم يـــكن غير ماقد متـــه صـــالحا قبيـــل الوفاة
تترك المـــال للوريث ولـــكن تؤنس القبر تركة الصالحات

والرضا بالرزق المقسوم من آداب السادة الصوفية ، ولذلك جاء فى وصية سيدى على الخواص رضى الله عنه :

اياك ان تشره عينك فتتمنى ما ليس لك ان يكون لك ، فانه لا يخلو اما ان يكون قسمه الله لك أو لم يقسمه ، فان كان قسمه لك فهو صائر اليك لا محالة اما بمشيك اليه أو بمجيئه هو اليك من غير مشى ، وأما ان لم يكن قسمه الله لك فلا يمكنك الوصول اليه بحيلة من الحيل ، فاشتغل عن ذلك باحسان الادب فيما أنت بصدده من طاعة مولاك فى وقتك الحاضر ، فقد نصحتك وعليك ببذل طوقك وجهدك فى طاعته معتذرا مفتقرا خاشعا مطرقا غير ناظر الى عوض من دنيا أو أخرى ، فانك عبد، والعبد لا يستحق على خدمة سيده شيئا لانها من حقوق السيد .

وحين يدعو السادة الصوفية الى الزهد فى الدنيا يظن الناس خطأ انهم يدعون الى الفقر وعدم امتلاك المال ، وهو ظن خطأ وليس من الصواب فى شىء ، فان السادة الصوفية يقولون بصريح العبارة : ليس الزهد ان تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك بل الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك . ومن ذلك تدرك انه قد يكون الغنى زاهدا بخروج الدنيا من قلبه وقد يكون الفقير غير زاهد لاستشرافه الى الدنيا وتعلق قلبه بها .

ولذلك يقول سيدى الامام الشعرانى رضى الله عنه : اذا تنظف القلب من الشركاء والانداد من الاهل والمال والولد واللذات والشهوات والولايات والرياسات ولم يبق فى القلب ارادة ولا أمنية فحينئذ لا يضر القلب ملاحظة الأسباب من المال والولد والأهل والاصحاب لان القلب حينئذ صار كالاناء المنكسر الذى لا يمسك ما يمكث فيه لانه قد انكسر بفعل الله عز وجل ، فكلما اجتمعت فيه ارادة بشىء غير الله تعالى كسرها فعل الله فلم يتركها تصل الى القلب بل تكون خارجة والله تعالى لا يغار من شىء يكون خارج القلب بل يعطيه للعبد على وجه الكرامة له بين عباده فيطعم منه الواردين والقاطنين ولا حساب عليه فى الآخرة ان شاء الله تعالى ، قال الله عز وجل فى مثل ذلك (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) فافهم ذلك واعمل على التخلق به .

ثم ان السادة الصوفية يرون ان الله تعالى يغنى عباده بالمالويغنيهم كذلك بالحال ، وعندهم ان الغنى الحقيقى هو غنى الحال ومن أقـــوالهم فى ذلك : اغناء الله تعالى لعباده على قسمين ، منهم من يغنيهم بتنميـــة أموالهم ، ومنهم من يغنيهم بتصفية أحوالهم وهذا هو الغنى الحقيقى.

وهم يقولون أيضا ان صاحب الحال يجود على صاحب المال ، وصاحب المال عيال على صاحب الحال ، وصاحب المال يشفق وصاحب الحال ينفق ويتخلق مع الخلق بالهمة ، والخلق أحوج الى همة صاحب الحال منهم الى نعمة صاحب المال .

وعند تفسيره لاسمه تعالى « المعز » يقول سيدى الامام القشيرى رضى الله عنه :

اعزازه تعالى للعبد يكون فى الدنيا والاخرة ، فأما فى الدنيا فيكون بالمال والحال ، فالمال لتجميل الظواهر ، والحال لتزيين السرائر ، والمال يحصل به الاستغناء عن الامثال والاشكال ، والحال يحصل بها افتقار الى من لم يزل ويزال ، فالاعزاز بالمال فيما بين الخلق ، والاعزاز بالحال على باب الحق .

ويضيف رضى الله عنه قائلا فى روعة :

واعلم ان الله سبحانه يعز الزاهدين بعزوف نفوسهم عن الدنيا ، ويعز العابدين بسلامة نفوسهم عن الرغائب والمنى ، ويعـــز أصحاب العبادات بسلامتهم عن اتباع الهوى ، ويعز المريدين بزهـــادتهم فى صحبة الورى وانقطاعهم الى باب المولى ، ويعز العارفين بتـــأهيلهم لمقامات النجوى ، ويعز المحبين بالكشف واللقا ، والفنا عن كل ما هو غير وسوى ، ويعز الموحدين بشهود جلال من له البقا والبها .

ومن طرائف السادة الصوفية قولهم : ان الله تعالى خص الاغنياء بوجود الارزاق وخص الفقراء بشهود الرزاق ، وقد حكو ان رجلا قال لحاتم الاصم : من أين تأكل ، فقال : من خزائنه ، فقال الرجل : يلقى عليك الرزق من السماء ؟ فقال : لو لم تكن الارض له لكان يلقى على الخبز من السماء ، فقال الرجل : انتم تقولون الكلام ، فقال : انه لم

ينزل من السماء الا الكلام ، فقال : انا لا أقوى على مجادلتك ، فقال لان الباطل لا يقوى على الحق •

ويتميز السادة الصوفية بقوة الثقة فى الله وحسن التوكل عليه تعالى فى أرزاقهم وفى تدبير كل أمورهم لأن المقدور معهم حيث كانوا كما قال سيدى الشيخ عبد السلام عفا الله عنه ، ويقول سيدى بشر الحافى انه رأى أمير المؤمنين الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى منامه فقال له : عظنى يا أمير المؤمنين فقال له : ما أحسن عطف الاغنياء على الفقراء طلبا للثواب ، واحسن منه تيه الفقراء على الاغنياء ثقة بالله، قال سيدى بشر فقلت له : زدنى يا أمير المؤمنين ، فقال له :

قد كنت ميتـا فصرت حيـا وعن قريب تصـير ميتـا
عـز بـدار الفنـاء بيت فابن بدار البقـاء بيتـا

وما أحلى ما يقول السادة الصوفية : كن كما كنت فى بطن أمك مدبرا (بفتح البـاء المشددة) غير مدبر (بكسر البـاء المشدد) مرزوقا من حيث لا تحتسب ، وهم يقولون : ان القلوب كانت مفترقة فى الدنيـا فقبضها الله تعالى عنها بقوله (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) فلمـا تعلقت القلوب بالآخرة قطعها الله سبحانه عنهـا بقوله (والله خير وأبقى) •

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فى كتاب التنوير:

للزاهد فى الدنيا علامتان ، علامة فى فقدها وعـلامة فى وجودها ، فالعلامة فى وجودها الايثار منها ، والعلامة التى فى فقدها وجود الراحة منها ، فالايثار شكر لنعمة الوجدان ووجود الراحة منها شكر لنعمة الفقدان • ويقول رضى الله عنه أيضا : ينبغى لك أيها العبد الا تأسى على فقد شىء وألا تركن الى وجود شىء ، فان من وجد شيئا فركن اليه ، أو فقد شيئا فحزن عليه ، فقد أثبت عبوديته لذلك الشىء الذى أفرحه وجوده وأحزنه فقده ، ويضيف رضى الله عنه قائلا : ليقل ماتفرح به يقل ما تحزن عليه • وجاء فى حكمه : عنايته فيك لا لشىء منك ، واين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته ، لم يكن فى أزله اخـلاص أعمال ، ولا وجود أحوال ، بل لم يكن هناك الا محض الافضال وعظيم النوال •

وفى التعفف ورفع الهمة عن الخلق الى الخالق يقول السادة الصوفية: ربما استحيا العارف ان يرفع صاحبه الى مولاه (أى استنادا الى علمه بحاله كما قال سيدنا ابراهيم عليه السلام : علمه بحالى يغنى عن سؤالى، ويكون ذلك الحيــاء من العارفين فى بعض الاحيان ولكنهم يســألون الله فى احيان اخرى اظهارا للعبودية وامتثالا للربوبية) فكيف لا يستحى ان يرفعها الى خليقته •

ومن شعر سيدى ابن عطاء الله فى ذلك قوله رضى الله عنه :

الله يعلم اننى ذو همــة   تأبى الدنايا عفــة وتظرفا
لم لاأصون عن الورى ديباجتى   وأريهمو عــز الملوك وأشرفا
أأريهموا انى الفقير اليهمــو   وجميعهم لا يستطيع تصرفــا
أم كيف أسأل رزقه من حقه   هذا لعمرى ان فعلت هو الجفا
شكوى الضعيف الى ضعيف مثله   عجز اقام بحامليه على شفا
فاسترزق الله الذى احسانه   عم البرية منــــة وتلطفــا
والجأ اليه تجده فيما ترتجى   لا تعد عن أبوابه متحرفــا

وكسب الارزاق من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلابد من السعى فى تحصيل المعايش (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) وخير ما أكل المرء من كسب يده ، وقد تاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ورعى الغنم وكذلك كسب سادتنا الانبياء والمرسلون أرزاقهــم بجهودهم ، ويقول المرحوم شوقى أمير الشعراء فى ذلك :

من أحسن الامثال فيما أحسب   الخبز لا يعطى ولكن يكســب
موسى الكليم استؤجر استئجارا   وكان عيسى فى الصــبا نجــارا

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم صــفوة هذه الامة يضربون فى الارض للتجارة ، كما كانوا يزرعون ، وانفقوا الاموال الطائلة على الدعوة الاسلامية ولم يقفوا فى انفاقهم عند حد الزكــاة المفروضة بل تجاوزوها فقدموا لانفسهم خيرا وبرا ، وما يزال سخاء سيدنا عثمان بن عفان مضرب الامثال الى اليوم رضى الله عنــه وعن سلفنا الصالح اجمعين •

ومن السادة الصوفية العاملين من نشطت تجارته وربحت أرباحا طائلة وكانت عونا للفقراء والمحتاجين ، واذا نظرت فى نفقة سيدى عبد الله بن المبارك بهرك ما قدمت يداه فى سبيل الله عز وجل حتى قال القائل :

اذا سار عبد الله عن مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها
اذا ذكر الاخبار فى كل بلدة فهم أنجم فيها وأنت نهارها

وعندما يدعو السادة الصوفية الى اسقاط التدبير فانهم لا يقصدون بذلك ترك الأسباب وانما يقصدون به حصول الراحة النفسية التى تمكن المؤمن من ترك الشواغل التى تحول بينه وبين السعى لآخرته : فيعيش بهذه الراحة مطمئنا الى تدبير الله تعالى ويطرق أسباب الرزق المشروعة موافقا لمراد الله تعالى ومخالفا لحظوظ نفسه ، فاذا اتسع رزقه رد الفضل فى سعته الى فضل الله ، واستعمله فى حقوق الله ولم يستعمله فى حظوظ نفسه ، واذا ضاق رزقه فيرد الامر الى تقدير الله لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى •

وها هو ذا سيدى ابن عطاء الله الذى تكلم كثيرا فى اسقاط التدبير يقول فى صراحة لا خفاء فيها : فلابد لك من الاسباب وجودا ولابد من الغيبة عنها شهودا ، فأثبتها من حيث أثبتها تعالى بحكمته ولا تستند اليها لعلمك بأحديته • وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، كما أنه كان يقول : كنت أرى الشاب فيعجبنى منظره فاذا قيل لى لا حرفة له سقط من عينى • وكان سيدى ابراهيم بن ادهم رضى الله عنه يعمل أجيرا فى البساتين وفى الحصاد ويأكل بعرق جبينه ، وكان يقول : عليك بعمل الابطال ، الكسب من الحلال والنفقة على العيال • وكان كبار فقهاء الامة يتاجرون ويكسبون حلالا من تجارتهم كما فعل الامام أبو حنيفة ومالك رضى الله عنهما ، وكان لهم عناية لمظاهرهم صيانة لمراكزهم الاجتماعية بين الناس ، وترفعا عن الاحتياج اليهم ، وكانوا لا يسألون الناس عن تعليمهم أجرا وكان أجرهم على الله ، وقد قالوا لامامنا مالك رضى الله عنه : انك تعيش عيشة امراء ولا تعيش عيشة علماء :

فاحتج عليهم بقوله تعالى (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعبـــاده والطيبات من الرزق) •

واذا كان بعض سادتنا الصحابة قد تقشف فقد كان ذلك لضرورة حين قلت أموالهم وعظمت أحوالهم والله تعالى يقول (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا) وفى الآية تطييب لنفوس المعسرين بقوله تعالى (سيجعل الله بعد عسر يسرا) • وقد نظـــرت مرة الى نوافذ غرفتى والستائر محيطة بها وأخذت ألـــوم نفسى على تركيب تلك الستائر وما فيها من اسراف ، فاذا بخاطر ينقدح فى قلبى قائلا (لتركبوها وزينة) اشارة الى أن الستائر زينة مباحة شرعا •

وفى هذه المناسبة اذكر واقعة طريفة بين الصاحبين الجليلين سيدى أبى أيوب الانصارى وسيدى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، فقد دعا سيدنا عبد الله سيدنا أبا أيوب الى طعام،فلما دخل الدار رأى ستائر على المنافذ ، ولم يكن للسادة الصحابة عهد بالستائر الا بستائر الكعبة المشرفة ، فقال سيدى أبو أيوب : ماهذا يا ابن عمر ؟ أكعبة فى بيتك ؟ أتتخذ شيئا لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال سيدى ابن عمر : شىء غلبنا عليه النساء ، فقال سيدى أبو أيوب : أقول لك لم يكن على عهد رسول الله وتقول غلبنا عليه النساء والله لاطعمت لك طعاما •

فانظر رعاك الله كيف حرص السادة الصحابة من ورعهم على ترك المباح خوف الوقوع فى المشبوه ، فلا أقل من أن نترك المشبوه خوف الوقوع فى الحرام •

اللهم ارزقنا حلالا طيبا ترضاه ، ووفقنا فى حسن استعمـــاله حتى ترى علينا اثر نعمتك من الستر والشكر وصلاح الحال والمآل فانك قلت وقولك الحق (انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحســـن عمـــلا) •

حسبنا الله

« وقل الله ، ولا تسأل عن أحد ، وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، فانه لك مهما كان الأمر » .

جاءت تلك الكلمات المشرقة فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، نور الله ضريحه ، لتلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعه ، زاده الله من فضله ، وهى تكشف لنا عن القطب الذى يدور عليه التصوف كله ، فانه يدور على الغنى بالله ، والاستغناء عن سواه ، لأنه سبحانه وتعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم .

وذلك التوجيه الذى يوجهنا اليه سيدى الشيخ عبد السلام هو نهاية الشوط فى التربية الصوفية ، وهو يرفعنا به الى مقام الخواص وهم الواصلون الى الله تعالى ، وليس بينك وبين ربك مسافة تقطعها للوصول اليه ، وانما هو جهاد نفسك حتى يزول الحجاب بينها وبين الله فتراه أقرب اليها من كل قريب وأحب اليها من كل حبيب ، كما ترى بيده وحده العطاء والمنع والضرر والنفع ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

ولذلك يقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه فى مناجاته :

« الهى ، هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لا يخفى عليك ، منك أطلب الوصول اليك ، وبك استدل عليك ، فاهدنى بنورك اليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك ،

« الهى ، اغنى بتدبيرك عن تدبيرى ، وباختيارك عن اختيارى ، وأوقفنى على مراكز اضطرارى ،

الهى ، بك أستنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا تكلنى ، واياك أسأل فلا تخيبنى ، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى .

« أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك ، وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ، ولم

يلجأوا الى غيرك ، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم •

ماذا وجد من فقدك ؟ وما الذى فقد من وجدك ؟ لقد خسر من بغى عنك متحولا ، وقد خاب من رضى دونك بدلا ، كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الاحسان ، أم كيف يطلب غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان •

وينصحنا رضى الله عنه فيقول :

« تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ، تحقق بذلك يمدك بعزته ، تحقق بعجزك يمدك بقدرته ، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته ، كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟ أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته ؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟

ويرينا سيدى وشيخى الشيخ على عقل أن محبة الله هى معراج الوصول اليه سبحانه وتعالى ، فيقول رضى الله عنه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

الحب ان ملك النفوس أعزها
والعاشقون بربهم علماء
والأصل فى الدنيا المحبة والهدى
لولا الهدى لم تخلق الأشياء
فاذا اتقينا الله جل جلاله
قضيت حوائجنا وسال الماء
من يصدقوا فازوا ومن سهروا علوا
ولهم أضاءت فى الدجى الزهراء
من لم يذوقوا ذكر خلاق السما
هم والبهائم فى المقام سواء
بل ربما فطن البهيم لربه
والغافلون عن الهدى بلهاء
كونوا على هدى الطريق يعزكم
رب الورى هذا هو الاهداء
ليس العطاء المال عند أولى النهى
العلم عند الموقنين عطاء

وقد وقف رضى الله عنه نفسه على محبة ربه ، فلم يحفل بالناس فهو يقول الهاما لوقته من عطاء الله تعالى لأوليــائه :

•

أنا صـــب ثـــابت القـــدم مســـتهام القلب من قـــدم
يجتلينى الحب فى ســـهرى ونجوم الليـــل من خـــدمى
آمـــلى فى اللــــه يقبلنى فســــوى الرحمن لم أرم
لم يثرنى النـــاس فى كلـــم انمـــا اللـــه مـــدى كلمـــى
أنـــا مـــن حبى لحضرته تـــارك للنـــاس كلهـــم
أنـــا مـــن حبى لحضرته لم أفق مـــن لذة النغـــم
لم أزل فى حى حضرته مرتعـــــا للعــــلم والحكم
وفؤادى مـــن هدايتـــــه يرتوى مـــن مـــورد الكرم
وبقلبى مـــن محبتـــــه همـــة مـــن أعظم الهمـــم
هاجنى وجـــدى وبى حرق لم تـــكن من شـــدة الضرم
بل هى الأنوار يقذفهـــا فسرت فى مهـــجتى ودمى

وقد طالب الله المؤمنين أن يقيموا الدليل على محبته تعالى بمتابعـــة من أخذوا عنه محبة الله تعالى والاستغناء به عن غيره وهو مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) كما بين لنا سبحانه أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هى طاعة الله (من يطع الرسول فقد أطاع الله) كما بين أن طاعته صلى الله عليه وسلم هى سبيل الاهتداء (وان تطيعوه تهتدوا) وان مخالفته صلى الله عليه وسلم هى نذير الفتنة والعذاب الأليم (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصـــيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) •

وعلى نور تلك الآيات البينات تأسى الصحابة الكرام بأقوال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأحواله ففازوا فوزا عظيمـــا (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) ومن ثم ألحقهم الله بالكرام البررة (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصـــالحين وحسن أولئـــك رفيقـــا) •

ويقول الامام سهل بن عبد الله رضى الله عنه :

أصول مذهبنا (يقصد الصوفية) ثلاثة : (١) الاقتداء بالنبى صلى الله عليـه وسلم (٢) الأكل من الحلال (٣) واخلاص النيـة فى جميع الأعمـال •

وقال سيدى أبو عثمان الحيرى رضى الله عنه : من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة، ويروى السادة الصوفية الحديث الشريف « من أحب سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة » •

ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه : اعلم أن بركات السنة توصل العبد الى حقائق القربة وتجعله أهلا لخصائص الرأفة •

ويقول شيخه الامام أبو على الدقاق رضى الله عنه : من استهان بأدب من آداب الاسـلام عوقب بحرمان السنة ، ومن ترك سنة عوقب بحرمان الفريضة ، ومن استهان بالفرائض قيض الله له مبتدعا يذكر عنده باطلا فيوقع فى قلبه شبهة •

ويحكى السادة الصوفية أن الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنـه قال : كنت يوما مع جماعة يتجردون ويدخلون الحمام ، فاستعملت خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام الا بمئزر » ولم أتجرد ، فرأيت تلك الليلة فى المنـام قائلا يقول لى : أبشر يا أحمد فان الله قد غفر لك باستعمال السنة فقلت من أنت فقال جبريل ، وقد جعلك الله اماما يقتدى بك • وحكوا عن بعضهم أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقلت يا رسول الله اشفع لى ، قال : قد شفعت لك ، فقلت: متى ؟ قال : اليوم الذى أحييت فيه سنة من سنتى وقد أميتت ••

وفى تفسير قوله تعالى (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) يقول السادة الصوفية أن الحكمة هى السنة • وفى تفسير قوله تعـالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) يقولون ان العمل الصالح هو الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم • وفى مناسبة تلك الآية الكريمة حكى لى المرحوم والدى أوسع الله له فى رضوانه أنه حين كان بمكة المكرمة حاجا (من نحو ثلاثين سنة)

رأى فى المنام أن تلك الآية تتلى عليه فقام من نومه مسرورا ومستبشرا بأداء حجه وكرم ربه ، ثم نسى الآية وأخذ يفكر طويلا فى تذكرها فلم يستطع أن يتذكرها فأسف غاية الأسف لنسيانها ثم دخل المسجد الحرام وجلس قريبا من الكعبة المشرفة متطلعا اليها ، فاذا بقارىء يجاوره فى مجلسه يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويقرأ على مسمع سيدى الوالد رحمه الله (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا...) فكان سروره بتذكر الآية بالغا للغاية واعتبر ذلك فضلا جديدا من الله عليه ، ولحرصه على دوام تذكرها ، سأل القارىء بعد أن فرغ من قراءته عن سورتها فقال له : هى فى سورة فاطر .

وترشدنا الآية الكريمة الى طلب العزة ممن يملكها وحده سبحانه، بتوحيد الله وطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم اذ لا عزة الا عزة الله ، ولا هدى الا هداه . ألا ترى أنه تعالى علمنا فى فاتحة الكتاب أن نقول (اهدنا الصراط المستقيم) ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى معناها : مل بقلوبنا اليك ، وأقم هممنا بين يديك ، وكن دليلنا منك عليك ، ويضيف رحمه الله قائلا : وكما يهديهم اليه بحسن التعريف، يهديهم الى محاسن الأخلاق ومعالى الأمور بحسن التشريف ، قال سبحانه (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) .

وفى تفسير قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) يقول الامام القشيرى رضى الله عنه معناه : منور السموات والأرض ، وقيل الهادى لأهل السموات والأرض ، وقيل سمى النور لأن منه النور ، فاذا كان بمعنى المنور فانما هو منور الآفاق بالنجوم والأنوار ، ومنور القلوب بفنون الدلائل وصنوف الحجج والملاطفات ، ومنور الأبدان بآثار العبادات ، فالطاعات زينة النفوس والأشباح ، والمعارف زينة القلوب والأرواح ، والتأييد بالموافقات نور الظواهر ، والتوحيد بالمواصلات نور السرائر ، وان الله سبحانه يزيد قلب العبد نورا بنور البرهان ثم يمده بحسن البيان ، قال سبحانه (نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء) .

وقد قيل لبعض الصوفية : سل حاجتك ، فقال : من وضع قدمه على بساط المعرفة لا يحسن أن يكون لغير الله عليه منة ، وقيل لبعضهم : ألك حاجة ؟ فقال : لا حاجة لى الى من لا يعلم حاجتى . وفى مناسبة اسمه

تعالى « ذو الجلال والاكرام » يقول الامام القشيرى رضى الله عنه : قيل الاجلال أن ترى ما دونه بعيد الاقلال ، أما الاكرام فقريب من معنى الانعام الا أنه أخص لأنه ينعم على من لا يقال أكرمه ولكن لا يكرم الا من يقال أنعم عليه ، أما ترى كيف كرم موسى عليه السلام حيث سلمته اليه أمه كيف رباه فى حجر عدوه وكيف صرف عنه كيده ؛ أسلمته الى البحر متوكلة على الله بالغداة (صباحا) فرده اليها قبل الظهر ، واذا سلمت اليه ولدها فرباه فى حجر عدوه وصرف عنه كيده ، فمن سلم اليه قلبه حفظه كما فى الخبر : القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، أى بين نعمتين من نعمه ، ترى أنه يضيعه ولا يحفظه ، حاشا لله •

ولما كان للشيوخ الصوفية مدخل فى تربية قلوب المريدين فى سلوكهم الى الله تعالى ، قال السادة الصوفية أن بر المريدين لشيوخهم يجب أن يكون أكثر من برهم بوالديهم ، وعللوا ذلك بأن الأب يحمى ولده عن آفات الدنيا والشيخ يحمى تلميذه عن آفات الآخرة ، والأب يربى ولده بنعمته والشيخ يربى تلميذه بهمته • كما أنهم يقولون : من حفظ حق أستاذه وشيخه لا يكافأ فى حياة الشيخ لئلا يسقط تعظيم الشيخ من قلبه ، ومن لميحفظ حرمة الشيخ لا يعاقب فى حياة الشيخ لأن لهم بهم رحمة وشفقة فتداخلهم الشفقة عليهم ، بل ينتقم الله منهم ويكافئهم بعد موت شيوخهم ونعوذ بالله من سوءالخاتمة •

ومحبة العبد لربه تقتضى منه لزوم طاعته والأئتمار بأمره والانتهاء بنهيه ، كما تقتضى من العبد تعظيمه لربه وهيبته منه ، وكلما كان أكثر طاعة له وأشد تعظيما كان أكثر محبة ، ومن كان عاصيا لأمره ومخالفا له كان بعيدا من محبته ، وتقتضى محبة المؤمن لربه ايثاره سبحانه على كل ما سواه ، ومن ثم لا يترك فى مرضاة ربه مجهودا الا بذله ولا ممكنا الا استعمله ، وأنشدوا فى ذلك :

لئن بقيت فى العين منى قطرة
فانى اذن فى العاشقين دخيل

ويقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل طيب الله ثراه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

وعيب على ذى الحب أن يألف الكرى
وهل نام من فى قلبه كمن الجمر

لقـــــد دار فى الحــب من كل جــانب
الى أن تســاوى عنــدى الليــل والفجر

كما يقول رضى الله عنه :

أنا قد خلوت عن الورى وجعلت حبى فيــك وحدك
وجعلت ذكــرك غـــايتى وتبعت بالايمـــان جندك
وســهرت ليــلى بالهــدى ورفعت بين الناس حبــك
ومشيت أنصــح فى المــلا وأعلم الأصحــاب قصدك

ويقول رضى الله عنــه :

رأيتك لى من الدنيا كفيــلى ولم أر غــير ركنك من مقيل
تجنبت الشكوك فما عرتنى وأدركت الحقيقــة فى مثولى
وفتشت العــلوم وعارفيهــا فلم أر كالمحبــة من دليــل
محبــة خالقى مشــكاة قلبى على أنوارهــا ألقى وصولى
وأن الحب أشــواق وصــبر يعز على المنــافق والكسول
ورى النــاس من ماء ولكن شراب الحب يذكى من غليلى
ولى من مشرق الايمان علم سموت به على كل الفحــول
علومى فى الورى نفحات ربى فما بلغوا مراقى أو شمولى

ولأنه رضى الله عنه رأى فى كفالة ربه ما أغناه عن غيره فقد اكتفى به سبحانه وسأله حاجاته وخافه ولم يخف سطوة عبــاده فقــال رضى اللــه عنــه :

مد اليـــدين اليك أفضــــل شرعة
ولغــير وجهك لا يصــح ســــؤالى
فاجعـــــل هــداك شريعتى وذريعتى
واجعـــل شــهودك لــى مسرة حــالى
يارب قلبى قــد غسلت مــن الــورى
اذ ليس غــيرك ما ذكرت ببـــالى
بالحـــب كنــت ولا أزال فـــان أمــت
لم تأتزر روحى بثـــــــوب زوال

ان مر بى عصف الزمـــان وقصـــفه
والله لست بمـــا شـــــهدت أبـــالى
أأحبــــه وأخـــــاف ســـــطوة غيره
هــــذا وحقــك لا تعيبــه خصـــالى
روض المحبـــــة قـــد شـــــهدت جلاله
وجمـــاله فثبت فى أحـــــــــــــــوالى

ومن كلام سيدى الشيخ على رضى الله عنه ندرك أن أهل الله وهم الأولياء الأصفياء يكتفون بالله ولا يسألون سواه ، لأن شـــــعار الولى (حسبى الله) أى يكفينى ربى ، وهو الشعار الأكرم الذى اختاره الله لرسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم حين قال له (فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) وهو الشــــعار الذى استمسك به سيدنا ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حين ألقى فى النار فقد قال : حسبى الله فكفاه ربه شر أعدائه وقال للنار (كونى بردا وسلاما على ابراهيم) •

وقد كان نقش الخـــاتم الذى يلبســـه الامام مالك رضى الله عنـــه : « حسبنا الله ونعم الوكيل » وقد سألوه فى سبب اتخاذه ذلك الشعار فقال لهم لأن بعدها (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) مشيرا بذلك الى ما حكاه الله عن سادتنا الصحابة الـكرام الذين نزل فيهم قوله تعالى (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لـــكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيـــل • فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله واللـــه ذو فضل عظيم) •

والمتوكلون على الله فى أمورهم فى ثقة واطمئنان يكفيهم الله ما أهمهم .
وقد كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا) فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ويعيدها » •

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه : شعاع البصـــيرة يشهدك قربه منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة

يشهدك وجوده لاعدمك ولا وجودك • وفسروا ذلك بأن شعاع البصيرة نور العقل ، وعين البصيرة نور العلم ، وحق البصـيرة نور الحـق ، فالعقلاء بنور عقولهم شهدوا أنفسهم وشاهدوا ربهم قريبـا منهـم (أى قرب بالعلم والاحاطة لا بالمسافة) والعلماء بنور علمهم شـهدوا أنفسهم عدما فى وجود ربهم ، والمتحققون بنور الحق شاهدوا الحق ولم يشاهدوا معه سواه •

ويقول كذلك رضى الله عنه : لا يكن تأخر أمد العطاء مع الالحـاح فى الدعاء موجبا ليأسك ، فهو الذى ضمن لك الاجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك ، وفى الوقت الذى يريد لا فى الوقت الذى تريد • ويقول سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى فى تفويض الأمور الى الله سبحانه : لا تختر من أمرك شيئا ، واختر ألا تختار ، وفـر من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شىء الى الله عز وجل (وربك يخلق ما يشاء ويختار) وقوله هذا يفسر لنا قول سيدى الشيخ عبد السلام الوارد فى صدر المقال : فالله لك مهما كان الأمر ، ويزيدنا سيدى ابن عطاء شرحا فيقول : اذا أعطاك أشهدك بره ، ومتى منعك أشهدك قهره ، فهو فى كل ذلك متعرف اليك ومقبل بوجود لطفه عليك •

وختاما أقول ما حكاه الله عن سادتنا الصحابة ، وأحب أن يقوله معى كل مؤمن (حسبنا الله ونعم الوكيل) •

حـــــزب اللـــــه

« سرت سارية الليل لاهل الليل ، الذين يبغون الجليل،وليس لاحدهم شاغل عنه ، فهو مع الله ، يسير له الدنيـــا وهو عنها غافل ، لانه مع الله عاقل ، لا يسأل عن المعـــاقل ، فهو به واصل ، مسلم لله ، فالله يرعاه ، لانه يرى أنه غير مالك ، والله مالك الممالك » .

تلك سطور من نور جاءت فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، نور الله ضريحه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعه ، مد الله فى عمره ، وأوسع له فى كرمه ، وهى تصف عباد الرحمن فى اشتغالهم بالله ، فى عبودية الفـــاهمين عن الله ، والعـــارفين به سبحانه ، لم تلههم عنه دنيا فانية ، أو عـــرض زائل ، فان ملكت أيديهم من متاعها شيئا أيقنوا أنهم مملكون وليسوا مالكين على الحقيقة ، لأن العبد وما ملكت يداه لسيده .

والعقل عن الله تعالى نعمة لا توازيها نعمة من النعم ، وقد روى عطاء ابن أبى رباح عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنهما ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قسم الله العقل على ثلاثة أجزاء فمن كن فيه فهو العاقل ، ومن لم يكن فيه فلا عقل له ، حسن المعرفة بالله عز وجل ، وحسن الطاعة لله عز وجل ، وحسن الصبر لله عز وجل » .

وأهل الليل الذين يشير اليهم سيدى الشيخ هم أهل المحبة ، الذين آثروا الله على هواهم ، فسهروا ليلهم شوقا اليه ، وغراما به ، ومناجاة له ، حيث نام غيرهم واشتد غطيطهم ، وقد أنشدوا فى ذلك :

وفى الناس من تحلـــو لـــه لـــذة الـــكرى
وذكرك أحـــلى فى الجفـــون من الغمض

ويقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل فى الهامه الفورى الـــذى نقلناه عنه :

اذا سهرت فمـــا أسهـــرت عـــن ملل
لـــكنه الحـــب يدعـــونى وأشهـــــده

ومـذ تغـــزلت فى ربــى ومــا الفــت
روحى سواه تجافى الجفــن مرقــده
اذا مــددت يـــدى للـــه أســـأله
مــدت الى بمعنـــى فضـــله يــده

ولا تعجب ان يكون هذا حالهم فان من ذاق شيئا من محبة الله ألهاه ذلك عما سواه ولذلك يقول سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه : ربما وردت عليك الأنوار ، فوجدت القلب محشورا بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت ، فرغ قلبك من الأغيار يملأ بالمعارف والاسرار • وسيدى ابن عطاء الله لا ينفى وجود الآثار انما هو يطالبنا أن نراها كما نرى الظلال فى الانهار التى لا تعوقنا عن السير فيها وان بدت على صفحات الماء ، ولذلك يقول :

من شهد ظلية الآثار لم تعقه عن الله ، فان ظلال الأشجار لا تعوق السفن عن التسيار ، ومن هنا يتبين لك أن الحجاب ليس أمرا وجوديا بينك وبين الله ولو كان بينك وبينه حجاب وجودى للزم ان يكون أقرب اليك منه ، ولا شىء أقرب من الله ، فرجعت حقيقة الحجاب الى توهم الحجاب •

ويقول الامام القشيرى فى لطائف الاشارات عند قول سيدنا زكريا عليه السلام (••• فهب لى من لدنك وليا • يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) انه لم يرد الولد بشهوة الدنيا وأخذ الحظوظ منها وانما طلب الولد ليقوم بحق الله ، ويرث من آل يعقوب النبوة وتبليغ الرسالة فاستجاب الله له ، وعند قوله تعالى (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا • وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا) يقول الامام: والقوة هنا ليست قوة يد ولكن قوة قلب ، وذلك خير خصه الله تعالى به وهو النبوة ، أما التقوى فعلى قسمين مجموع ومجلوب يتوصل اليه العبد بتكلفه وتعلمه ، وموضوع من الله تعالى وموهوب منه يصل اليه العبد بفضله سبحانه •

وقد حجب الله عنا الغيب وطالبنا بالعمل والسعى للآخرة لئلا نتعلل على ما قدره فى الازل ، وأرشدنا سبحانه الى أن رحمته قريب من المحسنين فمن أحسن عمله تعرض لرحمته فلا يقول قائل متخلف عن العمل كسلا (يختص برحمته من يشاء) فقد قال تعــالى كذلك (ان

رحمة الله قريب من المحسنين) • وقد روى البخاري ومسلم والترمذى الحديث القدسى : « أنا عند ظن عبدى وأنا معه ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملا خير منهم ، وان تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب ذراعا تقربت اليه باعا ، وان أتانى يمشى أتيته هرولة » •

ويجب تأويل القرب والهرولة بالنسبة له سبحانه لانه لا يتحرك ولا يسكن ولا ينقص ولا يزداد ، وتأويل القرب والهرولة هو موالاة العبد بالنفحات والفيوضات حتى يذوق معرفة الله ذوق الخواص من عباد الرحمن ، وهم الذين قيل فيهم :

جلت عن الوصف أن تحصى مآثرهم
بطاعة الله فى الدنيا مفاخرهم
على البواطن قد دلت ظواهرهم
أحبهم وأداريهم وأوثرهم
بمهجتى وخصوصا منهمو نفرا

ويقول فيهم سيدى الشيخ على عقل فى الهامه الفورى :

عباد ولكن علا قدرهم
تبارك من لهمو قد خلق
لهم همم كالجبال الرواسى
وهم عند ربك نور الغسق
ونارهمو فى النعيم المقيم
فيا عجبا جنة فى حرق

وقال فيهم مرة أخرى :

قوم خلوا بجلال الله وانتهجوا
نهجا من الصدق كانوا فيه وافينا
ثم اختفوا عن عيون الناس وابتهلوا
لله واجتهدوا فى الله هادينا
وأدركوا أن نور الله مركزه
قلوب قوم لوجه الله ساعينا

واللـــه علمهـــم بالشرع فهمهـــم
فســددوا وأقامـــوها براهينـــا
وعاهـــدوا اللـــه فى سر وفى علن
أن يلـزموا الحـق والقـرآن والدينـا
أعـــلامهم فى سماء المجــد قـد نشرت
ومكنـــت من قلـــوب النـاس تمكينـا

وعباد الرحمن فى ولـع دائم بالله لا يسكن أنينهم وحنينهم اليـه سبحانه ويبذلون أوقاتهم فى مرضاته غير عابئين بملامة اللائمين ، وفى ذلك يقول سيدى يحيى الرازى رضى الله عنه :

يقـــولون يحيى جـن من بعـــد صـحة
ولا يعـــلم العـــذال مـــا فى حشائيا
اذا كـــان داء المـــرء حـب مليـــكه
فمـن غـــيره يرجـــو طبيبـــا مـداويا
ألا فاهجـــــرونى وأرغبـــوا فى قطيعتى
ولا تكشـــفوا عمـــا يجـــن فـــؤاديا
كلـــونى الى المـــولى وكفـــوا ملامتى
لآنس بالمـــولى عـــلى كـل مابيـــا

وقد سئل بعض العارفين : متى يتحقق العبد بالعبودية ؟ فقال : اذا سلم القياد من نفسه الى ربه ، وتبرأ من حوله وقوته ، وعلم أن الكل له وبه • ويقول الامام المحاسبى رضى الله عنه : الاخلاص اخراج الخلق من معاملة الله تعالى ، والنفس أول الخلق • ويقول الامام سهل التسترى رضى الله عنه : أهل لا اله الا الله كثير والمخلصون قليل وقد سئل الامام الجنيد رضى الله عنه : أيهما أتم ؟ الاستغناء بالله تعالى أم الافتقار الى الله عز وجل ؟ فقال : الافتقار الى الله عز وجل موجب للغناء بالله عز وجل ، فاذا صح الافتقار الى الله عز وجل ، كمل الغناء بالله تعالى ، فلا يقال أيهما أتم لانهما حالان لا يتم أحدهما الا بتمام الآخر ، فاذا صح الافتقار صح الغناء •

وقد سئل سيدى أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه عن معنى قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه

ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) فقال : السابق مضروب بسوط المحبة ، مقتول بسيف الشوق ، مضطجع على باب الهيبة ، والمقتصد مضروب بسوط الحسرة ، مقتول بسيف الندامة ، مضطجع على باب الكرم ، والظالم مضروب بسوط الامل ، مقتول بسيف الحرص ، مضطجع على باب العقوبة .

وقد سئل سيدى أبو الحسين القرشى رضى الله عنه عن صفاء العبادة والمعاملة فقال : ان للعقل دلالة وللحكمة اشارة وللمعرفة شهادة ، فالعقل يدل ، والحكمة تشير ، والمعرفة تشهد أن صفاء العبادات لا ينال الا بصفاء معرفة أربعة ، فأول ذلك معرفة الله تعالى ، والثانى معرفة النفس ، والثالث معرفة الموت ، والرابع معرفة ما بعد الموت من وعد الله ووعيده ، فمن عرف الله تعالى قام بحقه ومن عرف النفس استعد لمخالفتها ومجاهدتها ومن عرف الموت استعد لوروده ومن شهد وعيد الله تعالى ، ينزجر عن نهيه وينتدب لامره .

فمراعاة حق الله تعالى على ثلاثة أوجه : على الوفاء والادب والمروءة فأما الوفاء فانفراد القلب بفردانيته ، والثبات على مشاهدة وحدانيته بنور أزليته والعيش معه ، وأما الادب فمراعاة الاسرار من الخطرات وحفظ الاوقات ، والانقطاع عن الحسد والعدوات ، وأما المروءة ، فالثبات على الذكر نطقا وفعلا، وصيانة اللسان ، وحفظ النظر ، وحفظ المطعم والملبس ، وينال ذلك بالادب ، لان أصل كل خير فى الدنيا والآخرة الادب .

وقد أبدع سيدى وشيخى الشيخ على عقل قدس الله سره فى وصف النفس حين سأله سائل ان يأتى له بأبيات على وزن البيت التالى وقافيته :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به
دون الذى تعلو به فى ذاتها

فقال فيما قال ، الهاما وارتجالا لوقته من عطاء الله لاوليائه واصطفيائه :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به
كم عالم قد زل من نزعاتها

تنــــأى عن الاصــلاح طــوال حيــاتهــا
وتواصـــــل الاقبــــال فى شـــــهواتها
وقفت علـــى الدنيـــا حســـن بلائهـــــا
فأمـــالهــــا عن هـــديها وهـــــداتهــا
قـــد رحبـــت بالســـيئات مـــريضـــة
وتضــــج ان دعيـــت الـــتى حســـــناتها
جهلـــت طـــريق الخـــير وادعـــت الهــــدى
كـــم تكثـــــر الدعـــوى على قرباتهـــــا
ضحكـــــت على جهـــــالهــــا فتـــوهمــوا
ان العـــــــلا والفـــــــوز فى نزواتهــــا
فنحـــــا مســـيلمة النبـــوة وانتهـــى
فـــــرعـــون للتـــــأليـــــه من عثراتهــــا
والنفس مـــا برحـــت تضـــــل ومـــا بهـــا
نـــــور يزيـــــل الظـــــم من ظـــمــــاتها
فانصــــح لنفســـك فى الأمـــور لعلهـــــا
قـــد ترزق الانـــــوار فى ســـبحاتهـــــا
ترضى تســـــــفلهــا لـــــــكل نقيصـــــة
دون الـــذى تعلــــو بـــه فى ذاتهـــــــا

ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه : للنفس مراتب ثلاث :

اذا سكنت وزايلها الاضطراب بسبب الشهوات سميت نفسا مطمئنة واذا اعترضت على الشهوات سميت نفسا لوامة ، واذا اذعنت للشهوات ودواعى الشيطان سميت نفسا أمارة بالسوء • ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه : حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى ، وحظها فى الطاعة باطن خفى ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه •• كما يقول : اذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فانه لا يثقل عليها الا ما كان حقا ويقول كذلك عفا الله عنه : انما تحتاج الى معالجة نفسك فى الابتداء فاذا ذقت المنة جاءت معالجة النفس اختيارا، فالحلاوة التى تجدها فى المعصية ، ترجع تجدها فى الطاعة •

ويقول كذلك رضى الله عنه : ان الذاكر باسمه تعالى « الله » وهو الاسم المفرد ، يكون متحققا فى ذكره بسبعة أصول : استحقار ما سوى

الله حالا ، والتعظيم لاوامر الله كشفا ، وسقوط الاكوان شـــهودا ، والفناء فى الجمع استغراقا ، وتعلق الهمة بالله دأبا ومراقبة الانفاس سرا ، ثم حدوث الوله : بمعنى أن يسترق سر الذاكر فى وجـــوده فى حال شهوده ، بحيث لا يرى غير الله ، ولا يحس بشىء سواه • وهو بذلك يشرح لنا قول سيدى الشيخ عبد السلام الوارد فى صدر المقال فهو به واصل •••

ويقول سيدى الامام أبو على الدقاق رضى الله عنه : من زين ظاهره بالمجاهدة زين الله سرائره بالمشاهدة ، قال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » •

ويقول سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه فى نصائحه الالهامية :

أننـــــام ليـــــلا ثم نــــدعى ســـــــادة
هــــذا الضـــــلال البحـــت وا أســـــفاه

عــــودوا بنـــا لليـــــل نســـهر بالهــــدى
فالليــــــل يكشـــــف للمــــريد غطــــــاه

وانظر ، رعاك الله ، كيف تحقق شيخنا بربه وتجرد له فى عبودية خالصة حين قال الهاما رضى الله عنه :

يـــا أيهــــا المغــرم الســـــارى لسـيده
روح المحبـــــين تحقيــــق وتجـــــــريد

ســـــارع الى اللـــه معتـــــزا برحمتـــــه
فالـــــكل عبـــــد ورب الـــــكل معبـــــود

قالـــوا اتخـــذ لك جـــاها قلـــت وا عجبى
أغـــــــير ربـــى ايمـــــان وتوحيـــــــد

أطـــــوف بالحـــى صـــــبا فى مـــــكارمه
يـــا رب صـــــب رواه الـــــبر والجـــــود

وانمـــــا أنـــــا فـــان فى محبتـــــــه
لـــكننى فى كتـــــاب الحـــــب موجـــــود

مـــا لذلى غـــــير شـــــدوى فى مواهبـــــه
وانمـــــا أنـــا مشــــهود ومـــوعــــود

وفى صدر رسالة بعث بها الامام الجنيد رضى الله عنه لاحد احبابه قال : أكرمك الله بطاعته ، وخصك بولايته ، وجللك بستره ، ووفقك لسنة نبيه — صلى الله عليه وسلم — وأطلعك على فهم كتابه ، وأنطقك بالحكمة ، وآنسك بالقرب ، وخصك بالفوائد ، ومنحك الزيادات ، والزمك بابه ، وكفك خدمته ، حتى تكون له موافقا ، ولكأس محبته ذائقا ، فيتصل العيش بالعيش ، والحياة بالحياة ، والروح بالروح ، فتتم النعمة ، وتسلم من المعتبة ، فتصح العاقبة ، وتكمل السلامة •

وفى صدر رسالة أخرى كتب رضى الله عنه يقول لاحد أحبـــابه : حاطك الله بحياطته التى يحوط بها المستخلصين من أحبـــابه ، وثبتك وايانا على سبل مرضاته ، وأولج بك قباب انسه ، وأرقاك فى رياض فنون كرامته ، وكلأك فى الأحوال كلها كلاءة الجنين فى بطن أمه ، ثم أدام لك الحياة المستخلصة من قيمومية الحياة على دوام ديمومية أبديته وأفردك عمالك به وعما له بك ، حتى تكون فردا به فى دوامها ، لا أنت ولا مالك ولا العلم به ، ويكون الله وحده ، وفى كلامه شرح لمـــا أجمله سيدى الشيخ عبد السلام فى عبارته التى بدأ بها المقال •

ويقول الامام الدقاق رضى الله عنه : ان العبد يصل بطاعته الى الجنة ، وبالادب فى طاعته الى الله •• ويقول ابن عطاء رضى الله عنه: الادب الوقوف مع المستحسنات ، فقيل وما معنى ذلك ؟ •• قال ان تعامل الله بالادب سرا وعلنا ، فاذا كنت كذلك كنت أديبا ، وان كنت أعجميا • وبهذا يبدوا لك معنى الحديث الشريف « ادبنى ربى فأحسن تأديبى » ، فكان — صلوات الله وسلامه عليه — مع اللـــه فى جميع أوقاته ، وكان يقول : تنام عيناى ولا ينام قلبى •• ويخاطبه بعض صوفية الفرس بقوله :

يا ضيف أبيت عنـــد ربـــى   فى جنـــة لا ينـــام قلبى

ويقول شيخ التصوف الاكبر سيد محيى الدين بن عربى رضى الله عنه فى عباد الرحمن الذين يقومون الليل :

قال تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » يا ليت شعرى ومن أقامهم من المضاجع حين نوم غيرهم الا هو (يدعون ربهمخوفا وطمعا)

يا ليت شعرى ومن انطق السنتهم بالدعاء ؟ •• ومن خوفهم وطمعهم الا هو ؟ •• أترى ذلك من نفوسهم ؟ •• لا والله ، الا من مفاتيح مكرمه فتح بهـا عليهم (ومما رزقناهم ينفقون) فمما رزقهم التجافى عن المضاجع وعن دار الغرور ، ومما رزقهم الدعاء والابتهال ، ومما رزقهم الخوف منه والطمع فيه ، فأنفقوا ذلك كله عليه ، فقبله منهم (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون) أى لا تعلم نفس عالمة ما أخفى الله لهؤلاء الموصوفين بتلك الاوصاف من الجزاء الذى تقر به أعينهم • فكانت هذه الأعمال عين مفاتيح الكرم والمشاهدة ما أخفى لهم فيهم وفى هذه الأعمال من (قرة أعين) فـكل ما هو فى خزائن الكرم فان مفاتيحه تتضمنه ، فهو فيها مجمل وهو فى الخزائن مفصل ، فاذا فتح بالأعمال تميزت الرتب وعرفت النسب وجاءت كل حقيقة تطلب حقها ، وكل علم يطلب معلومه •

ويقول فى وصفهم سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه :

هم قوم ذكروا الله بقلوبهم تعظيما لربهم لمعرفتهم بجلاله ، فهم حجج الله على خلقه ، البسهم النور الساطع من محبته ، ورفع لهم أعلام الهداية الى مواصلته ، وأقامهم مقام الابطال لارادته ، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته ، وطهر أبدانهم بمراقبته وطيبهم بطيب أهل معاملته ، وكساهم حللا من نسج مودته ، ووضع على رءوسهم تيجان مسرته •••

قد اقامهم على باب النظر من قربه ، وأجلسهم على كراسى أطباء أهل معرفته ، ثم قال : ان اتاكم عليل من فقدى فداووه ، أو مريض من فراقى فعالجوه ، أو خائف منى فأمنوه ، أو آمن منى فحذروه ، أو راغب فى مواصلتى فمنوه ، أو راحل نحوى فزودوه أو جبان فى متاجرتى فشجعوه ، أو آيس من فضلى فعدوه ، أو راج لاحسـانى فبشروه أو حسن الظن بى فباسطوه أو محب لى فواظبوه ، أو معظم لقدرى فعظموه ، أو مسيىء بعد احسان فعاتبوه •

ومما يقوله فيهم الامام الحارث المحاسبى رضى الله عنه :

همومهم فى الجد والطلب ، وأرواحهم فى النجاة والقرب ، يستقلون الكثير من اعمالهم ، ويستكثرون القليل من نعم الله عز وجل عليهم ، ان أنعم الله عليهم شكروا ، وان منعوا صبروا ••• اذاقهم الله طعم

محبته ، ونعمهم بدوام العذوبة فى مناجاته ، فقطعهم ذلك عن الشهوات وجانبوا اللذات ، وداموا فى خدمة ملك الارض والسموات ، قد اعتقدوا الرضاء قبل وقوع القضاء ... طاب والله عيشهم ودام ، نعيمهم سليم، وغناهم فى قلوبهم مقيم ، كأنهم نظروا بأبصار القلوب الى محجوب الغيوب فقطعوا كل محبوب ، وصار الله ، جل جلاله ، هو المنى والمطلوب.

دعاهم اليه فأجابوه بالجد ودوام السير ، فلم يقم لهم اشتغال اذ استيقنوا دعوة الجبار ، فعندها غابت عن قلوبهم أسباب الفتنة بدواهيها وظهرت أسباب المعرفة بما فيها ، فصار مطيتهم اليه الرغبة ، وسائقهم الرهبة ، وحاديهم الشوق من المحبة ، حتى ادخلهم فى رق عبـــوديته وبصرهم عظيم ربوبيتـــه ، فليس تلحقهم فترة فى نيـــة ، ولا وهن فى عزمة ، ولا ضعف فى خدمة ، ولا تأول فى رخصة ، ولا ميل الى داعى غـــرة .

ومما يقول سيدى الحكيم الترمذى رضى الله عنه فى وصف ولى الله :

... ند ذلت نفسه عند ظهور عزته ، وتلاشت عن التكلف عند رؤية نصرته ، فقامت نفسه فى خدمته كالعبد المحجور ، أو كالمضطر المقهور ، أو كالاسير المأسور ، ثم نظر اليه ربه نظرة رحمته ، فنثر عليه من خزائن الربوبية نثار كرامات الخصوصية ، حتى قام مقام حقيقة العبودية . فأغناه الله تعالى بذلك ، ثم قربه وناداه ، وأكرمه وسماه ، ولطف به ودعاه ، فأتاه حين سمع نداءه ، فأيده الله تعالى وقواه ، واكتنفه وآواه. حتى أجابه ولباه ، وفى السر ناداه ، وفى كل وقت ناجاه ، وصرخ الى مولاه ، لا يعرف له ربا سواه ، فأعطاه سؤله ومناه ، واصطفاه لخدمته وهداه ، ولمحبته ارتضاه ، ولمعرفته اجتباه ، وأجرى بين يديه انهارا من الصدق والصفاء ، والتحقيق والحياء ، والمحبة والرضاء ، والخوف والرجاء ، والصبر والوفاء ، والشكر والقضاء ، والبقـــاء واللقـــاء ، والافتقار والافتخار ، والتعظيم وترك الاختيار ، والنظر فى الاقدار ومشاهدة العزيز الجبار ، يزيده الله كل وقت من اللطائف ما عجز الواصفون عن وصفه ، وهو فى قرب من مولاه ، مستوحش من دنياه ، اشتغل بالله عن النظر فى عقباه ، فهو فى أرغد عيش مع مولاه .

وهذ التفصيل يكشف لنا الستر عما اجمله سيدى الشيخ عبد السلام فى قوله : وليس لاحدهم شاغل عنه فهو مع الله ، يسير له الدنيا وهو عنها غافل ، لانه مع الله عاقل

اللهم أدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين الذين نسبتهم اليك فشرفتهم بتلك النسبة العظيمة فى قولك الكريم : « أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله الا ان حـــزب الله هم المفلحون » .

الأسوة الحسنة

« فايمانك من نور النبى صلى الله عليه وسلم ، ونور النبى من نور الله ، فابشر بالايمان » .

جاءت هذه الكلمات فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى قدس الله سره الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد/ سالم جمعة ، زاده الله من بركاته ونفحاته ، وهى ترينا فضل الله على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ترينا فضل الله علينا فى ارساله الينا صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، فقد آمنا بالله على يديه ، وسلكنا طريق الحق على نوره الذى أودعه الله قلبه الشريف وجعله كاشفا للبصائر سبل الرشاد (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم . صراط اللـه الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا الى الله تصير الأمور) .

ولان هدى الله جاءنا على يد مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتقديره سبحانه فقد من الله علينا برسوله العظيم فى قوله الكريم (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وقد روى البخارى عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أجل والله انه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن (يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) وحرزا للاميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولاسخاب فى الاسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله ويفتح به اعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا .

وذكر مثله عن عبد الله بن سلام وكعب الاحبار وزاد بن اسحق فيه: ولاصخب فى الاسواق ، ولا متزين بالفحش ، ولاقوال للخنا ،أسدده

لكل جميل ، واهب له كل خلق كريم ، واجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة معقوله ، والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى امامه ، والاسلام ملته ، واحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، واسمى به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، واغنى به بعد العيلة ، واجمع به بعد الفرقة ، واؤلف به بين قلوب مختلفة ، واهواء متشتتة ، وأمم متفرقة ، واجعل أمته خير أمـة اخرجت للنـاس •

وفضل الله على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل كبير (ان فضله كان عليك كبيرا) وقد روى عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال فى كلام بكى به النبى صلى الله عليه وسلم فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلـغ من فضيلتك عند الله ان بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم فقال تعالى (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) بأبى أنت وأمى يا رسـول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله ان أهل النـار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطبـاقها يعذبون يقولون (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) •

كذلك جعله الله أمانا ورحمة لامته فقال سبحانه (وما كان اللـه ليعذبهم وأنت فيهم) أى وأنت بمكة قبل الهجرة ، فلما خرج عليه الصلاة والسلام منها وبقى فيها من بقى من المؤمنين نزل قوله تعالى (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وهذا من أبين ما يظهر مكانته عليـه الصلاة والسلام ، وقال بعضهم : الرسول عليه الصلاة والسلام هو الامان الاعظم ما عاش وما دامت سنته باقية فهو باق ، فاذا أميتت سنته فانتظروا البلاء والفتن • وفى قوله صلى الله عليه وسلم « أنا أمان لاصحابى » قيل من البدع وقيل من الاختلاف والفتن • وأى فضل عظيم ناله رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله سبحانه (ان الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسـلموا تسليما) فقد أبرز الله تعالى فضله صلى الله عليه وسلم بصلاة الله عليه ثم صلاة ملائكته عليه وأمر عباده المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم ، وقد حكى أبو بكر بن فورك ان بعض العلماء تأول قوله عليه الصلاة والسلام « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » أى فى

صلاة الله على وملائكته وأمره الامـة بذلك الى يوم القيامة . هذا والصلاة من الله تعالى رحمة ومن الملائكة والمؤمنين دعاء .

ويقول الامام جعفر الصادق رضى الله عنه : من تمام نعمة الله عليه صلى الله عليه وسلم ان جعله حبيبه واقسم بحياته (يقصد قوله تعالى: لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون) ونسخ به شرائع غيره ، وعرج به الى المحل الاعلى ، وحفظه فى المعراج حتى مازاغ البصر وما طغى ، وبعثه الى الاحمر والاسود ، وأحل له ولامته الغنائم ، وجعله شفيعا مشفعا ، وسيد ولد آدم ، وقرن ذكره بذكره ، ورضاه برضاه ، وجعله أحد ركنى التوحيد (أى لان الاسلام لا يقبل الا بالشهادتين شهادة أن لا اله الا الله وشهادة ان محمدا رسول الله) ثم قال تعالى (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) ببيعتهم اياك يد الله فوق أيديهم (يريد عند البيعة) قيل قوة الله ، وقيل ثوابه ، وقيل منته ، وقيل عقـده .

أقول ولقد كرمه الله بالقرآن الكريم (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) قيل السبع المثانى السور الطوال الاول والقرآن العظيم أم القرآن (أى الفاتحة) وقيل السبع المثانى أم القرآن والقرآن العظيم سائره . وجعل الله رسالته عامة (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) وقال تعالى (قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا) فى حين قال تعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهـم) فخصهم بقومهم وبعث مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخلق كافة .

كما أنه سبحانه جعل أوامر رسوله صلى الله عليه وسلم نافذة فى أمته ، وجعل طاعته فيها من طاعة الله ، ومخالفته فيها من مخالفة الله فقال تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال (وان تطيعوه تهتدوا) وحذرهم مخالفته تحذيرا شديدا فقال تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .وفى قوله تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أى اتباع أمره أولى من أتباع هوى النفس .

أما حرمته فقد عظمها الله تعالى فى كتابه الكريم فى كثير من آياته البينات فى مثل قوله تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه امهاتهم) فلأزواجه الطاهرات حرمة الأمهات فيحرم نكاحهن من بعده

تكرمة له صلوات الله عليه لانهن أزواجه فى الجنة ، وفى مثل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وفى ذلك من التهديد ما فيه • وانظر كيف مدح الله الحافظين لحرمته فى قوله تعالى (ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) ثم انظر كيف نفى الله العقل عن أكثر من كانوا ينادونه من وراء الحجرات فى قوله تعالى (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) واعجب كيف علق الله الايمان على الرضا بقضائه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) ويقول الامام سهل التسترى رضى الله عنه : من لم ير نفسه فى ملك الرسول صلى الله عليه وسلم ولم ير ولايته عليه فى جميع أحواله لم يذق حلاوة سنته بحال •

ويقول امامنا الشافعى رضى الله عنه فى فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته : لم تمس بنا نعمة ظهرت ولا بطنت نلنا بها حظا فى دين أو دنيا أو دفع عنا بها مكروه فيهما أو فى واحد منهما الا ورسول الله صلى الله عليه وسلم سببها • وانما قال امامنا الشافعى ذلك بنور بصيرته ، أما من انطمست بصيرته فلا يدرك تلك الحقيقة ولا يراها وان كان ذا عينين كما قال تعالى (وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) وقد دخل السلطان محمود الغزنوى على الشيخ ابى الحسن الخرقانى رضى الله عنه وجلس ساعة ثم قال : يا شيخ ما تقول فى حق أبى يزيد البسطامى ، فقال الشيخ : هو رجل من رآه اهتدى،فقال السلطان وكيف ذلك وأبو جهل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يخلص من الضلالة ، فقال الشيخ تعقيبا على هذا الكلام ، ان ابا جهل ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما رآه محمد بن عبد الله يتيم أبى طالب فلو كان رآه رسول الله لدخل فى السعادة ، أى لو رآه من حيث هو رسول معلم يهدى الى الرشد والى طريق مستقيم لسعد بمتابعته على الايمان ولكنه نظر اليه على أنه بشر يتيم ، وهو نظر سقيم ، لان خصوصية الرسالة فى البواطن لا فى الظواهر ، وقد خدعتهم الظواهر حين قالوا (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق) •

ويتزكى المؤمن فى دينه على قدر تعظيمه لشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرصه على احياء سنته والاقتداء به فى التقرب الى ربه بالفرائض والنوافل وفضائل الاعمال وصفاء الاحوال ، لانه صلى الله عليه وسلم هو الاسوة الحسنة للمتقين (لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) وانما استنارت بصائر العارفين بصدق الهمة وقوة العزم فى متابعته صلوات الله وسلامه عليه . وقد كان ابن عمر رضى الله عنهما اذا أسرعت به ناقته شد زمامها وهى فى الطريق الى مكة المكرمة ليضيق خطاها ويقول: لعل خفا يقع على خف ، فانظر كيف رأى سعادته فى ان يقع خف ناقته على خف ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتابع آثاره الشريفة . وحدث عن شغفه بأقواله واحواله ولا حرج .

وفى هذه المناسبة اذكر انى كنت ذاهبا مع بعض اصدقائى الى المدينة المنورة وحان وقت صلاة العصر فنزلنا من السيارة للصلاة على الرمال فتذكرت قول سيدى الامام ابن دقيق العيد رضى الله عنه :

قف بالمنازل والمناهل من لدن
وادى قباء الى حمى أم القرى
وتوخ آثار النبى فضع بها
متشرفا خديك فى عفر الثرى
واذا رأيت منازل الوحى التى
نشرت على الآفاق نورا أنورا
فاعلم بأنك ما رأيت شبيهه
مذ كنت فى ماضى الزمان ولا يرى

وقد حركت تلك الابيات وجدانى فوضعت خدى على الثرى متشرفا بآثاره صلى الله عليه وسلم ، ويقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل طيب الله ثراه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

دع زمانا مضى وعد بى لأرض
شغفتنى بنورها المتلالى
بين بيداء روعت ووهاد
وذئاب تختال فى اقبال

ونجـــوم مثــل الحبــاب على الكأس
تســـــامت أو كالحلـــى والـــلآلى
قيل ماذا تــريد مــن هــذه الارض
اتبغـــى البقـــاء فى جمــــع مـــال
قلت والـلــه غـيـر أحمـــد مـــالى
بعـــد رب العبــاد مــن آمـــال
يـــا حبيبى رضـــاك دنيــــا وديــن
فهمــــا باتباعـــكم صـــــحالى

والحق الذى لامرية فيه ان الحجاز يثير فى النفس ذكريات مجيدة ؛ وكيف لا والحجاز موطن الميلاد المحمدى وهو اســعد ميلاد عرفتــه البشرية ، وهو كذلك مهبط الوحى ، ومشرق الرسالة ، ومراح البراق ، ومقر الحرمين الشريفين ، ومثوى الجثمان النبوى الشريف ، والصحابة الاعلام والشهداء الكرام ، ويرحم الله فيلسوف المسلمين المرحــوم السيد محمد اقبال اذ يقول فيما ترجمه عنه الى العربية صديقى الشيخ الصاوى شعلان :

اضـــحى الاســــلام لنـــــا دينـــا
وجميـــع الـــكون لنـــا وطنـــا
بنيـــت فى الارض معابدهـــــــا
والبيـــت الاول كعبتنــــــــا
هـــــو أول بيـــت نحفظـــــه
بحيـــــاة الــــروح ويحفظنــــا
يــــا أرض النــور مــن الحـــرمين
ويــــا ميـــــلاد شريعتنــــــا
روض الاســــــلام ودوحتـــــه
فى أرضــك نماهـــــا دمنــــا
ان اســـم محمـــد الهـــــادى
روح الآمـــــال لنهضتنــــــا

ومما يقول صديقى الفاضل الحاج عبد الوهاب عرب (وهو مــن رجال الطائف الصالحين الكرام وقد تعرفت اليه فى الروضة الشريفــة

منذ عشر سنوات) فى قصيدته التى اهداها لى فى مناسبة تعارفنا حينئذ :

بلدة قدسها الرحمن اذ
حازت الفخر بخير المرسلين
فهى والبيت العتيق المجتبى
منبع الدين ومأوى اللاجئين
حرم المختار أسمى منزلا
بفؤادى من قصور المترفين
اذ به الروضة قرب المصطفى
كم سعى جبريل فيها للأمين
كم بها من عبرة فياضة
لحب كم بها من صالحين
كم تبارى لثراها هائم
كم علا فيها دعاء الساجدين
كم تلا القرآن فيها مخبت
وسعى للخير سعى المحسنين
فلآثار سجود المصطفى
فى ثراها طيب عرف الياسمين

ولقد وقفت بين يديه صلى الله عليه وسلم زائرا فتذكرت قول سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى قدس الله سره وقلت ما قال :

بالله صل حبل الرجاء تعطفا
أنا ضيف جودك يا امام أولى الكرم
جد للضعيف بمبتغاه فانه
ما للضعيف سوى رحابك ملتزم
جدلى فان خزائن الرحمن فى
يدك اليمين وانت أكرم من قسم

ومرة أخرى تذكرت ما قال أمير الشعراء شوقي رحمه الله :

صلى عليك الله ما صحب الدجى حـاد
وحنـــت بالفـــلا وجنــــاء

واســتقبل الرضـــوان في غرفـاتهم
بجنـــان عـــدن آلك الســـمحاء

خير الوسـائل من يقـع منهـم على
سبب اليـك فحســبي الزهــراء

ويقول الامام السهيلي في كتاب التعريف والاعلام ان اسـم احمـد علم منقول من صفة لا من فعل ، وتلك الصفة افعل التي يراد بهـا التفضيل فمعنى أحمد ، أحمد الحامدين لربه عز وجل ، وكذلك قال هو صلى الله عليه وسلم في المعنى لانه يفتح عليه في المقام المحمود بمحامد لم تفتح على أحد قبله فيحمد ربه بها فهو صاحب لواء الحمد ، وأمـا محمد فمنقول من صفة أيضا وهو في معنى محمود ولكن فيـه معنى المبالغة والتكرار فمحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة كما ان المكرم من أكرم مرة بعد مرة فاسم محمد مطابق لمعناه ، فهو محمود في الدنيا بما هدى اليه ونفع به من العلم والحكمة وهو محمود في الآخرة بالشفاعة فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضى اللفظ .

وأضاف رضي الله عنه قائلا : وانظر كيف انزلت عليه سورة الحمد وخص بها دون سائر الأنبياء ، وخص بلواء الحمد ، وخص بالمقـام المحمود ، وانظر كيف شرع له سنة وقرآنا ان يقول عند اختتام الأفعال وانقضاء الامور ، الحمد لله رب العالمين ، قال تعالى (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) تنبيها لنا على ان الحمد مشروع عند انقضاء الامـور ، وسن صلى الله عليه وسلم الحمـد بعد الأكل والشرب ، وقال عند انقضاء السفر : آيبون تائبون لربنا حامدون .

ويحكى السيد محمد اقبال رحمه الله انه في صغره ضرب بعصـا سائلا وقف بباب دارهم وطرقه بشدة ، فتناثر الخبز الذي كان في جرابه فخرج أبوه وعنفه قائلا له : الا ترحم أباك يا ولدى في شـيخوخته ، وكيف بأبيك اذا عاتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة وقال

له : لماذا لم تؤدب ولدك بالادب الاسلامى فيرحم البائس الفقير ، وكان لهذا الدرس القيم اثره البالغ فى نفس الفيلسوف العظيم اقبال وهو بركة عليه من بركات أبيه الذى ود أن يرضى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ٠

وكانت السيدة رابعة العدوية رحمها الله تصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة وتقول : ما اريد بذلك ثوابا ولكنى أريد أن اسر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول للأنبياء انظروا الي امرأة من أمتى هذا عملها فى اليوم والليلة ٠ هذا واعلم انه لا طاقة لاحد بالتلقى والشهود بدون واسطته صلى الله عليه وسلم فهو المرآة الكبرى والمجلى الأعظم، وأقواله وأفعاله وأحواله كلها دائرة على الدلالة على الله والتعريف به، والمعرفة لا نهاية لها فما دام الانسان يترقى فيها فهو يغترف من بحره صلى الله عليه وسلم ويستمد منه ٠ ويقول سيدى القطب أبو العباس المرسى رضى الله عنه : لو احتجب عنى رســول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين ٠

والصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم طريق الفتــح وهى من ذكر الله تعالى الآمر بها (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وصلاتنا عليه (وكذلك صلاة الملائكة) هى دعاء وابتهال فى ان يزيده الله تكريما على تكريم لقاء هدايتنا الي الايمــان والى العمــل الصالح لاننا عاجزون عن مكافأته فندعو له صلى الله عليه وسلم حتى يكافئه الله عنا ٠ أما صلاة الله تعالى عليه وعلى المصلين عليه فمعناه افاضة أنواع الكرامات ولطائف النعم ، وقد ورد فى الحديث الشريف « من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا » ٠

وقالوا ان الله تعالى يضاعف الصلاة للمصلين عليه صلى الله عليــه وسلم ، الا ان الصلاة عليه ليست حسنة واحدة بل هى حسنات ، اذ فيها تجديد الايمان بالله أولا ثم بالرسول ثانيا ، ثم بتعظيمه ثالثا ، ثم بالعناية بطلب الكرامة له رابعا ، ثم بتجديد الايمان باليوم الآخر خامسا ، ثم بذكر آله سادسا ، وعند ذكر الصالحين تنزل الرحمات ، ثم بتعظيم آله ونسبتهم اليه سابعا ، ثم باظهار المودة لهم ثامنا ، ولم يسأل صلى الله عليه وسلم من أمته الا المودة فى القربى ، ثم الابتهال

والتضرع تاسعا ، والدعاء مخ العبادة ، ثم بالاعتراف عاشرا ان الأمر كله لله وان النبى صلى الله عليه وسلم وان جل قدره فهو محتاج الى فضل الله عز وجل . فهذه عشر حسنات سوى ماورد به الشرع من ان الحسنة الواحدة بعشر امثالها وأن السيئة بمثلها فقط .

وقد دخل الامام الشبلى رضى الله عنه على بعض الصالحين فقبله بين عينيه وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبله فسألته بماذا استحق منك الشبلى ذلك يا رسول الله ؟ فقال انه يقرأ عقب كل صلاة الآيتين الاخيرتين من سورة التوبة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) ثم يصلى على ثلاث مرات .

وقد رأينا الخير كلــه من الصلاة عليــه صلى الله عليه وســلم ، بالصيغتين الواردتين فى الطريقة الخليلية لشيخنا الاكبر الغوث سيدى الحاج محمد أبو خليل ساكن ضريحه المنير بالزقازيق والملحق بمسجده المبارك المعروف هناك . وهاتان الصيغتان هما :

١ ــ اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه عدد حروف القرآن حرفا حرفا ، وعدد كل حرف ألفا ألفا ، وعدد صفوف الملائكة صفا صفا ، وعدد كل صف ألفا ألفا ، وعدد الرمال ذرة ذرة ، وعدد كل ذرة ألف ألف ألف مرة ، عدد ما احاط به علمك ، وجرى به قلمك ، ونفذ به حكمك فى برك وبحرك وسائر خلقك ، عــدد ما أحاط به علمك القديم من الواجب والجــائز والمستحيل (الواجب وجود الله والمستحيل وجود شريك له والجائز فعل كل ممكن أو تركه كما يشاء سبحانه) اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آلــه وصحبه مثل ذلك ــ وهى صيغة نتلوها عقب كل فريضة ثلاث مرات .

٢ ــ اللهم صل على سيدنا محمد عدد ما فى علم الله صلاة دائمة بدوام ملك الله ــ وهى صيغة نتلوها فى النهار قــدر الاستطاعة وبحسب الاجتهاد بلا عدد محدود . اما فى الليل فيذكر المريد الاسماء الحسنى حسب الارشاد ، ويذكر الاسم الواحد مائة الف مرة فى المدة المناسبة

لاجتهاده من الليالى دون قيد فى الحد الادنى أو الاعلى ، فـــاذا تمت المائة ألف انتقل لذكر الاسم الذى يليه وهكذا حتى اذا فرغ من الكل كرر الكل بذلك الترتيب وهكذا •

الا رضى الله عن شيوخنا العارفين الذين نابوا عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم فى الدعوة الى الله وتنبيه القلوب الغافلة لبـــذل الهمة فى مرضاة الله تعالى بمـــا آتاهم الله من نور البصيرة النـــافذة مصداقا لقوله تعالى (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) •

أهـــل اليـقـــين

« فمن نعمتك يا الله وخيرك وجودك نسالك بك لك ، ولا نسالك بأحد غيرك ، أن تهبنا الايمان والتوحيد واليقين حتى نلقاك ســالمين غانمين طاهرين مع النبى صلى الله عليه وسلم يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » •

جاءت تلك السطور فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد/ سالم جمعة مد الله فى عمره وبارك له فى عمله ، وهو يسأل ربه اليقين ، واليقين مقام عظيم أوله ارتفاع الشك ويتحلى المؤمن بعد ذلك بالثقة بما فى يد الله تعالى وليس لزيادته نهاية •

وقد أفتتح الله سبحانه سورة البقرة منوها بفضل التقوى القائمة على اليقين فقال تعالى (آلم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين • الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون • أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) فدل كلامه الكريم على أن أهل اليقين هم أهل الهدى والفلاح •

ويقول السادة العارفون أن أهل اليقين على درجات ثلاث :

الأولى ــ درجة الاصاغر ، وهم المريدون والعوام ، وهم الذين زال الشك من قلوبهم •

الثانية ــ درجة الأوســاط وهم الخصوص ، وهم الذين تحققوا باليقين وترقوا فيه من يقين الى يقين حتى يصير اليقين لهم وطنا •

الثالثة ــ درجــة الأكابر ، وهم خصوص الخصوص ، وهم الذين يقطعون كل سبب يحول بينهم وبين الله تعالى ، ومن العرش الى الثرى حتى يكون الله لا غير ، ويؤثرون الله تعالى على كل شىء سواه ، وليس لزيادة اليقين نهاية ، بل كلما تفهموا وتفقهوا فى الدين ازدادوا يقينا على يقين •

وقد جاء اليقين فى كتاب الله تعالى على ثلاث درجات : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين • ولتقريب فهم هذه الدرجات قالوا ان علم اليقين هو أن تعلم مثلا أن مكة المكرمة مدينة فى الحجاز وبها بيت الله الحرام الذى يحجه المؤمنون ، فاذا ذهبت الى الحجاز وجئت الى مداخل مكة بنفسك صرت فى عين اليقين ، فاذا سكنت مكة وتنقلت فيها صرت فى حق اليقين •

فالمعرفة ثلاث درجات :

١ — عقلية ونورها البرهان أو علم اليقين •

٢ — قلبية ونورها البيان أو عين اليقين •

٣ — كشفية ونورها العرفان أو حق اليقين •

ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه : علم اليقين كالنجوم يطلع عليها بدر عين اليقين ، ولكن كل الانوار تتبدد أمام شمس حق اليقين ويقول رضى الله عنه أنه حين قال سيدنا ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام (رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) كان يطلب زيادة اليقين ، فأراد أن يقرن حق اليقين بما كان حاصلا له من عين اليقين •

ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف الإشارات: والاشارة من ذبح الطيور أن حياة القلب لا تكون الا بذبح أهواء النفس فمن لم يذبح نفسه بالمجاهدات لم يحيى قلبه بالله ، وفيه اشارة الى البعث بعد الموت فقد قال له قطع بيدك هذه الطيور وفرق أجزاءها ثم ادعهن يأتينك سعيا ، فما كان مذبوحا بيد صاحب الخلة مقطعا مفرقا بيده فاذا ناداه استجاب له كل جزء مفرق ، كذلك الذى فرقه الحق وشتته فاذا ناداه استجاب ،

ولو أن فوقى تربة ودعوتنى
لأجبت صوتك والعظام رفات

ويقول امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى قوة يقينه بالله تعالى : لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا ، يعنى عند معاينته لما آمن به بالغيب • ويقول الامام أبو طالب المكى رضى الله عنه : أصول

مقامات اليقين التى ترد اليها فروع أحوال المتقين تسعة : التوبة ، والصبر ، والشكر ، والرجاء ، والخوف ، والزهد ، والتوكل ، والرضا ، والمحبة •

أما التوبة فقد قال تعالى فى شأنها « وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » وقد سئل الامام الحسن البصرى رضى الله عنه عن التوبة النصوح الواردة فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) فقال : هى ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك بالجوارح واضمار ألا يعود الى الذنب • ويقول الامام سهل التسترى رضى الله عنه : من يقول ان التوبة ليست بفرض فهو كافر • ومن رضى بقوله فهو كافر كما قال : ليس من الأشياء أوجب على الخلق من التوبة ، ولا عقوبة أشد عليهم من ترك التوبة ، وقد جهل الناس علم التوبة • وقال أيضا : التائب الذى يتوب من غفلته فى الطاعات فى كل طرفة ونفس •

وقد سئل سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه : كيف يصنع التائب فقال : هو من عمره بين يومين ، يوم مضى ويوم بقى فيصلحهما بثلاث : أما ما مضى فبالندم والاستغفار ، وأما ما بقى فبترك التخليط وأهله ولزوم المريدين ومجالسة الذاكرين ، والثالثة لزوم تصفية الغذاء (أى أكل الحلال) والدؤوب على العمل • وقال رضى الله عنه : علامة صدق التوبة : رقة القلب وغزارة الدمع • ومن حكم السادة الصوفية قولهم : لا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من واجهته بها •

وفى قوله تعالى (استعينوا بالله واصبروا) يقول السادة الصوفية استعينوا به على الطاعة واصبروا على المجاهدة فى المعصية • ويقول امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه أعمال البر كلها الى جنب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كتفلة الى جنب البحر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الى جنب الجهاد فى سبيل الله كتفلة فى جنب بحر ، والجهاد فى سبيل الله تعالى الى مجاهدة النفس عن هواها فى اجتناب النهى كتفلة فى جنب بحر لجى ، وهذا يفسر معنى قوله صلى الله عليه وسلم « رجعتم من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر مجاهدة النفس » •

والغفلة عند الموقنين أصل الكبائر ، وقد سأل سيدنا عمار بن ياسر امامنا عليا كرم الله وجهه : أخبرنا عن الكفر على ما بنى ؟ فقال : على أربع دعائم ، على الجفاء ، والعمى ، والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ، ومن عمى نسى الذكر ، ومن غفل حاد عن الرشد وغرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب ، ومن شك تاه فى الضلالة .

ويقول العارفون : العوام يتوبون من سيئاتهم ، والصوفية يتوبون من حسناتهم يعنى من تقصيرهم فى أدائها لعظيم ما يشهدون من حق الملك العزيز سبحانه ، ومن نظرهم اليها أو نظرهم الى نفوسهم بها وهى منة الله الواصلة منه اليهم . وقد سئل الامام سهل رضى الله عنه عن الاستغفار الذى يكفر الذنوب فقال :

أول الاستغفار الاستجابة ، ثم الانابة ، ثم التوبة ، فالاستجابة أعمال الجوارح ، والانابة أعمال القلوب ، والتوبة اقباله على مولاه وترك الخلق ، ثم يستغفر من تقصيره الذى هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر ، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ، ثم ينقل الى الانفراد ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم القرب ، ثم المعرفة ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاة ، ثم محادثة السر وهـو الخلة ، ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه ، والذكر قوامه والرضا زاده ، والتفويض مراده ، والتوكل صاحبه ، ثم ينظر الله تعالى اليه فيرفعه الى العرش ، فيكون مقامه مقام حملة العرش .

وكان رضى الله عنه يقول : العبد لابد له من مولاه على كل حال وأحسن حاله أن يرجع اليه فى كل شىء ، اذا عصى يقول : يا رب استر على ، فاذا فرغ من المعصية قال : يا رب تب على ، فاذا تاب قال :يارب ارزقنى العصمة . فاذا عمل قال يارب تقبل منى . وبعد التوبة يتعقب المؤمن الذنب بثمانية أعمال ، أربعة من الجوارح وأربعة من أعمـال القلوب ، ويرجو بذلك كفارة الخطيئة ، أما أعمال الجوارح فهى أن يصلى ركعتين ثم يستغفر سبعين مرة ويقول : « سبحان الله العظيم وبحمده » مائة مرة ثم يتصدق بصدقة ويصوم يوما ، وأما أعمـال القلوب فهى اعتقاد التوبة منه ، وحب الاقلاع عن الذنب ، وخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له ، يحتسب على الله تعالى بحسن ظنـه

وصدق يقينه كفارة ذنبه ، فبهذه الاعمال قد وردت بها الآثار أنها المكفرة للزلل والعثار .

وأضاف الامام أبو طالب رضى الله عنه قائلا :

وفى أخبار متفرقة جمعناها : ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها الا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات : يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : ويا ليتهم اذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فيقول الآخر : يا ليتهم اذ علموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا، وفى بعضها تجالسوا فتذاكروا ما علموا ، فيقول الآخر : ويا ليتهم اذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا .

ويقول امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه : عجبت لمن شك فى الله وهو يرى خلق الله وعجبت لمن شك فى الموت وهو يرى الموتى ، وعجبت لمن شك فى النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء . ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه : ان العاقل لا يبيع الاثنين بواحد ، فكيف يبيع المؤمن الآخرة الباقية بالدنيا الفانية .

والصبر عند امامنا على كرم الله وجهه من مقامات اليقين ، فقد قال بنى الاسلام على أربع دعائم : على اليقين ، والصبر ، والجهاد ، والعدل . وقال أيضا : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، لا جسد لمن لا رأس له ، ولا ايمان لمن لا صبر له . ورفع مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبر فى العلوم الى مقام اليقين وقرنه به فى قوله : من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار . وكذلك قال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) كما قال تعالى (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) وقال تعالى (انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) فضاعف سبحانه أجر الصابرين على كل عمل ثم رفع جزاء الصبر فوق كل جزاء ، فجعله بلا نهاية وبلا حد فدل ذلك على أنه أفضل المقامات .

وكان الامام سهل التسترى رضى الله عنه يقول : الصالحون فى المؤمنين قليل ، والصادقون فى الصالحين قليل ، والصابرون فى الصادقين

قليل • وكان رضى الله عنه يقول : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ، ويقصد بالعافية النعمة من الصحة أو من غنى المال ، فلا يستعين بها على معصية الله فيبدل نعمة الله كفرا ، وقد مدح الله الذين يتقربون الى الله تعالى بنفقة أموالهم فى مرضاته ، فقال تعالى (الذين ينفقون فى السراء والضراء) فمدحهم بوصف واحد فى الحالين المختلفين لحسن يقينهم وسخاوة نفوسهم ، وحقيقة تقواهم ، وحذر سبحانه وتعالى من الافتتان بالاموال والأولاد فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) لأن الأموال والأولاد ما يسر ويشغل عن ذكر الله •

ويقول العارفون : ان المؤمن لا يصبر الا بأحد معنيين ، مشاهدة العوض والجزاء ، وهو حال أصحاب اليمين من المؤمنين ، أو انظر الى المعوض سبحانه وهو حال الموقنين ومقام السابقين المقربين • كما قالوا ان الصبر أوله ترك الشكوى وهذه درجة التائبين ، وثانيه الرضا بالمقدور ، وهذه درجة الزاهدين ، وثالثه واعلاه المحبة لما يصنع به مولاه ، وهذه درجة الصادقين من أهل اليقين •

والشكر هو ثالث مقام من مقامات اليقين ، وقد قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : الشكر نصف الايمان • ويقول الله سبحانه (ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم) فقرن الشكر بالايمان ورفع بوجودهما العذاب ، وورد فى الحديث الشريف : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » ويقول سبحانه (لئن شكرتم لازيدنكم) وأول المزيد شهود النعم انها من المنعم وبحوله سبحانه وقوته وأوسط المزيد مداومة الطاعة لله تعالى ، وأفضل المزيد قوة اليقين بالله عز وجل •

وفى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لرجل : كيف أصبحت قال بخير ، فأعاد عليه النبى صلى الله عليه وسلم السؤال ثانية : كيف أنت ؟ فقال بخير ، فأعاد عليه الثالثة : كيف أنت ؟ فقال : بخير أحمد الله تعالى وأشكره ، فقال : هذا الذى أردت منك أى اظهار الحمد والشكر والثناء •

ويقول العارفون : على الموقن أن يشكر فى العطاء والمنع ، اذ قد يكون فى المنع العطاء ، ولكن لا يفهم العطاء فى المنع الا صديق ، فاذا

شكر المؤمن ربه فى العطاء والمنع صار من أهل اليقين ، لانـــه اتصف بصفات العبودية ، ورأى أنه عبد تجرى عليه أحكام الربوبية ، وانه لا يستحق على الله شيئا ، وان الله سبحانه يستحق عليه كل شىء ، فالعبد خلقه وصنعته ، والله صانعه ومالكه ومالك أمره • والله تعالى يقول (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) ويقول (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) وفى ذلك تنبيه لان يترك المؤمن ظاهر الاثم شكرا لظاهر النعم ويترك باطن الاثم شكرا لباطن النعم •

ومن أروع ما يقول الامام جعفر الصادق رضى الله عنه :

ان الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث : رضاه فى طاعته فلا تحتقروا منها شيئا لعل رضاه فيه ، وخبأ غضبه فى معاصيه فلا تحتقروا منها شيئا لعل غضبه فيه ، وخبأ ولايته فى عباده المؤمنين فلا تحتقروا منهم أحدا لعله ولى الله تعالى • ويقول العارفون ان أكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم ، ومن أفضل النعم وأجلها نعمة الايمان به سبحانه وتعالى ، ثم نعمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم نعمة القرآن ، ثم أن جعلنا من خير أمة أخرجت للناس ، أما سائر النعم فـــلا يستطيع العاد حصرها (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فلله سبحانه وتعالى الشكر والثناء الحسن الجميل •

وقد حدثوا عن رجل شكا الى بعض أهل المدينة فقـــره وأظهر لذلك حزنه ، فقال له السامع لشكواه : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف ، قال لا ، قال : فيسرك انك أخرس ولك عشرة آلاف ، قال لا ، قال : فيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرة آلاف ، قال لا ، قال : فيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف ، قال لا قال : أفما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا ؟

والرجاء هو رابع مقامات اليقين ، ويقول السادة الصوفية فى تفسير قوله تعالى (يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه) ان الله تبارك وتعالى أوحى الى نبيه صلى الله عليه وســـلم : تريد أن أجعل حساب أمتك اليك ؟ فقال يارب أنت خير لهم منى ، قال : اذن لا نخزيك فيهم •

ويروى السادة الصوفية أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، انى لا أصوم الا الشهر لا أزيد عليه ، ولا أصلى الا الخمس لا أزيد عليهن ، وليس لله تعالى فى مالى صدقة ولا حج ، ولا أتطوع ، أين أنا اذا مت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فى الجنة ، قال : يا رسول الله : معك ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم معى ان حفظت قلبك من اثنين الغل والحسد، ولسانك من اثنين ، الغيبة والكذب ، وعينك من اثنين ، النظر الى ما حرم الله تعالى وأن تزدرى بهما مسلما ، دخلت معى الجنة على راحتى هاتين •

كما يروون فى الخبر عن سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه أن الأعرابى قال : يا رسول الله ، مِن يلى حساب الخلق ؟ قال : الله عز وجل ، قال : هو بنفسه ؟ قال : نعم ، قال فتبسم الأعرابى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ممم ضحكت يا أعرابى ؟ فقال : ان الكريم اذا قدر عفا فقال النبى صلى الله عليه وسلم : صدق ، الا ولا كريم أكرم من الله عز وجل ، هو أكرم الاكرمين ثم قال عليه الصلاة والسلام فقه الأعرابى •

وخامس مقام من مقامات اليقين هو الخوف ، وفى قوله تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) جعل سبحانه الخوف مقاما فى العلم لان الخشية لا تكون الا من الخوف ، والخوف اسم لحقيقة التقوى ، والتقوى معنى جامع للعبادة بدليل قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) وكفى شرفا لاهل التقوى ان يقول الله تعالى فيهم (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ومن مزايا الخوف أنه يحرق نار الشهوات مع شدتها وينتهى بصاحبه الى الجنة اذ يقول سبحانه (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى • فان الجنة هى المأوى) •

لكن ينبغى ألا يخرج المؤمن من خوفه باليأس من رحمة الله ، فان فى ذلك مجاوزة الحد المعقول ، ويجب أن يجمع فى صلته بالله بين الخوف العاصم من الاستهتار بالشهوات وبين الرجاء الذى لا يقنط به من رحمة الله ويقول فى الجمع بين الخوف والرجاء شيخى وسيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه من الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

لا تيـــاسوا من روحه فاليـــائسون كفـــره
أو تأمنـوا مـن مكـره فالآمنـــون فجـــره
مـا بين خـوف ورجـا تعبـــد نفس حـــذره

وقد قال امامنا على كرم الله وجهه لبعض الخـائفين الذين أخرجهم الخوف الى القنوط : ما أصارك الى ما أرى ؟ قال : ذنوبى العظيمة ، فقال : ويحك ان رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك ، فقال : ان ذنوبى أعظم من أن يكفرها شىء ، فقال له الامام : ان قنوطك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك •

والمقام السادس من مقامات اليقين هو الزهد ، ومعناه عند السادة الصوفية خروج الدنيا وزينتها من القلب ولو كانت فى اليد ، ومن حكمهم فى ذلك : ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ولكن الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك • وكان يقال لسيدى مالك بن دينار : انك زاهد فكان يقول : انما الزاهد عمر بن عبد العزيز جاءته الدنيا وملكها فزهد فيها ، فأما أنا ففى أى شىء زهدت •

وفى مناسبة قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهـديه يشرح صـدره للاسلام) قالوا يا رسول الله : هل لذلك من علامة ؟ قال : نعم التجافى عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله • وكان سيدى ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه يقول : قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب ، الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح •

والمقام السابع من مقامات اليقين هو مقام التوكل وهـو من أعلى المقامات ، وكفى المتوكلين شرفا ان يقول الله تعالى فيهم (ان الله يحب المتوكلين) وأن يقول (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيـه ومغنيه عن سواه •

ويقول الامام سهل التسترى رضى الله عنه : ليس فى المقامات أعز من التوكل ، وقد ذهب الانبياء بحقيقته وبقى منه صبابة انتشقهـا الصديقون والشهداء ، فمن تعلق بشىء منه فهو صديق أو شـهيد • والمتوكل غنى بيقينه فى الله تعالى ، وفى الخبر : كفى باليقين غنى •

ويقول السادة الصوفية : احتجب سبحانه عن العموم بالاسباب فهم يرونها ، وحجب الأسباب بنفسه عن الخصوص فهم يرونه جل وعلا ولا يرونها •

والمقام الثامن من مقامات اليقين هو مقام الرضا ، وقد كان عمـر ابن عبد العزيز رضى الله عنه يقول : أصبحت ومالى سرور الا فى مواقع القضاء ، ويقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل رضى الله عنـه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

مـــذ رأونى اهيم فى اللــه صـبا
ادخلــونى فى الحـــكمة الميـــدانا
علمـونى كيف المســـير الى اللــه
وقالوا خـذ الرضـــا تيجـــانا

ويروى السادة الصوفية حديثا عن مولانا رسول الله صلى اللهعليه وسلم « اذا أحب الله عبدا ابتــلاه ، فان صبر اجتبــاه ، وان رضى أصطفاه » ويقول الامام سهل التسترى رضى الله عنــه : حظ الخلق من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله • وقد قدم سيدنا سعد بن أبى وقاص الى مكة فجاءه الناس يهرعون يسأله كل واحد أن يدعو له لانه كان مجاب الدعوة (حيث دعا له مولانا رسول الله عليه وسلم بذلك حين رمى سعد بأول سـهم فى الاســلام فقال صلى الله عليه وسلم « اللهم سـدد رميته واستجب دعوته ») فقال له عبد الله بن السائب : يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك فتبسم وقال : يا بنى قضاء الله عندى أحسن من بصرى ، فانظر رعـاك الله كيف بلـغ به رضـاه بقضاء الله •

والمقام التاسع من مقامات اليقين هو مقام المحبة • ويقول العارفون ان المحبة هى ايثار الله تعالى على ماسواه ، كما يقولون : ان ظـاهر القلب محل الاسلام ، وان باطنه مكان الايمان ، ومن هنا تفاوت المحبون فى المحبة لفضل الايمان على الاسلام وفضل الباطن على الظاهر • ومن علامة المحبة متابعة مـولانا رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فى الاقوال والافعال والاحوال لانه تعالى يقول (قل ان كنتم تحبون الله

فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) فانظر كيف قرن سبحانه محبته لعبده بمغفرة الله ورحمته • ومتابعته صلى الله عليه وسلم تقتضى من المؤمن قطع العلائق والعوائق فى سبيل الله• وتستبين المحبة بترك المخالفات ، ولاتبين بكثرة الأعمال وقد قالوا أعمال البر يعملها البار والفاجر ، والمعاصى لا يتركها الا صديق •

ويقول سيدى ابراهيم بن ادهم رضى الله عنه : قلت يارب « انكنت أعطيت أحدا من المحبين لك ماتسكن به قلوبهم قبل لقائك فأعطنى ذلك فقد أضربى القلق ، قال : فرأيت فى المنام أنه أوقفنى بين يديه فقال : يا ابراهيم أما استحييت منى أن تسألنى مايسكن به قلبك قبل لقائى؟ وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه ؟ أم هل يستروح المحب الى غير مشوقه ؟ قال : قلت يارب تهت فى حبك فلم أدر ماأقول فاغفر وعلمنى كيف أقول ، فقال : قل اللهم رضنى بقضائك ، وصبرنى على بلائك ، وأوزعنى شكر نعمائك •

اللهم اجعلنا بفضلك ممن قلت فى وصفهم (يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) ••

الــذاكــرون بــيــن الأحــوال والمقــامــات

« اذا ترقى الذاكر اشتد الهامه ، ويترقى بعد الأحوال الى مقــامات القرب حتى يتحول فى النظر من الدنيا الى الآخرة ، فلا يكون بينه وبين الله حجاب ، بل تكون روحه مع الله تعالى فلا يرى غيره » •

ذلك من بعض ما كتب به سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصديق الصالح المبارك السيد / سالم جمعه مد الله فى عمره ، *وهى كلمات طيبة تدلنا على فضل ذكر الله تعالى وأثره* فى أرواح الذاكرين ، كما تكشف لنا عن بداياتهم ونهاياتهم فهم يستمعون قوله تعالى (فاذكرونى) فيتبعونه فيرون حلاوة الاتباع قوله تعــالى (أذكركم) وما أحسن البداية وما أسعد النهاية ، وأين ذكرنا من ذكره ؟ وأين عملنا من أجره ؟ فتعالى الله الفعال لمــا يشاء •

وما أروع ما يقول سادتنا الصوفية ناصحين للمريد ــ يا هذا حفر النهر اليك ، واجراء المــاء ليس عليك ، احفر ساقية (فاذكرونى) الى جنب بحر (أذكركم) فاذا بلغ اليها معول الفكر ، فاضت عليه مياه البحر ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، ألق بذر الذكر فى أرض الخلوة ، وشق اليه ساقية من ماء الفكر لعلها تنبت شجرة : « أنا جليس من ذكرنى » ويقول المحب الذاكر :

يرنحنى اليــك الشــــــــــوق حتى
أميــــــل من اليمــــين الى الشــمال
كمــــا مــــال المعــــاقر عــاودته
حميــــا الكأس حــــالا بعــــد حال
ويأخــــــذنى لذكركمــــو ارتيـــاح
كمــــا نشــط الأسـير من العقــــال

ويذكرنى ذلك قول سيدى وشيخى الشيخ على عقل نور الله ضريحه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

وقفت على نجـــوى الاله جوانحى
لذلـــك قـــلبى منــزل كلــه ذكــر
وأخليت قـــلبى من منـــاجاة غـــيره
فأصـــــبح طودا لا يزلزله الغـــير
أســـــارع مشـــتاقا وأسكت هائمــا
وأنطق اجلالا وما عاقنى ســــــــير
ففى صحوتى شـــوق وفى غفوتى هوى
وفى مشـــــيتى علم وفى وقفتى سر

وقد جاء فى الخبر : ان لله فى كل يوم صدقة يمن بهـــا على خلقـــه ، وما تصدق على عبد بصدقه أفضل من أن يلهمه ذكره •

وفضائل ذكر الله تعالى أكثر من أن تعد ، وقد حض القرآن الكريم ، كما حضت السنة الشريفة على الاكثار من ذكر الله سرا وجهرا ، ولذلك جعل السادة الصوفية — على اختلاف طرقهم — ذكر الله تعالى مدخلا للتربية الصوفية العـــالية فجنى منـــه المريدون أطيب الثمرات فى أسرع الأوقات ، وقد شاهدنا ذلك عمليا بالتجارب التى رأيناها رأى العين ، والتصوف يقوم على التجربة والعيان ولا يقوم على الدليل والبرهان •

ويقول سيدى أبو سعيد الخراز ، اذا أراد الله أن يوالى عبدا من عبيده فتح له باب ذكره ، فاذا استلذه فتح عليه باب القرب ، ثم رفعـــه الى مجالس الأنس ، ثم أجلسه على كرسى التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب ، وأدخله دار الفردانية ، وكشف له الجلال والعظمة ، فاذا وقع بصره على الجلال الحق والعظمة بقى بلا هو (أى فنيت مراداته فى مرادات ربه فرضى بما يختاره له ربه) •

وهذا الذى قاله سيدى الخراز يفسر لنا سر السبق الذى أثبته مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم للذاكرين فى قوله لأصحابه « سيروا ، سبق المفردون (بتخفيف الراء المكسورة وتشديدها) قيل : من المفردون ؟ قال المستهيمون بذكر الله (أى المولعون كثيرا بذكره سبحانه) وضع الذكر عنهم أوزارهم ، يردون القيامة خفافا » ويؤيد هذا الحديث الشريف قول الله تعالى (•• والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) وانك اذا تأملت فى الآية كلها أيقنت أن مقام الذكر توج كل المقامات التى سبقته فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب (ان المسلمين

والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) فمع علو المقامات التسعة جاء الذكر فوقها مع أنه عاشر مقام فيها وهو ما يفيد سبق الذاكرين ، كما يفيد أنهم لا يصلون الى مقام السبق الا بعد التحلى بكل تلك المقامات الكريمة التى عددتها الآية العظيمة .

ويبدأ المريد تربيته الصوفية بالتوبة ، وهى عند السادة الصوفية ليست باللسان كتوبة العوام الذين يتوبون ثم يعودون لما تابوا منه ، بل استغفارهم هو الاستجابة ثم الانابة ثم التوبة ، فالاستجابة أعمال الجوارح ، والانابة أعمال القلوب ، والتوبة اقباله على مولاه وترك الخلق، ثم يستغفر من تقصيره الذى هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر . فعند ذلك يغفر له ربه ويكون عنده مأواه .

ثم ينقل الى الانفراد ، ثم الثبات ثم البيان ، ثم القرب ، ثم المعرفة، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاة ، ثم محادثة السر وهو الخلة ، ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه ، والذكر قوامه ، والرضا زاده ، والتفويض مراده ، والتوكل صاحبه ، ثم ينظر الله تعالى اليه فيرفعه الى العرش ، فيكون مقامه مقام حملة العرش .

هكذا قال الامام سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه ، وكان يقول :

العبد لابد له من مولاه على كل حال ، وأحسن حالة أن يرجع اليه فى كل شىء : اذا عصى يقول يارب استر على ، فاذا فرغ من المعصية قال : يارب تب على ، فاذا تاب قال يارب ارزقنى العصمة ، فاذا عمل قال : يارب تقبل منى .

ويعنى السادة الصوفية فى تربية المريدين بتهوين الدنيا فى قلوبهم ، وان كسبت أيديهم الأموال ، وعندهم أن الدنيا قنطرة ، ولا يمكن استيطان القنطرة ، ويقول قائلهم فى ذلك :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض
على الماء خانته فروج الأصابع

وهم يقتبسون ذلك المشرب من القـرآن الكريم والسـنة النبوية المطهرة ، فان الله تعالى يقول مثلا فى سورة الكهف (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السـماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتـدرا) فما كاد الزرع يخضر حتى ييبس وصار هشيما تذروه الرياح هنا وهناك ، لا دوام له ولا استقرار • وأما السنة فقد ورد فيها قوله صلى الله عليه وسلم : « من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله فى شيء والزم الله تعالى قلبه أربع خصال : هما لا ينقطع عنه أبدا ، وشغلا لا يتفرغ منه أبدا ، وفقرا لا يبلغ غناه أبدا ، وأملا لا يبلغ منتهاه أبدا » •

وبعد التوبة وتهوين شأن الدنيا يعنى المريد بأمر الآخرة ويبـدأ بصحبة شيخه المقيد بالشريعة والمؤيد بالحقيقة فيرشده الى ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى التى يلقنهـا له ويبين له طريقة ذكرها وأدب الذكر وعدده ، فيذكرها باللسـان ويراعى معناها بقلبه فيستنير قلبه شيئا فشيئا بأنوارها وخواصها وتقوى رابطته بربه ويشتد حبه ويترقى فى سلوكه من مقام الى مقام حتى يشهد ربه بعين يقينه ويذوق توحيده ويقول بلسان حاله : الهى أنت مقصودى ورضاك مطلوبى •

ويتكلم سيدى وشيخى الشيخ عبد السـلام الحلوانى فى كتابه القيم « السيرة الخليلية » على أسرار الذكر فيقول ما خلاصته :

من أسرار الذكر أن الذاكرين يتدرجون فى مقامات السلوك والأدب فيجاهدون أنفسهم الامارة وقد قال صلى الله عليه وسلم « رجعنـا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر ، قالوا وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؛ قال جهاد النفس » فيجاهدون أنفسهم فى شهواتها ورغباتها حتى تستيقظ وتتجه الى الهداية فتصير لوامة تلوم نفسها على ما مضى وتثوب الى رشدها وتبوء الى الله تعالى بنعمة الاسلام والايمان ، ثم تصير بصدق العزم على الطاعة روحا طيبة يلهمها الله فتفرق بين طريق الخير وطريق الشر (فألهمها فجورها وتقواها) وعندئذ يستنير القلب بتعريف من الله سبحانه (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) فاذا خشى الذاكر ربه وخاف مقامه ونهى النفس عن الهوى واطمأن الى الله وخافه ورجاه ورجع فى كل أحواله اليه واعتمد عليه وسلم له الأمور ، فلا يعرف سواه ولا يخشى الا اياه ، فاذا ذكر خشعت نفسه ، واذا تجلى عليهـا الحق

انتعشت ، فهى فى القهر والبسط لا ترجو سواه فيرضيها برضائه عنهـا فتعود مرضية برحمته وبمحض فضله تدخل فى عبادة القائمين على ذكره وترجع فى الأخـرى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصـديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا •

وقد تعرض سيدى الشيخ عبد السلام بعد ذلك للمقامات الشريفـة التى يتقلب فيها الذاكر المداوم على الذكر ، فتكلم عن مقامات المحبة والاخلاص والمراقبة والخشوع والحياء والخوف والرجاء والتقوى والصبر والزهد والتوكل والشكر وبسط الكلام على كل مقام منها ثم ختم كلامه قائلا رضى الله عنه :

ومن صدقت نيته مع الله تعالى وتفكر فى مصـنوعاته وسلك سـبيل الصواب أورثه الله هذه المقامات فتكون فطرة فيه لا يتكلفها ويصير من أولى الألباب ويكون قلبه مصقولا مستعدا للتجليات الالهية والنفحات الرحمانية متعرضا لها كما ورد فى الحديث « ان لله فى دهركم نفحـات فتعرضوا لهـا » •

ثم أضاف سيدى الشيخ قوله :

قال بعض الصوفية : التقلب فى أطوار المقامات لعموم المحبين الذين أنابوا الى الله وجاهدوا فيه فهداهم السبيل ، وطوى بساط الأطـوار لخواص المحبين وهم المحبوبون الذين اجتباهم ربهم فلا تقيدهم المقامات ولا تحبسهم لأن بواطنهم صافية لا تحتاج الى ما يصفيها قال تعالى (الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب) •

ويتكلم سيدى الشيخ بعد ذلك عن الأحوال فيقول ما خلاصته :

واذا سلك العبد مسلك الصالحين وتدرج فى مقامات السالكين وعامل الله معاملة اليقين أصبح قلبه مسلكا للتجليات الالهية والعطايا اللدنيـة ، فقد قيل أن المقامات مكاسب والأحوال مواهب والمواهب محفوفة بالمكاسب والمكاسب محفـوفة بالمواهب • والأحـوال مواهب علوية وسـماوية والمقامات طرقها — على أن المقامات والأحوال كلها مواهب ، وانما قال بعض الصوفية : كل ما كان عن طريق الأخذ بالأسباب بعمل العبد فانه كسب ، وما لاح من طريق المواجيد والأحوال فانه وهب • وقد ذهب

بعضهم الى أن الأحوال لا تكون الا اذا دامت فأما اذا لم تدم فهى طوالع ولوائح وبواده وهى مقامات الأحوال وبيسك بأحوال •

وتعرض سيدى الشيخ بعد ذلك للأحوال من الحب والعشق والشوق والأنس والبسط والقبض والتوحيد والوجد والجذب •

ويقول سيدى الامام أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه فى الرسالة : الأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والاحوال تأتى من عين الجـود والمقامات تحصل ببذل المجهود ويعرف سيادته الحال فيقول انه معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو بسط أو قبض أو شوق أو هيبة أو انزعاج أو احتياج • ويضيف أن الأحوال كاسمها كما تحل فى القلب تزول فى الوقت وانشدوا :

لو لم تحـــل ما ســـميت حـــالا
وكل مـــا حـــال فقـــــد زالا

أنظـــر الى الفىء اذا مـــا انتهى
يأخـــذ فى النقص اذا طـــالا

ثم يقول رضى الله عنه : وأشار قوم الى بقاء الأحوال ودوامها وقالوا انها اذا لم تدم ولم تتوال فهى لوائح وبواده (من بدهه اذافجأه وبغته)•

ويقول العارفون : اذا بلغ المريد بالرياضة والارادة حـدا ما عنت له خلسات من اطلاع نور الحق عليه لذيذة كأنها بروق تومض اليه ثم تخمد عنه وهى التى تسمى عندهم أوقات ، وكل وقت يكسبه وجـدا اليه ، ووجدا عليه ، ثم انه تكثر منه هذه الغواشى اذا أمعن فى الارتياض ، ثم انه ليوغل فى ذلك حتى يغشاه فى غير الارتياض ، فكلما لمح شـيئا عاج منه الى جناب القدس ، يذكر من أمره أمرا ، فغشيه غاش ، فيكاد يرى الحق فى كل شىء (أى لأن الأشياء من آثار قدرته تعالى) •

ويقول السادة الصوفية : أن قيســا كان يدور فى الأزقة ويقـول : أيا ليلى ، فلما أفرط كان يقول : ليلى ليلى ، دائما لا يخلط مع اسمها شيئا ، واذا كان هذا ثمرة حب ليلى ، فيكف بمجنون الحب برب ليلى ، ويذكرنى ذلك ما قاله أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى الهامه الارتجالى على سبيل الرمز :

لما علقت بليلى فى مشاهدتى
قالوا بأنك يا مسكين مجنون
أجبتهم لا تلومونى على حرقى
فكلنا ان تعشقنا مجانين

وما قاله مرة أخرى :

قالوا بأن الغرام يامن
يحب من شأنه الجنون
قلت أكففوا ليس ذلك حقا
ونحن بالله نستعين
ان كان حبى له جنونا
يا حبذا ذلك الجنون

ويقول أحد الصوفية الأقدمين :

يا من يذكرنى بعهد أحبتى
طاب الحديث بذكرهم ويطيب
أعد الحديث على من جنباته
ان الحديث عن الحبيب حبيب
ملأ الضلوع وفاض عن أجنابها
قلب اذا ذكر الحبيب يذوب
مازال يخفق ضاربا بجناحه
ياليت شعرى هل تطير قلوب

وقال آخر :

خطرات ذكرى تستثير مودتى
وأحس منها فى الفؤاد دبيبا
لا عضو لى الا وفيه صبابة
فكأن أعضائى خلقن قلوبا

واذا داوم المريد ذكر الله تعالى ورث محبته فورثته المحبة بدورها سرور القلب بشهود جماله وهو ما يعرف فى اصطلاح السادة الصوفية بالأنس ، فاذا أنس المحب بربه استوحش مما يقطعه عن رحابه أو يشغله

عن موالاته وفى ذلك يقول أستاذى وسيدى الشيخ على عقل ارتجالا من الهامه الفورى :

قتلت هوى نفسى فعشت بلا نفس
وجافيت أنسى فانحدرت الى الأنس
وأدركت بالوجدان سر أحبتى
وعاينت آيات اليقين بلا لبس
وعشت زمانى لست أحفل بالورى
وكيف وقلبى هام فى مشهد القدس
وما اتخذت روحى سوى الله غاية
فتم الهدى للروح والقلب والحس

واذا تكلم السادة الصوفية عن الرياضة فانما يقصدون بها عدم الوقوع فى رق المادة الى درجة تصرف المريد عن طلب الآخرة ، وبقدر ما يطرح المريد الانشغال بالمادة من قلبه ، ثقة بربه الذى كفل الأرزاق، بقدر ما تصفو روحه فى جنب الله ، ولذلك قالوا ان الكافر يتمتع والمؤمن يتزود ، فبينما يصرف الكافر همه للماديات والتقلب فيها ، يسخر المؤمن المادة فى مرضاة ربه فينفقها فى القربات لا فى الشهوات ، لأنه يملكها للحقوق لا للمحظوظ ، لأن المؤمنين يضعون فى اعتبارهم على الدوام قوله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) .

واذا عزف المؤمن عن كروب المادة الدنية واتجه بكلياته الى فيحات الآخرة الرضية عوضه الله تعالى فرق بفضل الله وجدانه واشتد الهامه وتولاه الله فى جميع أموره وذلك مصداق قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما) . وقوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ولا شك أن السادة الصحابة الأطهار قد بلغوا فى حب الله ورسوله والتزام الطاعة الغاية التى لم يبلغها أهل الأجيال التى تلتهم ، وقد رأينا أن الله تعالى قد علمهم بعد جهل ، وجمعهم بعد فرقة وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، وكانت كلمات الخلفاء الراشدين فى خطبهم أو رسائلهم باهرة كأنها من مشكاة النبوة وما زالت للخلف نبراسا يهتدون به الى الحق فى كدورات الحياة .

ويقول سيدى الامام الكبير الحارث المحاسبى رضى الله عنه وأرضاه فى وصف سادتنا الصحابة رضى الله عنهم :

« وقد بانوا بفضل المعرفة على غيرهم والزيادة فى العمل بهـا لله جل ثناؤه من طهارة القلوب ، وادامة الذكر ، وكثرة التقرب الى الله سبحانه بالنوافل ، وبذل الطاقة والجهد نصيحة لأنفسهم ، وطلبا للحظوة عنـد سيدهم .. فكانوا بذلك عن حركات الطبع متجافين متشاغلين ، وبكل داع يدعوهم الى غيره مستثقلين ، وعن كل فترة تميل بهم الى الراحة نافرين والى كل حاد يحدوهم الى الزيادة ساكنين ، وعلى العمل المقرب لهم الى الله عاكفين .

« أمات العلم بالله لهم أهواءهم ، وغلب لهم أعـداءهم ، وجمع لهم شملهم ، وأحكم لهم أمرهم ، وكان التوفيق لهم صاحبا ، وخفى اللطف من الله دائما ، والتأييد لهم من سيدهم مرشدا .. فلم يكونوا للأوقات مضيعين ، ولا باستجلاب ما كفوا متشاغلين ، ولا لـما أحب الخـلق من الاستكثار محبين » .

وأنت ترى من ذلك الوصف شرح ما قاله سيدى الشيخ عبد السلام فى عبارته التى وردت فى صدر المقال ، فان السادة الصحابة ترقوا الى مقامات القرب وصـارت أرواحهم مع الله فلم يروا غيره سبحانه ؛ فشغلهم به غما سواه وكفاهم ما اشتغل الناس به من أمر الدنيا الفانية (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) .

واذا كانت ثمار الطاعة الدائمة قد نضجت فى جيل السادة الصحابة ؛ فان الأجيال الذين جاءوا من بعدهم قد انتفعوا من بذور تلك الثمار اليانعة فنالوا من خيراتها وبركاتهـا وتشـبهوا (ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين) لا بل ان قلة من المتأخرين لحقت بالسـابقين المقربين منهـم مصداقا لقوله تعـالى (والسابقون السابقون . أولئك المقربون . فى جنـات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين) .

وقد من الله تعالى على من فضله فسلكت طريق السـادة الصوفية على مشرب الطريقة الخليلية لصاحبها العلم الأشهر والمجدد الأكبر سلطان وقته سيدى الغوث الحاج محمد أبى خليل (وضريحه المبـارك ملحق

بمسجده المعروف بالزقازيق) وسلكتها على يد خليفته الكامل العارف الربانى سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى (وضريحه المبارك ملحق بمسجده المعروف بقرية كفر تهرمس جيزة فرأيت فى أهـــل الطريقة الخليلية تحقيق ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام فى وصف أهل الله، وكان هو وتلميذه العارف بالله الشيخ على عقل من أبرز الأمثلة المؤيدة لذلك الوصف وقد كشفت سلسلة « الصوفية فى الهامهم » عن شىء من أنوار النثر والشعر المأثور عنهما وان كانت شمائل رجال الطريقــة العاليــة وصفاتهم الشامخة مستكنة فى جوانحنا بصورتها النورانية التى يحسها الوجدان ويعجز عن وصفها البيان •

وتتميز الطريقة الخليلية بغزارة الالهام فى سالكيها ، والالهام أثر ظاهر بينهم من آثار ذكر الله ذكرا كثيرا ، حيث لا يحد الذكر فيها بحد أعــلى وانما يذكر الذاكر ما وسعه الجهد ولو ذكر فى ليلة واحدة عشرات الألوف، وليس الالهام عند السالكين وقفا على طائفة المثقفين بل يتعــداهم الى غيرهم من غير المتعلمين كما شاهدنا ذلك مرارا ، فكنا نسمع شعرا رقيقا على البديهة من المرحوم السيد / أحمد السخاوى وكان نجارا ، وممــا سمعناه منه منشدا على مجلس الذكر الهاما وارتجالا قوله رحمه الله :

يا نســـيم الصـــبح هـــل خلت رشــــا
شــــبه نجـــــار بقـــــادوم يدق
قال انى خلتـــــه فوق الســــماء
يســـتقى الأسرار مـــن رب الفـــلق

وكذلك كان مما قال :

فقابلنى المختـــار فى عالم الســـما
فقلت عجيبـــــا جئت من أرض طيبــــة
فقـــال بلا عجب أنا أصـــل ذا الورى
ترانى بعـــين الحب فى كل بقعـــة

ومن الهام المرحوم السيد رضوان عثمان رحمه الله قوله :

أيهـــــــا العـــــــذال مهـــــلا
اذ رأيتـــــــــم مـــــــا يريب

لو لقيتم ما لقينا
ما عذلتم ما يذيب
أو علمتم ما علمنا
لارتجفتم من قريب
حالنا بالله حال
سرنا سر عجيب
كل من ينكر هذا
فهو أعمى لا يصيب
قم بجنح الليل واصل
واشهد الحق الحبيب
ثم كن لله أخ ثى
قد أتى وقت المشيب
واستمد الله عفوا
واسخ بالدمع الصبيب
واذكر المولى دواما
ثم قل انى منيب
كيف يغوى من دعاه
من دعاه لن يخيب

ومن الهام المرحوم المهندس الزراعى السيد / محمد لطفى خشبة رحمه الله قوله :

وعن شيخى أخذت السر غضا
وجلى لى الكنوز النادرات
ولم أك غير مزمار وشيخى
هو الموحى بتلك المبدعات
وعنه كم شدا غيرى فأشجى
وجاء بكل آى معجزات
وان خاض العلوم تجده بحرا
تدفق فى المعانى الفائقات
مواهب للخليل زهت وفاضت
على الاتباع غرا فاخرات

ومن الهامه نثرا رحمه الله :

الهى : واجعل علمى بك علم المتأدبين الموفقين لطاعتك لا علم المتكبرين المنسلخين بعد رؤية جليل آيتك .

الهى : واحينى بك حياة من أردته لك وخصصته بمحبتك . وكملته مع نقصه فاستوى بك دالا على حفى مودتك ، وقربنى — رغم عصيانى — اليك لأكون آية ناطقة على كريم منحتك ، ومظهرا من مظاهر جودك المتدفق ، وبرهانا لأهل الصفو من خاصتك ، وحتى أعلم ويعلموا أن المرد فى وصلك انما هو بمواصلتك ، وان التوفيق منك والقبول لا يكون الا بمشيئتك ، وأن عنايتك اذا تبدت فالشقى سعيد ، ولمحات قربك ان تجلت وصلت العانى الطريد .

ومن الهام المرحوم السيد / على السيد قوله رحمه الله وكان من حملة الشهادة الابتدائية :

لله در أبى خليل انه
شيخ قد ازدانت به الأرجاء
شهد الزمان بفضله وبأنه
هو للنفوس الدرة العصماء
أحيا المكارم والفضائل عصره
وانهل وابله وفاض الماء
ما دون معرفة الاله سعادة
كلا ولا دون الوصول هناء
صلى الاله على الذى من أجله
خلق الوجود وتمت النعماء

ومن الهام المرحوم الشيخ مساعد بكر وكان رحمه الله من عمد الريف قوله :

هدانى الهوى حتى وصلت الى الرحب
وهذب قلبى فى مشاهده ربى

ولمـــا ارتقت روحى لحى جنـــابه
أفاض لهـــا سرا يحققـــــه قلبى
فقلت لأهـــل الحب هيمـوا صـبابة
يفوز بفضـــل الله من طاف بالغيب
ترانا نؤاخى النـــاس لـكن قلوبنـــا
مـع الله لا تلهى بأهـــل ولا صحب
سكارى ومـا كنـا سكارى وانمـــا
نغيب من الاجـــلال فى ساحة الجذب
سعت بالرضا روحى الى العرش ساعة
لقيت بهـــا عند المهيمن ما يســـبى
فعـــلمنى ممـــا رأيت سرائــرا
تفيض لروحى حيث قـد رفعت حجبى
فمـــا أنا الا نفحـــة أحمـــدية
تجليت باسم الله فى الشرق والغرب

ومن الهام المرحوم الشيخ محمد البسطويسى قوله رحمه اللـه وكان مأذونا بالريف :

تناجيــه والأرواح تســـجد هيبـــة
لعـــزته العليـــــا بعرش الحقيقة
ولى نهضـــة العشـــاق فى كل مجمع
ولى نشـــوة الأشـــواق فى كل حالة
فلولا هواهــــا ما تولانى الهـوى
ولولا رضاهــــا ما رضـيت بمذلتى
أتيـــه ولاء تحـت ظـــل لـوائـكم
وفى مشــهد النجـوى حمـدت هدايتى

واذا علم القارىء العزيز أن مستوى ثقافتهم لم يكن يهيئهم لأن يقولوا مثل هذا الكلام العذب أدرك أن الهامهم آية من الآيات التى أيد الله بها شيخ الطريقة وهو سيدى الغوث الحاج محمد أبو خليل رضى الله عنه . ومع كثرتهم وكثرة من سمعت بنفسى منهم فانى لم أجد ظاهرة الالهام المتدفق أغزر مما كان يلهم به فى كل وقت من ليل أو نهار سيدى العارف بالله الشيخ على عقل فكان رضى الله عنه أشهر وأذكر من عرفه النـــاس فى هذا المقام فكان كالشمس اذا طلعت اختفت فى نورها الكواكب وكان

سيدى الشيخ أبو خليل يمزح معه ويقول له « قول يا على يا بنى انت هاتجيب حاجة من بيت أبوك ؟ ويرد سيدى الشيخ على الفضل الى ربه ببركات شيخه فيقول :

كـل شىء ينتـهى فى مـوته
غير سر اللـه عنـدى ما نفـد
لى خليـل كلمـا أملته
جاءنى الفيض اذا سح المدد
كلما قد زاغ قلبى قال لى
يا معنى قل هو الله أحد

الا رضى الله عن سيدى الشيخ أبى خليل الذى سلك بتابعيه سبيل الهدى على منهج الشرع الشريف ، فنأى بهم عن مواطن الضلال والردى ، فكان له فضل الدلالة والارشاد ، وكانت لهم ثمرات السلوك الصحيح ، جعلنا الله من المحسوبين عليه والمنسوبين اليه والمحشورين فى زمرته تحت لواء سيد المرسلين يوم يقوم الناس لرب العالمين ويتحقق قوله تعالى : (يوم ندعو كل أناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا) .

كل شيء بقضاء وقدر

« ان الله فطر الناس كما يريد ، فسبحان من أرضى العبيد ، له الجنة وله النار ، قوله الحق وله الملك ، وهو على كل شيء قدير ، لا مانع لما أعطى وما منعه الا بما قدر ، « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

جاءت تلك السطور فى رسالة بعث بها شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعه زاده الله فضلا وهى تدور حول الرضا بما يجرى به القضاء فى المنع والعطاء لانه تعالى هو الفعال لما يشاء ، وكل شيء عنده بمقدار ، ولا يقع فى ملكه الا ما أراد ، لانه مالك البلاد والعباد، والضلال والرشاد ، ماشاء كان ، ومالم يشأ لم يكن ، وليس للعبد أن يعترض بقلبه أو بلسانه على ماشاء ، لان ايمانه بالله يقتضى التسليم المطلق لصاحب السلطان الذى لا شريك له . وقد جاء فى خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول جمعة صلاها بالمدينة المنورة : « قد علمكم الله كتابه،ونهج لكم سبيله،ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله اليكم ، وعادوا اعداءه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم ، وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ولا قوة الا بالله ، فأكثروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم ، فانه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله مابينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة الا بالله العلى العظيم » .

وليس معنى التسليم بالقضاء ومواقع المقدور أن يترك الانسان العمل اتكالا على ما جرى به المقدور ، فان الغيب لله طواه عنا ، واستقل بعلمه سبحانه ، فلا يحيط العباد بشيء منه الا بما شاء ، وقد كلفنا جل وعلا أن نعمل ، ويوم القيامة يسألنا عما كلفنا ولا يسألنا عما

قضاه وطواه عنا • فوجب علينا أن نكون كالزارع يبذر البذور ويترك لله مآلها ان شاء انبتها وان شاء أماتها ، وان شاء بارك ثمرتها وان شاء قللها ، وهذا ما يكشف لك عن معنى قوله تعالى (أفرأيتم ما تحرثون • أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون • لو نشـــاء لجعلناه حطـــاما فظلتم تفكهون • انا لمغرمون • بل نحن محرومون) •

ومن ذلك ندرك أن اتخـــاذ الاسباب بالعمل واجب على المـــؤمن ، ولكن ينبغى أن يقرن هذا الواجب بواجب آخر يستدعيه ايمانه بربه وهو أن يشهد من وراء حجب الغيب عون الله تعالى وفضله واثره ، فلا يعتمد على عمله أو علمه وحده فيتشبه بقارون حين غره ماله الكثير وأنكر فضل الله عليه بكفره وقال (انما أوتيته على علم عندى) فكانت عاقبته كما حكى الله فى سورة القصص (فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصريـــن • وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا ان من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون) •

وفى حين يقول تعالى (يختص برحمته من يشاء) بين سبحانه طريق الوصول الى رحمته فقال تعالى (ان رحمة الله قريب من المحسنين) وبذلك أسقط حجة الكسالى الذين يتعللون بقضاء الله وقدره ليعفوا أنفسهم من العمل جهلا بالدين الذي فرض علينا العمل ووعدنا الاجر عليه فقال تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) كمـــا قال الله تعالى (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) كمـــا يقول سبحانه (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) فيجب أن يكون المؤمن فى دينه ذا عينين، فينظر بعين الشريعة الى أوامر الله ونواهيه ، فيأتمر بما أمـــره الله وينتهى بما نهاه عنه ، وينظر بعين الحقيقة الى قضاء الله فيرضى بواقع المقدور ويسلم لربه فيما قضاه وحكم به ، فلا يصده الشيطان بالسخط على المقدور عن العمل بطاعة الله كما يحب الله •

وعن ابن عباس قال ، قال عمر بن الخطاب : قـــرأت الليلة آيـــة أسهرتنى (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) ما عنى ؟

فقال بعض القوم : الله أعلم ، فقال : انى أعلم ان الله أعلم ولكنى سألت ان كان عند أحد منكم علم وسمع فيها بشيء أن يخبر بما سمع، فسكتوا فرآنى وأنا أهمس ، قال : قل يا ابن أخى ولا تحقر نفسك ، قلت : عنى بها العمل ، قال : وما عنى بها العمل ؟ قلت : شيء القى فى روعى فقلته ، فتركني واقبل وهو يفسرها : صدقت يا ابن أخى ، عنى بها العمل ، ابن آدم افقر ما يكون الى جنة اذا كبر سنه وكثرت عياله، وابن آدم أفقر ما يكون الى عمله يوم القيامة ، صدقت يا ابن أخى .

وتلك الآية التى يشير اليها ابن عباس رضى الله عنهما وردت فى سورة البقرة وهى بتمامها (أيود احدكم ان تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) وقد جرت الآية السابقة عليها هكذا (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير) ويقول الامام القشيرى فى لطائف اشاراته بعد الآيتين الكريمتين :

هذه آيات كثيرة ذكرها الله تعالى على جهة ضرب المثل للمخلص والمنافق لمن أنفق ماله فى سبيل الله ، ولمن أنفق ماله فى الباطل ، فهؤلاء يحصل لهم الشرف والخلف ، وهؤلاء لا يحصل لهم فى الحال الا الرد وفى المآل الا التلف ، وهؤلاء ظل سعيهم مشكورا وهؤلاء يدعون ثبورا ويصلون سعيرا ، هؤلاء تزكو أعمالهم وتنمو أموالهم وتعلو عند الله أحوالهم وتكون الوصلة مآلهم ، وهؤلاء حبطت أعمالهم وخسرت أحوالهم وختمت بالسوء آمالهم ويضاعف عليهم وبالهم .

ويقول الامام الحارث المحاسبى فى وصف عباد الله المقربين :

ان أنعم عليهم شكروا ، وان منعوا صبروا ، اذاقهم الله طعم محبته ، ونعمهم بدوام العذوبة فى مناجاته ، فقطعهم ذلك عن الشهوات، وجانبوا اللذات ، وداموا فى خدمة ملك الارض والسموات ، قد اعتقدوا الرضا قبل وقوع القضاء ، طاب والله عيشهم ، ودام نعيمهم، فعيشهم سليم وغناهم فى قلوبهم مقيم ، كأنهم نظروا بأبصار القلوب

الى محجوب الغيوب ، فقطعوا كل محبوب ، فصار الله جل جلاله هو المنى والمطلوب •

ويبين لنا العارفون أن الشريعـة كالسفينة ، والطريقة كالبحـر ، والحقيقة كالدر ، والشريعة هى أن تعبد الله ، والطريقة هى أن تقصده، والحقيقة هى أن تشهده ، فالشريعة هى اتباع ما أمر الله به ورسوله، والطريقة هى اتخاذ التقوى وما يقربك الى المولى، والحقيقة هى الوصول الى المقصد ومشاهدة نور التجـلى • كما قيل فى الصلاة انها خـدمة وقربة ووصلة ، فالخدمة فى الشريعة والقربة فى الطريقة والوصلة هى الحقيقة ، والصلاة جامعة لهذه الخصال الثلاثة •

وقال العارفون ان المريد فى سفر ، فهو يسافر من النفس الى القلب، ومن القلب الى الروح ، ومن الروح الى السر ، ومن السر الى خـالق الكل ، ومسافة هذا السفر بعيدة جدا بالنسبة للنفس وقريبة جـدا بالنسبة الى الله تعالى ، وليس بيننا وبين الله مسافة نقطعها بل هى حجب اذا زالت عنا غشاوتها أبصرنا الحقيقة من ورائها فوصلنـا الى حضرة نشهد فيها ونتحقق ألا فاعل الا الله • ويقول العـارفون ان طهارة الشريعة بالماء ، وطهارة الطريقة بالتخلية عن هـوى النفس ، وطهارة الحقيقة خلوة القلب عما سوى الله • وهم يقولون بحق : لو رأيت شخصا يطير فى الهواء أو يمشى على البحر أو يأكل النـار وهو يترك فرضا من فرائض الله تعالى أو سنة من سنن النبى صلى اللـه عليه وسلم فاعلم أنه كذاب فى دعواه وليس فعله كرامات بل هو سحر• ويقول الامام المرسى أبو العباس رضى الله عنه : ليس الشأن أن تطوى لك الأرض فتصير فى مـكة أو غيرها من البلدان ولـكن الشأن أن تطوى لك أوصاف نفسك فتصير مع الله •

ويقول سيدى الامام أبو طالب المكى رضى الله عنه فى كتابه القيم قوت القلوب : الرضا عن الله تعالى من أعلى مقامات اليقين بالله ، وقد قال تعالى (هل جزاء الاحسان الا الاحسان) فمن أحسن الرضا عن الله جازاه الله بالرضا عنه ، فقابل الرضا بالرضا ، وهذا غاية الجزاء ونهاية العطاء وهو قوله عز وجل (رضى الله عنهم ورضوا عنه) وقـد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول : أصبحت ومالى سرور الا فى مواقع القضاء •

ويقول العارفون : ومن الرضا عند أهل الرضا الا يقول العبد : هذا يوم شديد الحر ولا هذا يوم شديد البرد ، ولا يقول : الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب ، بل يرضى القلب ويسلم ويسكن العقل ويستسلم بوجود حلاوة التدبير واستحسان حكم التقدير • وقد قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبت ان كان الفقر فان فيه الصبر ، وان كان الغنى فان فيه البذل • وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ماأبالي على أى حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء ، وقد قال مرة رضى الله عنه لامرأته عاتكة رضى الله عنها : والله الاسوأتك ، فقالت : اتستطيع أن تصرفنى عن الاسلام بعد ان هدانى الله له ؟ قال : لا ، قالت : فأى شيء تسوءنى اذن ؟ ويقول سيدي الفضيل بن عياض رضى الله عنه : اذا استوى عند المؤمن المنع والعطاء فقد رضى •

ويروى الامام أبو طالب المكى رضى الله عنه حديثا حسنا كالمسند عن حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك :

« اذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتى أجنحة فيطيرون من قبورهم الى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون كيف شاءوا ، قال فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : ما رأينا حسابا ، فيقولون: هل جزتم الصراط ؟ فيقولون : مارأينا الصراط ، فيقال لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : مارأينا شيئا ، فتقول الملائكة : من أمة من أنتم ؟ فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : نشدناكم الله ، حدثونا ماكانت أعمالكم فى الدنيا ؟ فيقولون : خصلتان كانت فينا فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته ، فيقولون : وماهما ؟ فيقولون: كنا اذا خلونا نستحى أن نعصيه ، ونرضى باليسير مما قسم لنا ، فتقول الملائكة : يحق لكم هذا » •

وقد قال سيدنا لقمان عليه السلام لابنه فى وصيته : أوصيك بخصال تقربك الى الله وتباعدك من سخطه،الاولى تعبد الله لا تشرك به شيئا ، والثانية الرضا بقدر الله فيما أحببت وكرهت • وفى أخبار سيدنا داود عليه السلام : يا داود : ما لأوليائى والهم فى الدنيا ، ان الهم يذهب حلاوة المناجاة من قلوبهم •

وقد جاء فى الرسالة الوفية فى الرد على منكرى الصوفية ومؤلفها سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه أبيات من الشعر لوالده العالم العارف سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى يقول فيها رضى الله عنه :

على كل الورى يجرى القضاء
وليس خلاف ما حتم القضاء
فليس يسوقنا الا القضاء
وليس يعوقنا الا القضاء
يحركنا يسكننا القضاء
يجمعنا يفرقنا القضاء
يقربنا ويبعدنا القضاء
يقدمنا يؤخرنا القضاء
يحلينا ويخلينا القضاء
ويعطينا ويمنعنا القضاء
وينطقنا ويسكتنا القضاء
ويطوينا وينشرنا القضاء
ويخفضنا ويرفعنا القضاء
ويقبضنا ويبسطنا القضاء
ويحزننا ويبهجنا القضاء
ويبكينا ويضحكنا القضاء
ويفقرنا ويغنينا القضاء
ويسقمنا ويشفينا القضاء
ويلهمنا ويذهلنا القضاء
ويسلمنا وينصرنا القضاء
ويشقينا ويسعدنا القضاء
ويحيينا ويفنينا القضاء
وينشرنا ويحشرنا القضاء
ويفصل بالقضاء فينا القضاء
فان وقع الجفا فهو القضاء
وان حصل الرضا فهو القضاء

فأنــت اللـــــه منــك لـــك القضـــــاء
ومــالســـــــــواك ينتســـب القضـــــاء
الٰهي الطــف بنـــا فيمـــا القضـــــاء
بـــه يجـــرى اذا انحتــــــم القضـــاء

وقد وقع لى حادث فى شبابى كان له أثر شديد على نفسى ، فلجأت الى الله فى ضعفى أن يخففه بفضله عنى ، واعتصمت بكتاب الله الكريم فقرأت ما تيسر منه ، وكان مما قرأته سورة الحديد فلما تلــوت قوله تعالى فى تلك السورة (ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير • لكيلا تأســـوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) نزل هذا القول الكريم على قلبى بردا وسلاما فخلقت خلقا جـــديدا فبدل الله خوفى أمنا وجزعى صبرا وألمى أملا وسبحان القائل (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) ومن يومئذ اعتدت أن اتذكر الآيتين المذكورتين كلما نزلت بى نازلة أو أصابنى مكروه فأرضى بقضاء الله وقدره من غير تبرم أو سخط •

أقول ومع ايمان المؤمنين بالقضاء فان الله تعالى تعبدهم بالتكاليف الشرعيـــة كما تعبـــدهم بالدعـــاء والالتجـــاء اليـــه فى الاضـــطرار والاختيار فقال تعالى (وقال ربكم ادعونى استجب لكم) كمـــا قال تعالى (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف الســـوء) وقال (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) ويقول سيدى الامام القشيرى تعقيبا على تلك الآية الأخيرة فى لطائف الإشارات :

سؤال كل أحد على حاله لم يسألوا عن حكم ولا عن مخلوق ولا عن دين ولا عن دنيا ولا عن عقبى بل سألوا عنه فقال تعالى (واذا سألك عبـــادى عنى) وليس هؤلاء من جملة من قال (ويسألونك عن الجبال) ولا من جملة من قال (ويسألونك عن اليتـــامى) ولا من جمـــلة من قال (ويسألونك عن المحيض) ولا من جملة من قال (ويسألونك عن الروح) ولا من جملة من قال (يسألونك عن الخمر والميسر) ولا من جملة من قال (يسألونك عن الشهر الحرام) •

هؤلاء قوم مخصوصون (واذا سألك عبادى عنى) أى اذا سألك عبادى عنى فبماذا تجيبهم ؟ ليس هذا الجواب بلسانك يا محمد ، فأنت وان كنت السفير بيننا وبين الخلق فهذا الجواب أنا أتولاه (فانى قريب) ثم بين أن تلك القربة ما هى : حيث تتقدس الحق عن كل اقتراب بجهة أو ابتعاد بجهة أو اختصاص ببقعة فقال (أجيب دعــوة الداع) وان الحق قريب من الجملة والكافة بالعلم والقدرة والسماع والرؤية ، وهو قريب من المؤمنين بالنصرة واجابة الدعوة ، وجل وتقدس عن أن يكون قريبا من أحد بالذات والبقعة ، فانه احدى لا يتجه فى الاقطار وعزيز لا يتصف بالكنه والمقدار • وقوله تعالى (أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) لم يعد اجابة من كان باستحقاق زهد أو الى زمان عبادة بل قال (دعوة الداع) متى دعانى وكيفما دعانى ، ثم قال (فليستجيبوا لى) هذا تكليف ، وقوله (أجيب دعوة الداع) وكأنه قال : اذا دعوتنى عبدى أجبتك فأجبنى أيضا اذا دعوتك ، أنا لا أرضى برد دعائك فلا ترض عبدى بردى من نفسك ، ثم قال فى آخر الآية (لعلهم يرشدون) أى ليس القصــد من تكليفك ودعائك الا وصولك الى ارشادك » •

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه :

ففــى افتقــارى وتســآلى ومــد يدى
أقــــوى دليـــــل على أن تقضى الاربــا
لــو لــم تردنى لمـــا أرجــــو وآملــــه
من فيض جـــــودك مــا علمتنى الطلبــا

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ليس كل امر كمــا يريد صاحبى ، ما قال لى لشىء فعلته لم فعلته ، ولا لشىء لم أفعله الا فعلته ، ولا قال فى شىء كان ليته لم يكن ولا لشىء لم يكن ليته كان» كان يقول « لــو قضى شىء لكــان » • وقد اختلف العارفون فى أى المقــامات أفضل : عبد يحب الموت شوقا الى لقاء الله ، وعبد يحب البقاء للعبادة والخدمة ، وعبد قال : لا اختار شيئا بل أرضى ما يختار لى مولاى وان شاء أماتنى غدا ، قال فتحاكموا الى بعض العارفين فقال : صاحب الرضا أفضل بترك الاعتراض والاختيار ، فقد دخل دار (الدنيــا) بغير اختيار ،

وكذلك يكون خروجه منها على معنى دخوله بلا اختيار ، لان مقام الرضا أعلى من مقام التشوق ثم الذى يليه فى الفضل الذى يحب الموت شوقا الى لقاء الله ، وهذا مقام فى المحبة ، وفى الخبر : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه والذى يحب البقاء للخدمة وكثرة العبادة هو فاضل بعد هذين ، مقامه قوة الرجاء وحسن الظن فى حفظ الله ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل المؤمنين ايمانا ، أو قال « أكمل المؤمنين ايمانا ، من طال عمره وحسن عمله » لان الاعمال مقتضى الايمان ولان الايمان علم وعمل •

ويقول سيدى سفيان الثورى رضى الله عنه : منع الله عطاء ، لانه يمنع من غير بخل ولا عدم ، فمنعه اختيار وحسن نظر ، لان حقيقة المنع انما يكون لمن لك عنده شىء فمنعك ، أو تستحق عليه شيئا فلم يعطك ، فأما من لا تستحق عليه شيئا ولا لك معه شىء فله الحق والأمر ولا يشرك معه أحدا ، والعبد لم يكن شيئا مذكورا ، فكل شىء اختاره فهو عطاء منه ، على تفاوت مقادير وضروب أحكام ، حلو ومر ، ولطف وعنف ، وشدة ورخاء ، فالصبر على الاحكام مقام المؤمنين ، والرضا بها مقام الموقنين (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) •

ويقول العارفون ان مقام الرضا فوق مقام الصبر والشكر • كما قالوا أن العصمة حال الراضى عن الله عز وجل ، وهى ظاهر الرحمة والرحمة أول الرضا من الله تعالى حيث يقول جل جلاله (ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى) وقال تعالى (لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم) فالعصمة من الله تعالى لعبده دليل على الرحمة منه ثم تدخله الرحمة فى مقام المحبة وهى رحمة المحبوبين ، ثم ترفعه المحبة الى الرضا •

ويقول سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ على عقل طيب الله ثراه فى ذلك من الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

مذ رأونى أهيم فى الله صبا
أدخلونى فى الحكمة الميدانا
علمونى كيف المسير الى الله
وقالوا خذ الرضا تيجانا

نتنـــــادى الى اليقـــين هلمــــوا
وبهــــذا لربنـــــا نتـــدانى

قــد نشـــأنا على اليقـين صـــغارا
وكبــرنا ومــا جهلنــــا المــكانــا

وادخـــرنا اليقـــين للحشـــر ذخـــرا
ومـــلانا مـن الثبـــات جنـــانا

ولبســـنا مـن الحيـــاء شعـــارا
وجعلنـــاه فوقنـــا طيلســـانا

قــد علمنـــا أن المحبـــة كنـــز
كـــل من صـــانهـا ســـما بنيـــانا

كما قال رضى الله عنه الهاما لوقته يعلمنا الصبر على المكروه :

لـــولا التـــألم فى الحيـــاة لمـا بـدا
نــور التـــأمل لامـــرىء قـــوام
لـــولا وقـــود النـــار فيمـــا ينبغى
مـــا كـان ينضـــج بعــد أى طعـــام

ويقول السادة الصوفية : رضاء العوام بما قسم الله وأعطى ورضاء الخواص بما قدره وقضاه ، ورضاء خواص الخواص بالله تعالى عن كل ما سواه • ويقول سلطان الموحدين سيدى على البيومى رضى الله عنــه :

كـل لــه ورد يكـــون وســـيلة
لمعـــاشــه ومعـــاذه ومعـــاده
وجعلـــت وردى فى الخـــروج عن الســـوى
وأكـــون مـــع مـــولاى تحـــت مـــراده

وقد كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنــه الى أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه يقول : « أما بعد فان الخير كله فى الرضاء، فان استطعت أن ترضى والا فاصبر » • وقد استوى عند أمير المؤمنين عمر الرخاء والبلاء فقال رضى الله عنه : لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت ايما اركب •

ويعلمنا السادة الصوفية أن الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ، ويقصدون بالصبر على العافية الا يستعمل المؤمن نعم الله من قوة بدن ، أو جاه سلطان ، أو كثرة المال فى متابعة هوى النفس ومخالفة أوامر الله ونواهيه ، فان استعمال النعم فى معصية الله كفر بنعمة الله ، والعبد مأمور بشكر الله ، والشكر يقتضى ألا يستعمل نعم الله فى معاصيه ، وقد مدح الله المنفقين فى السراء والضراء فمدحهم بوصف واحد فى الحالتين حالة اليسر وحالة العسر ، فلم يخرجوا باليسر عن طاعة الله ومرضاته عز وجل فهم يحرصون على محبة الله تعالى ، والحبيب لا يخالف • ومن حكم العارفين : لا تنظر الى صغر الذنب ولكن انظر الى عظمة من تعصيه •

كما يعلمنا السادة الصوفية ان فى معرفة الله تعالى عوضا عن كل العلوم وليس فى سائر العلوم عوض عن معرفة الله • وكل علم موقوف على معلومه، فعلم اليقين معلومه الله تعالى ، ففضله كفضل الله تعالى على ما سواه • ولذلك قال بعض الحكماء : من عرف الله تعالى فماذا جهل ؟ ومن جهل الله تعالى فماذا عرف ، فالعلماء بالله تعالى هم ورثة الأنبياء ، لأنهم ورثوا عنهم الدلالة على الله تعالى والدعوة اليه (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) ويحشرون يوم القيامة مع الأنبياء بدليل قوله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) •

وقد طلب بعض الناس الى سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه أن يأتى له الهاما لوقته بأبيات على وزن البيت التالى وقافيته :

الله قل وذر الوجود وما حوى
ان كنت مرتادا بلوغ كمال

فقال فورا :

الله قل ، وذر الوجود وما حوى
متأدبا فى ساحة الاجلال
سلم لتسلم فى حياتك انه
من لازم التقوى سما بظلال
واجعل لنفسك من قضا الله الرضا
حتى تكون موفق الأعمال

فتشت كـل الخـلق عـن علـم فلـم
أر لـي سـوى رب السـما من وال
فتركـت كـل العـالمين وجئتـه
وجعلـت ذكـرى ذاتـه منـوالى
ان كنـت تحسـب ان فى المـال الغنى
أنا قـد جعلـت رضـا المهيمن مـالـى

وأطال رضى الله عنه حتى قال آخر الأمر :

فاجعـل هـداك شريعتـى وذريعتـى
واجعـل شـهودك لـى مسرة حـالـى
ان مـر بـى عصـف الزمـان وقصـفه
واللـه لسـت بمـا شـهدت أبـالـى
أأحبـه وأخـاف سـطوة غـيره
هـذا وحقـك لا تعيـه خصـالى
روض المحبـة قـد شـهدت جمـاله
وجـلاله فثبـت فى أحـوالـى
يـا نفـس انـى لا ألـوذ بغـيره
قـومى الـى حـوض الـكريم تعـالى
سـلم لربـك أمـره واتـرك لـه
أقـداره واحـذر من الأقـوال
وذر العبـاد وشـأنهم وفعـالهم
ان كنـت مـرتـادا بلـوغ كمـال

ومما نقلناه من انشاده الفورى قوله رضى الله عنه :

أضـاء الـهدى قلبـى ونقى سريرتى
فلسـت كبعـض النـاس أنسـب للتـرب
وطهـرت فى نجـواك سر جـوانحـى
فخلصتها من عـالـم البعـد والحجب
رضـاء الفتـى بالله يشرح صـدره
فلـن يتـأذى بالحـوادث والخطب
ونحـن أولـو علـم ولكـن بوجـدنا
شربنـا من الأنـوار مـا ليس بالشرب

وكذلك كتبنا عنه من الهامه الفورى :

حيــاة الــورى حــلو ومــر وانمــا
حــلا المــر بالتوحيــد من رقــة الحس
وانــك لــو عظمــت دينــك عالمــا
وعاملــت بالحســنى وأدبــت للنفس
وكنــت علــى الأحــداث باللــه راضــيا
ســواء عليــك المــوت أو ســاعة العــرس
ســعدت من الدنيا بربــك محســنا
ونلــت من الأخــرى العطــاء بــلا بخس
اذا قيــل لــى اطلب قلت ربــى مطلبى
وان قيــل لــى اشرب قلت انواره كأسى

وحسبك من هذا الذى قرأته أن تعلم أن السادة الصوفية يتقلبون بيننا باجسادهم ويكونون مع الله بقلوبهم ، ويتعرضون لما يتعرض له سائر البشر من البلايا والمكاره ، لكنهم يصبرون حيث يجزع غيرهم ويرضون حيث يسخط غيرهم ، لانهم فهموا عن الله وأدركوا أن القضاء قضاؤه والحكم حكمه ، فلم يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضاه ،

(أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) •

الإنســان وعمــله

« وكل فرد مسئول عن عمله ، فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون ، الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ما كان لله ، فلا أنامسئول عن عمى ابن أبينا آدم ولا خالى أخو بنت أمنا حواء مسئول عنى » .

جاءت تلك الكلمات فى رسالة من رسائل سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه وأخى فى الله الصديق الصالح السيد / سالم جمعة متعه الله برضاه ورزقه العفو والعافية ، وهى تشرح لنا معنى قوله تعالى فى سورة الاسراء « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضـل فانما يضل عليها ولا تـزر وازرة وزر أخرى » ولئن كان الناس جميعا من أصل واحد وهو آدم وحواء عليهما السـلام الا أنهم افترقوا فى المسالك فمنهم مؤمن وكافر ، ومطيع وعاص،وسعيد وشقى، ويوم القيامة يجرى حسابهم وجزاؤهم ، فلا يجزى والد مؤمن عن ولده الكافر ، ولا المولود المؤمن عن والده الكافر ، لأن الانساب لا تنفع مع قطع الأسباب ، والكفر قاطع للأسباب مع قيام الأنساب ، ودليل ذلك واضح فى كتاب الله عز وجل فقد قال سيدنا نوح عليه السـلام شافعا لابنه الذى استحب العمى على الهدى « ونادى نوح ربه فقـال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » فقال تعالى ردا على هذه الشفاعة فى سورة هود « يا نوح انه ليس من أهلك انه عمـل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين» قال سيدنا نوح عليه السلام فى أدب المرسلين الكرام « قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفـر لى وترحمنى أكـن من الخاسرين » . فكرمه ربه قائلا : « قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » .

فانظر رعاك الله كيف فرق الله بين مآل الايمـان ومآل الكفر ، وكيف قطع الله صلة الذم بالكفر الذى أصر عليه ابن سـيدنا نوح فلم يقبـل فيه شفاعة أبيه وعلل ذلك بقوله الكريم « انه عمل غير صـالح » ، ثم انظر كيف حذرنا الله بهذه القصة فى خطابه الكريم لمولانا رسول اللـه

صلى الله عليه وسلم فقال بعد ذلك فى السورة ذاتها « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين » والتقوى لا تقوم الا على أساس الايمان المتين ، ولقد أسس المنافقون مسجد الضرار بالمدينة المنورةوظنوا أنهم يستترون بالمسجدمن نفاقهم وسوء طويتهم فكشف أمرهم لمولانا رسول الله ونهاه عن أن يقوم فيه ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بهدمه ويحكى الله تعالى فى سورة التوبة قصة ذلك المسجد فى قوله تعالى « والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » .

« ويحكى السادة الصوفية فى مقام الايمان أن بعض السلاطين زار ضريح سيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله عنه وقال : هل هنا أحد ممن اجتمع بأبى يزيد ؟ فأشاروا الى شيخ مسن كان حاضرا هناك ، فسأله السلطان : هل تذكر شيئا مما قال أبو يزيد ؟ قال : نعم ، انه قال من زارنى لا تحرقه النار ، فعجب السلطان من ذلك الكلام وقال : كيف يقول أبو يزيد ذلك وأبو جهل رأى النبى صلى الله عليه وسلم وتحرقه النار .

فقال الشيخ للسلطان معلما : أبو جهل لم ير النبى صلى الله عليه وسلم انما رأى « يتيم أبى طالب » ولو رآه رسولا كريما ، صلى الله عليه وسلم ، ما كان من أهل النار ، فأعجب السلطان بكلام الشيخ ، وفهم أن العبرة ليست برؤية العين انما هى بالايمان والتصديق والاتباع .

وأفضل النعم وأجلها نعمة الايمان بالله تعالى ، ثم نعمة الرسول وتصديقه ، ويترتب على التصديق الانتفاع بالكتاب والسنة والجماعة، فنكون فى أمة الاجابة التى قال تعالى فى شرفها « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . ويقول الامام سهل التسترى رضى الله عنه .

خص بمعرفة النعم وبمعرفة عظيم حلم الله تعالى وستره الصديقون، وقد قال تعالى وهو أصدق القائلين : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم » فتمت النعمة بوصفية اللذين هو لهما أهل من المغفرة والرحمة . ثم قال تعالى فى الانسان « ان الانسان لظلوم كفار » فالعبد أهل للظلم والكفر الى أن يجود عليه ربه بالتقوى والمغفرة بقديم ما به تولاه ، فبنعمته أطاعه العاملون ، ومن نعمته جازاهم ، وبنعمته ستر على الجاهلين وحلم عنهم ، ومن نعمته اظهار الجميل وستر القبيح ، فلا ندرى أى النعمتين أعظم جميل ما أظهر أو قبيح ما ستر ، وقد مدحه المادحون بالوصفين معا فى الدعاء المأثور : يا من أظهر الجميل وستر القبيح .

ويروى الامام أبو طالب المكى عن بعض السلف : يقول الله عز وجل ان عبدا أغنيته عن ثلاث فقد أتممت عليه نعمتى : عن سلطان يأتيه ، وطبيب يداويه ، وعما فى يد أخيه . ورد النعمة الى الله من فقه المؤمن بدينه فانه اذا رد النعمة الى الله لم يمن على ربه بعمل صالح يوفق اليه من فضل الله ، وصدق الامام ابن عطاء السكندرى رضى الله عنه حين يقول فى حكمه : اذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق فيك ونسب اليك وهو فى حكمته هذه يستنير بقوله تعالى « وما بكم من نعمة فمن الله » .

ومن نعم الله علينا أن جعلنا فى الايمان مسئولين عن أنفسنا فلا يأخذ الولد بكفر أبيه ولا يأخذ الوالد بكفر ابنه بل « كل امرىء بما كسب رهين » وهو سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقد اشترك عبدان فى اسم المعصية ثم تباينا فى الاجتباء والعصمة فتاب الله على سيدنا آدم عليه السلام حيث قال تعالى فى نهاية أمره « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » وكانت نهاية ابليس « فاخرج منها فانك رجيم . وان عليك اللعنة الى يوم الدين » ونعوذ بالله من غضب الله ومن سوء الخاتمة .

والايمان علم وعمل يزيد وينقص ، وليس المقصود بزيادته ونقصه جوهره وانما متعلقاته من العبادات والمعاملات ، وخير المسلمين ايمانا الصحابة الكرام من المهاجرين والأنصار ، وقد سمى الله المهاجرين باسم الصادقين وسمى الأنصار بالمفلحين ، رضى الله عنهم أجمعين ، وترى

ذلك فى سورة الحشر فى قوله تعالى « للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون • والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، وتدرك من الآيتين ما كان بين الفريقين من مودة وتراحم برابطة الأخوة فى الله فقد اجتمعوا على كلمة التوحيد وكانوا أحق بها وأهلها فجعلتهم يدا واحدة وقلبا واحدا على من سواهم كما وصفهم الله فى قوله تعالى « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » •

ولم يقف الترابط فى الله عند المهاجرين والأنصار بل تعداهم الى من جاءوا بعدهم فقال تعـــالى فى ذلك الترابط الدائم « والذين جـــاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم » ومن آثار المحبة فى الله أن يحسن المؤمن ظنه بأخيه ولا يحسده على نعمة الله بل يشـــيد بها ، وقد سئل امامنا على بن أبى طالب أن يصف أصحابه ، فقال عن أيهم تسألون ؟ قالوا عن سلمان ، قال أدرك علم الأوائل والأواخـــر • قالوا : فعمار ؟ قال ملىء ايمانا الى مشاشه ، قالوا : وحذيفة ؟ قال صاحب السر أعطى علم المنافقين ، قالوا فأخبرنا عن نفسك ، فقال متحدثا بنعمة الله : اياى أردتم ؟ كنت اذا سألت أعطيت ، واذا سكت ابتدئت ، أى اذا سأل الله أعطاه ، واذا سكت لم يحرمه من فضله •

ومع فضل كلمة التوحيد فى الدنيا والآخرة ، فان المؤمن مطالب بعمل الصالحات وترك السيئات والا عرض نفسه للنار التى أعدها الله للكافرين « واتقوا النار التى أعدت للكافرين ، وأطيعوا اللـــه والرسول لعلكم ترحمون » • وقد أخرج الطبرانى بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء من أهل القبلة قال الكفار للمســلمين : الم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم الاسلام وقد صرتم معنا فى النار، قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فسمع الله ما قالوا ، فأمر بمن كان فى النار من اهــل القبلة فأخرجوا ، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا: : ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا ؛.قال ثم قرأ رسول الله

صلى عليه وسلم أعوذ بالله من الشــيطان الرجيم « الر • تلك آيات الكتاب وقرآن مبين • ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » •

وقد خاف السادة الصوفية عاقبة المعاصى ، لأنها تعرضهم لغضب الله وهم يرجون رضاه ، ويطمعون فى عفوه وحسن جواره وهم لذلك يكثرون فى حياتهم الدنيا من ذكر الموت وما بعده ، حتى تنضج بالخوف نفوسهم فتأتمر بأوامر الله وتنتهى بنواهيه سبحانه ، ومن خاف الله فى الدنيـــا أمن من عذابه فى الآخرة لأنه تعالى لا يجمع على عبـــده خوفين ، ولمن خاف مقام ربه جنتان ، ولا يتأتى خوف الله الا بكف النفس عن هواها « وأما من خاف مقـــــام ربه ونهى النفس عن الهوى • فان الجنة هى المـــأوى » •

ويقول سيدى الامام الحارث المحاسبى رضى الله عنـــه فى كتابه « التوهم » مذكرا بالموت وما بعده :

« فتوهم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منهـــا الا الى الحشر الى ربك ، فتوهم نفسك فى نزع الموت وكربه ، وغصصه وسكراته وغمه وقلقه ، وقد بدأ الملك يجذب روحك من بين قدمك فوجدت ألم جذبه من أسفل قدميك ، ثم تدارك الجذب واستحث النزع وجذبت الروح من جميع بدنك ، فنشطت من أسفلك متصاعدة الى أعلاك حتى اذا بلغ منك الكرب منتهاه ، وعمت آلام الموت جميع جسمك ، وقلبك وجل محزون مرتقب ، منتظر للبشرى من الله عز وجل بالغضب أ والرضا ، وقد علمت انه لا محيص لك دون أن تسمع احدى البشريين من الملك الموكل بقبض روحك ، فبينما أنت فى كربك وغمومك وألم الموت بسكراته وشدة حزنك لارتقابك احدى البشريين من ربك ، اذ نظرت الى صفحة وجـــه ملك الموت بأحسن الصورة أو بأقبحها ، ونظرت اليه مادا يـــده الى فيك ليخرج روحك من بدنك ، فذلت نفسك لما عاينت ذلك وعاينت وجه ملك الموت ، وتعلق قلبك بمـــا يفجؤك من البشرى منه اذا سمعت صـــوته بنعمته أبشر يا ولى الله برضا الله وثوابه ، أو ابشر يا عدو الله بغضبه وعقابه ، فتستيقن حينئذ بنجاتك وفوزك ويســـتقر الامـــر فى قلبك ، فتطمئن الى الله نفسك ، أو تستيقن بعطبك وهلاكك ويحل الايـــاس قلبك وينقطع من الله عز وجل رجاؤك وأملك •

وينقلنا سيدى الامام الحارث المحاسبى بخياله الى هول يوم القيامة فيقول رضى الله عنه :

« ... فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم،فينفـرد كل واحد منهم بنفسه ينادى : نفسى نفسى ، فلا تسمع الا قول نفسى نفسى. فيا هول ذلك وأنت تنادى معهم بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه ، فما ظنك بيوم ينادى فيه المصطفى آدم والخليل ابراهيم والكليم موسى والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله عـز وجل وعظم قدر منازلهم عند الله عز وجل ، كل ينادى : نفسى نفسى ، شفقا من شدة غضب ربه ، فأين أنت منهم مـن اشفـاقك فى ذلك اليـوم واشتغالك بذلك اليوم وبحزنك وبخوفك ؟

« حتى اذا أيس الخلائق من شفاعتهم لما رأوا من اشتغالهم لانفسهم أتوا النبى محمدا صلى الله عليه وسلم فسألوه الشفاعة الى ربهم فأجابهم اليها ، ثم قام الى ربه عز وجل واستأذن عليه فاذن له ثم خر لربه عز وجل ساجدا ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لمـا هو أهله، وذلك كله بسمعك واسماع الخلائق حتى اجابه ربه عز وجل الى تعجيل عرضهم والنظر فى أمورهم ، فبينما أنت مع الخلائق فى ظلمات القيامة وشدة كربها تنظر متوقعا لفصـل القضاء والحـلول فى دار النعيم أو الحزن اذ سطع نور العرش وأشرقت الأرض بنور ربها ، وأيقن قلبك بالجبار ، وقد أتى لعرضك عليه حتى كأنه لا يعرض عليه أحد سواك، ولا ينظر الا فى أمرك » .

ويوجهنا شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه الى الجمع بين الخوف والرجاء فيقول فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه:

من عاش يدعـو ربـه	ونفسـه مطهـره
فانـه فى حشـره	يحمـد حسـن المغفـره
لا تيأسوا من روحـه	فاليـائسـون كفـره
أو تأمنـوا من مـكره	فالآمنـون فجـره
ما بين خـوف ورجـا	تعيـد نفس حـذره

ونقلنا عنه كذلك قوله رضى الله عنه :

أنا مذنب واحسرتى ... أنا ما نسيت حسابيه
بل خائف يأتى الحساب ... وما أمنت عذابيه
يا رب أنت علمتنى ... لم تخف منى خافية
سقمى يزيد وانما ... آيات عفوك شافية
ان كان جسمى بالفناء ... ستقوفه متداعية
فالروح بعد فنائه ... فى الخلد شمس سامية

ونقلنا عنه قوله رضى الله عنه :

يا أيها الناس اتقوا ربكم ... فان هول الحشر هول شديد
اعتبروا بمن مضوا قبلكم ... فالموت فوق رأس كل العبيد
وكلنا بعد الردى صائر ... اما شقى ضائع أو سعيد
والعيش فى الدنيا له منتهى ... والعيش فى الأخرى سما بالقلوب
اتركوا غيكم وكونوا جنودا ... للذى فى حماه عز الجنود
كل شىء يحد غير هواه ... لم تحطه من القلوب حدود

ويرى السادة الصوفية أن ترك المعاصى علامة على صدق العبد فى محبته لربه ومن أقوالهم فى ذلك : أعمال البر يعملها البار والفاجر ، والمعاصى لا يتركها الا صديق • وفى وصية سيدنا أبى بكر لسيدنا عمر رضى الله عنهما : الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء ، والباطل خفيف وهو مع خفته وبىء ؛ فان حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب اليك من الموت وهو مدركك ، وان ضيعت وصيتى لم يكن غائب أبغض اليك من الموت ولن تعجزه ، وفى تفسير قوله تعالى « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » ، يقول السادة الصوفية ، اذا كنت فى بلد يعمل فيها بالمعاصى فتحول منه الى غيره • كما يقول السادة الصوفية فى الربط بين قوله تعالى « ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى » وبين قوله تعالى « لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم » ان العصمة منه تعالى لعبده من المعاصى دليل على الرحمة منه سبحانه ، ثم تدخله الرحمة فى مقام المحبة •

ويقول السادة الصوفية فى الفرق بين أهل الهدى وأهل الضلال: بعث الله النبيين للناس ليعبدوه ، ففريق عبد الله على نسك وتقربوا ، وفريق

زاغوا عن الحق مبعدين ، فأما الذين عبدوه خاضعين فسيرفعهم الله الى مشهد الضياء ، فيدخلون فى صفوف العزة ، ويقدسهم الله بطهارته، فاذا هم عند الله فى النعيم دائمون ، وأما الزائغون فيلقى عليهم الذل وهم على الرؤس تحت حجاب الظلمات ناكسون ، فسبحان الذى برزت له الذوات الصالحات فوهب لها البسطة فآبوا الى قومهم مكرمين.

وعند قوله تعالى فى سورة فاطر « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » يقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف الاشارات :

« من كان يريد العزة بنفسه فليعلم ان العزة بجملتها لله ، فليس للمخلوق شىء من العزة ، ويقال : من كان يريد العزة لنفسه فلله العزة جميعا أى فليطلبها من الله ، وفى آية أخرى أثبت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وقال هاهنا « فلله العزة جميعا » ووجه الجمع بينهما أن عز الربوبية لله وصفا ، وعز الرسول وعز المؤمنين لهم فضلا من الله ولطفا ، فاذن العزة لله جميعا . واستطرد رضى الله عنه يقول : وعزه سبحانه قدرته ، أو يقال العزيز هو القاهر الذى لا يقهر ، فيكون من صفات فعله على أول القولين ، ومن صفات ذاته على القول الآخر .

« .. اليه يصعد الكلم الطيب » الكلم الطيب هو الصادر عن عقيدة طيبة ، يعنى الشهادتين ، عن اخلاص ، وأراد به صعود قبول . «والعمل الصالح يرفعه أى يقبله . ويقال العمل الصالح يرفع الكلم الطيب . ويقال الكلم الطيب ما يكون موافقا للسنة . ويقال هو نطق القلب بالثناء على ما يستوجبه الرب . ويقال هو ما يكون دعاء للمسلمين .. »

وقد حدثنى سيدى الوالد رحمه الله ، وكان من الصالحين ، أوسع الله له فى رضوانه ، انه فى حجته الاولى رأى فى المنام وهو بمكة المكرمة رعاها الله تعالى أن قائلا يقرأ عليه الآية الكريمة « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا .. » فقام من نومه مسرورا مستبشرا وبعد قليل نسى الآية وحاول جاهدا ان يستذكرها فلم يستذكرها ، ثم قصد بيت الله الحرام وهو مشغول البال باستذكار الاية فجلس يشاهد الكعبة الغراء واذا بقارىء يجاوره يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم

ويقرأ مبتدئا « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا •• » فكان سروره بالغا بتذكرها ، ولما ختم القارىء قراءته سأله عن السورة حتى يبحث عنها اذا نسيها مرة أخرى فقال له انها فى سورة فاطر • وكأنما أراد سبحانه وتعالى ان يبشره بالقبول مرتين مرة مناما ومرة فى اليقظة وسبحان ربى المنعم المتفضل على عباده •

وتقوى الله هى الباب الموصل لعزة المؤمن التى يتحلى بها بين عباد الله الصالحين ولذلك يقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل من الهامه الفورى الذى نقلناه عنه طيب الله ثراه :

وليس مقام الناس بالفقر والغنى
ولكنما الاقدار بالعلم والحذر
يموت الورى سيان من ذل أو علا
وما ضاع حظا غير من بالورى انتصر
سواء لدى الناس الا أخا التقى
عبادته تغنيه ان ورد الحفر
وكل فؤاد راقب الله جنة
منابتها الايمان والعلم والبصر
وأغصانها الاخلاص والصدق جذعها
وأثمارها التقوى وأنعم بها ثمر
فحاسب هنا تهنأ هناك منازلا
ومن حاسب النفس اجتباه الذى فطر
وما هذه الايام الا رواحل
علوت لها ظهرا وكنت على سفر
وحسبك من دنياك أجر ورحمة
ومن لم ير الاخرى المراد قد اندثر

ومجاهدة النفس فى سبيل الله درجات ، وأول تلك الدرجات مجاهدة التقوى وتكون بالوقوف عند حدود الله خوفا من عقاب الله الذى أنذر به أهل المخالفات والمعاصى • والدرجة الثانية هى مجاهدة الاستقامة وتقتضى كف النفس عن هواها وترك الاخلاق المذمومة وكسب الاخلاق المحمودة التى مدحها كتاب الله وتحلى بها مولانا رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، ونحن نطلب فى كل ركعة سبيل الاستقامة بقولنا فى فاتحة الكتاب « اهدنا الصراط المستقيم » وهو « صراط الذين أنعمت عليهم » وطلبنا الاستقامة فى الفرائض سبعة عشر مرة كل يوم ، بخلاف طلبها فى السنن ، انما يدل على شرفها وحلاوة ثمرتها ، وتقتضى الاستقامة أن نعالج مثلا البخل بالسخاء ، والكبر بالتواضع ، والجزع بالصبر ، والغضب بالحلم وهكذا • والدرجة الثالثة مجاهدة الكشف والاطلاع وتقتضى ان تسبقها الدرجتان المتقدمتان ، كما تقضى الاستعانة فيها بشيخ عارف بالله ، خبر المجاهدات وتجلت له أنوار الحق فهو على نور من ربه يمشى به فى الناس فيهديهم الى طريق التصوف الصحيح القائم على آداب الكتاب والسنة والجماعة •

ويفرق السادة الصوفية بين العلم والمعرفة ، فالعلم تحصيل والمعرفة مذاق ، ويقول فى ذلك الامام جلال الدين الرومى رضى الله عنه : هل قطفتم وردا من الواو والراء والدال ؟ اذهبوا فابحثوا عن حقيقة المسمى ، لا تنظروا للقمر فى الماء بل انظروا للقمر فى السماء • وعند قوله تعالى « كلا والقمر » يقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف الاشارات : أقمار العلوم اذا أخذ هلالها فى الزيادة بزيادة البراهين فانها تزداد حتى اذا صارت الى حد التمام وبلغت الغاية تبدو اعلام المعرفة ثم تأخذ علوم البراهين فى النقصان حين تطلع شموس المعرفة ، وكما أن القمر كلما قرب من الشمس يزداد نقصانه حتى يصير محاقا ، كذلك اذا ظهر سلطان العرفان تأخذ أقمار العلوم فى النقصان بزيادة المعارف كالسراج فى ضوء الشمس •

والعلم مطلوب ، والتفقه فى الدين حتم ولازم ، وانما قام علم الشريعة ليعمل به ، ويقول صلوات الله وسلامه عليه ، من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، ومن حكم السادة الصوفية قولهم : شكر العلم العمل ، وشكر العمل زيادة العلم ، وما أروع ما يقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

كل روح تفرغت لرضاه ... سعدت بالقبول من مسعاها
قبلتى فى الصلاة ساعة وقت ... كم مصل بعد الصلاة تلاها
انما قبلتى جميع حياتى ... هى ذات الاله لن أنساها
فمسائى مع اليقين نهار ... ونهارى سعادة برضاها

آنس اللــه مهجتى بعـــــلوم | مزجتنى بهــا فكنت وعـــاها
طاف بى انور فالمعارف بحرى | تلفظ الــدر وهى لا تتنــاهى
وارتقاء الارواح فى مورد العلم | يصغى الارواح من دنياهـــا
وانعدام الاهواء والحس منهــا | هو معنى الســمو فى مسراها
يا سرورى بقــوله يا عبـــادى | انا فى سمعها أنــال رضـــاها

اللهم اجعلنا يا الهى ممن قلت فيهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » •

بين الخوف والرجاء

« أسأل الله تعالى أن يلطف بى فى قضائه وأن يجعلنى من عبـــاده الصالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ولا يجعلنى من الذين قال فيهم (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) » •

جاءت هذه الكلمات فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصديق الصالح السيد/ سالم عمر جمعة مد الله فى عمره وبارك له فى عمله ، وقد دعا الشيخ فيها ربه أن يلطف به فى قضائه وأن يجعله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه • والعارفون بالله يخافون ربهم من فوقهم مع يقينهم أنه أرحم بهم من أنفسهم وآبائهم ، ومبعث خوفهم يأتيهم من علمهم بأنه تعالى يمحو ويثبت وأنه صاحب المشيئة وحده ان شاء رحمهم وان شاء عذبهم وان شاء ثبتهم وان شاء أضلهم قال تعالى فى سورة ابراهيم (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وقال تعالى فى سورة الرعد (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) •

وقد حكوا عن امامنا احمد بن حنبل رضى الله عنه أنه قال : سألت ربى عز وجل أن يفتح على بابا من الخوف ففتح ، فخفت على عقلى فقلت : يا رب أعطنى على قدر ما أطيق ، فسكن ذلك عنى • وهكذا لطف الله به فى قضائه فخفف عنه بعد شدة • ويحكى العارفون أنه لـــا ظهر على ابليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل يبكيان زمانا طويلا فأوحى الله تعالى اليهما : ما لكما تبكيان كل هذا البكاء ، فقالا : يا ربنا لانأمن مكرك ، فقال الله تعالى : هكذا كونا ، لا تأمنا مكرى •

فانظر رعاك الله كيف خاف الله فى قضائه أكبر الملائكة قدرا عند الله مع طهارتهما واشتغالهما الدائم بطاعة الله وتسبيحه وتقديسه ، ومعلوم أن الملائكة لا يعصون الله ما أمـــرهم ويفعلون ما يؤمـــرون ، فكيف

لا يخاف مقام ربهم البشر وهم خطاءون بجبلتهم البشرية وغرائزهم الفطرية ، كما أنهم مبتلون بالنفس وشهواتها وبالشيطان ومكايده ، وبفتنة الدنيا وزينتها ، ويقول سيدى حاتم الأصم رضى الله عنه : لا تغتر بموضع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقى آدم فيها ما لقى ، ولا تغتر بكثرة العبادة ، فان ابليس بعد طول تعبده لقى ما لقى • ويقول الامام الشبلى رضى الله عنه جوابا على من سأله : لم تصفر الشمس عند الغروب ؟ فقال : لأنها عزلت عن مكان التمام فأصفرت لخوف المقام •

ويقول السادة العارفون : وكذا المؤمن اذا قارب خروجه من الدنيا اصفر لونه ، لأنه يخاف المقام فاذا طلعت الشمس طلعت مضيئة، كذلك المؤمن اذا بعث من قبره خرج ووجهه يشرق ، وليس معنى الخوف أن يقطع المؤمن رجاءه فى ربه بل يجب عليه أن يرجو ربه ويطمع فى كرمه فى حسن ظن به سبحانه ولكن لا يدع العمل اتكالا على الرجاء ، لأنهم قالوا : علامة الرجاء حسن الطاعة • ويؤيدهم فى ذلك قوله تعالى فى سورة الزمر (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الألباب) •

ويقول سيدى أبو عثمان المغربى رضى الله عنه : من حمل نفسه على الرجاء تعطل ، ومن حمل نفسه على الخوف قنط ، ولكن من هذه مرة ومن هذه مرة ويبين لنا العارفون أن رجال الرجاء ثلاثة : رجل عمل حسنة ، فهو يرجو قبولها ، ورجل عمل سيئة ثم تاب ، فهو يرجو المغفرة، والثالث الرجل الكاذب ، يتمادى فى الذنوب ويقول : أرجو المغفرة •

ويقول سيدى أبو على الدقاق رضى الله عنه : الخوف على مراتب : الخوف والخشية والهيبة ، فالخوف من شرط الايمان وقضيته قال تعالى (وخافون ان كنتم مؤمنين) والخشية من شرط العلم ، قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) والهيبة من شرط المعرفة ، قال تعالى (ويحذركم الله نفسه) ، وتروى أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها أنها سألت مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت يا رسول الله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة)

أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر قال : « لا يا بنت الصديق ، ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويخاف الا يقبل الله منه » .

وحين سأل سيدى الشيخ ربه أن يلطف به فى قضائه لم يكن جازعا مما جرى به المقدور بل كان صابرا على البلاء أجمل الصبر ، فقد بهر عقولنا ما كان يتحلى به من الصبر على المكاره ، وانما قد طلب اللطف مع الرضا بالمقدور فهو لجوء الى رحمة الله التى وسعت كل شيء . وقد شكا سيدنا أيوب ضره الى ربه ، فقال عليه السلام مستدرا رحمته سبحانه (انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) وجاء بعدها فى سورة الأنبياء (فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) ولأنه عليه السلام كان راضيا فى قرارة نفسه بمواقع المقدور وكان مسلما لله كل التسليم فى قضائه أمتدحه الله تعالى بالصبر فقال تعالى فى سورة ص (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) ومن ذلك ندرك أن اظهار البلاء على غير وجه الشكوى والضجر لا ينافى الصبر على البلاء والرضاء بالقضاء . وكذلك حكى الله عن سيدنا يعقوب عليه السلام أنه قال (انما أشكو بثى وحزنى الى الله) فى حين أنه حكى عنه مرة أخرى فى سورة يوسف (فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا انه هو العليم الحكيم) .

وقد شكا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الله حين خذله أهل الطائف وآذوه وجاء فى دعائه المشهور : اللهم أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، الى من تكلنى ، الى بعيد يتجهمنى (يستقبلنى بوجه كريه) أم الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك .

ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم كان المثل الأعلى فى الصبر على البلاء وفى الرضا بمر القضاء ، واللجوء الى الله فى الشدة لا ينافيهما ما دام القلب ساكنا تحت مجارى الأقدار ، وانما اللجوء مظهر من مظاهر العبودية ، كما هو مظهر من مظاهر تقديس الربوبية واجلالها

قال تعالى فى سورة النمل (أم من يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أأله مع الله قليلا ما تذكرون) وقال تعالى فى سورة يونس (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) •

وما أروع ما يقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه :

الهى ان اختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقاديرك منعا عبادك العارفين بك من السكون الى عطاء واليأس منك فى بلاء •

ويقول سيدى ابن عجيبة الحسنى رضى الله عنه فى شرح تلك الحكمة اختلاف التدبير هو اقامة كل عبد فى حكمته على حسب ارادته ومشيئته من فقر أو غنى ، من علم أو جهل ، من عز أو ذل من قبض أو بسط ، من سقم أو صحة أو مرض ، من ايمان أو كفر الى غير ذلك من اختلاف آثار القدرة وتنوع مظاهر الحكمة • وسرعة حلول المقادير هو تبديل تلك الأحوال فى أسرع حال من فقر الى غنى ، ومن غنى الى فقر ، ومن علم الى جهل ، ومن جهل الى علم ، ومن عز الى ذل ، ومن ذل الى عز ، ومن قبض الى بسط ، ومن بسط الى قبض ، ومن سقم الى صحة ، ومن صحة الى سقم ، ومن ايمان الى كفر والعياذ بالله ، ومن كفر الى ايمان ، فقلوب الخلق بيد الله الواحد القهار ، يقلبها كيف يشاء ويختار ، ويفعل ما يشاء (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) • فاذا تحقق العبد بهذا امتنع من أن يسكن الى ما أعطاه مولاه ، لأنه قد يسلبه ذلك فى ساعة ، وامتنع أيضا أن ييأس من مولاه فى وقت شدته وبلواه ، قال تعالى « فان مع العسر يسرا • ان مع العسر يسرا » ودوام الحال من قضايا المحال ، لكن لم يتحقق بهذا ذوقا الا العارفون فلذلك لا يسكنون الى عطاء ، ولا ييأسون فى بلاء بل يسكنون الى من بيده المنع والعطاء ، فلذلك لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير الله قرارهم •

« ••• وعلامة العارف أن يكون قلبه مرآة يرى فيه ما غاب عن غيره وجلاء القلب لا يكون الا بنور الايمان والايقان ، فعلى قدر قوة الأيمان يكون نور القلب ، وعلى قدر نور القلب تكون مشاهدة الحق ، وبقدر مشاهدة الحق تكون المعرفة بأسمائه وصفاته ، وبقدرهما يكون التعظيم

لذاته ، وبقدر التعظيم لذاته يكون كمــال العبد ، وبقدر كماله يكون استغراقه فى أوصاف العبودية ، وبقدر استغراقه فى أوصاف العبودية يكون قيامه بحقوق الربوبية » •

ويقول سيدى ابن عطاء كذلك فى مناجاته : الهى وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى ، افتمنعهما منى بعد وجود ضعفى ؟ ويقول سيدى الامام الشاذلى رضى الله عنه فى مناجاته: « الهى ما أطعتك حتى رضيت ولاعصيتك حتى قضيت ، أطعتك بارادتك ولك المنة على ، وعصيتك بقدرتك ولك الحجة على ، فبوجود حجتك وانقطــاع حجتى الا ما رحمتنى،وبفقرى اليك وغناك عنى الا ما كفيتنى ، اللهم انى لم آت الذنب جرأة منى عليك ، ولا استخفافا بحقك ، لكن جرى بذلك قلمك، ونفذ به حكمك ولا حول ولا قوة الا بك ، والعذر اليك ، وأنت أرحم الراحمين،اللهم ان سمعى وبصرى ولسانى وقلبى وعقلى بيدك لم تملكنى من ذلك شيئا ، فاذا قضيت بشىء فكن أنت وليى ، واهدنى الى أقوم سبيل يا خير من سئل ، ويا أكرم من أعطى ، يا رحمن الدنيا والآخرة ، ارحم عبدا لا يملك دنيا ولا آخرة » •

ثم انظر الى سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه حين سأل ربه اللطف فى القضاء أتبع ذلك بأن يجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ولا يجعله من الذين قال فيهم (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وقد سأل الله الطاعة لأنها انما تكون بالاتباع والتطبيق ، وانما فرض الله العلم ليعمــل به المؤمن لا ليقف عند تحصيله واختزانه فى حافظته ، فقد ندد الله ببنى اسرائيل فقال تعالى فى سورة الجمعة (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين) ولا شك أن أحسن القول قول الله تعالى وصدق سبحانه اذ يقول فى سورة الزمر (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) فانظر كيف تتأثر قلــوب المخلصين الصــادقين حين يستمعون لكلام الله تعالى فى تدبر وتقدير للكلام والمتكلم جل جلاله ، فأين منهم من قال تعالى فيهم فى سورة محمد (ومنهم من يستمع اليك

حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) •

وقد جاء فى الحديث : من أراد أن ينظر ما له عند الله فلينظر ما لله عنده،وفى رواية أخرى: « من أراد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه ، فان الله تعالى ينزل العبد حيث أنزل العبد من نفسه » • ونجد مصداق ذلك فى آيات كثيرة من كتاب الله تعالى فى مثل قوله عز وجل فى سورة محمد (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وفى سورة البقرة (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) وفى سورة ابراهيم (واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد) وفى سورة الليل (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى • وأما من بخل واستغنى • وكذب بالحسنى • فسنيسره للعسرى) وهكذا •

ويقول سيدى ابن عطاء رضى الله عنه فى حكمه : « خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك » • وقد طلب منا سبحانه امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وتقواه فى السر والعلانية ، والاكثار من ذكره ، والصبر على بلائه ، والرضا بقضائه ، والتأسى فى كل ذلك بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسادة الصوفية يعولون على تربية البواطن ولا ينخدعون بالظواهر ، ويقول سيدى أبو سليمان الدارانى فى هذا المقام : ليس البكاء بتعصير العيون ، انما البكاء أن تترك الأمر الذى تبكى عليه •

ويقول السادة الصوفية فى التفرقة بين البار والفاجر شعرا :

ليس من بات قريرا عينه
مثل من أصبح قفرا دارسا
ليس من أكرم بالوصل كمن
ظل يهذى بلعمل وعسى
ليس من ألبس أثواب التقى
مثل الذى ألبس ثوبا دنسا
ليس من سير به مثل الذى
بات يرعى الحمى مبتئسا
ليس من شاهد صبحا واضحا
مثل الذى شاهد ليلا غلسا

ليس مـن بـــوىء روضــــات الحمــــى
مثـل الـذى أسـكن قفـــرا يابســا

ليس مـن أشـــبه غصـــنا يـانعــا
مثـــل مـن أشـــبه عـــودا يابســـا

وأنت ترى مما تقدم أن المدار على تقوى القلوب والاقبال على طاعة الله تعالى بهمة وعزم لا هوادة فيهما ، طلبا للاحسن وتفضيلا له على الحسن الذى يرتضيه عوام المؤمنين ، فاذا خير الخواص بين القصاص من المسىء وبين العفو عنه اختاروا العفو تقربا الى الله تعـالى وان كان القصاص من حقهم ، وهم يفضلون العفو ناظرين الى قوله سبحانه فى سورة الشورى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) والى قوله تعالى فى السورة ذاتها (ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور) والســادة الصوفية يأخذون أنفســهم على الدوام بالعزائم دون الرخص تفضيلا لمــا يبقى عما يفنى (ما عندكم ينفــد وما عند الله باق) •

وواجب على المؤمن الصادق اذن أن يستجيب لله وللرسول صلى الله عليه وسلم اذا أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا ، فقد دعاه القرآن الكريم لذلك فى مواضع عديدة ومنها قوله تعـالى فى سورة الأنفــال (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لمــا يحييكم) أى لمــا يحيى دينكم الذى تحيا به قلوبكم اذ لا حيــاة لها الا بطاعة الله تعالى فيما أمركم به أو نهاكم عنه • وقد بين تعالى أنه لا يستجيب لله وللرسول صلى الله عليه وسلم الا الذين يسمعون فى تدبر وتفهم وايمان قال تعالى فى سورة الانعام (انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون) •

وقد وضح الله الصراط المستقيم الذى يجب من المؤمن أن يتبعه فى آيات كثيرة ومنها على سبيل المثال قوله تعالى فى سورة الانعــام (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من آملاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا

بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون • ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون • وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) فما أعظم هذا البيان الالهى والارشاد الربانى وما أجمع النصيحة وأنفعها للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه •

وجهاد المؤمن فى الطاعة انما تعود ثمرة جهاده عليه لأنه تعالى يقول (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين) واذا وفق المؤمن فى الطاعة فلا يمن بها على ربه لأن الله لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه • واذا أطاع المؤمن ربه فانما يطيعه بتوفيق الله ، ولذلك يقول سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه فى حكمه : « لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك ، وافرح بها لأنها برزت من الله اليك » (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ويقول سيدى الامام على زين العابدين رضى الله عنه : كل شىء من أفعالك اذا اتصلت به رؤيتك فذلك دليل على أنه لميقبل ، لأن المقبول مرفوع مغيب عنك ، وما انقطعت عنه رؤيتك فذاك دليل على القبول•

ويقول سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه فى حكمه : متى رزقك الطاعة والغنى به عنها فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنه • والطاعة فى ظاهرها هى تطبيق أحكام الشريعة ، والغنى بالله فى الباطن من شهود الحقيقة ، فاذا جمع الله فيك طاعة الجوارح فى ظاهرك ، والغنى بالله فى باطنك فقد تمت عليك نعمه ظاهرة وباطنة • ويقول سيدى الشيخ العروسى رضى الله عنه : ان الدين بستان والشريعة سياجه ، والطريقة رياضة ، والحقيقة ثمراته ، فمن لا شريعة له لادين له ، ومن لا طريقة له لا شريعة له ، ومن لا حقيقة له لا طريقة له •

وشيوخ الطرق الصوفية المتحققين أئمة يدعون الى الله على بصيرة بالقول والفعل والحال ، فهم نواب عن مولانا رسول الله صلى الله عليهوسلم فى دعوة الخلق الى الحق ، فاذا رزقك الله امامة واحد منهم فاحمد الله على فضله وتوفيقه ، واستمع لقوله واعمل بارشاده ونصحه،

وقل له ما علمك ربك أن تقوله فيما حكاه عن سيدنا موسى عليه السلام حين قال لسيدنا الخضر عليه السلام (ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا) ولا يفوتك ما جاء فى الحديث الشريف « من بايع اماما أعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ان استطاع » .

واذا كان سيدنا موسى عليه السلام قد سعى سعيا حثيثا للاجتماع بالخضر عليه السلام طلبا للمزيد من فضل الله بدليل قوله تعالى (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) فالأولى بنا نحن عوام المسلمين أن نطلب الطريق الى الله تعالى على يد العارفين المتحققين ، لا على يد المدعين المتصنعين ، فان فاقد الشيء لا يعطيه ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز . أنظر بتدبر الى قوله تعالى فى شأن سيدنا موسى عليه السلام وفتاه (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) .

ومما نقلناه من الالهام الفورى الذى كان يرتجله سيدى العارف بالله وشيخى الشيخ على عقل رضى الله عنه قوله :

وعندى ان الأمر ليس كما ترى
فلابد من سوق القلوب لمن يدرى
اذا لم يكن للنفس شيخ له هدى
يؤدبها بالروح زاغت عن السير
ولا يعبر البحر الخضم ونوأه
سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر
ولولا اتصال الكهرباء بأصلها
على موجة التيار ما نورها يسرى

وهؤلاء الأئمة المتحققون أهل يقين بالله ، وبهذا اليقين جعلهم الله أئمة للسالكين ، قال تعالى فى سورة السجدة (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) ويحكى سيدى بشر الحافى وهو من أئمة السلف فيقول رضى الله عنه : رأيت النبى صلى الله عليه

وسلم فى المنام فقال لى : يا بشر ، أتدرى لم رفعك الله بين أقرانك ، قلت : لا ، يا رسول الله ، قال : باتباعك لسنتى ، وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لاخوانك ، ومحبتك لأصحابى وأهل بيتى ، هو الذى بلغك منازل الأبرار •

وكما يطلب الأئمة الصوفية لأنفسهم أحسن الأعمال الصالحة وأكمل الصفات العالية وأزكى المسالك الحميدة ، فانهم يحبون لاتباعهم مايحبون لأنفسهم • وقد اجتمع الامام شقيق البلخى رضى الله عنه بالخليفة العباسى المأمون ، فقال له المأمون : أنت شقيق الزاهد ؟ فقال : نعم شقيق ولست بالزاهد ، فقال له المأمون أوصنى ، فقال شقيق يوصيه : ان الله قد أجلسك مكان الصديق وانه يطلب منك مثل صدقه ، ومكان الفاروق ويطلب منك الفرق بين الحق وغيره ، ومكان عثمان ويطلب منك مثل حيائه وكرمه ، ومقام على ، ويطلب منك مثل علمه وعدله • فانظر كيف أراد له أن يتأسى بقادة الصحابة من سادتنا الخلفاء الراشدين وأن يتأسى بأكرم ما خصهم الله به من السجايا ومكارم الأخلاق •

ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى وصف أولئك الأئمة فى رسالته المباركة :

« جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضلهم على الكافة من عباده ، بعد رسله وأنبيائه ، صلوات الله وسلامه عليه ، وجعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره ، فهم الغياث للخلق ، والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق ••

« •• رجعوا الى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ، ونعت الانكسار ، ولم يتكاوا على ما حصل منهم من الأعمال ، أو صفا لهم من الأحوال ، علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ، ويختار من يشاء من العبيد ، لا يحكم عليه خلق ، ولا يتوجه عليه لمخلوق حق ، ثوابه ابتداء فضل ، وعذابه حكم بعدل ، وأمره قضاء فصل » •

ومع أنه رضى الله عنه توفى الى رحمة الله فى سنة ٤٦٥ هـ أى من نحو ألف سنة الا قليلا فانه بعد ذلك يقول :

« ثم اعلموا رحمكم الله أن المحققين من أهل هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة الا أثرهم كما قيل :

أما الخيـــام فانهـــا كخيـــامهم
وأرى نســـاء الحى غـير نســـائها

« حصلت الفترة فى هذه الطريقة ، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة ، مضى المشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه ، واشـــتد الطمع وقوى رباطه .

« وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصـــوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، وركنوا الى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات .. » .

ثم بين رضى الله عنه أنه ألف الرسالة وذكر فيها سير شيوخ الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقـــائدهم ، وما أشـــاروا اليه من مواجيدهم وكيفيـــة ترقيهم من بداياتهـــم الى نهاياتهم لتكون لمريدى الطريقة قوة ..

واذا كان الامام القشيرى قد صور لنا حالة زمانه فيما قال ، فان ذلك التصوير يتفق مع ما جاء فى الحديث ، لا يمضى زمان الا والذى بعـــده شر منه حتى تلقوا ربكم . ونعوذ بالله من سوء الحال والمـــآل . وسوء الحال يدعونا للحرص على الاصلاح ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، ولا اصلاح لآخر الأمة الا بما صلح به أوائلها ، وما صلح الأوائل الا باتباع شرع الله قولا وفعلا وحالا . واذ كان أئمـــة الطريقة فى زمن القشيرى قد انقرضوا ولم يبق الا أثرهم ، فليس معنى هذا أن نيأس من الاصلاح . فان تربة الدعوة ما تزال خصبة وانما ينقصها الرى وبذر البـــذور ، والدعاة الى الله موجودون بحمد الله ومن فضله سبحانه على الأمـــة المحمدية ولئن لم يبلغوا مستوى أســـلافهم فانهم على دربهم ومن سار على الدرب وصل .

فاسع جاهدا ، واصدق فى سعيك ، فى الالتقاء بواحد من هؤلاء الدعاة ، ليأخذ بيدك فى طريق الآخرة ، وهو أدق مسلكا وأوعر مرتقى من طريق

الدنيا ، وراع فى اختياره أن يكون مقيدا بالشريعة ومؤيدا بالحقيقة ، وادع الله فى سرك وجهرك أن يدلك على من يدلك عليه فانه تعالى يقــول (فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) فاذا وفقك الله وعثرت عليه ووزنته بميزان الشريعة ولمست فيه أنوار أهل الطريقة ووجدت لقوله رنة فى قلبك وتأثيرا فى روحك فاصحبه على بركة الله ، وأحسن أدبك فى صحبته ، وانتفع من حسناته ولا تتبع عوراته ، فانه أعلم بالطريق منك ، ويحمل عنك المشقات وينزلك منـــازل القربات ، ويحميك من فتنـــة النفس والشيطان ، ويعينك على الطاعة بما أقامه الله فيه ، لا يسألك على ذلك أجرا ، ولا يريد لك الا خيرا •

ويقول سيدى ابن عجيبه رضى الله عنه فى شرح الحكم :

لا يخاف عليك عدم وجود أهل التحقيق ، وانما يخاف قطاع الطريق، لا يخاف عليك من خفاء أهل الحق ، انما يخاف عليك من قلة الصدق، والله ما حجبهم عنك الا من عدم صـــدقك ، فلو حسنت ظنـــك بالله وبأولياء الله لرفع الله الحجاب بينك وبينهم ووجدتهم أقرب اليك من أن ترحل اليهم ، فسبحان من سترهم فى حال ظهورهم وأظهرهم فى حال خفـــائهم •

ويقول سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه فى تاج العروس : القلب شجرة تسقى بماء الطاعة ، وثمراته مواجيده ، فاذا جف القلب سقطت ثمراته ، فان أجدب فأكثر من الاذكار ، ولا تكن كالعليل يقول : لا أتداوى حتى أجد الشفاء ، فيقال له : لا تجد الشفاء حتى تتداوى •

أقول ، وطبيب نفسك هو شيخك ، وعلة نفسك كامنة فى هواها ، وهى أمارة بالسوء الا ما رحم ربى ، فان دلك الله على أحد أوليـــائه الداعين اليه على بصيرة فقد رحمك ، فاستعن بالله ولا تعجز ، وعالج نفسك على يديه ، ولتكن على بالك نصيحة سيدى ابن عطاء الله التى جاءت فى لطائف المنن والتى يقول فيها رضى الله عنه :

« من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتباع ويكشف عن قلبـــه القناع ، فهو فى هذا الشأن لقيط لا أب له ، دعى لا نسب له • وليكن أيضا على بالك قوله رضى الله عنه فى تاج العروس : « انما تحتاج الى

معالجة نفسك فى الابتداء ، فاذا ذقت المنة جاءت معالجة النفس اختيارا ، فالحلاوة التى تجدها فى المعصية ترجع تجدها فى الطاعة » .

اللهم انقلنا بفضلك من ذل المعصية الى عز الطاعة واجز عنا مشايخنا خيرا كثيرا ، فقد أخرجونا من سجن الهوى وسلكوا بنا سبيل الهدى ، وقد كانوا فيما رأيناهم بعد طول العشرة لهم ممن قلت فيهم (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) .

التوكل والأسباب

« قال (صلى الله عليه وسلم) : « لو توكلتم على الله حق التوكل، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » •• فالغدو سبب والعطاء من الله ، والطير يغدو ملهما من حيث لا يدرى ، فالمؤمن اذا توكل على الله مع اتخاذ الاسباب ، كان كالطير ، لا يدرى ما يتم به القضاء ، ولا يتحدى نظام الطلب » •

جاءت تلك الموعظة فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى ، العارف بالله ، الشيخ عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، الى تلميذه الصالح الصديق السيد / سالم جمعة ، مد الله فى عمره ، وهو يبين لنا فيها ان التوكل ليس معناه ترك الاسباب التى أراد الله من عباده اتخاذها لتؤتى ثمرتها باذن مسببها سبحانه • وهذه المسألة قلما يفهمها الناس فهما صحيحا ، ويظن أكثرهم — خطأ — أن التوكل على الله يقتضى ترك الاسباب ، فلا يسعى على رزقه من أبوابه المشروعة، بحجة أنه من المتوكلين على الله •

والحديث الشريف الذى صدر به سيدى الشيخ عبارته ، وضح لنا فيه مولانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، أن الطير تغدو وتروح ، تغدو خماصا لا طعام فى جوفها وتسبح فى الفضاء وتسقط على الزروع ملتقطة ما قسم الله لها من الرزق ، وتعود ممتلئة البطون فتغذى نفسها وتغذى صغارها ، مما رزقها الله ، وقد ألهمها الله بقدرته أن تترك عشها ، باحثة عن رزقها ، وان تعود للعش بعد تحصيله لترتاح بعد الكد ، وتستعيد نشاطها لسعى آخر فى الغد ، وهكذا ، وهى فى حركة السعى متوكلة على ربها الذى بيده رزق مخلوقاته ، وقد تكفل به لكل مخلوق ، بقوله الكريم فى سورة هود : « وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » •

والتوكل هو حسن الاعتقاد فى الله ، والاعتماد على فضله فيما تسعى اليه من أمورك كلها ، ومحل التوكل قلبك الذى بين جنبيك ، والله

تعالى مطلع على خلجانك ، فيعلم صدق التوكل أو زعزعة الشك ، وسعيك فى سبيل غايتك لا يتنافى مع حسن توكلك وقوة يقينك ، بل حسن التوكل يدعوك لقوة الحركة التى أمرك بها ربك الذى تتكل عليه وتتجه بقلبك اليه ، فان وصلت الى ما تريد ، فانما تصل بعونه وتوفيقه وتيسيره ، وان تعسر عليك شىء ، علمت أن ذلك انما كان بتقديره ، وقلت ماكان يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « قدر الله وما شاء فعل » .

وآيات التوكل فى القرآن الكريم كثيرة جدا وكلها تدعونا الى التحلى بالتوكل ، وعلى سبيل المثال يقول تعالى فى سورة الطلاق « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » ، أى كافيه ومغنيه عن غير الله ، ويقول تعالى فى سورة ابراهيم : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، ويقول تعالى فى سورة المائدة : « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » ، ويقول تعالى فى سورة آل عمران : « فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » ، ويقول تعالى فى سورة هود : « واليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه » ، ويقول تعالى فى سورة الفرقان : « وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده » ، ويقول تعالى فى سورة الاحزاب « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » الى غير ذلك من آيات الله البينات التى ربطت ربطا أكيدا بين الايمان والتوكل واتخاذ الأسباب المشروعة.

وعن أنس بن مالك ـــ رضى الله عنه ـــ قال : « جاء رجل على ناقة له فقال : يا رسول الله : أدعها وأتوكل ؟ .. فقال : أعقلها وتوكل فأمره (صلى الله عليه وسلم) ان يربطها بعقالها ويتوكل على الله فى حفظها وبذلك جمع بين التوكل واتخاذ أسباب الحفظ ، فلا يهمل بتركها غير مربوطة ، بحجة أنه متوكل على الله . ويقول الامام سهل التسترى رضى الله عنه ـــ : من طعن فى الحركة (أى فى طلب الرزق بأسبابه) فقد طعن فى السنة ، ومن طعن فى التوكل ، فقد طعن فى الايمان . ويشرح ذلك ـــ رضى الله عنه ـــ بقوله : التوكل حال النبى (صلى الله عليه وسلم) ، والكسب سنته ، فمن بقى على حاله فلا يتركن سنته .

ويقول السادة الصوفية ـــ رضى الله عنهم ـــ : التوكل نفى الشكوك والتفويض الى ملك الملوك . كما قالوا : التوكل هو الثقة بما فى يد الله تعالى ، واليأس عما فى أيدى الناس . وقال الامام الدقاق ـــ رضى

الله عنه — : للمتوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ، فالتوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خواص الخواص .

واذا أردت أن تعرف مدى ما تحلى به السادة الصوفية من التوكل، فانظر فيما قال سيدى سفيان الثورى — رضى الله عنه — حين قال : لو أن السماء لم تمطر ، والأرض لم تنبت ، ثم اهتممت بشيء من رزقى لظننت أنى كافر . وقد قال رجل لحاتم الاصم — رضى الله عنه — : من أين تأكل ؟ .. فقال : « ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون » . وقال عامر بن عبد الله : قرأت قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها » ، فوالله ما اهتممت برزقى منذ قرأته فاسترحت (أى تأكد أنه رازقه فلم يتزعزع بالشك) .

وقد سأل بعض الأكاسرة حكيما فى زمانه : ما بالى أرى العاقل محروما ، والأحمق مرزوقا ؟ .. فقال : أراد الصانع (سبحانه) أن يدل على نفسه ، ولو كان كل عاقل مرزوقا ، وكل أحمق محروما لوقع فى العقول أن العاقل يرزق نفسه ، والأحمق يحرم نفسه ، فلما رأوا الأمر بخلاف ذلك علموا أن الصانع هو الرازق .

ويقول امامنا الشافعى — رضى الله عنه — فى ذلك :

ومن الدليل على القضاء وكونه
بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ويقول (صلى الله عليه وسلم) « ان الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله » ، وهذا ما يقوى يقين المؤمن فى أن رزقه يأتيه عن تقدير العزيز العليم . وقد لزم رجل باب أمير المؤمنين عمر ، فكان يأتيه كل يوم ليسأله عطاءه ، فأراد أمير المؤمنين — رضى الله عنه — أن يرشده ارشادا شرعيا ، فقال له : يا هذا هاجرت الى عمر أو الى الله ؟ .. اذهب فتعلم القرآن فانه سيغنيك عن باب عمر ، فذهب الرجل وغاب زمانا حتى افتقده أمير المؤمنين وسأل عنه فدلوه عليه : فذهب اليه وقال له قد افتقدتك حتى اشتقت اليك ، فما الذى شغلك عنا ؟ فقال : انى قرأت القرآن فأغنانى عن عمر وعن آل عمر ، فقال له أمير المؤمنين .. رحمه الله — فما الذى وجدت فيه ؟ .. فقال : وجدت فيه

« وفى السماء رزقكم وما توعـدون » فقلت رزقى فى السـماء وأنا أطلبه فى الأرض ؟ .. فبكى أمير المؤمنين رضى الله عنه واعتبرهاموعظة.

وقد قال رجل للامام حاتم الأصم — رضى الله عنه — : من أين تأكل ؟ .. قال من رزق الله ، قال ينزل من السماء ؟ .. قال : لو لم تكن الأرض لنزل من السماء ، قال : ما نسمع منكم الا الكلام ، قال : وهل نزل من السماء الا الكلام ؟ .. قال : أنا لا أقوى على مجادلتك قال : لان الباطل لا يقوى على الحق .

وقال تعالى فى سورة الروم: « الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون » ، وأنت تتبين من ذلك أن الخـالق والرازق والمحيى والمميت هو وحده سبحانه وتعالى ، فيجب أن تركن اليه فى رزقك . ولا تركن الى أسباب الرزق ، ولئن كان أبوك سبب وجودك ، فانك لا تقول خلقنى أبى ، بل تقول خلقنى ربى ، فنظرت فى خلقتك الى الخالق جل وعلا — ، ولم تنظر الى سبب أبيك وأمك . وهـكذا يجب أن ترد الفضل فى رزقك الى ربك ، وترد كل نعمة من نعم الدنيا والآخرة اليه سبحانه ، كما قال سيدنا يوسف — عليه الصلاة والسلام — : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » .

والله الذى أجرى عليك رزقك وأنت جنين فى بطن أمك ، هو الذى كفل رزقك ما دمت حيا ولذلك جاء فى حكم السادة الصوفية:كن كما كنت فى بطن أمك مدبرا (بفتح الباء المشددة) غير مدبر (بكسر البـاء)، مرزوقا من حيث لا تحتسب . كما يقولون : يا هذا حفر النهر اليك وجريان المـاء ليس عليك ، ويقصدون أن تسعى على رزقك والله كفيل باعطائك ، فمنك يكون السعى امتثالا لأمره ، ومنه يكون العطاء انجازا لوعده . وقد كان مولانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول فى مناجاته سبحانه : « لا مانع لمـا أعطيت ، ولا معطى لمـا منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ، فبين لنا (صلوات الله وسلامه عليه) ان الأسباب حركة نتعرض بها للعطاء الربانى ، وليست الأسباب هى الرازقة مهما جد فيها العبد واجتهد ، بل هى قنوات يجرى فيها الينا ما قدره الله من أرزقنا .

وفى وصية سيدنا لقمان — عليه السلام — لابنه : يا بنى أردد رغبتك الى الله ان شاء أعطاك وان شاء منعك ، فان حيلتك لن تزيدك ولن تنقصك من قسمة الله التى قسم لك ، واعتبر رزقك بخلقك ، فان استطعت أن تزيد فى خلقك بحيلتك ، فانك اذن تزيد فى رزقك ، والا فاعلم أن الله هو الذى عدل الخلق وقسم الرزق ، فلن تستطيع أن تزيد فى أحد منهما .

والمتدبر فى القرآن الكريم يرى أن الله تعالى أقام الأسباب وأثبت تقديره فيها ، فقال تعالى مثلا فى الأسباب : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم » ، وقال فى تقديره سبحانه : « الله يتوفى الانفس حين موتها » وقال سبحانه فى أسباب الزراعة : « أفرأيتم ما تحرثون » ، ثم كشف عن قدرته فى انبات النبات « أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » ؛ كما قال فى ابراز القدرة العلية الربانية : « فلينظر الانسان الى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم » .

ويقول الامام زروق — رضى الله عنه — : أوصاف الربوبية أربعة ، تقابلها أربعة هى أوصاف العبودية : أولها الغنى ، ويقابله الفقر ، والثانى العز ، ويقابله الذل ، والثالث القدرة ، ويقابلها العجز ، والرابع القوة ، ويقابلها الضعف ، فمن استغنى بالله افتقر اليه ، ومن افتقر الى الله استغنى به ، ومن تعزز بالله ذل له ، ومن ذل له تعزز به ، ومن شاهد قدرته رأى عجز نفسه ، ومن رأى عجز نفسه شاهد قدرة مولاه ، ومن نظر ضعف نفسه رأى قوة مولاه ، ومن رأى قوته سبحانه ، علم ضعف نفسه .

وقد تكفل الله بأرزاق عباده ، وأقسم لهم على ذلك فى قوله الكريم : « وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون » وذلك ليزيدهم اطمئنانا على أرزاقهم حتى لا تشتغل نفوسهم بالرزق عن الرازق الذى خلقهم لعبادته : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » . قال ابن عباس — رضى الله عنه — معناها الا ليعرفون ، فمعرفة الله هى أول فرض فرضه الله على عباده ، والمقصود بها معرفة الشهود والمذاق بتعبير الصادقين من العارفين ، وليست معرفة العوام المصحوبة بحجاب الغفلة .

وقد روى الامام أبو طالب المكى — رضى الله عنه — بسنده عن عمرو بن ميمون ، عن النبى (صلى الله عليه وسلم) ، قال :

« أتدرون ما قال ربكم ؟ .. قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : حين استوى على عرشه ونظر الى خلقه : عبادى أنتم خلقى وأنا ربكم ، أرزاقكم بيدى ، فلا تتعبوا أنفسكم فيما تكفلت لكم به ، واطلبوا أرزاقكم منى ، وانصبوا أنفسكم لى ، وارفعوا حوائجكم الى ، اصب عليكم أرزاقكم . اتدرون ماذا قال ربكم ؟ .. قالوا : الله ورسوله اعلم ، قال : عبدى انفق ، أنفق عليك ، ووسع ، أوسع عليك ، ولا تضيق ، فأضيق عليك ، ان أبواب الرزق بالعرش لا تغلق ليلا ولا نهارا ، فأنزل الرزق منها لكل عبد على قدر نيته وعالته وصدقته ونفقته ، فمن أكثر ، أكثر له ، ومن أقلل ، أقلل له . ومن امسك ، أمسك عليه ، يا زبير ان الله يحب الانفاق ويبغض الاقتار ، فكل وأطعم ، ولا تقتر فيقتر الله عليك ، ولا تعسر فيعسر عليك ، أطعم الاخوان ، ووقر الاخيار ، وصل الجار ، ولا تماش الفجار ، تدخل الجنة بغير حساب ، فهذه وصية الله لى ووصيتى لك .

ولا ينافى التوكل ان يدخر المؤمن لنفسه ولعياله تسكينا للنفس وتطييبا للقلوب التى قد تحركها وساوس الشيطان . وقد ادخر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قوت سنة ليسن لأمته ذلك مع انه كان سيد المتوكلين . واذا ادخر المؤمن من رزقه شيئا فليجعل ادخاره موقوفا على رضا الله تعالى ، فيؤدى حق الله فيما ادخره ، ولا يبخل على الله الذى رزقه ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغنى ونحن الفقراء ، وقد هدد سبحانه البخلاء ، فقال تعالى فى سورة « محمد » « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

وقد حض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على كسب العيش فى حديثه : « لأن يأخذ أحدكم فأسه وحبله فيذهب الى الجبل فيحتطب فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » . وقد قال شاب للامام أحمد بن حنبل — رضى الله عنه — : انى أريد ان اخرج الى الحج ولا أتزود ، فقال له الامام : ولماذا لا تتزود ؟ .. قال انى

أريد أن أخرج الى الحج متوكلا ، فسأل الامام : تخرج وحدك أو مع القافلة ؟ .. قال بل مع القافلة ، فقال له الامــام : انت لا تتكل على الله ، بل تتكل على اخراج الناس ، وما ابدع ما قال الامام

وفى الجمع بين اتخاذ الاسباب والتوكل يقول بعض الحكماء :

توكل على الرحمــن فى الامــر كلــه
ولا ترغبن بالعجــز يومــا عن الطلب
الــم تــر أن اللـــه قــال لمـــريم
وهــزى اليك الجذع يســاقط الرطب
ولو شــاء ان تجنيه من غير هزهـــا
جنته ولــكن كل شـــىء لــه ســبب

ويقول الســادة الصوفية : ان الله تعــالى احتجب عن العمــوم بالاسباب ، فهم يرونها ، وحجب الاسباب بنفسه عن الخصــوص فهم يرونه ولا يرونها . فلا يصح عند السادة الصــوفية ان يكون العبد متوكلا فى رزقه على صحة جسمه ، أو يعتقد انه لا يرزق الا من كده، أو يعتمد على مال عنده وينسى به الثقة بربه ـ جل وعلا ـ وقد قال الامام بشر الحافى ـ رضى الله عنه ـ : ان العبد ليقرأ : « اياك نعبد واياك نستعين » فيقول الله تعالى : كذبت ما اياى تعبد ، ولا ايــاى تستعين ، لو كنت تعبد اياى لم تؤثر هواك على رضاى ، ولو كنت بى تستعين لم تسكن الى حولك ولا قوتك ولا الى مالك ونفسك .

ويقول الامام سهل التسترى ـ رضى الله عنه ـ : لو ان العبــد سأل الله الا يرزقه لم يستجب له ، ولقال له : يا جاهل انا خلقتك ولابد من ان أرزقك أبدا وقد نقلنا عن شيخى ، العارف بالله ، سيدى الشيخ على عقل ـ رضى الله عنه ـ من الهــامه الفورى الذى خصه الله به:

كفل اللــه للبــرية رزقـــا	وتولاهم ثم أســبل ســـترا
تصبح الطير فى الهــواء جيــاعا	يشبع الله بعــد ذاك الطــيرا
لا تمــد اليدين للنـــاس يومــا	مدهــا للعبـــاد بالشرك أحــرى
وســؤال العبـــاد شرك خفى	قد حفظنـــاه حين ذقنــــا السرا
واذا مــا اتجهت لــه فــردا	نلت يا صاحبى من اللـــه خيرا

وكان مولانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اذا وضعت لـــه مائدة الطعـــام قال : « بسم الله ، اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصـــل بها نعمة الجنة» •وكان اذا فرغ من الطعام يقول :« الحمد لله ، اللهم لك الحمد . أطعمت فأشبعت وسقيت فأرويت ، لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه » • وكان (صلى الله عليه وسلم) يشرب الماء فى ثلاث دفعات ، ويسمى الله فى كل منها ، وكان يحمد الله فى أواخرهـــا ثلاث تحميدات • فانظر رعاك الله كيف علمنا أن نرد الفضل فى طعامنا وشرابنا الى الله تعالى غير منكرين ولا متنكرين لفضله عز وجل •

وينبهنا سيدى الشيخ على عقل — رضى الله عنه — فى حكمه الملهمة، الى أهميـــة اليقين بالله ، فهو الغنى الحق للمؤمن وان قل ماله فيقول:

ان أكن فى الـــورى فقـــيرا فانى — أنـــا أغنى بمن أحـــب وأقنى
نفتـــات الغرام تشـــعل قلبى — من جـــلال فيـــه أحيـــا وأفنى
نحن نرتـــاد كل صـــرح فنرقى — بمراقى النفوس حســـا ومعنى

وفى الحديث الشريف : « ليس الغنى بكثرة العرض انما الغنى غنى النفس » • ولذلك كان سيدى الامام الشاذلى — رضى الله عنه — يقول فى دعائه . نسألك الفقر مما سواك والغنى بك حتى لانشهد الا اياك • ويقول امامنا على بن أبى طالب — رضى الله عنه وكرم وجهه — : من أراد الغنى بغير مال ، والكثرة بغير عشيرة ، فلينتقل من ذل المعصـــية الى عز الطاعة • ويفسر السادة الصوفية عز الطاعة بالمبادرة لامتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه . والاكثار من ذكره ، وبذل كل مجهود ممكن فى مرضاته سبحانه •

وقد قال رجل لسيدى ذى النون المصرى — رضى الله عنه — زودنى كلمة ، فقال له ، وما ابدع ما قال :

لا تؤثرن الشك على اليقين ، ولا ترض من نفســـك بغير التســـكين ، وان تأتك نائبة الدهر فتحملها بحسن الصبر ، وارم بآمالك نحو الدائم الخبير ، تجده بآمالك قائما ، واغتنم مواصلة الله تعالى فان لله عبادا ألفوه فاستأنسوا به ، وعرفوه فأملوه على معرفته وواصلوه على عين يقين ، فسمت أبصارهم نحو عظيم ، جليل قدرته ، فسقاهم من حلاوة

مواصلته ، والعقهم من لذاذة مخالصته فلبكائهم حول العرش دوى ، ولدعائهم حنين تتقعقع أبواب السماء بسرعة تفتحهـا لاجابة دعائهم.

وقد حكى الله تعالى عن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام فقال سبحانه فى سورة القصص « فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير • فجاءته احداهما تمشى على استحياء قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا » فما كاد عليه السلام يدعو حتى رزقه الله من فضله الطعام • والعمل الذى يـكسب منـه رزقه حلالا طيبا ، ومثل هذه القصص انما ساقها الله الينا فى القرآن الكريم للاتعاظ بها وتقوية يقيننا فى كفالة الله تعالى لارزاقنـا وتدبيره لامورنا ومعايشنا وسبحانه من رءوف رحيم ورزاق كريم •

ومن آروع الامثال التى ضربها الله لنا فى كتابه المجيد فى مقام التوكل عليه عز وجل قصـة أم مـوسى عليهما السـلام فقـد قال تعـالى فى سورة القصص « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيـه فاذا خفت عليه فألقيـه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجـاعلوه من المرسلين » واطمئنانا الى وعد الله سبحانه ألقته فى البحر متوكلة على الله فى حفظه ، ولا شك ان المعترك بينها وبين نفسها وهى أم الرضيع كان شديدا ، فليس بالامر الهين على الأم أن تقذف الرضـيع فى البحـر تتقاذفه الأمواج فى تابوته الى حيث لا تعلم ولكن الله تعالى ثبتها فى ذلك الموقف العسير على النفس وهو ما يحكيه قوله تعالى فى سورة القصص « وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » وهو ما يعلمنا أن نلجأ الى الله فى تثبيت نفوسنا عند اضطرابها وقلقها بحكم جبلتها البشرية •

وقد بـر الله بوعده لأم موسى عليهما السلام وهو ما يحكيه قوله تعالى فى السورة ذاتها « فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحـزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون • ولمـا بلغ أشـده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين » وقد بدل الله خوفها امنا وحزنها سرورا وجعل من جميل صبرها فرجا ومن عسرها يسرا • والعجب العاجب أن يكون كفيله اعدى أعدائـه فرعون الذى ادعى فى غطرسته وغروره أنه اله من دون الله فأهلكه الله هو وجنوده

فكانوا من المغرقين وهو ما يحكيه قوله تعالى « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لأظنه من الكاذبين • واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون • فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » والفارق فى هذه القصة واضح بين معاملة الله لاوليائه ومعاملته لاعدائه فقد أخرج سبحانه وتعالى سيدنا موسى عليه السلام الى بر السلامة وأغرق فرعون وجنوده فكان البحر عليه عذابا ونقمة بينما كان لموسى عليه السلام نعمة ورحمة وسبحان من اذا لطف بعبده جعل له المحن منحا والمضيق فضاء •

ولعلك بعد ذلك تستطيع أن تتذوق دعاء الامام الجنيد رضى الله عنه الذى يقول فيه :

« الهى وسيدى ومولاى ، من أحسن منك حكما لمن أيقن بك ؟ ومن أوسع منك رحمة لمن انتقاك وقصدك ، ومن أسرع منك عطفا ورأفة لمن أرادك وأقبل على طاعتك ؟ فكلهم فى نعمائك يتقلبون ، ولك بفضلك عليهم يعبدون ، سرت هومهم بك اليك ، وانفردت ارادتهم لديك ، وأقبلت قلوبهم بك عليك ، وغنيت حظوظهم من دونك واجتمعت لك وحدك ، فهم اليك فى الليل والنهار متوجهون ، وعليك فى كل الاحوال مقبلون ، ولك على الاحوال مؤثرون » •

« فأنا أسألك الهى وسيدى ومولاى ان تكون لى بفضلك كالئا كافيا عاصما راحما ، فانى اليك لاح ، وبك مستغيث ، واليك راغب ، ومنك راهب ، وعليك فى أمور الدنيا والآخرة متوكل ، لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين » •

ألا رضى الله عن سادتنا الصوفية الذين سبقت لهم من الله الحسنى وألزمهم كلمة التقوى فساروا الى الله وأعرضوا عما سواه طمعا فى رضاه فأعزهم بمقام التوكل عليه سبحانه وأحبهم بصدق توكلهم فقال تعالى « ان الله يحب المتوكلين » • جعلنا الله من المتوكلين المحبوبين •• آمين •

الشاكــــــرون

« الشكر باللسان مأمور به الانسان ، والشكر بالقلب نعمة أنعمهــا المنــان ، وهو قســمان ، قسم على النعم الظاهرة وقسم على النعم الباطنــــة » .

جاءت تلك العبارة فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصالح التقى الصديق السيد سالم جمعه زاده الله من فضله وفيها يوجهنا سيدى الشيخ الى الشكرين، الشكر اللفظى والشكر القلبى ، ويلفتنا الى النعم التى أسبغها الله علينا ظاهرة وباطنة والتى توجب علينا لله تعالى الشكر الظاهر باللسان والشكر الباطن بالقلب لوهاب النعم ومفيضها جل جلاله « وما بكم من نعمة فمن الله ».

وقد وجهنا كتاب الله الكريم كما وجهتنا السنة النبوية الى التحــلى بالشكر لأن الشكر مقام عظيم من مقامات أهل اليقين . ويقول العارفون ان أول الشكر أن يعرف المؤمن أن النعم التى يتقلب فيها هى من الله وحده لا شريك له فيها « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه » . فاذا عرف المؤمن ذلك أطلق لسانه بشكر ربه والثناء عليه، وحمده على انعامه واكرامه . وفى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لرجل : كيف أصبحت ؟ قال : بخير ، فأعاد عليه النبى صلى الله عليــه وسلم السؤال ثانية : كيف أنت ؟ فقال : بخير ، فأعاد عليه الثالثة : كيف أنت ؟ فقال بخير أحمد الله تعالى وأشكره ، فقال صلى الله عليه وسلم : هذا الذى أردت منك ، فوجهه صلى الله عليه وسلم الى اظهار الحمد والشكر والثناء .

وللسادة الصوفيــة مشرب خاص فى مقــام الشكر ، فهم لا يكتفون بالشكر عند العطاء كعوام المؤمنين ، بل يشكرون ربهم كذلك عند المنع لأنهم يرون فى المنع العطاء ولــكن لا يفهم فهمهم هذا الا الأوليـــاء والصديقون .. ويوضح لنا ذلك ما وقع بين سيدى شقيق البلخى وبين سيدى الامام جعفر الصادق رضى الله عنهما ، فقد سأله سيدى شقيق :

ما هى الفتوة فى الدين يا ابن رسول الله ؟ فقال الامام ما تقول أنت يا شقيق ؟ قال يا ابن رسول الله : اذا وجدنا شكرنا واذا فقدنا صبرنا ، فقال الامام رضى الله عنه : هكذا حال الكلاب عندنا فى المدينة المنورة ، فقال شقيق : فما الفتوة عندكم يا ابن رسول الله ؟ فقال الامام : اذا وجدنا آثرنا واذا فقدنا شكرنا ، فانظر رعاك الله الى قول الامام فى حال العوام : هكذا حال الكلاب عندنا فى المدينة المنورة ، وكيف لم يرض أن يكون شاكرا فى العطاء دون المنع ، ولا تعجب فهو من الخواص بل من خواص الخواص وكان الامام أبو حنيفة تلميذا له وقال فيه : ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد .

ثم ان السادة الصوفية لا يفهمون الشكر على أنه حمد وثناء فحسب بل يذهبون الى أن الشكر يقتضى منك ألا تعصى الله بنعمه،كما يقتضى منك أن تستعين بنعمته على طاعته،ولا تستعين بها على معاصيه،والا كنت كافرا بالنعمة وغير شاكر لها ، وهم يستندون فى ذلك الى قوله تعالى « ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا » وذهبوا الى أن معناها استعانوا بنعمه على معاصيه فبدلوا شكر نعمة الله كفرا ، لأنه أمرهم أن يطيعوه بالنعم فخالفوه وعصوه بها ، وحجة السادة الصوفية فى هذا التفسير قوية فانهم يقولون أن الخلق لا يقدرون على تبديل نعمة الله عز وجل ، وهذا من المضمر معناه،لظهور دليله عليه ، ومثله قوله تعالى : « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » والمعنى شكر رزقكم تجعلونه تكذيبكم برسل الله تعالى،ويحض السادة الصوفية أتباعهم على ترك المعاصى كلها ظاهرها وباطنها ويقولون فى هذا المقام انه تعالى قال : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ثم قال « وذروا ظاهر الاثم وباطنه » وفى ذلك تنبيه لأولى الألباب أن يذروا ظاهر الاثم شكرا لظاهر النعم ويذروا باطن الاثم شكرا لباطن النعم . وظاهر النعم هى عافية الأجساد ووجود الكفايات من الأموال ، وظاهر الاثم شهوات الجوارح التى تتفق مع النفس فى هواها ، وباطن النعم صفاء القلوب واخلاص النوايا ، وباطن الاثم سوء النيات والاصرار على الذنوب وسائر أمراض البواطن من الحقد والحسد والسخط على المقدور وسوء الظن والكبر والعجب الخ .

وقد علمنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الاجتهاد فى العبادة والأعمال الصالحة نوع من الشكر ، فانه صلوات الله وسلامه عليه قام الليل وأطال القيام فى صلاته حتى تورمت قدماه،وقد قالت له

سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : لم تفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ وهكذا فسر لنا مولانا رسول الله بفعله وقوله قول الله تعالى « اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور » .

وقد مدح الله سيدنا نوحا عليه السلام فقال تعالى « انه كان عبـــدا شكورا » وجاء فى تفسيرها انه كان يشكر الله تعالى على كل حال من خير أو شر أو نفع أو ضر . وجاء فى الخبر « ينادى مناد يوم القيامة : ليقم الحمادون ، فيقوم زمرة ، فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة ، قيل : ومن الحمادون ؟ قال : الذين يشكرون الله تعالى على كل حال » وفى لفظ آخر « على السراء والضراء » .

ومما يعين المؤمن على الشكر أن ينظر فى أمر الدنيا الى من هو أقل منه عطاء ، فتعظم فى نظره نعمة الله عليه فيشكرها ، ثم ينظر الى من هو فوقه فى الدين وينافسه فى طاعة الله والاقبال عليـــه ، فاذا كان كذلك كان من الشاكرين .

وقد جاء فى الحديث الشريف « من نظر فى الدنيا الى من هم دونه ، ونظر فى الدين الى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا ، ومن نظـــر فى الدنيا الى من هو فوقه ، ونظر فى الدين الى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا » .

ويقول السادة الصوفية : ان أكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم ، وأصل قلة الشكر الجهل بالنعمة ، وسبب الجهل بالنعمة قصور العلم بالله تعالى وطول الغفلة عن المنعم وترك التفكر فى نعمه والتذكر لآلائه ومننه ، وقد أمرنا الله بتذكرها ووعدنا بالفلاح بتذكرها فقال تعالى « فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » كما وعدنا رفع العذاب عنا فقـــال تعالى « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم » فقرن الشكر بالايمان ورفع بوجودهما العذاب .

وقد قرن الله الشكر بذكره تعالى فقال عز وجل « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » وحين نزل قوله تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » قال صـــلى

الله عليه وسلم : تبا الدنيا تبا للدينار والدرهم ، قالوا : يا رسول الله ، نهيتنا عن كنز الدينار والدرهم ، فماذا نكنز ، قال : ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وامرأة صالحة تعينه على أمر آخرته • وقد نصح صلى الله عليه وسلم سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه أن يقول فى دبر كل صلاة (اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) •

ويقول السادة الصوفية أن شكر العامة على المأكل والملبس ، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعانى • وقد شكا رجل الى بعض أهل المدينة فقره وأظهر لذلك غمه وحزنه ، فقال له المدنى : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، قال:فيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف؟قال : لا،قال:أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرةآلاف؟ قال : لا ، قال : فيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف ، قال : لا ، قال : أفما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا •

وحدثوا عن بعض القراء المقربين أنه اشتد به الفقر حتى أحزنه قال فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له : تود أنا أنسيناك سورة الأنعام ، وأن لك ألف دينار ؟ قال : لا ، قال : فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف ؟ قال : لا ، قال فمعك آلاف وأنت تشكو الفقر ، فأصبح وقد سرى الله عنه همه •

ويضع السادة الصوفية فى قمة النعم نعمة الايمان به سبحانه وتعالى ، ثم نعمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم نعمة القرآن الكريم ، ثم أن جعلنا من خير أمة أخرجت للناس • وهم يشكرون الله تعالى أنه لا يقلب قلوبنا فى الزيغ والشك فى العقيدة مع أن جوارحنا تتقلب فى المعاصى ، ولا شك أن ذلك مظهر من مظاهر كرمه واحسانه فلو قلب قلوبنا فى الزيغ والشك كما تتقلب جوارحنا فى المعاصى لكنا من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة والعياذ بالله •

وهذا منهم تقدير لنعمة الايمان ، وتقدير النعمة مدعاة الى شكرها • وقد دخل رجل على الامام سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه وقال له : ان اللص دخل دارى وأخذ متاعى ، فقال له الامام سهل : أشكر الله تعالى ، لو دخل اللص قلبك — وهو الشيطان — وأفسد عقيدة التوحيد ، ماذا كنت تصنع ؟

ولتدرك فضل الله على هذه الأمة فى تثبيت الايمان فى قلوبهم قارن بين المؤمنين فى الأمة المحمدية وبين بنى اسرائيل فان سيدنا موسى عليه السلام اجتاز بهم البحر بمعجزة كبرى فما كادوا يصلون الى البر بعد رؤية المعجزة بأعينهم حتى تقلبوا فى الشك ، فانهم وجدوا قوما يعبدون الأصنام فقالوا « يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة » ونعوذ بالله من الضلال بعد الهدى •

والواقع أننا لا نبلغ حقيقة الشكر مهما شكرنا الله تعالى ، لأن نعمه تعالى لا نستطيع حصرها « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار » وانما يكون شكرنا مظهرا من مظاهر ولائنا لله واعترافنا بفضله واقرارا بأننا لا نستحق عليه شيئا ، وانما هو صاحب الفضل والجود والاحسان ، وقد سبق فضله وجودنا ، كما سبقت مغفرته ذنوبنا ، ولا يكون من الكريم الا الكرم ، وصدق القائل :

فان جحدتك ما أوليت من كرم
انى الى اللؤم أولى منك بالكرم

وعجزك عن شكره سبحانه هو غاية ما يصل اليه شكرك ، فلتكن على الدوام الشاكر العاجز عن الوفاء وردد ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم · سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك •

وشعورك بأنك عاجز عن الشكر شكر ، واذا وفقك الله لشكره فاشكره على ذلك التوفيق ، وقد قال العارفون : الشكر على الشكر أتم من الشكر وذلك بأن ترى شكرك بتوفيقه ويكون ذلك التوفيق من أجل النعم عليك فتشكره على الشكر ثم تشكره على شكر الشكر الى ما لا يتناهى ، ولهذا قال سيدنا داود عليه السلام : يا رب : كيف أشكرك والشكر نعمة منك تستوجب بدورها الشكر ، فقال تعالى : يا داود الآن عرفتنى وشكرتنى •

وفى قوله تعالى « ان الانسان لربه لكنود » قيل هو الذى يشكو المصائب وينسى النعم • والخصوص يرون نعم الله فى المصائب ، ولذلك كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : ما من بلاء يصيبنى الا وأرى لله على فيه أربع نعم ، النعمة الأولى أن البلاء وقع فى دنياى ولم يقع فى دينى ، النعمة الثانية أنه لم يقع أكبر مما وقع ، والنعمة

الثالثة أن الله صبرنى عليه فاحتملته ، والنعمة الرابعة أن الله ادخر لى ثواب الصبر عليه • كما كان رضى الله عنه يقول : لو كان الصبر والشكر بعيرين ماباليت أيهما أركب • وأنت ترى من ذلك أنه استوى عنده البلاء والرخاء وتلك درجة الصديقين من أهل اليقين •

وقد جاء فى الخبر : الصبر نصف الايمان ، والشكر نصف الايمان ، واليقين الايمان كله ، وقد قرن الله تعالى بين الصبر والشكر فى قوله تعالى « ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » فذكر الصبر بلفظ المبالغة على وزن فعال ، وذكر الشكر بلفظ المبالغة على وزن فعول ليتحلى المؤمن بالصبر الجميل الذى لا شكوى معه ، وبالشكر الدائم الذى لاجحودَ معه •

ويقول السادة الصوفية ان المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام وكلها نعم من الله تعالى ، فهى اما أن تكون درجة وهذا المقربين والمحسنين ، واما أن تكون كفارة وهذا لخصوص أصحاب اليمين والأبرار أو تكون عقوبة وهذا للكافة من المسلمين فيعجل الله لهم العقوبة فى الدنيا رحمة منه ونعمة ، ومعرفة هذه النعم طريق الشاكرين •

ويرى العارفون أن الايمان الذى كتبه الله فى قلوب المؤمنين نعمة وأن تثبيته فى القلوب نعمة أخرى اذ لو لم يثبته الله لا نمحى ورجع القلب الى الكفر ، ولذلك يقول تعالى « يمحو الله ما يشاء ويثبت » أى يمحو ما لا يشاء ثبوته ويثبت ما يحب ثبوته • ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على طاعتك •

وقد من الله علينا فعلمنا بعد جهلنا ، وبصرنا بعد غفلتنا فقال تعالى « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » فى حين أنه تعالى قال فى وصف الكافرين « وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء اذ كانوا يجحدون بآيات الله » وهو ما يدلنا على أن الأسباب وحدها لا تؤتى ثمرتها الا باذن مسببها سبحانه وتعالى •

وقال الامام سهل التسترى رضى الله عنه : اذا عمل العبد حسنة فقال : يارب أنت استعملتنى ، شكر الله له ذلك ، فقال : أنت عملت،فاذا

نظر الى نفسه فقال : أنا عملت ، يقول الله : بل أنا استعملت . وقال رضى الله عنه : اذا عمل العبد سيئة فقال : أنت قدرت وأنت أردت ، يقول الله تعالى : أنت ظلمت وأنت عصيت بشهوتك وهواك ، فان قال العبد : ظلمت نفسى وعصيت بجهلى استحيا الله منه ، فقال : بل أنا قدرت وأنا قضيت ، قد غفرت لك باعترافك بالظلم على نفسك . ويقول الامام أبو طالب المكى رضى الله عنه فى تعقيبه على كلام الامام سهل رضى الله عنه : وهذا داخل فى قوله تعالى « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » قيل هو الاعتراف بالذنب عقب العمل السىء فكان الصالح بعده هو الاعتراف .

والانسان قد يطغى بالنعم ان لم يحفظه الله تعالى من شرها ويؤيد ذلك قوله تعالى « كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » ويقول صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » ويقول تعالى « وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون » أى من بعد ما أعطاكم العافية والغنى . فاذا أعطاك الله الصحة والغنى وصانك عن المعاصى فتلك نعمة النعمة ووجب عليك فيها شكر على شكر .

وعند قوله تعالى فى حق سيدنا نوح عليه السلام « انه كان عبدا شكورا » يقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف الاشارات : الشكور هو الذى يكون شكره على توفيق الله له لشكره ، ويقال الشكور الذى يشكر بماله ينفقه فى سبيل الله ولا يدخره ، ويشكر بنفسه فيستعملها فى طاعة الله ولا يبقى شيئا من الخدمة يدخره ، ويشكر بقلبه ربه فلا تأتى عليه ساعة الا وهو يذكره .

وعند قوله تعالى فى حق سيدنا ابراهيم عليه السلام « شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم » قال الامام القشيرى رضى الله عنه : الشاكر فى الحقيقة يرى عجزه عن شكره ويرى شكره من الله عز وجل لتحققه ان الله هو الذى خلقه ، وهو الذى وفقه لشكره ، وهو الذى رزقه الشكر ، وهو الذى اجتباه حتى كان بالكلية له سبحانه .

ويذكر سيدى وشيخى الشيخ على عقل طيب الله ثراه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه فضل ربه عليه فيقول رضى الله عنه :

أحبـــه وفـؤادى بيت حكمتـــه
ثوب الحيـــاء من البـارى تغشـانى
أخافــه وهـــو يهـــدينى لسـدته
فمـا خشيت من العـــذال والشانى
وكيف أخشى وفضــــل اللــه يدركنى
وبالهـــدى والنـدى مولاى وشـانى
أمسيت منـكسرا أصـبحت مفتقـرا
والله عن كل هـــــذا الخلق أغنانى
طاب النسيم وحبى لا يبـــارحنى
وقـد هـدانى الى التقـوى فأفنـانى
ان يسكن النـاس جنـات تطيب بهـا
فحـب ربـى فـــردوسى وأفنـــانى

ثم هو يستنجد بربه يسأله أن يكون فى عونه وألا يكله الى نفسه فيقول رضى الله عنه :

رب هبنـــا رضـــاك وانظر الينـــا
واهـدنا يا كريم هـــدى حنـــان
وتعطف عــلى الضــعيف بجـــدوا
ك فانى أتــوق للاحســـــــان
لا تكلنى لشر نفسى وقتـــــــا
ان تـكلنى فقـــد تـــكاثر رانى
رب جنبنـــــا الذنــوب جميعـــا
وارعنى بالهـــدى مـع الاخـوان
واسكب العـلم واليقـين علينــــا
وأذقنـــا موارد الرضــــــوان

ويقول رضى الله عنه فى أهل الصدق من عباد الله الصالحين :

هم الجواهـر طبعـــا لا يغيرهم
مر الزمـان وهـــم من أهله الدرر
أن يشبعوا حمدوا أو أفقروا صـبروا
أو يحزنوا كتموا أو يوهبوا شكروا

ملائـك اللـه ترعاهـم وتتبعهـم
والفضـل يحضر فيهم أينما حضروا
من أمهـم كان فضـل اللـه غامره
وحيث منزلهـم يسـتنزل المطـر

ثم هو يدعوك أن تتمسك بربك وأن تركن اليه على الدوام وتتحلى بتقواه لتظفر باحسانه واكرامه فيقول رضى الله عنه :

تمسك بالاله تسـده حيـاة
وتحمـد من أياديه الثـوابا
فان قالوا اتخـذ لك أى جـاه
فخـذ تقـواه جاهـك والمـآبا
وان قالوا اتخـذ لك أى كأس
فخـذ مـن كأس عـزته الشرابا

ولعلنا أدركنا من كل ما تقدم أن ما نتقلب فيه من نعم ظاهرة وباطنة انما هى من عطاء الله وجوده وهو سبحانه الغنى على الدوام ونحن الفقراء اليه فى الاضطرار والاختيار ، وقد بدأنا بفضله قبـل أن يكون منا عمل ، فلا منة لنا عليه بل المنـة له علينـا ، ولا نستطيع أن نشكره الا بالعجز عن شكره ، واذا كنا عاجزين عن عد النعم وحصرها فكيف نستوفى شكرها ، فمنه سبحانه الكثير ومنا التقصير ، نشكره على قدرنا لا على قدره ونستغفره من تقصيرنا وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، وليقل كل منا ما قاله المؤمن الناضـج الراشـد الكامل سيدنا أبو بكر رضى الله عنه (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى انى تبت اليك وانى من المسلمين) فنفوز ان شاء الله برضا الله ومغفرته وندخل الجنة التى أعدها لعباده المتقين وقد قال فيهم بعد الآية السابقة فى سورة الأحقاف « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون » .

الحضور والغفلة

« وليس القائم كالنائم ، اذ النوم غفلة والقيام يقظة وحضور فان نام الذاكر فهو قائم ، قلبه معلق بالله ولیس بلاه ، بل هو يقظ يراقب من يراه سبحانه وهو لا يراه فهو مع الله » .

ذلك من بعض ماكتب سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه المبارك الصديق السيد / سالم جمعة حفظه الله ورعاه ، وقد بين فى تلك الكلمات أن الغفلة عن الله نوم وان كان الجسد فى اليقظة ، وان الذكر حضور وان كان الجسد مستغرقا فى النوم ، فالذاكر قائم وان نام لانه انما ينام على حب الله ولا يلهيه عنه لاه مما يتلهى به الغافلون .

وهذه المسألة هى القطب الذى يدور عليه التصوف كله ، لان السادة الصوفية انما يتشبهون فى مسلكهم بخاصة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أوصاه الله بهم فى قوله الكريم (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) فليس لهم غاية من شدة التعلق به سبحانه الا رضاه الذى يغنيهم عن كل عوض من أمور الدنيا والآخرة ، وقد قال تعالى فى شأن هؤلاء الخواص (رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) كما يقول فيهم (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم) وقد ورد فى الحديث الشريف « ان الله تعالى يقول لأهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ، فيقول: انا أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : وأى شىء أفضل من ذلك؟فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا » وحين أوصى الله رسوله بأهل الصفة قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذى لم يمتنى حتى

امرنى أن أصبر نفسى معناس من أمتى• ويعول السادة الصوفية فى تربية مريدهم على الاكثــار من ذكر الله تعالى ، ويقول ســيدى أبو مدين التلمسانى رضى الله عنه ، من دامت أذكاره صفت أسراره ، ومن صفت أسراره كان فى حضرة الله تعالى قراره • ويقول سيدى عبد الوهــاب الشعرانى رضى الله عنه : المراد بحضرة الله تعــالى حيث أطلقت فى لسان القوم (أى الصوفية) هو شهود العبد أنه بين يدى الله تعالى، فاذا حجب عن هذا المشهد فقد خرج منها •

ويقول الامام الشعرانى رضى الله عنه :

ان فوائد الذكر لا تنحصر ، لان الذاكر يصير جليس الحق تعالى وينال الذاكر من الاسرار والعلوم ما شاء الله كلما ذكر ، لان حضرة الله لا يرد عليها أحد ويفارقها بغير مدد ، لكن مع الحضور فيقال لمن ادعى أنه حضر بقلبه فى ذكره مع ربه تعالى ، ماذا أتحفك وأعطاك فى هذا المجلس ، فاذا قال : ما أعطانى شيئا قلنا له : وأنت الآخر لم تحضر معه فى ذكره ، فاتخذ لك شيخا يزيل عنك الموانع المانعة لك من الحضور •

وقال رضى الله عنه كذلك :

والذكر أسرع فى الفتح من سائر العبادات ، قال سيدى على المرصفى رحمه الله تعالى : قد بحث الأشياخ فلم يجدوا للمريد دواء أسرع فى جلاء قلبه من مداومة الذكر ، فحكم الذكر فى الجلاء للقلب كحكم الحصى فى النحاس ، وحكم غير الذكر من سائر العبادات كحكم الصابون فى النحاس وذلك يحتاج الى طول زمن •

ويقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى طيب الله ثراه (والد شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه)

وفى الخبر أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله صــلى الله عليه وسلم : اعطيت أمتك ما لم تعطه أمة من الامم ، قال : وما ذلك ياجبريل؟ قال قوله (فاذكرونى أذكركم) لم يقل تعالى هذا لأحد غير هذه الامة• وقال رضى الله عنه وفى الخبر « الذى يذكر ربه والذى لا يذكر مثل الحى والميت » رواه الشيخان • وفى تعليقه على قوله تعالى (ولذكر الله أكبر) يقول رضى الله عنه : قال ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية

وجهان : أحدهما أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم اياه ـ والاخر أن ذكر الله أعم من كل عبادة ولبعضهم فيه وجه آخر وهو أن ذكر لفظ « الله » أعظم من ذكر غيره من الاسماء العلية واليه الاشارة بقوله سبحانه (وكلمة الله هى العليا) .

ويقول رضى الله عنه :

وفى الصواعق لابن حجر أن الامام عليا الرضا المدفون بسوس كما فى تاريخها لما دخل سوقها وعليه مظلة لا يرى من ورائها تعرض له الحافظان أبو زرعة الرازى ومحمد بن أسلم الطوسى ومعهما من طلبة العلم والحديث مالا يحصى فتضرعا اليه أن يريهم وجهه ويروى لهم حديثا عن آبائه ، فاستوقف البغلة وأمر غلمانه بكشف المظلة وأقر عيون تلك الخلائق برؤية طلعته المباركة وقال : حدثنى أبى موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين عن أبيه على بن أبى طالب رضى الله عنهم قال : حدثنى حبيبى وقرة عينى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حدثنى جبريل قال : سمعت رب العزة يقول : « لا اله الا الله حصنى ، فمن قالها دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى » ثم أرخى الستر وسار فعد أهل المحابر والدوى الذين كانوا يكتبون فأنافوا على عشرين ألفا ، وقد قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه لو قرأت هذا الاسناد على مجنون لبرىء .

وفى هذه المناسبة أذكر أننى أثناء الحرب العالمية الثانية كان يداخلنى خوف عند وقوع الغارات وانطلاق المدافع المضادة للطائرات فشكوت خوفى لسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه فأمرنى أن أقول عند وقوع الغارة : لا اله الا الله ، دخلنا فى حصن الله ، ثم أضاف رضى الله عنه : اتدرى لماذا اخترت لك ذلك ؟ قلت لا يا سيدى ، فروى لى الحديث المذكور بسنده ، وقد اتبعت ما أمرنى به رضى الله عنه فبدل الله خوفى أمنا بفضله وكرمه ، وصار ذلك القول من عادتى فى كل موطن من مواطن الخوف حيث لمست بركته ، كما أنى علمته لتلاميذى وأحبائى ، وجزى الله عنى وعنهم سيدى الشيخ خيرا كثيرا .

والحضور فى الذكر لا يتأتى للمريد مرة واحدة (الا أن يشاء الله) ولكنه يتدرج فيه شيئا فشيئا كلما والى ذكر الله وأكثر منه وكانت وجهته صادقة وهمته عالية ، وتابع ارشاد شيخه العارف بدقة وتخيل انه معه أثناء الذكر يشد من أزره وأن روح مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبارك الجلسة ، ذلك بأن الشيخ هو باب المريد الى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو صلوات الله وسلامه عليه باب المؤمنين الى الله ، وهو سبحانه وتعالى يتولى الجميع ، والشيخ نائب فى الدعوة الى الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، ولولا أن للشيخ مدخلا فى تربية المريد لما جوزوا تخيله ، والطريق تحتاج الى الرفيق والله تعالى يقول (يوم ندعو كل أناس بامامهم) .

وقد تأتى للمريد أثناء الذكر بعض الوساوس ، فيقول له الوسواس ما فائدة هذه الجلسة وأنت غافل فى ذكر الله ؟ وقد حذر السادة الصوفية من ترك الذكر فى هذه الحالة وقالوا لا تترك جلسة الذكر متابعة لهذا الوسواس ، بل يجب أن تستمر فى ذكر الله لان الغفلة عن الذكر شر من الغفلة فيه . وقد سمعت سيدى الشيخ على عقل نور الله ضريحه يشرح هذه المسألة ويقول على مسمع المريدين : ان اللسان جارحة فاذا تحركت بذكر الله تعالى وصارت رطبة به جعلت للذاكر قيمة وان لم يبلغ درجة الكمال التى يبلغها أهل القلوب الحاضرة التى لا تشتتها الشواغل والوساوس . وضرب لنا رضى الله عنه مثلا فقال لو انك ركبت فى عصا رخيصة حلية من ذهب ، لارتفع ثمن العصا كثيرا بقيمة حلية الذهب فكذلك ذاكر الله بلسانه تزداد قيمته بذكر الله ولو كان ذاكرا فى غفلة ، لقدسية الاسم الجارى على لسانه الذى حركته به محبة الله .

ويقول سيدى الامام الغزالى رضى الله عنه فى كتاب الاحياء : فان قلت : فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أنفع وأفضل من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها ، فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق الا بعلم المكاشفة والقدر الذى يسمح بذكره فى علم المعاملة أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى وفى الاخبار ما يدل عليه أيضا .

وأضاف رضى الله عنه قائلا :

وحضـــور القلب فى لحظة بالذكر والذهول عن الله عــز وجل مــع الاشتغال بالدنيا أيضا قليل الجدوى ، بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو فى أكثر الاوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات ، وهو غاية ثمرة العبادات العملية • والمريد فى بداية أمره قد يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس الى ذكر الله عز وجل ، فان وفق للمداومة أنس به وانغرس فى قلبه حب المذكور وهذا معنى قول بعضهم : كابدت القــرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة ، ولا يصدر التنعم الا من الأنس والحب ، ولا يصدر الأنس الا من المداومة على المــكابدة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعــا ، فالنفس معتــادة متحملة لمــا تتكلف ، هى النفس ما عودتها تتعود ، أى ما كلفتها أولا يصير لها طبعا آخرا ، ثم اذا حصل الأنس بذكر الله سبحانه انقطع من غير ذكر الله ، وما سوى الله عز وجل هو الذى يفارقه عند الموت ، فلا يبقى معه فى القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا يبقى الا ذكر الله عز وجل •

أقول : والصلاة على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الذكر ، وكذلك الاستغفار والتسبيح والتحميد والتكبير • والدعاء وتلاوة القرآن الكريم ، وصلاة الفرض أو النفل من أجمع العبادات للذكر لان الصلاة يتم فيها كل ما تقدم • ومن ذكر الله التفقه فى الدين ، ومدراسة العلوم الشرعية والتذاكر فيهــا ، وعلى الجملة تدخل كل العبــادات والطاعات فرضا أو نفلا فى وصف الذكر بصفة عامة • أما ذكــر الله تعالى بأسمائه الحسنى فهو المقصود بصفة خاصة فى التربية الصوفية•

ويقول السادة الصوفية ان الذكر هو سلم الواصلين من السالكين الى حضرة رب العالمين ، وهو يحرس الجوارح ويحفظ الوقت ويفتح أبواب الأنس ، ويطبع فى النفوس رسوم العبودية ثم يمنحها منشور العتق ويضمن الخير بكل حال ، ويحدو قوافل السائرين الى الله ، وهو العبادة التى ظاهرها أجور ، وباطنها حضور ، وباطن باطنها نور على نـــور •

أقول : وتلك نتيجة طبيعية لأن التعلق بالكريم لابد أن تظهر آثار الكرم عليه ، والله يرزق من يشاء بغير حساب ، وشاهد ذلك واضح فى كتاب

الله عز وجل ، اذ يقول تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا • وسبحوه بكرة وأصيلا • هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما • تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما) •

أرأيته كيف أخرج سبحانه الذاكرين كثيرا من الظلمات الى النور أى من الكفر الى الايمان ، ومن الغفلة الى الذكر ، ومن الشرود الى الحضور ، ومن الجهل الى العلم ، ومن الخلق الدنى الى الخلق السنى ومن النقيصة الى الفضيلة الخ هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فأجرهم عظيم كما بينته الآية الأخيرة • ومن عجيب انك اذا تتبعت كتاب الله الكريم وجدت أنه تعالى أمر بكثرة الذكر أو معناها فى أوامره أو ثنائه على خواصه • فمثلا يقول تعالى فى سورة الأنفال (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) ويقول تعالى فى سورة الجمعة (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) وقال تعالى فى سورة البقرة (فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) ويقول تعالى فى سورة طه لسيدنا موسى وهارون عليهما السلام (اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى) وقال تعالى فى سورة الاحزاب (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) وقال تعالى فى سورة الشعراء (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا) وقال تعالى فى سورة آل عمران (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) كما قال تعالى فى السورة ذاتها لسيدنا زكريا عليه السلام (واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والابكار) هذا فى حين أنه تعالى وصف المنافقين بقلة الذكر فقال سبحانه فى سورة النساء (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا) •

ولبيان ما قاله السادة الصوفية من أن الذكر عبادة ظاهرها أجور وباطنها حضور وباطن باطنها نور على نور يصف شيخى وسيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه حاله فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه فيقول:

وقفت على نجوى الاله جوانحى
لذلك قلبى منزل كله ذكر
وأخليت قلبى من مناجاة غيره
فأصبح طودا لا يزلزله الغير
أسارع مشتاقا وأسكت هائما
وأنطق اجلالا وما عاقنى سير
ففى صحوتى شوق وفى غفوتى هوى
وفى مشيتى علم وفى وقفتى سر

وكان رضى الله عنه من الذاكرين الله كثيرا والساهرين الليل كله فى مرضاة ربه ، وقد عاشرته عشرين عاما فرأيت منه همة لا تبارى ، وعزما لا يلين ، وهياما لا يفتر ، وحركة لا تسكن ، وشوقا لا يهدأ وحبا فى الذروة العليا وهو القائل ارتجالا والهاما :

نجتلى ذكره ونرتاح فيه
فانتهانا فى الذكر منه ابتدانا
اذكر الله ثم مل عن سواه
كان عرفان غيره كفرانا
اننا ملكه وموعدنا الحشر
فهل عنه لحظة نتوانى

كما يقول :

أخلى فؤادى له من كل شائبة
ان عشت أو مت أعضائى توحده

وقال ارتجالا فى لهفته على لقاء ربه :

أنا لو أشرب البحار جميعا
لم أزل فى محبتى ظمآنا
لست أروى الا بلقياك يارب
فهذا اللقاء أسمى رجانا
نتنادى الى اليقين هلموا
وبهذا لربنا نتدانى

كما قال :

أرواحنا قال فيها الحق من قدم
هاهم رجالى وان المقصد الله
لا أنثنى عن هواه لحظة أبدا
وكيف أسلو وقلبى بيت تقواه
هجرت كل مرام غير رحمته
فانها حسناتى يوم القاه

وقال :

شهدت روحى حمياه وقد
لاح لى نور المحيا واتصل
ان عيدى يوم القاه فما
لى عيد غير وجه الله جل
ليس عندى أى مال انما
كل مالى ميه علم وعمل
وحياة قد خلا سلطانها
من تقى الله قصاراها الفشل
ليس من ورث عرشا ملكا
أو على الملك تفانى واتكل
انما الملك الذى حد الهوى
وعن اللهو تناءى وعدل

ويفرق رضى الله عنه بين أهل الغفلة وأهل الحضور فيقول ارتجالا:

وغفلة قلب المرء بعد وحسرة
فما نال عقبى ربه غافل القلب
لقد ذل فى يوم القيامة غافل
تأخر فى يوم الجهاد عن الركب
ونحن أولو علم ولكن بوجدنا
شربنا من الانوار ما ليس بالشرب

ويشجعنا رضى الله عنه على الاكثار من ذكر الله تعالى فيقول :

ان يذكر الرحمن فى دار امرىء
حل الهناء بها ونعم الدار
والليل بين سواده وسكونه
بالذكر تكشف ستره الانوار
لا تسأموا من حبه لا تسأموا
من ذكره فهنا العطاء يدار
قومى اطمئنوا فى الحياة بربكم
فبذكره تتنعم الأبرار
ان تنصروا الرحمن ينصركم وما
خابت رجال هم له أنصار

ويقول حاضا على مراعاة الأخلاص فى الذكر :

لا تذكر البارى بقصد ولاية
أو أن تكون على السما لا تنطفى
اذكر لوجه الله جل جلاله
من رام غير جنابه لم يشرف
واذا اقتديت فبالكتاب لك الهدى
حافظ على آياته بتلهف
وانهض بروحك نهضة قدسية
ولسنة المختار فى السير أقتف

ولا تعجب أن تكون تلك حاله فانه تربى فى الطريقة الخليلية المباركة على يد سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الطوانى رضى الله عنه ، وهو الرجل الكامل الذى رباه صاحب الطريقة سيدى الغوث الحاج محمد أبو خليل ساكن ضريحه الأنور الملحق بمسجده الكبير بالزقازيق ، وهو الامام المربى الذى وصفه تلميذه فضيلة المرحوم الشيخ عبد البارى الشرقاوى (كان رحمه الله من علماء الازهر الاجلاء) فقال فى وصفه :

كان ملكا فلم يزل يترقى
فى المعالى حتى غدا ملكوتا

ان هــــذا هــــو الخليــل فقبــــــل
تــرب أرض مشي عليهــــا خفــــــوتا
مــن يشــــاهده شــــاهد الافــق الاعلى
وألــــفى جــــــلاله المنعوتــــــــا

الا رضى الله عن شيوخنا الاجلاء الذين أخذوا بأيدينا فى طــريق الآخرة حسبة لوجهــه تعالى ، فأيقظونا بالذكر من غفلتنا وسقونا من شرابهــم الطهــور مشربا هنيئــا ســائغا للشــاربين ، ذلك الشراب الذى قال فيه ارتجالا بالهامه الفياض سيدى الشيخ على عقــل طيب الله ثـــراه •

شراب الحب يعـــــــرف بالمــــــذاق
ومــــا كل الســــقاة لــــه بســــــاقى
دعــــــاة الحب أكثـــــر ما تـــــلاقى
وقــل الصــــــادقون فمــــا تــــلاقى
ألا يا ســـــــاقى العشـــاق مهـــــلا
تعــال امــــلأ كؤوســك مــن حقــاقى
تــركت جميــع خلــــق اللـــه دونـــى
شــغلت عــن الخــــلائق باشتيــــــاقى
وكيف أحب غيـــــــر اللــــه يومــــــا
وليس ســــــواه فى الاكــــوان بــاقى
ومن عــــرف المحبــــة عــن يقــــين
محــــــال أن يمـــيل الى فــــــراق

اللهم اجعلنا يا مولانا فى عبادك الصالحين الذين قلت فيهم (يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم)•

خصال صوفيّة

« وقد نظرنا اليك نظرة المتأمل فيك فاذا لك آداب وانتساب وشيم وشمم ، وطهر وكرم ، لا تنظر الى برك ، بل تقصد به وجه الله ، لانك مملوء بحبه تعالى » .

جاءت تلك الكلمات فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح التقى المبارك الصديق الراحل المرحوم السيد / سالم جمعة ، أوسع الله له فى رضوانه ، وهى شهادة قيمة من الشيخ فى تلميذه الموفق ، ولاشك أن الشيخ يسره أن يرى فى مسلك تلاميذه ثمرة تربيته طيبة يانعة ، فانه يرشدهم فى طريق الله ويربيهم فى جنبه سبحانه ابتغاء وجه الله ، والله تعالى لا يضيع عمل عامل أخلص دينه لله .

وقد فارقنا قريبا الى دار القرار ذلك الصديق التقى النقى السيد / سالم جمعة ، وورى فى قبره يوم الجمعة الأول من شهر رمضان الفائت ، وقد أيد الله بآياته شهادة الشيخ المتقدمة ، فاختار السيد/ سالم الى جواره الكريم فى ليلة مباركة هى ليلة الجمعة ، ودفن فى يوم مبارك هو يوم الجمعة ، وفى شهر مبارك هو شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وانا لله وانا اليه راجعون وسبحان الحى الذى لا يموت .

ولا تعجب أن يكشف الشيخ للمريد ما رآه فيه من خصال الخير ، فانه لا يكشفها له الا ان أمن عدم افتتانه بها ، وربما كشفها له ليزداد استمساكا بها ويسأل الله دوامها ، لانها من خصال السادة الصوفية الاتقياء الذين يتحلون بالفضائل ، ويتخلون عن الرذائل ويسعون الى مرضاة الله ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وها هو ذا الامام جلال الدين الرومى يصف تلميذه المقرب اليه سيدى حسن حسام الدين فى مقدمة

كتابه الشهير « المثنوى » وقد كتبها الامام باللغة العربية بنفسه وقال فيها عن تلميذه المبارك :

« .. لاستدعاء سيدى وسندى ومعتمدى ومكان الروح من جسدى، وذخيرة يومى وغدى ، وهو الشيخ قدوة العارفين ، وامام أهل الهدى واليقين ، مغيث الورى ، أمين القلوب والنهى ، وديعة الله بين خليقته، وصفوته فى بريته ، مفتاح خزائن العرش ، أمين كنوز العرش ، أبو الفضائل ، حسام الحق والدين حسن بن محمد بن الحسن المعروف بابن أبى ترك ، ابو يزيد الوقت ، جنيد الزمان ، صديق ابن صديق ابن الصديق رضى الله عنه » .

وقد كنت أكتب مقالى هذا قبل وفاة الصديق العزيز الراحل السيد/ سالم جمعة ، رحمه الله رحمة واسعة ، وكنت أخشى أن يضايقه نشر شهادة شيخه فيه ، لانه طيب الله ثراه كان يحب أن يكون مخبوءا فى فضله وبره ، كما هو شأن كملة الرجال الصادقين ، وشاء الله أن يتوفاه الله قبل أن ينشر المقال فنشرته فى اطمئنان ابرازا للمثل العليا التى نراها فى مسالك العارفين من السادة الصوفية .

أما الانتساب الذى ورد فى عبارة سيدى الشيخ فهو انتساب الصديق الراحل الى الدوحة النبوية الشريفة ، وحدث عن السادة الاشراف فى سمو مناقبهم ولا حرج ، فهم مطهرون عنصرا وطوية ، وهم أهل المكارم، واصحاب الفضائل ، وقد سبقت لهم من الله الحسنى ، فالزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، وهم ودائع الله بين خليقته وصفوته فى بنى البشر ، وكفاهم شرفا أن يقول الله تعالى فيهم (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) وقد استعارت الآية للذنوب كلمة الرجس ، واستعارت للطاعات كلمة التطهير ، واذا أراد الله أمرا ساق أسبابه لانه تعالى فعال لما يريد .

وقد كان المرحوم السيد / سالم من أهل السعة فى المال ولكنه لم يبخل بما آتاه الله بل عطف على الفقراء والمساكين ومد بعونه البؤساء المتعففين ، وهنيئا له ما قدمت يداه ، والى روح وريحان وجنة نعيم . ويرضى الله عن سيدى الشيخ العارف أحمد الحلوانى (والد سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه) اذ يقول فى قصيدته الحلواء فى مدح بنى الزهراء :

بنفسى أفدى الزهـر من بضعة الزهـرا
وان هم رضوا نفسى فقـد عظمت قـدرا
هم الدين والدنيـا لعمـرى همو همو
فقـل فيهمـو مـا شئت لاترهبن نـكرا
وعـال بهـم من شئت ان ذكـروا العـلا
وفاخر بهم مـن شئت ان ذكروا الفخـرا
بدور سـمت عـن شمس أكـرم مرسـل
أناروا ديـاجى الـكون بانطلعـة الغـرا
وبالبـر والتقـوى وبالحـلم والنـدى
وبالعـلم والفتـوى وبالذكـر والذكـرى

والبر الذى ورد فى عبارة سيدى الشيخ عبد السلام ليس وقفـا على الصـدقات بل هو أعم ، ودليـل ذلك من كتاب الله الكريم قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقـام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) •

ويقول الامام البيضاوى رضى الله عنه فى تفسيره : ان البر هـو التوسع فى الخير من البر وهو الفضاء الواسع يتناول كل خير ، ولذلك قيل البر ثلاثة : بر فى عبادة الله تعالى ، وبر فى مراعاة الاقارب ، وبر فى معاملة الاجانب • وقال أيضا أن الآية كما نرى جـامعة للـكمالات الانسانية بأسرها دالة عليها صريحا أو ضمنـا بكثرتها وتشعبهـا منحصرة فى ثلاثة أشياء ، صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة ، وتهذيب النفس ، وقد أشير الى الأول بقوله (من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) والى الثانى بقوله (وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب) والى الثالث بقوله (وأقام الصلاة وآتى الـزكاة والموفون بعهـدهم اذا عاهـدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس) ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظرا الى ايمانه واعتقاده ، وبالتقوى اعتبارا بمعاشرتـه

للخلق ومعاملته مع الحق ، واليه أشار عليه الصلاة والسلام بقـــوله : « من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان » .

وأهل البر — بهذا المفهوم — الذين يقصدون ببرهم وجه الله تعالى ويخلصون له النية فى عباداتهم ومعاملاتهم هم أهل محبة الله سبحانه كما يعلمنا سيدى الشيخ عبد السلام فى عبارته التى وردت فى صـــدر المقال ، واذا أردت أن تقف على تفصيل مسلكهم وتعرف كيف يحسن المريد اسلامه ويكسب محبة الله تعالى فاقرأ ما يقول سيدى الامام أبو طالب المكى رضى الله عنه :

« يكون محبا للخير وأهله ، مجانبا للشر وأهله ، مسارعا الى ما ندب اليه أو أمر به اذا قدر عليه ، حزينا على ما فات من ذلك اذا أعجزه ، تاركا لما يعنيه من الاقوال والافعال ، بريئا من التكلف ، وهو اجتناب مالم يؤمر به ولم يندب اليه من ترك وفعل مصليا للخمس فى جماعة ، مجتنبا للغيبة ولذكر الناس ، يحب للكافة ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ، مسارعا الى الخيرات ، مسابقا الى أعمال البر والقربات، طويل الصمت ، لين الجانب ذليلا للمؤمنين ، عزيزا على المتـــكبرين ، لا يمارى فى الباطل ولا يداهن فى الدين ، ولا يبغض على شىء من الحق وان كان عليه أو من أبعد الناس منه ، ولا يحب على شىء من الباطل وان كان له أو من أقرب الناس اليه ، كارها للمدح ممن يحبه ، قابلا للنصح ممن يبغضه ، صدوقا فيما يضره ، سريرته أفضل من علانيته ، محتملا لأذى الخلق ، صابرا على بلائهم ، منفردا بحاله عنهم » .

وفى تعقيبه على الآية الـــكريمة (ثم جعلناك على شريعة من الأمـــر فاتبعها) يقول رضى الله عنه :

« الشريعة اسم من أسماء الطريق ، وللطريق أســـماء كثيرة منها : الصراط المستقيم ، والسبيل ، والمنهاج ، والمحجة ، والمنسك ، والشريعة تشتمل على اثنتى عشرة خصلة هى جامعة لأوصاف الايمـــان : فـــأول ذلك الشهادتان وهى الفطرة ، والصلوات الخمس وهى الملة ، والزكاة وهى الطهرة ، والصيام وهو الجنة (بضم الجيم) ، والحج وهو الكمال، والجهاد وهو النصر ، والأمر بالمعروف وهو الحجة ، والنهى عن المنكر وهو الوقاية ، والجماعة وهى الالفة ، والاستقامة وهى العصمة ، وأكل

الحلال وهو الورع ، والحب والبغض فى الله وهو الوثيقة ، فلا يكون المسلم معتقدا لبدعة ، ولا مقيما على كبيرة ، ولا آكل الحرام ، ولاطاعنا على صالح السلف ، ويكون كاف اللسان واليد عن أعراض المسلمين وأموالهم ، ويكن ناصحا لجميع المسلمين،مشفقا عليهم ، يسره مايسرهم، ويسوءه ما يسوءهم سيما لائمتهم ، داعيا لجملتهم ، ويكون مخلصا لأعماله كلها لله تعالى » •

ومن أرفع آداب المسلم أن يكون رحيما بالمسلمين • وفى قوله تعالى فى الصحابة (رحماء بينهم) يقول ابن عباس رضى الله عنه وعنهم أجمعين يعنى متوادين بينهم ، يدعو صالحهم لطالحهم وطالحهم لصالحهم ، اذا نظر الطالح الى الصالح قال : اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير ، وثبته عليه ، وانفعنا به ، واذا نظر الصالح الى الطالح قال : اللهم اهده وتب عليه واغفر له ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : هذه الآية من حلالكم وحرامكم وفى الحديث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن منع حظه من الرفق منع حظه من الدنيا والآخرة » •

وبر الفقراء والاحسان اليهم من أعظم أبواب البر ، وفى الحديث الشريف : سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم القيامة يوم لا ظل الا ظله أحدهم : « رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله ما أعطت يمينه »، وهذا من المبالغة فى الوصف يدل على مجاوزة الحد فى الاخفاء فيخفى عن نفسه فكيف لا يخفى عن غيره ، وهذا الاخفاء الشديد يدل على أنه قصد بعطائه وجه الله تعالى الذى يعلم السر وأخفى •

ويقول سيدى أبو طالب المكى رضى الله عنه : فاذا لم يمكنك على الحقيقة ان تخفى صدقتك عن نفسك ، فاخف نفسك فيها حتى لا يعلم الفقير انك المعطى ، وهذا مقام فى الاخلاص فان أظهرت يدك فى الاعطاء فاخفها سرا الى الفقير ، هذا حال الصادق ، فقد كان بعض المخلصين يصر الدرهم فى ثوب الفقير وهو نائم فلا يعلم من الذى صره ، وبعضهم كان يوصل الى الفقير على يد غيره ويستكتمه شأنه •

ويبين لنا سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه كيف يكون المؤمن بارا بماله وجهاد نفسه فيما قاله ارتجالا ومنه :

كل شيء يـــزول عنـــد الممـــات
غــير حـــب الالـــه والصـــدقات
فــاذا مت لـــم يـكن غير مـا قـــد
متـــه صـــالحا قبيل الوفـــاة
نتـــرك المـــال للوريث ولـــكن
تؤنس القبـــر تركة الصـــالحات
خـــل عنـــك الدنيـــا ان من خـدمتهم
خـــدعتهم والـــذنب للخـــدمات
وتنـــادى العبـــاد فى كـل يـــوم
احـــذرونى وجانبـــوا غـــدراتى
ان مـــن يفقـــه الحقيقـــة يـدرى
انهـــا دار دعـــوة وصـــلاة
كان فيهـــا وقلبـــه ليس فيهـــا
انمـــا كـان كاســـب الاوقـــات
ذاكـــرا شـــاكرا مقـــدم بـــر
ســـاهرا جانحـــا عـــن الشـــهوات
مســـتدرا فيض الالـــه عليـــه
مســـتقيما مـــلازم الحســـنات
قائمـــا فى عبـادة اللـه يقظـان
قـــوى الفـــؤاد أهـــل ثبـــات
ذلك الحـــى فى الرجـــال عليـــه
يـــوم ان مـــات اعظم الرحمـــات
انـــا مـــازلت فى ديـــار التجـــلى
صـــادق العـــزم صـــادق القربات
ســـاعيا فى الهـــدى أوحـــد ربـــى
اينمـــا كنـــت شـــأن كل السعـــاة

ويقول السادة العارفون : اذا دعا لك مسكين عند الصدقة فأردد عليه مثل دعائه حتى يكون ذلك جزاء لدعائه ويخلص لك أجر صدقتك، والا كان دعاؤه مكافأة على معروفك • وقد كانت السيدتان عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما اذا ارسلتا معروفا الى فقير قالتا لرسولهما احفظ ما يدعو به ، ثم يردان عليه مثل قوله ويقـولان : حتى تخلص لنا صدقتنا ، وفعل ذلك سيدنا عمر وابنه سيدنا عبد الله رضى اللـه عنهمـا •

وينبغى للمتصدق أن يجعل صدقته من أطيب ماله ، فان اللـه طيب لا يقبل الا طيبا ، وينبغى له ان يستصغر ما يعطى ، فان استكثارمايعطى من العجب ، والعجب يحبط الأعمال ، ويقول السادة الصوفية ان الطاعة كلما استصغرتها كبرت عند الله تعالى ، وان المعصية كلما استعظمتها صغرت عند الله تعالى • كمـا يقولون : لا يتم المعروف الا بثلاث : تصغيره وتعجيله وستره •

وقد وصف الله تعالى أهل الحاجة من الفقراء بأوصاف خمسـة فى القرآن الكريم فقال سبحانه (وفى أموالهم حق للسائل والمحـروم) وقال تعالى (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر) وقال تعالى (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) أما السائل فهو الذى يسأل بلسانه ، وأما المحروم فهو المضيق عليه فى رزقه ، وأما القانع فهو الذى يقعد فى بيته ويقنع بما يسوق الله اليه من غير طلب ، وأما المعتر فهـو الذى تحمله الحاجة على التعريض فى سؤاله ويمنعه الحياء من التصريح •

وفى الحديث الشريف : « ليس المسكين الذى ترده الكسرة والكسرتان والتمرة والتمرتان ، انما المسكين الذى لا يسأل الناس ولا يفطن لـه فيتصدق عليه » • وقد كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى الفقير على قدر العيلة ، فيعطى المتأهل ضعف ما يعطى للأعزب، ويعطى الرجل على قدر أهل بيته الذين هم فى كنفه • وقد سئل سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن جهد البلاء ما هو ؟ فقال : كثـرة العيال وقلة المـال •

وقد كان بعض العارفين يؤثر بعطائه فقراء الصوفية عن غيرهم فقيل له : لو عممت بمعروفك جميع الفقراء ، فقال: لا أفعل بل أوثر هؤلاء على

غيرهم ، قيل له : ولم ذلك ؟ قال : لأن هؤلاء هممهم الله سبحانه وتعالى فاذا طرقتهم فاقة تشتت هم أحدهم ، فلان أرد همة واحد الى الله تعالى أحب الى من أن أعطى الفا من غيرهم ممن همه الدنيا • فذكروا كلامه هذا للامام أبى القاسم الجنيد رضى الله عنه فاستحسنه وقال : هذا كلام ولى من أولياء الله تعالى ثم قال : ماسمعت منذ زمن كلاما أحسن من هـذا •

أما سيدى عبد الله بن المبارك رضى الله عنه فكان يجعل معروفـة فى أهل العلم خاصة ، فقيل له : لو عممت به غيرهم ، فقال : انى لاأعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء ، فاذا اشتغل قلب العالم بالحاجة أو العيلة لم يتفرغ للعلم ولا يقبل على تعليم النـاس ، فرأيت ان أعينهم واكفيهم حاجاتهم لتتفرغ قلوبهم للعلم وينشطوا لتعليم الناس• وصدق سيدى ابن المبارك فيما ذهب اليه فان امامنا الشافعى رضى الله عنه وأرضاه قال : لو كلفت بصلة ما فهمت مسألة فى العلم •

والمتيسر من السادة الصوفية يستبشر اذا قبل العارف الفقير عطاءه، لان ذلك علامة القبول من الله تعالى وليس قبوله كقبول غيره ولا رده كرد غيره وذلك لحسن معرفته وقوة صلته بالله تعالى ، وقد قال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا وابصة الصحـابى رضى الله عنه : « استفت قلبك وان أفتاك المفتون » والعارفون بالله يستفتـون قلوبهم فى القبول والرد فاذا انشرحت صدورهم للقبول قبلوا العطـاء واذا انقبضت ردوا العطاء على صاحبه •

وقد كان أسلافنا الصالحون يدفعون فى فريضة الزكاة المئات ويدفعون فى صدقة التطوع الآلاف ، وكانوا يصلون الفقير بما يخرجه عن حـد الحاجة والضر ويغنيه ويكفيه • وكانوا يضعون الزكاة فى يد الاحوج فالأحوج ، والأفضل فالأفضل ، من أهل العلم بالله تعالى ، وأهل الطاعة العاكفين على مرضاة ربهم فى همة وصدق ممن قال تعالى فى وصـفهم (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا وما تنفقوا من خير فان الله به عليم) •

ويقول السادة الصوفية : ان أفضل الاعمال العطف على اهل الضعف وهم يستندون فى ذلك الى الحديث الشريف : سئل النبى صلى الله عليه وسلم • أى الاعمال أفضل فقال « ان تغيث ملهوفا أو تنصر أخا لك • كما قال صلى الله عيه وسلم :

« الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله » •

وقال أيضا صلوات الله وسلامه عليه : « الخلق عيال الله فأحب الخلق اليه أنفعهم لعياله » •

وأولى الناس ببر المؤمن أبواه ثم الأدنى فالأدنى ، ويبين ذلك جليا من الحديث الشريف • فقد روى حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله ، من أبر ؟ قال : أمك ثلاثا ثم قلت ، ثم من ؟ قال : أباك قلت ، ثم من ؟ قال : ادناك ادناك ، وفيه « وأختك واخاك » وروى عنه صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء اثما أن يضيع من يعول » • وقال رجل : يا رسول الله ، عندى دينار ، قال : أنفقه على نفسك ، قال عندى آخر ، قال : أنفقه على أهلك ، قال عندى آخر حتى عد الخامس، قال : شأنك به ، وقال : خير الصدقة ماكانت عن ظهر غنى وما أبقت غنى، وأبدأ بمن تعول » • ويؤيد كذلك قوله تعالى (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم) •

أما امتلاء القلب من محبة الله تعالى وهو ما أشار اليه سيدى الشيخ عبد السلام فى آخر عبارته ، فلا يتم للمؤمن الا اذا أخلى قلبه من ذكر كل قاطع عن الله فزال عنه كل حاجب يحجبه عنه ، فتم بالله سروره ، وصفا ذكر الله فى قلبه ، ودام بالله شغله وطال اليه حنيفة :أنس به واستوحش مما سواه • وقد سمع سيدى ذو النون المصرى برجل صالح يتعبد فى جبل المقطم فذهب اليه وبقى عنده ثلاث ليال ثم طلب اليه دعوة صالحة قبل أن يفارقه فقال : آنسك الله بقربه ، قال سيدى ذو النون : زدنى ، فقال : من آنسه الله بقربه أعطاه أربعا بغير أربع ، علما بغير طلب ، وغنى بغير مال ، وعزا بغير عشيرة ، وأنسا بغير جماعة •

والحق أن الصديق الصالح المرحوم السيد / سالم جمعة كان موفقا فى ذكر الله وشكره وحسن عبادته كما هو شـــأن السادة الكرام من آل البيت الاخيار • ولقد أجريت له من نحو عامين عملية جراحيـــة كبيرة بالمستشفى فذهبت لزيارته وصحبت معى صديقى الاستاذ محمد جـــاد الرب المفتش السابق بوزارة التربية وقلت له : أؤكد لك أننا حين ندخل على السيد / سالم سنجد فى يده المسبحة على الرغم من جراحته لانه دائم الشوق لربه ، وماكدنا ندخل الغرفة حتى رأى بعينه صدق ما قلته له قبل الدخول ، وعندما تمت الزيارة وخرجنا قال لى الاســـتاذ جاد الرب : انى غرت من نشاط هذا الرجل الصالح • وقد استأثرت رحمة الله بالصديق الوفى الاستاذ محمد جاد الرب وكان شاعرا مجيدا فرحم الله الصديقين وطيب ثراهما وسبحان الحى الذى لا يموت •

اللهم ارزقنا الهمة فى مرضاتك واجعلنا بفضلك من أهل الفتوة فى محبتك الذين قلت فيهم (انهم فتيـــة آمنوا بربهم وزدناهم هـــدى)• آمـــين •• (١)

---

(١) استدراك :
وقع خطأ سهوا فى ص ٤٦ بالسطر ٢٣ فى الآية « فما اوتيتم . . . » وصحته « وما أوتيتم . . . » .

فهرس الكتاب

صفحة

رقم الإيداع ٣٩٠١/ ١٩٩٢

شركة الإعلانات الشرقية / مطابع دار الجمهورية للصحافة

شركة الإعلانات الشرقية / مطابع دار الجمهورية للصحافة